المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

العدد 52 ـ 1416هـ ـ 1995م

تصدر عن

الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب

بغداد

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

تصدر عن الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب/ بغداد

العدد 52 ـ 1416هـ ـ 1995م

بطاقة الاشتراكات

مجلة المؤرخ العربي ـ العنوان
الدكتورة رناد الخطيب عياد
مديرة التحرير
ص. ب ٩٢٢٠٩٤/١١١٩٢
عمّان ـ الأردن

قيمة الاشتراك للاقطار العربية
٥٠ دولاراً للمؤسسات الرسمية
٢٥ دولاراً للمؤرخين وطلبة معاهد التاريخ

للاقطار الأخرى
١٥٠ دولاراً
٥٠ دولاراً

هاتف: ٦٦٢٨٢٨/٩٦٢٦
فاكس: ٦٧٦٦٥/٩٦٢٦

ارجو قبول اشتراكي في مجلتكم لمدة سنة واحدة

الاسم: ....

العنوان: ....

المدينة: ....

القطر: ....

التاريخ: ....

ايرجى ارسال قائمة بالحساب وتجدون طياً صكاً بقيمة ....

Subscription card

Please enter my subscription for

Address:

Dr. Rinad Ayyad

Arab Historians Union Culture Attache

Tel. 662828. Fax. 677665. P.O.Box 922094. Amman-Jordan

One year $ 150 for institutions
$ 50 for Historians & Students of History
Please Bill me

Check enclosed for ....

Name ....

Address .... Country ....

City ....

Date ....

هيئة التحرير

شروط نشر البحوث في المجلة

١ - أن يعتمد البحث الأسس العلمية في إعداد وكتابة البحث.
٢ - أن يكون منسجماً مع أهداف اتحاد المؤرخين العرب.
٣ - أن لا يزيد عدد صفحاته عن (٥٠) صفحة.
٤ - أن لا يكون قد سبق نشره أو قبل للنشر في مجلة أخرى، على أن يقدم كاتب البحث تعهداً يؤكد ذلك مرفقاً برسالة مع البحث موجهة إلى مدير التحرير.
٥ - تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية، وباللغتين العربية والانجليزية.
٦ - يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة، ويفضل أن يكون مختصراً، ويثبت اسم الباحث أو أسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم.
٧ - يطبع البحث على وجه واحد من الورقة، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص، ويقدم نسختين.
٨ - بالنسبة للبحوث المقدمة إلى المؤتمرات أو الندوات أو ما كان مستقلاً من رسالة أشرف عليها مقدم البحث فيشار إلى ذلك في حاشية البحث.
٩ - لأمور فنية خاصة بالطباعة يجب أن توحّد الهوامش بالبحث من أول هامش في البحث إلى آخر هامش فيه، وتعطى تسلسلاً واحداً.
١٠ - يحال البحث المقدم للنشر إلى خبير مختص ويُعاد إلى كاتبه لإجراء التعديلات المقترحة إن وجدت على أن يُعاد إلى مدير التحرير في غضون خمسة أيام.
١١ - رُتبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبّر عن آراء أصحابها مع التأكيد على أن مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى.
١٢ - والبحوث التي ترد للمجلة لا تعاد إلى أصحابها في حالة عدم نشرها.
١٣ - يرجى تدوين اسم الباحث وعنوانه، وعنوان بحثه باللغة الانجليزية.

ترسل البحوث باسم رئاسة التحرير
ص. ب: (٤٠٨٥) بغداد - جمهورية العراق
مجلة المؤرخ العربي - اتحاد المؤرخين العرب

الاشتراكات السنوية في مجلة المؤرخ العربي

١ - الدوائر الرسمية وشبه الرسمية في داخل المقر (٥٠) ديناراً، وفي خارج دولة المقر (١٥) دولاراً أمريكياً.
٢ - للمؤرخين في داخل دولة المقر (٢٠) ديناراً، وفي خارج دولة المقر (١٥) دولاراً أمريكياً.
٣ - لطلبة التاريخ في داخل دولة المقر (١٠) دنانير، وفي خارج دولة المقر (١٠) دولارات أمريكية.

الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي

المحتويات

عروض الكتب والرسائل الجامعية

السيرة العلمية لمؤرخين عرب

افتتاحية العدد

إن التعرجات التي أصابت التاريخ العربي الإسلامي المتمثلة بالحدث التاريخي الانقلابي أثرت على البنى الاجتماعية والثقافية لأركان المجتمع العربي والمسلم، مما أعطى مساحة رحبة للصراع المختفي في ثنايا هذه المجتمعات لكي يبرز ويدقّ بعنف على هذا الجسد، فالتعرجات والاختناقات التي أصابت الأمة وتصيبها عبر سيرتها التاريخية كانت مصدر انفلاتها نحو العظمة والعلياء مصداقاً لقوله تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس».

إننا ندرك كمؤرخين ان الإسلام جوهر الإنسانية وندرك أن عصرنا الحالي بأمسّ الحاجة إليه، فالمنظور الأخلاقي العالمي تقزم أمام مصالح الأمة، بعد أن أصبح العالم يعيش ضمن مساحات تتقلّص باستمرار فأصبح من السهل النفاذ منها وبخاصة في ظل القدرات التكنولوجية المتنامية والاتصالات الآنيّة التي تختزل الزمن. إن قسوة الإنسان على أخيه الإنسان ليست من اختراع هذا العصر إنها قديمة قدم الإنسان نفسه، حتى جاءت الديانات لتحدّ وتهذب وحتى تقتلع من النفوس نزعة الشر، والإسلام بعروبته جدّد وجدّ من احساس الإنسان العربي بإنسانيّته، فحمل رسالته الإنسانية إلى الأقوام والشعوب كافة، ينذرهم ويثقفهم، فحقق للعرب، وحدة سياسية واجتماعية واقتصادية وكذا للشعوب التي انضوت تحت رايته، فالتوجه الأخلاقي نحو رفاه البشرية صفة لازمت الإسلام وجعلت منه ديانة لأمة يبلغ تعدادها ربع سكان الكرة الأرضية، يحملون في وجدانهم عروبة الإسلام. لقد اعطت التطورات التاريخية للأمتين العربية والإسلامية دفعة نحو التفتت والتشتت السياسي فعرضها ذلك إلى إمكانيات الفناء، والحاجة كبيرة وعظيمة بين هذه الكيانات للتوصل إلى معايير جديدة، وقيم مشتركة، فالإسلام صهر النزوع القومي والقبلي وشكل وحدة اجتماعية متماسكة لها مقوماتها العربية والإسلامية، فالخروج العربي - من جزيرتهم تحت راية الإسلام - مدّ جسوراً للتواصل والانصهار في وحدة اجتماعية جديدة تحت راية الدولة العربية والإسلامية، وقد حفظ القرآن الكريم للأمة كيانها في جميع الصراعات التي عاشتها واستهدفت كيانها وهويتها. إن الوجدان العربي الإسلامي يعج بالقهر بعد أن شرب من كاس الاستقلال عن عروبة الإسلام.

إن الأسباب التاريخية لكل ذلك واضحة، وعلينا في اتحاد المؤرخين العرب الدعوة والمطالبة بتحقيق الحد الأدنى من اتفاق عربي عربي وعربي إسلامي، فالقيم المتشابكة قادرة على ايجاد قواسم مشتركة، بل إنها قادرة على تشكيل وحدة، فالاحساس بيننا والذي يبدو أنه اضمحل يمكن إيقاظه من جديد، إننا بلا ريب أحوج ما نكون في هذا العصر إلى الإيمان الصادق بالإسلام لانتشال الأمة من المأزوم الذي آلت إليه ومن المتاهة التي وضعت بها بسبب تعرج تاريخها واستنكارها لتاريخها لكننا في اتحاد المؤرخين العرب سنبقى الأوفياء لتاريخ الأمة انطلاقاً من حسّنا بمكانة وقوّة الإسلام في لمّ الشمل، وهذا الأمر يستدعي خطوة خطوة، فالحالة العامة يجب أن لا تثبط من عزيمة أحد، بل يجب أن نقبل بها على اعتبارها تحدياً للروح العربية الخالدة مصداقاً لقوله تعالى «وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون» صدق الله العلي العظيم.

مصطفى النجار

أمين عام اتحاد المؤرخين العرب

بحوث التاريخ
الحديث والمعاصر

الوطن العربي مهد الحضارات

د. رناد الخطيب عياد
المستشارة الثقافية لاتحاد المؤرخين العرب

ستبقى قصة هابيل وقابيل ماثلة للعيان لكل من أراد البحث في الحضارة الإنسانية ووجودها فمنذ أن وجدت الانسانية على الأرض حملت معها بذور الصراع. وقد شكلت الكتب المقدسة مصدراً هاماً للباحثين في تكوين الحضارات، وبخاصة في المنطقة العربية الوسطى فاظهرت لنا الملامح العامة للبعد الجغرافي لمنطقة قلب الوطن العربي كمهد للحضارة وبناء للصرح الإنساني العالمي. فمن هذه الأرض خرجت المبادئ السامية وانتشرت المثل الانسانية التي ما زالت وستبقى قدوة البشرية والانسانية، فالمجال الروحي للعالم كان عربياً بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى، فكانت هذه الأرض مهداً للديانات، ومركزاً للثقل الحضاري على طول مساحة التاريخ، لذلك عاشت ردحاً من الصراعات كونها تشكل المهوى لأفئدة البشر مهما علا شأنهم الحضاري، ومكان اغراء لكل القادة العالميين. فلم تمر حقبة تاريخية إلا وشهدت هذه المنطقة صراعاً؛ فالصراع صراع وجود لا صراع حدود. فللمنطقة أهمية وانعكاس على الواقع العالمي وحركة التاريخ لم تتوقف ولن تتوقف، لذلك كانت هذه المنطقة مسرحاً للصراعات العالمية، وإن كانت لم تُغزَ اقتصادياً، إلا أن الطابع الروحي أذكى روح الصراع فيها، وجعلها مطلوبة من كل أطراف الحضارات العالمية.

البعد العربي في الصراع الحضاري

نجد الواقع الحضاري في هذه المنطقة واقعاً متميزاً بسبب تداخل الحضارات وتموجها وتقلبها وكذلك تزاوجها وصهرها، غير أن كل ذلك لم يغير من وجهها العربي ولم يمح عنها هويتها فبقيت الهوية العربية متجذرة فيها منذ أن بدأ الرشح العربي من جزيرة العرب قبل آلاف السنين، فالمد العربي كان قبل الإسلام وإن كان الإسلام قد جذر الهوية العربية واوقع الكثيرين من المؤرخين في اعتبار التاريخ الإسلامي بداية للتاريخ العربي فإشكالية الكتابة التاريخية لمن كتب عن المنطقة اوقعت البعض في النظرة الدينية، كون الصراع في تلك الحقبة كان صراعاً دينياً ولد لدينا شعوراً بأن الدين أساس للمراحل التاريخية، لذلك أطلق الكثيرون على تلك الفترات اسم العصر المسيحي، والعصر الإسلامي أو العهد المسيحي أو العهد الإسلامي، واستطاعت اليهودية أن تنفذ من تلك التسميات لكي توشح منطقة بلاد الشام وبخاصة فلسطين بالعصر اليهودي، وتواصل الادعاء حتى عصرنا الحاضر. وأقول جازمة إن عصر الكنيسة يكاد يكون بداية الصراع الديني في المنطقة ومحاولة تهويدها أو تنصيرها حتى ظهر العرب بديانتهم الإسلامية الشابة كقوة تملك المقومات الروحية والتماهي مع الديانات التي سبقتها ولكونها خاتمة الديانات، وإن ولم تنكر ما سبقها، مما جعل جذوة الحماس اكثر، والاقتناع أشد، وإن تكن البدايات قد حصرت بالجزيرة العربية.

إن انتشار المفهوم الداعي «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» على الرغم من المحاولات الناجحة نوعاً ما لليهودية والمسيحية لتأسيس امبراطوريات وبخاصة في جنوب الجزيرة العربية، جعل ظهور الإسلام في الحجاز فاتحة عهد جديد في المنطقة العربية وقد كنا لا نعرف الكثير عن تاريخ تلك البقعة الجغرافية التي تعد منبع العرب التي خرجوا منها إلى أقطار العالم حتى كشفت التنقيبات الأثرية في الجزيرة العربية واثبتت وأوضحت أموراً هامة لم تكن معروفة، كالأمور المتعلقة بتجارة الخليج العربي وخليج عمان وجنوب الجزيرة. وفي العراق تم اكتشاف نقش يرجع إلى أيام أور نانشه ملك لاغاش يعود إلى عام (٢٥٢٠ ق.م) يشير إلى أن سفن دلمون

(البحرين) حملت إليه أخشاباً. كما أظهرت حفريات قلعة البحرين أن حضارة قامت هناك بين (٣٠٠٠ - ٣٠٠ ق.م) وكذلك كشفت الآثار عن حضارة في عُمان امتدت إلى القرن الثالث (ق.م) وأنها كانت تصدر النحاس إلى سومر.

كما بينت علاقات تجارية مع بلاد العرب الجنوبية منذ القرن الخامس عشر الميلادي ولا ننسى حضارة اليمن وموانئها ومدنها الداخلية حيث كانت مراكز لتجميع السلع الهندية والافريقية تمهيداً لنقلها إلى حوض البحر الأبيض المتوسط - منطقة سوريا فكانت الطيوب والبهارات والأقمشة ومختلف البضائع تنقل براً عبر نجران ومكة إلى البتراء وغزة ومن هاتين المدينتين توزع إلى سوريا الداخلية (دمشق) وموانئ البحر المتوسط ومن ثم إلى أوروبا. فالطريق البري (اليمن - الحجاز - الأردن) كان الأكثر استعمالاً، وعلى الرغم من وجود الامبراطوريات على أطراف الجزيرة العربية إلا أن العرب حافظوا على احتكارهم ووجودهم في تلك المرحلة. ولم يقتصر وجودهم على التجارة فحسب، بل كانت لديهم الصناعات. فالعرب قبل الإسلام بدو وحضر فللحضر حياتهم على الأرض يزرعونها ويعيشون منها بالإضافة إلى التجارة والحرف الأخرى اليدوية، ومن طبيعة هذه المهن الاستقرار والاستيطان. أما البدو فهم رحل ينتقلون طلباً للماء والكلأ، ولما كانت طبيعتهم تمتاز بالجفاف فقد أصبح طابع البداوة غالباً ومؤثراً في نظمهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي سائر نواحي الحياة الأخرى.

وقد دلت الكتابات القديمة على أن العرب كانوا في القرن الثامن قبل الميلاد قد قطنوا آرام أو إِرَم، وهي من أهم المدن العربية القديمة والتي تنبعث أهميتها أصلاً من كونها كانت تمثل طريق البخور بين البتراء شمالاً ومدن الجنوب، وبعد الإسلام أصبحت ممراً لطريق الحج. ومن المدن الأخرى البتراء وكذلك تيماء التي ورد ذكرها في نقوش أشورية ترجع إلى سنة ٧٣٢ ق. م، وقد تأثرت آنيتها بالفن الآرامي، وقد ذكرها ياقوت الحموي في (معجم البلدان) فقال عنها تيماء بالفتح والمد (بُلَيْد) في أطراف الشام ودمشق بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق... وكذلك هناك مدين صالح وقصتها في القرآن الكريم معروفة، بالإضافة إلى المنطقة الشمالية وازدهارها الحضاري. فالتماثل والتمايز الحضاري في مدن المشرق العربي كان معروفاً على الرغم من ذلك إلا أنه علينا أن نعي أن تسرب الأقوام إلى المنطقة العربية لم ينقطع. وكل ذلك أثر في التركيبة السكانية على الرغم من محافظتها على الأغلبية العربية. ففي الرافدين قامت الحضارة الأكدية المشهورة وفي بلاد الشام اشتهر الكنعانيون والفينيقيون وكل تلك الحضارات كانت منفتحة على بعضها البعض عن طريق التجارة أو الأسفار أو الفتوحات فأثر بعضها ببعض هذا إضافة إلى الأقوام التي كانت ترى في المنطقة مغنماً لها فتحاول السيطرة عليها وقد كان لبعضها ما أرادت كالفرس والروم فيما بعد.

وحضارة أي منطقة هي تجمع للعوامل الجغرافية والإنسانية وبالتالي هي نتاج تفاعل الإنسان مع البيئة لترويضها وتسخيرها واستغلالها. وإذا كان العامل الإنساني يلعب دوراً رئيساً في تكوين الحضارة فإن علينا أن لا نهمل دور العامل الطبيعي لأن الطبيعة كانت ولا زالت تؤثر في الحوادث التاريخية وتكسب هذه الحضارة طابعاً متميزاً. فالمناخ والتضاريس الطبيعية والنباتات والأنهار ومجاريها ذات تأثير كبير على حياة الإنسان كما أنها تسهم سلباً أو ايجاباً على مدى تعامله معها.

وللوطن العربي بكافة أقسامه أثر هام في مسيرة التاريخ سواء كان ذلك من حيث الحياة الاقتصادية بوجه عام أم الأهمية العسكرية أم التركيبة السكانية باتصالاتها وانفتاحها على السكان المجاورين. فالموقع الطبيعي عامل مؤثر في حركة التاريخ لتلك المنطقة، والوطن العربي له مكانة مهمة قديماً وحديثاً ليس لتنوع ثرواته الطبيعية وأهميتها في الحضارات الإنسانية فحسب، بل لموقعه الجغرافي الذي يمثل الجسر الأرضي الذي يربط قارات العالم بعضها ببعض، فمنذ القدم وهو يشكل عامل الوصل، وما زالت هذه الأهمية باقية حتى العصور الحديثة، فلا اتصال بين الأمم الشرقية والغربية دون التوسط العربي. وقد أثر هذا الموقع في تنوع التركيبة السكانية، فشكل عامل استقطاب وجذب سكاني وتوالت الهجرات العربية من الجنوب إلى الشمال بفضله، واستطاعت أن تجد لها مكانة على الأرض وبالتالي اصطبغت بالصبغة العربية.

حمل المهجرون قسرياً لغتهم وعاداتهم وحتى دمهم العربي إلى تلك المنطقة، واستطاع هذا الدفع السكاني أن يؤثر ويتأثر بمن سبقهم من الأقوام على تلك الأرض. فالعربي شارك واشترك مع الحضارات الأخرى دون أن يفقد تمايزه، فالهجرات المتتالية والمتوالية حتى من عناصر هندية وأوروبية امتزجت مع بعضها البعض مع عامل الأرض جاعلة من الوطن العربي مهداً للحضارات الإنسانية ومكاناً لتشكل الامبراطوريات والدول التي عاشت ردحاً من الزمن حتى تحول الصراع إلى صراع ديني بظهور دين العرب الجديد الذي حملوه إلى الأمم الأخرى وشعورهم الداخلي بأنهم

يحملون ديناً إنسانياً... ورسالة إنسانية إلى العالم أجمع. وغامر العرب في صراعهم مع الحضارات الأخرى وكان لهم ما ارادوا على الرغم من أنهم في تلك الفترة لم يكونوا قوة فعالة على الساحة الدولية وبخاصة مع وجود الفرس كإمبراطورية تمثل العالم الشرقي والروم قائدة العالم الغربي دون منازع. ولم ينفرد العرب بكل امبراطورية على حدة إلا أنهم صارعوا الأمبراطوريتين في الفترة نفسها وانهارت أمامهم تانك الامبراطوريتان بسهولة، وامتزج العرب بهم وأخذوا منهم الكثير عند بدايات تكوين امبراطوريتهم، وقد ظهر هذا فيما بعد عندما قامت الدولة الأموية في سوريا. أما الدولة العباسية فقد كان لدخول العنصر الفارسي أثر عليها وكان أحد العوامل في الصراع العربي ساعد في انقسامات أهل العراق وأهل الشام وأهل الجزيرة التي أصبحت خارج الصراع إلا فيما يخص مكانتها الدينية ثم دخول باقي أجزاء الوطن العربي كجزء من الصراع العربي العربي.

الحضارة العربية، النشأة، التطور

كان العرب وما زالوا شركاء أصليين في الحضارة العالمية، فلم يكونوا يوماً «ما» خارج المسيرة الحضارية للإنسانية جمعاء، زد على ذلك أنهم يملكون تراثاً ميزهم عن غيرهم فقد ملكوا الأرض والتاريخ والإنسان وهي العناصر الهامة التي تشكلت منها الحضارة الإنسانية، فالجزيرة العربية مهد العرب موطن الجنس السامي على ما يرجح وهي التي انشأت العناصر الإنسانية التي تشكل منها الوطن العربي فقد أخرجت الجزيرة هذه الشعوب التي سيطرت فيما بعد على معظم العالم المتمدن، وكانت مهداً للدين الإسلامي الذي يدين به ثلث سكان العالم اليوم ممن يعيشون في مختلف البيئات، وقد مثلت الجزيرة العربية اسفينا يفصل بين مركزي الحضارات القديمة مصر وبابل. وقد تأثرت بالمعطيات الحضارية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية على الرغم من أن ثقافة الجزيرة ثقافة محلية صرفة إلا أن العامل الاقتصادي شهد اندفاعاً فقد أصبح سكان الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية أرباب تجارة وتوسطوا سوق التجارة بين مصر وما بين النهرين والبنجاب وهي مراكز هامة اقتصادياً في العصور القديمة.

ونظراً لهذا الموقع والأهمية واطلاع اليونان والرومان على أحوال العرب، فقد أخذ الاهتمام بهم وبدراستهم يزداد، فأول من ذكر العرب في الأدب اليوناني هو (اسكليس) (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق.م) حيث أشار إلى ضابط عربي شريف في جيش (احشويرش) ثم تلاه (هيرودوتس) (٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق.م) فأشار إلى العرب في جيش (أحشويرش) ووصف ملابسهم وأسلحتهم، فالعربي شخصية تثير كل من كتب عن العرب حتى عصرنا الحاضر، وهذا ينمّ عن أهمية العرب. وفي المناظرة بين النعمان بن المنذر (ت ٦٠٢م) وكسرى ملك الفرس بحضور وفود روسية وهندية وصينية تبين شمائل العربي وحضوره على الساحة الدولية في تلك الفترة فقد قال لكسرى:

«لم يطمع في العرب طامع ولم ينلهم نائل، حصونهم ظهور خيولهم ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف، وعدّتهم الصبر». وروي كذلك في المراجع اليونانية أن العرب هم الأمة الوحيدة التي لم تبعث سفراءها إلى الاسكندر الأكبر عندما صمم أن يجعل من بلاد العرب مركز امبراطوريته، لذلك قيل إن الرومان سادوا العالم ولكنهم لم يسودوا العرب. وقد قامت دول عربية ذات شأن كبير في الحضارة العالمية وقد كشفت الآثار عن عظمة تلك الدويلات العربية وكشفت عن تطور حضاري فالدولة السياسية في جنوب بلاد العرب، ومن آثارها البتراء، شاهد على حضارة دولة الأنباط التي اكتسبت مجداً وثروة وكذلك مملكة تدمر في أواسط بادية الشام، ولا يزال صيتها منتشراً إلى الوقت الحاضر، وأصبحت ملتقى قوافل الشرق بالغرب وقد وجد على نقوشها عبارات «زعيم القافلة» و«زعيم السوق». وبعد ذلك ظهرت بصرى حوران كنقطة ارتكاز للمنطقة، وازدهرت بعد ذلك الحيرة. وبقيت بلاد العرب تتموج وتتمحور ثقافياً واقتصادياً وسياسياً في عصر الامبراطوريات محاولة أن تجد لنفسها موطئ قدم، وقد كان لهم ذلك، فعلى الرغم مما كتب وقيل عن تاريخ العرب العسكري وشغفهم بالقتال إلا أنهم تميزوا من شعوب الأرض في شدة إعجابهم بالأدب وتأثرهم بالكلام الأنيق الذي يلقى في مجالس الخطابة. وقد تمتعت لغتهم بما لا تتمتع به لغة أخرى من الاستيلاء على عقول الناس والسيطرة على أفئدتهم وللعربي ميل للخطابة والكلام وله عناية بالخط العربي حيث رفعه إلى مقام الفنون الجميلة. وقرض الشعر صفة ملازمة للحضارة العربية وحب الشعر ظاهرة فريدة في حياة العربي الثقافية وقد قيل «الرجز بكر الشعر، والسجع أبوه، والحداء أمه». وقد كشف لنا ذلك عن المثل الأعلى لدى العربي فنجد المروءة، والشجاعة والوفاء والكرم وهذه شكلت فكرة الوطنية العربية.

بعدها جاء الإسلام الذي ساعد على نشأة دولة الإسلام فيما بعد وبذلك تحقق للعرب تنظيم أنفسهم تنظيماً غير مألوف من قبل قائماً على أساس الدين مرتبطاً بالله الواحد وبذلك أصبح العرب أفراداً في الجماعة الإسلامية بغض النظر عن نزعاتهم القبلية وولائهم القديم إخواناً في العقيدة وأعضاء

في أخوية واحدة يجمعهم حب الله والخضوع لرسوله، وهذا تطور سياسي كبير ونقلة نوعية لم يشهد لها العرب مثيلاً من قبل، وهذه كلمات الرسول في خطبته الجامعة في حجة الوداع تبين ذلك «أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه»، وقد ساعد ذلك الوجود العربي المتعمق في المناطق التي وصلها المسلمون. فقد كان سكان الشام وفلسطين وهم ساميون وسكان مصر وهم حاميون يعتبرون العرب الفاتحين قوماً من بني جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام الأجانب الغاصبين، وقد شكلت الفتوحات انقلاباً اجتماعياً سياسياً استرد به الشرق الأدنى مجده، وقد كان العرب شعباً ممتلئاً حمية ونشاطاً، وقد ألهبتهم حماسة قومية جديدة فالعرب الذين فاجأوا العالم وانقضوا عليه إنما كانوا مدفوعين بالعامل القومي والديني وبعد الفتح سار العرب مع الأقوام الأخرى التي دخلت الإسلام بخطى واسعة فأصبح الإسلام الحضارة السائدة وركزوا أركانه على أساس الموروث الحضاري للحضارات التي نشأت وترعرعت في أحضان الوطن العربي كحضارة السريان والآراميين والفرس واليونان. وبتفاعل هذه الحضارات شكل الوطن العربي قوة حضارية وعالمية وإنسانية آلت إليه السيادة الفكرية أرضاً وشعباً.

البعد الحضاري للحضارة العربية الإسلامية

ومع ظهور الإسلام كدين «عروبي» الأرض والمنبت والكلمة حمله العرب إلى من حولهم يعيدون به للأرض مكانتها ويخطون بذلك خطوات واسعة في نشر دينهم الذي يعتبرونه خاتم الديانات، لذلك عند خروجهم من جزيرتهم العربية مكمن قوتهم وحضارتهم وضعوا الخيار بين الإسلام ودفع الجزية مقابل الحماية لهم، لذلك لم يكن العرب مدمرين لما سبقهم من الحضارات بل كانوا الأقرب للمحافظة على تراث من سبقهم وكان لهم ذلك.

وقد أخذوا من الحضارات الأخرى ما يناسبهم واثروا في حضارة من حولهم فشكلوا جسراً بين حضارات الشرق والغرب كان أول جسر حضاري يتم بناؤه داخل الحضارة الإنسانية بشكل عام، وبخاصة بعد بروز حركة الترجمة فيما بعد كحركة علمية عالمية شكلت أول اختلاط عقلي وفكري بين أكبر حضارتين عاشتا ردحاً من الزمن، هما الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية. وقد ساعد على ذلك الدعوة الواضحة بين ثنايا الدين الإسلامي نحو العلم وطلبه.

وقد غرس الدين في نفوس العرب الطموح لهضم العلوم والمعرفة والابتكار والتطوير. ونقل العربي نقلة نوعية في شخصيته التي كانت تتصف بالعاطفة وعشقه للعاطفة إلى شخصية علمية جاذبة للعلوم وتطويرها، فأصبحت الحضارة العربية تأخذ شكلاً واضحاً وقوياً على الساحة الحضارية العالمية، مع دخول عناصر جديدة ومن قوميات أخرى امتزجت وانصهرت مع بعضها البعض وخرجت تحمل في ثناياها رسالة إنسانية واضحة للعالم فيها الدعوة للعلم وموازاة الايمان مع العلم، وبذلك سارع العرب في جذب القوميات الأخرى وبخاصة الطبقات المثقفة والمحركة لعناصر الحضارة العالمية وبخاصة في المناطق المحررة، لذلك فالمارد الحضاري أيا كان لا يكتمل عقده إلا بوجوده في هذه المنطقة مهما بلغت أية حضارة من أوج والسبب أنها مهوى أفئدة المؤمنين في العالم لما حوته من تراث حضاري.

لذلك سعت الدولة العربية الإسلامية إلى تحصين الايمان داخل النفوس لحمايتها من الانقضاض عليها، فالحروب الدينية هي التي عمت المنطقة العربية عكس المناطق الاخرى من العالم التي كانت حروبها قومية وعرقية لذلك لا تستثار المنطقة العربية للحروب إلا بالدافع الديني فالحروب الصليبية والحملات التي تعرضت لها المنطقة في أواخر العهود التاريخية استنزفت قدرات المنطقة على الرغم من أنها لم تهدأ وأخذت أشكالاً كثيرة ومتغيرات كثيرة جعلتها تشهد حركة دائبة وهذه الحركة جعلتها مركزاً للاستقطاب الحضاري وكذلك مركزاً للتفاعلات الحضارية العالمية إلا أنها استطاعت المحافظة على شخصيتها وصبغتها العربية وثقافتها، حتى العناصر التي ادخلت إلى المنطقة بفعل الحروب والهجرات أخذت الهوية والثقافة العربيتين وقد شكل الإسلام الوعاء الذي احتضن جميع هذه العناصر، فالمزاج العام كان عربياً وإسلامياً وقاعدة للتوجه الحضاري نحو العالم.

مقومات وديمومة الحضارة العربية

جذور التكوين الحضاري قديمة قِدَم الإنسان نفسه والشواهد الحضارية بارزة في ذلك، ولها ملامحها، والمستخلص منها أننا في منطقة هي بحق أم الحضارات ونشأتها وتطورها. فالكنوز الأثرية المنتشرة في المنطقة العربية، سهولها وجبالها وصحرائها تثبت أننا أمام مراحل حضارية متنوعة ومتعددة وقد أكسب ذلك الإنسان العربي سعة الأفق وعمق التفكير، وانعكس ذلك كثيراً على الشخصية العربية المتطلعة دوماً إلى الأمام والمتحسسة عاطفياً لأي خدش فيها وفي مكتسباتها وتعتز بادوارها الثقافية والاجتماعية

والاقتصادية المنبثقة من مكنون الأمة، لذلك فالمعطيات الحضارية العربية تتمحور حول الشخصية العربية ودورها البارز في الحضارات الأخرى، وإن كنا لا نستطيع أن نفصل بين حضارة وحضارة لأن التطور الإنساني بطيء، فإن من الممكن الفصل بين التطورات المادية. فنحن نقول: الفن الروماني والفن الإسلامي والآثار الفارسية والأثر الفينيقي، غير أن الإنسان الذي هو صانع هذه الحضارات لا نستطيع الفصل فيه، فكم من شعوب عاشت وتعاقبت عليها الكثير من الحضارات وبقيت هي هي. فحركة التاريخ في المنطقة العربية لم تهدأ، ورياح التغيير آخذة في الازدياد، إلا أنها لم تستطع أن تجتث الحضارة العربية الإسلامية من المنطقة حتى عندما غزا المغول المنطقة واجتاحت همجيتهم نتاج الأمة من الثقافة والفن والعلم وحرقت جهوداً ذهنية عربية مخزونة منذ مئات السنين، لو قدّر لها أن تصل إلينا لأمدتنا بالعون العقلي الذي نحن في أمسّ الحاجة إليه، ودمّرت الكثير من المفاهيم، لكن ما يشفع للمغوليين أنهم تحولوا أنصاراً للأمة الإسلامية ينشرون دينها ولغتها وثقافتها فاصبحوا رموزاً للمد العربي الإسلامي في الهند والصين.

إن تشعب تاريخ المنطقة العربية وتنوعه وتنقله من حضارة إلى أخرى لم يبعد عنها شبح طمس الهوية العربية، فقد مرت فترات تاريخية جرحت فيها الحضارة العربية إلا أنها لم تذبح، فقد بقيت روح العروبة كامنة في المنطقة، فالسرعة التي انتزع بها العرب المسلمون الإقليم الاستراتيجي الهام المتمثل في بلاد الشام من أعظم سلطان في ذلك العصر أكسب دولتهم نفوذاً ومهابة في العالم وولد فيها فوق ذلك ثقة بنفسها ومصيرها ومستقبلها وجعلها مهابة الجانب يحسب لها كل حساب. وبعدها زحفت جحافل العرب إلى مصر وسلكت طريق النصر إلى افريقيا الشمالية وأصبحت الشام قاعدة الانطلاق والاشعاع الحضاري العلمي، كما أنها اتجهت غرباً وشمالاً، ولم تمض غير مائة سنة حتى كان العرب في أوروبا في اطراد لم يشهد له التاريخ مثيلاً. وكذلك انفتح لها ايوان كسرى وحضارة فارس فاندمجت الحضارات العالمية المعروفة في تلك الفترة في حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية، وإذا ما عرفنا أن العرب لم يدمروا من تلك الحضارات إلا الذي لا ينسجم مع دينهم بل أبقوا القديم على قدمه واضافوا عليه.

فالثقافة العربية أخذت تسري في عروق الشعوب الأخرى وتعطي لهم دماً جديداً، وأثبتت أن العرب لم يكونوا حاملي دين فقط بل هم حاملو موروث حضاري قابل للتقليد والاكتساب، وأن لهم فكراً قابلاً للتطبيق وقادراً على المنافسة، وثقافة تمتاز بالسهولة بعيدة عن التعقيد، مما أكسبهم قوة وقدرة على الامتزاج مع فئات ومكونات المجتمعات الأخرى.

وإنّ تراجع العنصر العربي إلى الصفوف الخلفية فيما بعد، وذلك لأسباب كثيرة، يحتاج إلى درس وبحث طويلين، كما أن الدروس المستفادة من هذا الاستعراض السريع للواقع الحضاري تتلخص في قدرة الإنسان العربي على استنزاف الحضارات القديمة وهضمها وصهرها في حضارة عربية إسلامية، وإن كان العاملان السياسي والعسكري هما الفيصل في المراحل المبكرة إلا أن هدوء هذا العامل أثر على الشخصية العربية، وعلى الرغم من ذلك فقد ظهرت فيما بعد رموز في مجالات العلم المختلفة وبرزت أسماء عالمية مثل ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) والجغرافي أبو عبيد الله البكري وابن البيطار عبد الله بن أحمد البيطار (ت ١٢٤٨م) وكتابه المشهور عالمياً «المغني في الأدوية المفردة». والجرّاح خلف بن عباس الزهراوي، ومؤلفة القيّم «التصريف لمن عجز عن التاليف» وغيرهم الكثير.

فالعرب حملوا الثقافة إلى أوروبا، غير أن الآية انعكست في القرن الحادي عشر والقرون اللاحقة فقد فاضت المعارف العربية على أوروبا، وشكل فيما بعد الشمال الافريقي مركز اشعاع حضاري لأوروبا وانتقل الثقل الحضاري العربي من بلاد الشام إلى الأندلس وشمال افريقيا، غير أن المشرق العربي انهكته الصراعات وبخاصة مع ظهور الدويلات وتشابك الصراع داخلياً وخارجياً.

فبدأت الحملات الصليبية تنقض على المنطقة العربية طمعاً في السيطرة عليها كمركز روحي ونفوذ سياسي مبتدئة بالسيطرة على طرق التجارة العالمية، وهنا دخلت المنطقة في صراع حضاري ما زلنا نواجه آثاره إلى اليوم. ومع دخول العرب في دولة الخلافة العثمانية واعتبارها رمزاً سياسياً إسلامياً، حافظ العرب عليه وقاتلوا من أجل وجوده ولكن ظهور القوميات سارع في تفكيك الامبراطورية المترامية الأطراف فالأوضاع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وحالة التخلف التي عاشتها تلك الامبراطورية جعلت التململ العربي يقوى ويشتد مع ظهور اليقظة العربية التي لا ينكر الأثر العربي فيها وإن كانت الأرضية العربية صالحة لتقبل أية أفكار لإنقاذ المنطقة من الحالة الرديئة التي وصلت إليها: فالمدارس في اضمحلال، وهنالك تراجع في الحياة العلمية والثقافية، مما جعل المناداة بالتغيير شعار العربي في تلك الفترة.

إن أساس أي حضارة ينصبّ على المهابة والقوة فالتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مربوطة بقدرة أية حضارة على حماية نفسها من شركائها في الحضارة العالمية بشكل عام، ففي جميع العصور، بما فيها العصر الحاضر، يسبق

التطور العسكري أي تطور آخر، كونه يتعلق بأمن الحضارة للدولة ومكتسباتها لكنه يتصف بالسرية وما يرشح منه مؤشر على مدى التطور، المتشكلة منه أية حضارة، فالقلاع والحصون والأسوار والشواهد الأثرية تعطي مؤشراً حضارياً لكنه مؤشر عسكري بالدرجة الأولى، وقد انصبّ معظم الاكتشافات على هذا العامل، والظاهر أن الميل للقوة في النفس البشرية ثابت في الشخصية. ما نريد قوله إن العامل العسكري كان ولا يزال مظهراً حضارياً سبق المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فالصراع اللامنتهي بين بني البشر يقزم إنسانية الإنسان لكنه قادر على حماية وجوده ومكتسباته الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفكرية غير أن العامل الروحي هو الذي يشد البنيان الحضاري ويقيه من الانهيار إذا وجد الإنسان المؤمن بالثوابت الإنسانية المنطلقة من حرية التفكير، وإطلاق العنان للعقل. فالفلسفة الإسلامية كانت ثمار جهود مضنية وطويلة من البحث والتطور العلمي.

لقد تعرضت الحضارة العربية إلى التجريح من بعض المشككين باحتمالية وجود مثل تلك الحضارة وبذات الإسلام كروح للحضارة العربية الذي مثل الوعاء الحضاري العربي، فمع بدايات القرن السابع عشر وما بعده والتطور الملحوظ على العلاقات العالمية وبروز تحولات عالمية جذرية وبخاصة في أوروبا العرب وتراجع الحضارة الشرقية أمامها بفضل الثورة الصناعية وما جاءت به والدعوة إلى الفصل بين الكنيسة والسلطة ونجاحها في ذلك، ونشوء القوميات فيما بعد، مما أدى إلى ارباك المفكرين والمثقفين وحتى العامة في منطقتنا العربية، فأصبحت مرتعاً للأفكار المتدفقة عليها، ومما ساعد في ذلك الارساليات التبشيرية التي انصبت ظاهرياً على الأعمال الإنسانية، وبالذات التعليم، فعملت على فتح المدارس ممثلة راس حربة لنشر الحضارة الغربية بطابع إنساني، فتحول ميدان الصراع إلى منطقتنا ولكن بثوب جديد بعيد عن حشد الجيوش وتأليب الشعوب وجرها إلى ميادين المعارك. فالأعمال الإنسانية أكثر اقناعاً بحضارة «ما» من القوة العسكرية التي تعطي ردود فعل عكسية، وبذلك استطاعت الحضارة الغربية أن تتنفس في المنطقة التي عاندتهم، لا بل غزتهم ووطئت أرضهم.

فالمارد العربي الذي أستاسد لقرون طويلة أصبح حملاً وديعاً في أحضان الحضارة الغربية فإذا ما استثنينا بعض الأصوات التي ظهرت هنا وهناك فإن جذور المقاومة قد خبت وانطفأت وأصبحت الأمة تنتظر مصيرها ولو فقدت تاريخها لفقدت كيانها وضاعت هويتها. فالاعتزاز التاريخي شكل مانعاً لم يكن في حسبان مخططي الحضارة الغربية فأخذ الشعور العام تجاه الحضارة الغربية يتخذ طابع الحدة وظهرت نداءات عدائية لرفض ما هو وارد حتى طال الرفض الوسائل المادية والضرورية في البداية، وظهرت تعابير الإصلاح والتجديد والأصالة والمعاصرة وبرزت حركات في المنطقة العربية وتشبعت المنطقة بالصراعات الفكرية، ومع دخول المطابع وانتشار الصحافة بدأت الأفكار تسري داخل المجتمعات العربية، لكن المكنون الحضاري للأمة والمتجذر في نفس الأمة شكل سداً منيعاً لها وأخذ يطفو على سطح الحدث. ومع بروز اسرائيل في قلب الأمة ازداد شعور الأمة واحساسها بأنها مستهدفة، فالدولة اليهودية المدعومة من الغرب شكلت خنجراً في قلب الأمة تسعى الأمة لاقتلاعه والتخلص منه وأصبحت علامة من علامات ضعف الأمة وانتكاسة في حضارتها وتعرجاً في تاريخها تأبى وجودها ويثيرها مكانها على خارطة الوطن العربي مهد الحضارات وملتقاها، فالوطن العربي بثرواته مؤهل لأن يكون نداً للحضارة الغربية ومصارعاً لها والغربيون يعون ذلك عن ظهر قلب، وهم يسعون بكل جهدهم لكي لا تصل الأمة إلى ذلك المستوى، وإن بقاء اسرائيل عاملاً من عوامل ضعف الأمة وتعزيز مكانتها عربياً يشكل جسراً لابتعاد الأمة عن إعادة كتابة تاريخها مجدداً كمركز اشعاع حضاري توارثته جيلاً بعد جيل.

إن الأمة بمكنونها الحضاري قادرة على البقاء كما انها قادرة على الصراع وتجاوزه وهي تمتلك ناحية القيادة للإنسانية، فهي تمتلك أولاً الدين كعامل روحي أصبحت الحضارات بحاجة له، لكنه ليس الدين القائم على التحزب والجماعات والتكفير، بل الذي اتسع لكي يستوعب كل المؤمنين بالوحدانية، الساعي لنشر مبادئ الأخلاق، فأمة العرب تملك مقومات حضارية عالمية إلا أن التعرجات التاريخية أخذت منها الكثير من منعتها وقوتها، فالتعرجات التي أصابت الأمة لا تعني نكوصاً بقدر ما تعني انحداراً حضارياً أصاب ويصيب كل الحضارات تاريخياً ومستقبلاً. فإذا أخذنا بمبدأ أن الانحدار شيء طبيعي بعد الوصول إلى القمة فنحن اليوم نستذكر كلمة هارون الرشيد عندما قال مخاطباً الغيمة (اذهبي فإنّ خراجك لبيت مال المسلمين) فقد أجمع فقهاء عصره يومها أنه (ملك الجهات الأربع) لدى بحثهم عن لقب يليق بمكانته ومكانة الدولة العربية الإسلامية في تلك الفترة.

إن حركة التاريخ لا، ولن، تتوقف ولا نهاية للتاريخ إلا بنهاية البشر، لذا علينا أن نعي وضعنا الحالي والمكانة العلمية التي وصلت لها الأمة.

الخلاصة

للمنطقة العربية مكانة تاريخية وحضارية، فقد تدرجت على

أرضها الحضارات وتعاقبت وتمترس بعضها ردحا من الزمن فكانت الوعاء الحضاري العالمي. فتنوع الحضارات أكسب المنطقة أهلية المساهمة الثقافية والفكرية بعد أن نمت وازدهرت الحضارة العربية الإسلامية غير أن التمزق السياسي والاجتماعي والفكري الذي حل بالدولة العربية الإسلامية بعد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري والذي مهد فيما بعد لسقوط الإمارات الإسلامية نتيجة الغزوات المتكررة من الأقوام المحيطة وبخاصة المغول والصليبيين، شكّل ذلك الصراع تهديداً حقيقياً لكيان الأمة وانتمائها وتراثها وحتى طموحها، فساعد على ضعف الروح المعنوية التي كانت مؤججة في النفوس وكانت النتيجة الخوف والقلق من كل طارئ، فتمترست الأمة خلف حضارتها الزاهرة وتاريخها المشرق بعد أن وجدت فيهما وسيلة لحماية النفس. فالماضي المزدهر اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً أصبح وسيلة تجابه بها الأمة المتسلط الخارجي.

الدولة العربية الإسلامية التي كانت ممتدة من المحيط الأطلسي وحتى حدود الصين تحرك التاريخ فتتراجع إلى عقر دارها بعد أن نهشت الصراعات الدينية والقومية والطائفية في جسدها وأصبحت لا تقوى على المقاومة، مما سهل للطامعين، وهم كثر، الانقضاض عليها، وسيبقى التاريخ يتموج ويتمحور حولها كونها مركز اشعاع حضاري ومركزاً للصراع العالمي فهي مهبط الديانات السماوية إضافة إلى أهميتها الطبيعية، فقد اعطتها الحضارات المتعاقبة ومكونات الأمة القدرة على عالمية الثقافة والفكر، وقد اضفى الدين أهمية تفوقت فيه على أية منطقة في العالم، ويعبر عن ذلك المقولة التي يرددها الكثيرون وبخاصة المثقفون الغربيون «إن منطقة سوريا الكبرى تمثل الهوية الثانية لنا» وهذه المقولة تنم عن مدى التعلق العالمي بالمنطقة العربية والتجذر التاريخي في النفسية العالمية، فعلينا أن نعي ذلك حتى نعي ما يترتب علينا وأن لا نبقى نزين الماضي ونلغي الزمن من خلال ذلك وأن لا يكون الحاضر والواقع المعاش والحالة المتردية فكرياً وسياسياً وثقافياً لحظة عابرة لا يقف عندها الإنسان العربي بتمعن ويفكر في دوره الحضاري المبدع بعد أن وصل التقدم الحضاري إلى ما وصل إليه، فالابداع يشكل اللبنة الرئيسة في صرح الحضارة ووسيلة لجذب الانتباه إلى قدرة الأمة، وعلامة من علامات خروجها من دائرة التخلف الحضاري الذي وسمت به، فوجود الأمة كجسد لا يكفي إذا كانت بلا روح لأن ذلك يعني أن لا حراك ولا وجود لها، إن التمسك بأهداب الماضي قد يغمض العين عن الواقع ويغلق العقل عن التفكير بالمستقبل مما يخضع الإرادة لما تجلبه الأيام ولمقادير الحياة ويضعف الروح المعنوية، وبالتالي يخلق مجتمعاً مأزوماً غير قادر على المنافسة لا بل حتى على الحياة، إن إعادة تشكيل الواقع والمستقبل على ضوء الماضي يحتاج توازناً مقنعاً عن طريق ربط الماضي بالحاضر على أرض الواقع حتى لا نبقى نتحدث عن أساطير مشكوك في مدى صحتها.

نحن واثقون من الماضي والمساهمة الحضارية فيه، وواثقون من مكانة الوطن العربي على الخارطة العالمية. إلا أن الدراسات الحديثة المتعلقة بالحضارة والمنصبة على صراع الحضارات تجاوز بعضها الصراع الديني أو القومي أو الايديولوجي أو الجغرافي ويتوقع أن يكون الصراع الحضاري المستقبلي صراعاً أطرافه أغنياء العالم وفقراؤه، ويضع العامل الاقتصادي وثروة المجتمع كمؤشر لتقسيم العالم. فما نشهده من حوار الشمال والجنوب وامتلاك الدول الصناعية ناصية القرية العالمية، دليل يلجأ إليه بعض الدارسين لشكل الصراع الحضاري العالمي، غير أن هؤلاء يدركون أن أية حضارة لا تستطيع العيش بمعزل عن الحضارات الأخرى، فتشابك مصالح بني البشر يحتم عليهم أحادية التفكير في مستقبل العالم. وقد ظهرت منظمات عالمية تنادي بالمحافظة على البيئة، وأخرى تسعى للتخلص من أسلحة الدمار الشامل وتدمير ترسانة الأسلحة، والحد من التجارب العلمية ذات الأثر السلبي على الطبيعة الكونية وبخاصة «طبقة الأوزون». فالصورة لمستقبل العالم تبين لنا بأن العالم تتقارب أطرافه بتسارع شديد. فقرية العالم أو العالم القرية سوف يجعل مكامن قوة أية حضارة في خطر، فالتعاون الحضاري العالمي مطلوب إذا كنا نريد المحافظة على إنسانية الإنسان.

إن الصيحات العالمية مؤشر على خطورة التوجه الحضاري العالمي المنصب على القوة العسكرية المدمرة، ولا يعطي مجالاً رحبا للمساهمات الروحية والانطلاق نحو الإبداع، فعسكرة المجتمعات تسيء للناتج الحضاري، لكن اظهار مخاطر هذا التوجه واجب يحتم على الأمة المساهمة الفعالة فيه كوننا أمة لها مساهمات ايجابية في صرح الحضارة العالمية فالتركيز التاريخي عليه أن يحمل في ثناياه الرسالة الإنسانية الكامنة في خطابها إلى الإنسان، فحجر الزاوية في الحضارة العربية والمنطقة العربية يكمن في اشباع الروحانيات التي عرضتها الحضارات الأخرى إلى شمسها المحرقة، فطغى العامل المادي على العامل الروحي فكان الخلل الذي يسعى الإنسان لتعويضه.

إن ثقة الفرد في نفسه، وبالتالي ثقة الأمة فيه، يمنحانه القدرة على المناكفة والمنافحة في ميدان الحضارة العالمية فنحن أصحاب حضارة عريقة واثقون في قدرتنا على أن نبقى أصحاب مكانة مرموقة على الخارطة العالمية.

المراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ الكتاب المقدس

٣ ـ نور الدين حاطوم وآخرون، **حضارات العصور القديمة**، منشورات جامعة دمشق، مطبعة العروبة، ١٩٦٤م.

٤ ـ فيليب حتي وآخرون، **تاريخ العرب**، ط ٥، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٤م.

٥ ـ نخبة من الباحثين العراقيين، **حضارة العراق**، ج ١، بغداد ١٩٨٥م.

أهم ملامح الحركة الوطنية الفلسطينية

خلال الحربين العالميتين

د. فؤاد شهاب

د. عبد اللطيف الرميحي

جامعة البحرين

المقدمة

لعل اتفاق غزة ـ اريحا يغلق الباب أمام المقدمات التي ادت إلى هذه النتيجة. إن الأمة الطامحة لبناء نفسها ولتحقيق مستقبل زاهر مشرق، يتوجب عليها فهم تاريخها فهماً جيداً لانه مخاض الحاضر والمستقبل. وقد اثبتت الأمة العربية أنها أمة بلا ذاكرة، والأمة التي تفقد ذاكرتها كما الإنسان الذي فقد وعيه كما يقول المفكر القومي العربي ساطع الحصري.

ومن ثم فإننا لن نستطيع فهم الحاضر والتفكير في بناء المستقبل بدون استرجاع للذاكرة. ومن هنا جاءت فكرة كتابة هذا البحث الذي يهدف إلى إنهاء هذا الوضع، والمساهمة في انعاش الذاكرة العربية. خاصة وان اللحظة الراهنة من تاريخنا تتطلب منا أن نحصل على أقصى درجة من الفهم، وهذه الدرجة تبدأ باستعادة الذاكرة المختصة مجمل التاريخ مخاض الحاضر والمستقبل. إنها لحظة كتابة تاريخ فلسطين من جديد. هذه الكتابة كفيلة بتعريفنا ما يحدث الآن، لأن الماضي عنصر متجول في الحاضر والمستقبل. إنه التراث الذي نتعامل معه على أنه شيء منتهٍ ولكنه بالضرورة هو مكون متحول في الحاضر، وكلاهما التراث والحاضر، تراث متحول في صورة ضرورة ملحة كاحتياج واقعي لفهم الحاضر ورسم المستقبل لهذه المنطقة العربية التي عانت أكثر سنوات هذا القرن جرحاً ظل يغور ويتجدد نزيفه أطلق عليه فلسطين حتى صار يطلق عليه اسرائيل وأراضٍ عربية محتلة في فلسطين وخارجها.

من هذا المنطلق كان الهدف من المشروع أن نفهم الجذور التي أنبتت هذا النبات العربي الحزين المسمى بالقرن العشرين، والذي أزهر زهرة صفراء اسمها «غزة ـ اريحا»، تنذر باقتراب الثمرة وجنى المحصول وقدوم قرن عربي جديد. كيف ستكون الثمرة وما هي صورة المستقبل؟ هل نتفاءل أو نتشاءم؟ لا تفاؤل ولا تشاؤم لأن هذا يقدم قضية منطقية خاطئة، ليس علينا إلا واجب الفهم، لأنه يلغي التفاؤل والتشاؤم، لكنه (الفهم) يزرع الأمل في التحكم في صورة المستقبل بأكبر استثمار للحاضر.

ما هو الطريق الذي حملنا إلى يومنا هذا نحو غدنا؟ إنه أمسنا الذي حملنا إلى يومنا هذا نحو غدنا. إنه أمسنا الذي حمل المعالم كان أهمها معلم اسمه فلسطين. فلا بأس أن نبدأ في التعرف على هذا «التاريخ ـ الطريق» بمنهج يعتمد على سرد أحداثه بطريقة تجعل الحدث يحمل تفسيره وينبئ بنتائجه في تعقب لحركة تاريخنا القريب الكامن وراء حاضرنا الذي نبتغي فهمه.

لم تكن المشكلة الفلسطينية في الأصل إلا محاولة من قبل الدول الكبرى وعلى رأسها بريطانيا لتفتيت جسم الوطن العربي، الذي بانت ملامح قوته مع بدء محاولات محمد علي باشا لتوحيده. ولقد بدأت بريطانيا ومعها بالطبع الدول الأوروبية الأخرى بتنفيذ هذه السياسة بشكل علمي يتناسب وحجم تطلعاتهم الاستعمارية وأهمية المنطقة منذ عام ١٨٤٠ في اجتماع لندن، عندما منعت محمد علي من إقامة دولة عربية إسلامية قوية. لانها (بريطانيا) وجدت في هذه الدولة خطراً

مؤكداً على تجارتها بين الشرق والغرب[1]، التي كانت العمود الفقري دون شك للاقتصاد البريطاني. لذلك تبنت بريطانيا ومنذ تلك اللحظة سياسة المحافظة على «الرجل المريض» طوال القرن التاسع عشر، ووضعت نصب عينيها أيضاً اجهاض كل فكرة وحدوية للمنطقة العربية، حيث وجدت هذه السياسة في الحركة الصهيونية[2]، أداة قوية لتنفيذها. لذلك كان من الطبيعي أن تتلاحم المصالح الاستعمارية منذ ذلك التاريخ مع الحركة الصهيونية وحتى يومنا هذا. ولم يعد سهلاً على الباحث أن يجد أي فرق بين كل من التوجه الصهيوني والتوجه الاستعماري، لأن المستعمر هو الذي أوجد ذلك الكيان وبالتالي فإن هذا الكيان سيصبح في حاجة دائمة إلى موجده الذي يريد منه أن يصبح ذراعه الطويلة في المنطقة العربية ومانعاً بكل شكل من الأشكال من وحدتها.

ولقد بدأت محاولات الصهاينة في الاستيطان في فلسطين في عهد السلطان العثماني عبد الحميد[3] الذي عارض هذه الفكرة بسبب تعارض هذا المطلب مع حق الشعب الذي يسكن هذا الوطن. ونستشهد في هذا الخصوص بما قاله السلطان العثماني:

«انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع: إنني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأراضي، فهي ليست ملكي، بل ملك شعبي. لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه... فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا مزقت امبراطوريتي فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن. ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق في جثتنا. فإنني أرفض تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة».

أما جمعية الاتحاد والترقي ـ ونتيجة لقوة اليهود في مجالسها ـ فإنها جاملت المطالب الصهيونية في البداية[4]، إلا أنها وجدت نفسها في النهاية مضطرة لرفضها بسبب احتجاج الممثلين العرب على التوسع اليهودي في فلسطين. وبالرغم من أن برلين كانت مركزاً للنشاط الصهيوني في بداية الحرب الكونية الأولى إلا أن الزعماء الصهاينة ارتأوا أهمية الاتصال بالحلفاء، كي يتمكنوا من تحقيق أهدافهم في حالة هزيمة الدولة العثمانية، خاصة وأن تركيا قد دخلت في هذه الحرب كحليف للدول الوسطى (النمسا ـ المجر ـ ألمانيا). ولم تكن مهمة التقرب من الحلفاء سهلة على حاييم وايزمن وجماعته، بسبب مقاومة بعض اليهود للصهيونية أو بعبارة أدق للفكرة القومية التي هي أساس الصهيونية السياسية.

وقد حدثت أولى المفاوضات بين الحكومة البريطانية والزعماء الصهاينة بعد اعتلاء لويد جورج كرسي رئاسة الوزارة في ديسمبر ١٩١٦، لكن الحكومة البريطانية لم تكن مطلقة التصرف بمستقبل فلسطين في تلك الفترة. فمن ناحية كانت هناك مراسلاتها مع الشريف حسين والتي تعهدت الحكومة البريطانية من خلالها بقيام دولة عربية تكون فلسطين جزءاً منها، ومن ناحية أخرى كانت هناك معاهدة سايكس بيكو والتي وضعت فلسطين تحت إدارة دولية، يشارك فيها روسيا وفرنسا. كذلك كانت هناك معارضة بريطانية في الداخل قادها اليهود الانجليز المعادون للصهيونية.

لكن لويد جورج تمكن مع ذلك من تجاهل تلك العقبات ليشرع في مفاوضاته مع القوى الصهيونية لأسباب نذكر منها:

١ ـ الدوافع الاستعمارية لبريطانيا بحكم رغبتها في اتخاذ فلسطين مركزاً للبريطانيين يحمي نفوذهم في مصر وخاصة في قناة السويس ويؤمن لهم الطريق البري الذي يوصلهم بالهند والشرق الأقصى.

٢ ـ رغبة بريطانيا في نقض اتفاقها مع روسيا وفرنسا، خصوصاً وأن الثورة البلشفية اتاحت لها الفرصة لتحويل فلسطين إلى محمية بريطانية، معتمدة في ذلك على النفوذ اليهودي العالمي[5].

٣ ـ العلاقة الخاصة التي نشأت بين لويد جورج ووايزمن،

---

(١) منذ أن احكمت بريطانيا سيطرتها على الهند، أصبح تأمين طرق المواصلات الامبراطورية حجر الزاوية في السياسة البريطانية، مما دفع بها للاهتمام بالبحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي وبحر الهند وسواحلها ومعابرها وطرقها ومراكزها. وكل البلاد العربية واقعة في هذا المحيط. فلا غرابة إذاً من أن يصبح الوطن العربي موضع اهتمام بريطاني. محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، الجزء الأول.

(٢) فايز صايغ، **الاستعمار الصهيوني في فلسطين** ترجمة عبد الوهاب كيالي، دراسات فلسطينية، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت.

(٣) ناجي علوش، **الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ ـ ١٩٤٨**، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت. ص ٨٠.

(٤) فايز صايغ، المصدر السابق، ص ١٩.

(٥) لمزيد من التفصيل حول هذه العبارة، مقالة د. دبليوتي. ماليسون الصغير، «تصريح بلفور والوضع القانوني للشعب الفلسطيني»، ندوة فلسطين العالمية الثانية، الكويت ١٣ ـ ١٧ فبراير ١٩٧١ ـ دراسات فلسطينية، المجلد رقم ١، جمعية الخريجين الكويتية، الاتحاد العام لطلبة فلسطين، ص ص ٨٣ ـ ٩٥. انظر أيضاً خليل السكاكيني، **فلسطين بعد الحرب الكبرى**، الجزء الأول ١٩٢٥، مطبعة بيت المقدس.

خاصة بعد اكتشاف هذا الأخير لمادة الأسيتون الضرورية في صناعة المتفجرات. إذ يقول لويد جورج بهذا الخصوص «لقد هداني الأسيتون إلى الصهيونية».

٤ ـ اقتناع الحكومة البريطانية بضرورة كسب عطف الجماعات الصهيونية في ألمانيا والنمسا والتي كانت تحاول أن تستصدر وعداً تركياً مشابهاً لبلفور، وكذلك محاولة كسب تأييد يهود روسيا وأمريكا في تلك الفترة من فترات الحرب.

٥ ـ نجاح الحركة الصهيونية في اخفاء مقاصدها الحقيقية، بالترويج لفكرة إقامة مركز روحي في فلسطين، وتمكنهم من استثارة العاطفة الدينية في نفوس الكثير من القادة البريطانيين حتى يساعدوهم في تحقيق أهدافهم.

وقد تمخضت الاتصالات التي دارت بين الحكومة البريطانية بقيادة لويد جورج والحركة الصهيونية عن اصدار وعد بلفور الذي جاء ضمن خطاب بعث به آرثر بلفور وزير الخارجية البريطانية إلى الزعيم اليهودي اللورد روتشيلد وكان نصه كالتالي:

«إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية[٦] المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى[٧].

لكل ذلك يتبين لنا أن أساس الوعد البريطاني بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين التي هي جزء من الدولة العربية التي وعد البريطانيون الشريف حسين بدعم تأسيسها، هو تلاقي مصالح بريطانيا والصهيونية العالمية خلال الحرب العالمية الأولى. هذا إلى جانب رغبة الحكومة البريطانية بقيادة لويد جورج في الاستفادة من الاستراتيجية الدعائية لكسب يهود العالم إلى جانبهم في فترة الحرب.

ولا يمكن لأي متخصص في السياسة البريطانية أن يبرر موقف بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى في فلسطين، فاستحالة التوفيق بين العرب المصممين على المحافظة على وجودهم والبقاء في أراضيهم، وبين اليهود الذين يتطلعون لأن يصبحوا أغلبية باستغلال وعد بلفور، كانت واضحة تمام الوضوح للعيان. إن التوفيق كان مستحيلاً لأن هناك شعباً أجنبياً يريد طرد شعب مستقر في وطنه من أرضه وأملاكه.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى ان العلاقات بين الحكومة البريطانية والحركة الصهيونية قد توثقت إلى أبعد الحدود خلال الحرب العالمية الأولى. فقد تحمس الانجليز إلى أبعد الحدود لاشراك اليهود في المجهود الحربي واسهموا في تدريب الجماعات اليهودية وأشركوها في القتال بفعالية تامة. وكان اليهود يدركون بأن خططهم المستقبلية مرهونة بالدرجة الأولى بانتصار الحلفاء وخصوصاً بريطانيا في تلك الحرب، وكانوا يدركون أن احتلال بريطانيا لفلسطين سيفتح أمامهم آفاقاً واسعة في الاستيطان. وقد شهدت الهجرة اليهودية إلى فلسطين نمواً مطرداً، حيث هاجر إلى فلسطين في عام ١٩١٩ حوالى ١٨٠٦ مهاجرين يهود، كما تراوحت نسبة المهاجرين في السنوات الأربع التالية بين ثمانية آلاف وثمانية آلاف وخمسمائة.

ونتيجة لاحساس عرب فلسطين بما تضمره الحركة الصهيونية لبلادهم من خطط استيطانية وما لمسوه من هجرة متزايدة، فإنهم بدأوا بتشكيل الجمعيات المناهضة لحركة الاستيطان الصهيوني، وقاموا بارسال العرائض والمذكرات إلى مؤتمر السلم الدولي معربين فيها عن تمسكهم بأراضيهم ورفضهم لوعد بلفور والوطن القومي اليهودي. ونستشهد في هذا السياق بالمذكرة التي أرسلها المؤتمر العربي الفلسطيني المنعقد في القدس في فبراير من عام ١٩١٩ وجاء فيها:

«إن المجتمعين قرروا بالاجماع أن يرفعوا إلى مؤتمركم العالمي احتجاجهم الشديد بسبب ما سمعوه من أن الصهيونيين نالوا وعداً بجعل بلدنا وطناً قومياً لهم وأنهم ينوون الهجرة إلى هذا البلد واستعماره. وعليه فإننا نحن المسلمين والمسيحيين المجتمعين بصفة مندوبين لأمة عربية حية من الأمم الضعيفة التي حررها الحلفاء جئنا بهذا رافضين رفضاً باتاً كل قرار يتخذ بهذا الصدد قبل أخذ رأينا. وإننا نرفع إلى المؤتمر بياناً مفصلاً بالحيف الذي سيلحق بمصالح سكان هذا البلد، من مسلمين ومسيحيين، وهم يشكلون الأكثرية المطلقة، من جراء هجرة الصهيونيين إليه، واستعمارهم إياه، وجعله وطناً قومياً لهم. فنرجو من

---

(٦) اعتبر أبا إيبان وعد بلفور أعظم وأول نصر سياسي للحركة الصهيونية، حيث بين رأيه في الوعد بقوله، «النصر الدبلوماسي الحاسم للشعب اليهودي في العصر الحديث».

(٧) ناجي علوش، **الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ ـ ١٩٤٨**، المصدر السابق ص ١١٦.

مؤتمركم العالي عدم اتخاذ أي قرار يتعلق بهذا البلد إلا بعد الوقوف على رغباتنا وأمانينا التي سنعرضها»[٨].

كما وأن القوى الوطنية الفلسطينية قد توصلت إلى قناعة مفادها الاسراع في خلق التنظيمات القادرة على مواصلة المقاومة ضد المهاجرين اليهود وذلك من أجل وقف الهجرة. وبالفعل قام بعض المسلحين بمهاجمة مستعمرات في الجليل الأعلى، كما قاموا بعمليات كثيرة أخرى بعد ذلك[٩]. ورغم قسوة الأحكام العسكرية التي فرضها الجنرال اللنبي على البلاد منذ أكتوبر ١٩١٧، إلا أن عرب فلسطين لم يستكينوا لهذه الأحكام وحاولوا مقاومة الاحتلال العسكري والهجرة اليهودية، سواءً بالاضرابات العامة أو الاحتجاجات. وقد قام عرب فلسطين في هذا السياق بارسال مذكرة إلى البابا في ٢٠ يناير ١٩٢٠، احتجوا فيها على السياسة البريطانية المؤيدة للصهيونية وأكدوا بقوة رفضهم لكل سياسة تقوم على تمكين اليهود من الاستيلاء على فلسطين. وقد أرسلت نسخ من هذه البرقية إلى الحكومة البريطانية والمجلس الأعلى في باريس[١٠].

ولم يستكن عرب فلسطين إلى مقاومة الهجرة اليهودية بالأساليب السلبية كالاحتجاجات والبرقيات وإنما تبنوا أيضاً أساليب المقاومة المباشرة بما في ذلك الاصطدام بالمهاجرين اليهود. ففي الرابع من أبريل ١٩٢٠ أدى تذمّر العرب إلى حدوث مصادمات دموية بينهم وبين اليهود في القدس، حيث أسفرت المواجهات بين الطرفين عن قتل خمسة من اليهود وجرح ما لا يقل عن مائتين وأحد عشر يهودياً بالإضافة إلى مقتل أربعة من العرب وجرح واحد وعشرين. ونتيجة لذلك شكلت الحكومة البريطانية لجنة للتحقيق في أسباب أعمال العنف تلك، حيث عقدت اللجنة عدة جلسات للوقوف على البواعث الحقيقية لهذه الاضطرابات. ولقد رفعت لجنة التحقيق تقريرها ـ الذي بقي سرياً حتى عام ١٩٤٧ ـ في يوليو من عام ١٩٢٠. وقد أرجع التقرير أسباب الاضطرابات إلى تذمر العرب من السياسة البريطانية التي لم تف بوعودها تجاه العرب، وكذلك إلى خوف العرب من أن يؤدي انشاء الوطن القومي اليهودي إلى ازدياد كبير في الهجرة اليهودية[١١].

وعلى الرغم من وقوع تلك الاضطرابات الدموية إلا أن اللجنة الصهيونية استمرت في التصرف كما لو كانت هي الحاكمة متعللة بعدم قدرة الحكومة البريطانية على حماية اليهود. ولم يستطع الجنرال بولز قائد الإدارة العسكرية الحد من تصرفات اللجنة الصهيونية أو تحمّلها مما دفعه إلى ارسال تقرير صريح وشجاع عن الحالة العامة في فلسطين إلى قيادة الجيش البريطاني في القاهرة.

إن تقرير الجنرال بولز أوضح لرئيس الوزراء البريطاني لويد جورج وكل المؤيدين للحركة الصهيونية حجم العقبات التي سوف تواجهها الحكومة البريطانية في حالة تعيينها لرجال لا يهتمون ببناء الوطن القومي اليهودي.

وهكذا وقبل أن يتم تحديد مستقبل مصير فلسطين في مؤتمر الصلح، أعلن اللورد اللنبي القائد العام لجيوش الحلفاء عن دعوة اليهودي البريطاني هربرت صموئيل ليساعده على تسوية شؤون فلسطين. ومن المعروف أن هربرت صموئيل هو أحد دعاة الصهيونية البارزين في بريطانيا وكان قد سبق له أن أجرى اتصالات مع وزير الخارجية البريطاني ادوارد جراي حول فلسطين حيث طالب من خلالها بمساعدة اليهود على الهجرة إلى فلسطين لايجاد عنصر موال للبريطانيين في منطقة ذات أهمية جغرافية وقريبة من مصر[١٢].

لقد هدفت بريطانيا من وراء تعيين هربرت صموئيل مندوباً سامياً إلى اسكات الأصوات الوطنية الفلسطينية بالقوة العسكرية وبالصلاحيات القانونية المخولة له طبقاً لصك الانتداب. فهل استسلم عرب فلسطين للإدارة البريطانية، أم أنهم قاوموها بكل ما أوتوا من قوة؟ سنحاول الإجابة على هذا السؤال في الصفحات التالية من هذا البحث.

اضطرابات ١٩٢١

في مايو من عام ١٩٢١ اندلعت في فلسطين اصطدامات وأعمال عنف واسعة بين العرب واليهود. وفي الواقع فإنه لم يكن للعرب يد في اشعالها، لأنها بدأت باصطدام حدث بين حزب العمال اليهودي والحزب الشيوعي اليهودي اللذين كانا

(٨) كريستوفر سايكس، **مفارق الطرق إلى اسرائيل**، ص ٨٢.

(٩) المصدر السابق.

(١٠) كان عدد اليهود قد بلغ أثناء الحرب العالمية الأولى حوالي ٦٥ ألف نسمة وتشير المصادر إلى ان هذا الرقم قد انخفض بعد الحرب مباشرة إلى ٥٦ الف نسمة، ولكن هذا الرقم سرعان ما ارتفع بعد سنتين تقريباً ليصل في عام ١٩٢٠ إلى ٧٥ الف نسمة.

(١١) محمود زايد، **تاريخ فلسطين ١٩١٤ ـ ١٩٤٨**، دار القدس، بيروت، لبنان، أيلول ١٩٧٤، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(١٢) ناجي علوش، المصدر السابق ص ١٢٦.

قد نظما مسيرات بمناسبة عيد العمال. لكن أعمال العنف تلك سرعان ما اتسعت لتشمل المواطنين العرب الذين بادروا بالدفاع عن أنفسهم مما ادى إلى مقتل ثلاثة عشر يهودياً[١٣]. وبالرغم من انتشار المصادمات من يافا إلى مناطق أخرى في فلسطين، إلا أن الأحوال قد هدأت بعد أسبوع من اشتعالها. ويعود ذلك بالطبع لافتقار العرب لأي تنظيم سياسي أو عسكري، بالإضافة إلى أن قطاعاً واسعاً من المواطنين العرب كانوا لا يزالون يثقون في حكمة وعدل بريطانيا في اجراء تحقيق عادل حول الأسباب التي أدت إلى هذه الصدامات. لذلك فإن عرب فلسطين رحبوا بلجنة التحقيق في هذه الحوادث التي راسها توماس هيكرافت قاضي قضاة فلسطين.

لجنة هيكرافت

شكلت لجنة تحقيق للنظر في أسباب حوادث ١٩٢١ في السابع من مايو برئاسة توماس هيكرافت T. Haycraft قاضي قضاة فلسطين، ومستر لوك H.C. Luke مساعد حاكم القدس ومستر ستبس J.N. Stubbs، مساعد مدير دائرة الأراضي، وعضوية ثلاثة آخرين ممثلين للطوائف الثلاث: عارف الدجاني عن المسلمين، الياس مشبك عن المسيحيين، والدكتور علياش M. Eliash عن اليهود. وبعد أن استمعت اللجنة إلى أقوال مائتين وتسعين شاهداً، رفعت تقريرها إلى مجلس العموم البريطاني في أكتوبر ١٩٢١. لقد كان من الواضح أن تقرير اللجنة كان منصفاً للعرب إلى حد كبير حيث أكد على أن «مظاهرة البلشفيك كانت الشرارة التي أشعلت حنق العرب القابل للانفجار، وأحدثت الهياج الذي آل إلى سفك دماء العرب واليهود»[١٤]. كما بينت اللجنة وجهة نظرها بصراحة حول الأحداث فأشارت بأنه «ليس هناك دافع لوقوع الاضطرابات غير الشعور السائد في البلاد ضد اليهود، وهو ناشئ عن خطة الحكومة فيما يتعلق بالوطن القومي اليهودي. وقد أكد لنا الكثيرون، وتحققنا نحن بأنفسنا، أنه لولا وجود القضية اليهودية في فلسطين لما لاقت الحكومة أقل صعوبة في إدارة الشؤون المحلية. ونعتقد أن كره العرب للحكومة البريطانية نشأ عن مساعدتها للسياسة الصهيونية»[١٥].

كما أكد التقرير بأنه «لا أساس للتهمة التي كان اليهود يوجهونها للعرب بأنهم قد دبروا هذه الاضطرابات، هم أو قادة الأفكار بينهم، ورتبوا وقوعها في اليوم الأول من مايو. إن يوم أول مايو كان عيد الفصح عند العرب الأرثوذكس الذين كانوا صباح ذلك اليوم في كنائسهم، وأخذوا بعد ذلك يتقبلون زيارات المعايدات الاعتيادية من أصدقائهم المسلمين، وبناء عليه يكون بعيد الاحتمال أن ينتخب المسلمون والمسيحيون ذلك اليوم للقيام بفتنة عمومية»[١٦].

وقد أكدت اللجنة وبكل وضوح مقاومة العرب لمشروع الوطن القومي اليهودي، كما أوضحت أن الأسباب الرئيسية لهذه الصدامات إنما تعود إلى شعور الاستياء من اليهود السائد بين العرب وعدائهم لهم لدواع اقتصادية وسياسية، ولهذا العداء صلة بالهجرة، ولفهمهم للسياسة الصهيونية، كما شرحها أصحاب الفكرة من اليهود، وهذا هو السبب الرئيسي للاضطرابات[١٧].

كما أكدت اللجنة على أن سبب هذه الاضطرابات يعود إلى «خوف العرب من اضطراد الزيادة في الهجرة اليهودية إلى درجة تؤدي إلى التسلط عليهم سياسياً واقتصادياً. وكان العرب يعلمون أن هذا الهدف لم يكن مطمعاً لانظار اليهود المتطرفين كجابوتنسكي فحسب، بل مطمعاً لأنظار ممثلي الصهيونية الذين يتحملون عبء مسؤولية كبرى كالدكتور ايدر وكيل ورئيس اللجنة الصهيونية».

إلا أن الحكومة البريطانية لم تبد أي جدية في الأخذ بمقترحات لجنة هيكرافت بدليل أنها أقدمت بعد فترة وجيزة وبمساعدة الصهاينة[١٨] على صياغة صك الانتداب، ودفعت بعصبة الأمم إلى اقراره في صورة مستند صادر عنها، ليتسنى

(١٣) المصدر السابق ص ١٢٩.

(١٤) عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ إلى ١٩٣٦**، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٤، ص ٤٩.

(١٥) اتهم الصهاينة الحكومة العسكرية بالعداء لهم، لأنها إذا ما استجابت لِـ ٩٥٪ من مطالبهم وامتنعت عن تنفيذ ٥٪ اعتبرت متحيزة للعرب. هذا بالإضافة إلى ان الدعاية الصهيونية قائمة على اظهار اليهود بمظهر الشعب المشرد المضطهد.

(١٦) محمود زايد، **تاريخ فلسطين ١٩١٤ ـ ١٩٤٨**، ص ٤٢.

(١٧) عادل حسن غنيم، المصدر السابق ص ٥١.

(١٨) كريستوفر سايكس، **مفارق الطرق إلى اسرائيل**، المصدر السابق ص ١٠١، يرى بعض من المؤرخين العرب ان أسباب هذه الاضطرابات تعود إلى استياء عرب فلسطين من وعد بلفور والهجرة اليهودية ومزاحمة اليهود لهم في وطنهم ومحاباة الانكليز لليهود في مختلف المصالح والمرافق محاباة تامة مع الانسجام التام بين الطرفين الصهيوني والبريطاني. محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، المرجع السابق ص ٣٨.

لها ولحلفائها الصهاينة تهويد فلسطين. فكيف قاوم عرب فلسطين هذه الخطوة البريطانية؟

الحركة الوطنية الفلسطينية وصك الانتداب

نشطت الحركة الوطنية الفلسطينية في يونيو ويوليو ١٩٢٢ في محاولة لمنع عصبة الأمم من التصديق على صك الانتداب البريطاني على فلسطين، ذلك لأن صك الانتداب لا يعرقل فحسب تقدم السكان نحو الحكم الذاتي، وإنما يذهب إلى حرمانهم من حق الحياة في بلادهم، من منطلق أن معظم مواد صك الانتداب كانت تعبر عن تحيز واضح من جانب بريطانيا لليهود. فبينما افتقد السكان الأصليون لنظام يمثلهم أمام الدولة صاحبة الانتداب، نجد أن المادة الرابعة تعترف بوكالة يهودية «لاسداء المشورة إلى إدارة فلسطين والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التي قد تؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين»[19].

أما المادة السادسة من صك الانتداب فإنها وضعت أساس نظام الهجرة على النحو التالي: على إدارة فلسطين، مع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ووضع فئات الأهالي الأخرى، أن تسهل هجرة اليهود في أحوال ملائمة وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية المشار إليها، في المادة الرابعة، حشد اليهود في الأراضي الأميرية والأراضي غير المطلوبة للمقاصد العمومية[20].

وقد اعترفت المادة ٢٢ من صك الانتداب باللغة العبرية كلغة رسمية في فلسطين بجانب العربية والانجليزية، رغم عدم شيوع العبرية آنذاك كلغة أمّ بين اليهود، وكذلك أقرت المادة ٢٣ من صك الانتداب الأعياد اليهودية كأيام عطلة رسمية، علماً بأن اليهود لم يكونوا يمثلون في تلك الفترة إلا ٧٪ من السكان.

وقد تولت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الرابع برئاسة عارف الدجاني وسكرتارية جمال الحسيني قيادة الحركة في فلسطين. ففي اجتماع اللجنة الذي عقد في الفترة ما بين ٢٣ ـ ٢٧ يونيو طلبت اللجنة من عصبة الأمم عدم التصديق على صك الانتداب وأنها تكون بذلك «قد دفعت عنا مصيبة كبرى كان يمكن أن تؤخر قضيتنا لا أن تميتها. وإن خاب الظن فيها وصدقت عليه، فيجب أن نقلب تلك المصيبة إلى صالحنا»[21].

وكذلك وافقت اللجنة على الاضراب في جميع أنحاء البلاد في يومي ١٣ و١٤ يوليو شريطة أن تستأذن كل بلدة الحكومة في إقامة مظاهرة سلمية فإذا لم تحصل على الموافقة، ذهب المضربون إلى معابدهم في اليومين المذكورين. وكذلك طلبت اللجنة من الوفد الفلسطيني الرجوع إلى البلاد إذا ما صودق على صك الانتداب دون أي تعديل[22].

وحسب خطة اللجنة التنفيذية، فقد أضربت فلسطين كلها يومي ١٣ و١٤ يوليو ١٩٢٢ احتجاجاً على نظر مجلس العصبة لصك الانتداب، إلا أن هذا الاحتجاج لم يمنع مجلس العصبة من الموافقة على صك الانتداب في ٢٤ يوليو ١٩٢٢. وهو ما كانت بريطانيا تتطلع له حتى تتمكن بالتعاون مع الحركة الصهيونية من وضع وعد بلفور موضع التنفيذ.

وتمشياً مع السياسة البريطانية التي كانت تهدف إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. فقد صدر عن البلاط الملكي في قصر بكنجهام في العاشر من أغسطس ١٩٢٢ دستور حكومة فلسطين الذي بدأ العمل به في الأول من سبتمبر ١٩٢٢. وأهم المواد التي جاءت في هذا الدستور الآتي:

- يعين مندوب سام لإدارة حكومة فلسطين، تناط به السلطة للتصرف في الأراضي العمومية، أو الحقوق المتعلقة بها، وتنفيذ أحكام صك الانتداب.

- يؤلف مجلس تنفيذي لإسداء المشورة للمندوب السامي بموجب التعليمات التي تشير بها حكومة جلالة الملك.

- يؤلف مجلس تشريعي له السلطة والصلاحية التامة في اصدار القوانين الضرورية شريطة عدم مخالفتها لنظام الانتداب.

- يؤلف المجلس التشريعي من اثنين وعشرين عضواً عدا المندوب السامي ويكون عشرة من هؤلاء أعضاء موظفين واثنا عشر عضواً بالانتخاب.

وقد تزامن إصدار دستور فلسطين مع عودة الوفد الفلسطيني الأول من لندن إلى فلسطين، حيث شارك في المؤتمر الفلسطيني الخامس الذي عقد في الثاني والعشرين من شهر

(١٩) د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩**، ص ١٦٥.

(٢٠) المصدر السابق ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢١) المصدر السابق، ص ١٦٦.

(٢٢) ناجي علوش، **الحركة الوطنية الفلسطينية**، المصدر السابق ١٩٣٨.

اغسطس ١٩٢٢. وقد أعطى الوفد العائد من لندن صورة مفصلة عن السياسة البريطانية المنحازة للصهيونية، وأكد على أن بريطانيا لا زالت متمسكة بهذه السياسة، بل ومصرة على تنفيذ وعدها بانشاء الوطن القومي لليهود. ولذا جاءت معظم قرارات المؤتمر ثورية التوجه حيث تمت الموافقة على: «رفض دستور فلسطين الجديد ومقاطعة انتخابات المجلس التشريعي المقبلة، وتأييد رفض نظام الانتداب على فلسطين، ومقاطعة اليهود في الشراء وبيع الأموال غير المنقولة، ورفض القرض الذي تنوي الحكومة عقده باسم فلسطين»(٢٣).

ومع ذلك فقد مضت حكومة الانتداب قدماً في اجراء الانتخابات التشريعية على الرغم من أن المقاطعة العربية أدت إلى فشلها. أما المندوب السامي هربرت صموئيل(٢٤) فقد عمد إلى تعيين عشرة أعضاء من العرب، رغم أن هؤلاء قدّموا استقالتهم من المجلس أيضاً تضامناً مع الشعب.

في مارس من عام ١٩٢٤ وقعت اضطرابات خطيرة في مدينة يافا أثناء احتفالات اليهود بعيد المساخر (Purim) والذي ينطوي على إهانة للشعائر الدينية لعرب فلسطين. وكذلك أعلنت فلسطين اضرابها الشامل أثناء زيارة اللورد بلفور إلى القدس لافتتاح الجامعة العبرية في عام ١٩٢٥. هذه الجامعة التي أقيمت مبانيها على الأراضي العربية في جبل الزيتون، بعد أن اغتصبتها السلطات المنتدبة من أصحابها العرب بموجب قانون نزع الملكية.

في أغسطس من عام ١٩٢٥ عينت الحكومة البريطانية اللورد بلومر مندوباً سامياً على فلسطين. وقد جاء تعيين اللورد بلومر خلفاً للسير هربرت صموئيل مخيباً لآمال اليهود، لأنهم توقعوا أن يكون جميع المندوبين الساميين بعد هربرت صموئيل من اليهود. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كانت شخصية بلومر من طراز الرجال الذين يخشونهم لاعتزازه الكبير ببريطانيته ومحافظته وكذلك لاخلاصه الكبير لقضية الامبراطورية(٢٥). وقد وصف أحد السياسيين الفلسطينيين اللورد بلومر بقوله انه «لم يختلط بالشعب، وكان همه الوحيد توطيد الأمن والنظام في البلاد، فأرادها إدارة عسكرية أكثر مما هي مدنية، وأكثر من توظيف الانجليز في مختلف مصالح الحكومة ودواوينها»(٢٦).

أما إحدى الصحف الصهيونية التي كانت تصدر في فلسطين ونتيجة لتخوفها من أن يصبح اللورد بلومر أكثر ميلاً للعرب والمسلمين، فقد كتبت نادبة بعد تعيين اللورد بلومر: «إن الأرض المقدسة أو الوطن القومي اليهودي، موضوعان يصلحان للدراسة العميقة التي تتطلب أرفع الخصائص في الموظف والإداري من فكرية وروحية، وليس اللورد بلومر في هذا الصعيد إلا مواطناً عادياً من أهل انجلترا، يعتبر نموذجاً للتمسك بالقانون وخوف الله، وارتياد الكنائس، والتهذيب الكامل... وقد سبق لنا أن أكدنا أكثر من مرة أن فلسطين في حاجة إلى حكومة مثقفة»(٢٧).

وبعد وصول اللورد بلومر إلى القدس بعدة أشهر، عانت دولة فلسطين من أزمة اقتصادية، حيث عمل جاهداً على كسرها وذلك بتطبيق برنامج الأشغال العامة بغية ايجاد عمل للعمال العاطلين، واعانتهم على العيش بما يتقاضونه من الأجور. كما ساعد على تطوير الزراعة والصناعة حيث بلغت الأراضي المزروعة بالبرتقال في عام ١٩٢٧ ضعف الذي كانت عليه عام ١٩٢٣، وفي نفس العام زادت الصادرات الزراعية لأول مرة منذ الحرب العالمية الأولى على الواردات الزراعية. وكذلك ركز اللورد بلومر على الصناعات الخفيفة كالإسمنت والدقيق والصابون(٢٨).

هذا وقد حاول اللورد بلومر إحياء مشروع المجلس التشريعي مرة أخرى، إلا أن محاولته باءت بالفشل وذلك لأن الحكم النيابي كان «آخر ما يطالب به الصهيونيون. إذ إنهم كانوا يرون أن قيام المجلس المنتخب سيعمل على الابقاء عليهم أقلية دائمة في البلاد، ويخنق الوطن القومي اليهودي بأساليب تشريعية محترمة»(٢٩).

(٢٣) د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني**، ص ١٦٦. ناجي علوش، **الحركة الوطنية الفلسطينية**، المصدر السابق ١٣٨.

(٢٤) **مذكرات وايزمن**، المصدر السابق، ص ٩٤ - ٩٥.

(٢٥) صالح مسعود أبو نصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧١، ص ١١٢.

(٢٦) المصدر السابق نفسه، ص ١١٣ - ١١٤.

(٢٧) د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩** سلسلة كتب فلسطينية - ٥٣ - منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، مايو ١٩٧٤ ص ١٧٧.

(٢٨) المصدر السابق نفسه ص ١٧٨.

(٢٩) للاطلاع على النص الكامل لمواد دستور ١٩٢٢ باللغتين العربية والانجليزية، انظر: صالح مسعود أبو نصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، المصدر السابق، ص ٥٧٩ - ٥٨٦.

وقد غادر اللورد بلومر فلسطين في الحادي والثلاثين من شهر يوليو لعام ١٩٢٨، أي قبل اضطرابات ١٩٢٩ بعدة أشهر.

انتفاضة ١٩٢٩ الفلسطينية

كانت معظم الاضطرابات التي حدثت قبل عام ١٩٢٩ محدودة، لقد كان عام ١٩٢٩ مهياً لحدوث مثل هذه الانتفاضة بسبب الأعداد المتزايدة للمهاجرين اليهود وكذلك بسبب الازدياد الكبير في عدد المستوطنات اليهودية إضافة إلى تطرف وتصلب اليهود ومعارضتهم الشديدة للمشاريع العربية التي كانت تهدف إلى الاسراع بالتطور الدستوري وإقامة المجلس التشريعي الذي سوف يحتل فيه اليهود مقاعد تناسب أهميتهم العددية، حيث إنهم لم يكونوا يمثلون آنذاك أكثر من ٢٠٪ من عدد السكان. ومن الأسباب المباشرة أيضاً لحدوث مثل هذا الاضطراب، رغبة الشعب الفلسطيني في ممارسة الضغط على الحكومة لكي تقيل الجنرال Norman Bentwitch لانه يهودي ولا يمكن للعرب أن يثقوا به[٣٠].

والبراق (حائط المبكى) هو جزء إسلامي لا جدال فيه من المسجد الأقصى، والارتباط الإسلامي المسيحي بهذا الجزء نابع من شعور قومي ووطني وسياسي، في حين أن اليهود يعتبرون الحائط الغربي من بقايا هيكل سليمان، وأرادوا تحويله إلى كنيس يهودي يقيمون عنده الشعائر الدينية ويبكون عنده، لذلك سمي بحائط المبكى. ولم يمانع العرب ولا الهيئات الإسلامية ذلك قبل اصدار وعد بلفور. لكن اليهود حاولوا تغيير الأمر بتثبيت حقوق واسعة لهم في هذا المكان عن طريق تغيير الحالة التي كان عليها قبل الانتداب البريطاني وذلك بتحويل هذا الحائط إلى معبد، بإحضار الكراسي وغيرها للمسنين، مما أنذر بوقوع مشكلة في أيلول ١٩٢٥، وهذا الذي دفع بالسلطة إلى اتخاذ قرار حظر فيه على اليهود أن يجلبوا إلى الحائط كراسي ومقاعد حتى ولو كانت الغاية منها جلوس الطاعنين في السن والعجزة.

ففي محاولة جريئة من اليهود في الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٢٨، فإنهم قاموا بتجاوز ما هو مصرح لهم به، حيث وضعوا القاعدة ونصبوا ستاراً على الحائط للفصل بين الرجال والنساء في الصلاة. وقد أثار ذلك بطبيعة الحال المسلمين الذين أبدوا احتجاجهم وتذمرهم وكذلك استعدادهم للدفاع عن مكان هو ملكهم. ولذلك تدخلت سلطة الانتداب في اليوم التالي وهو «عيد الغفران» عند اليهود وأنزلت الستار بالقوة لتلافي الاصطدام. وقد استغل اليهود تصرف سلطة الانتداب ليعلنوا للعالم عن تعسف السلطة ضدهم، وهذا هو المنهج الصهيوني إذا لم يتحقق مطلبه مائة في المائة. وأرسلت المراجع اليهودية احتجاجاتها وشكاواها إلى الحكومة البريطانية وعصبة الأمم. وكذلك توجه المجلس اليهودي إلى الطائفة الإسلامية برسالة في تشرين الثاني جاء فيها «وعليه فإننا نصرح هنا بالحقيقة التي لا تشوبها شائبة، وباخلاص تام، بانه لن يخطر ببال أحد من اليهود المساس بحقوق المسلمين في أماكنهم المقدسة. ولكن يجب على إخواننا العرب أن يعترفوا أيضاً بتلك الحقوق التي لليهود على أماكنهم المقدسة في البلاد». وتذهب الرسالة إلى القول بأن البراق الذي يقدسه اليهود كان «مكاناً لتأدية الصلاة والزيارة بدون أية ممانعة أو أقل معارضة، جيلاً بعد جيل. ولذلك ـ فإن من البديهي بأن الشعب اليهودي لا يميل إلى أقل تساهل في هذا الحق المقدس الذي ثبت له مع مرور العصور والأجيال. وهكذ فإن كل محاولة ترمي إلى الغاء أو تحديد هذا الحق، والتداخل في أنظمة الصلاة والتقاليد اليهودية تعتبر مساساً عظيماً بعواطف الأمة اليهودية، وطعنة في صميم قلبها...». وتضيف الرسالة أن «ما يطلبه المجلس اليهودي ما هو إلا عبارة عن طلب طبيعي باحترام حق اليهود لا أكثر ولا أقل»[٣١].

إن هذا الحادث أفاد جميع التيارات الموجودة في فلسطين، فحكومة الانتداب استفادت من تحول العداء المتصاعد للحركة الفلسطينية ضدها، إلى حركة صراع ديني بين المسلمين واليهود، والحادث أيضاً قرب بين الصهيونيين وغير الصهيونيين من اليهود الامريكيين. وقد كتب وايزمن في الحادي والثلاثين من أكتوبر وكان في زيارة لنيويورك في تلك الفترة ـ إلى شكبورغ في وزارة المستعمرات، يصف ذلك التقارب بقوله «إن حادث حائط المبكى قد أثار مشاعر الطائفة اليهودية في مختلف أنحاء البلاد»[٣٢]. وكذلك دفع حادث المبكى

(٣٠) عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية**، المصدر السابق، ص ١٢٩.

(٣١) كريستوفر سايكس، **مفارق الطرق إلى اسرائيل**، المصدر السابق ص ١٣٣.

(٣٢) أحد دعاة الصهيونية المشهورين في بريطانيا. فقد سبق أن أجرى اتصالات مع ادوارد جراي وزير الخارجية قبيل الحرب العالمية الأولى لمساعدة اليهود على الهجرة. وطالب بتهجير ثلاثة ملايين يهودي بحجة ايجاد عنصر موالٍ للبريطانيين على الضفة الشرقية لقناة السويس. وقد سجل هربرت صموئيل في مذكراته التالي «عينتني حكومة صاحب الجلالة وهي على بينة تامة بميولي الصهيونية، وبلا شك فإن تلك الميول كانت سبباً أساسياً».

الدول العربية المجاورة لفلسطين إلى تأييد القضية الفلسطينية تأييداً تاماً. وبين إمكانية استغلال الشعور الإسلامي في العالم كله وخاصة في الهند للضغط على بريطانيا.

كان موضوع حادث المبكى على رأس المواضيع التي نوقشت في المؤتمر الصهيوني الذي عقد في الفترة ما بين ٨ يوليو و١١ أغسطس ١٩٢٩ في زيورخ. وكان الهدف الأول لمناقشة موضوع حائط المبكى هو ممارسة الضغط على حكومة الملك كي تلغي قراراً اتخذته في القدس لصالح المسلمين. وقد ارسل المؤتمر الكولونيل كيش Kich أحد أعضائه البارزين لهذا الغرض(٣٣).

أما جمعية حراسة المسجد الأقصى والأماكن الإسلامية المقدسة فقد أصدرت ـ كرد على التحركات اليهودية المتتالية الهادفة إلى فرض السيطرة الكاملة على حائط المبكى ـ بياناً جاء فيه، «عاد اليهود منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني في زيورخ، إلى الاعتداء المتوالي على البراق الشريف، بجلب الأدوات الممنوع جلبها، ومنع سكان الحي المسلمين من المرور إلى منازلهم في طريق البراق، ويقوم المؤتمر الصهيوني الذي سيستمر إلى ٨ اغسطس ١٩٢٩ بمحاولات واسعة النطاق لاستثارة اليهود في العالم مبدياً السخط على الكتاب الأبيض الذي أصدرته الحكومة البريطانية في مسألة البراق، وباذلاً جهوداً كبيرة ترمي إلى جعل الحالة الراهنة (ستاتو كو) المختصة بالبراق الشريف، تدور على محور مزاعمهم الباطلة».

وكرد فعل على هذه الحالة فإن البيان قد أقر «اتخاذ التدابير لمقاومة أعمال اليهود في الداخل والخارج»، وطالب البيان بردع اليهود عن تكرار اعتداءاتهم، وجعلهم يمتنعون عن التعرض لسكان الحي من إخواننا المسلمين»(٣٤).

وكذلك أصدرت جماعة «حراس المبكى» اليهودية بياناً مماثلاً في ١٢ أغسطس بعنوان «إلى شعب اسرائيل» في جميع انحاء العالم، جاء فيه «أيها اليهود المنتشرون في جميع أنحاء العالم، أفيقوا واتحدوا، لا تسكتوا أو تتوانوا إلى أن يعاد إلينا حائط المبكى بأجمعه. ألفوا جمعيات للدفاع عن حائط المبكى. اعقدوا اجتماعات للاحتجاج. تظاهروا أمام القنصليات البريطانية في جميع الأقطار»، وأضاف البيان «هلموا إلى مساعدتنا، وعاونونا في هذا الكفاح العادل لاسترداد هذا الحائط، ولا شك أن النصر سيكون حليفنا»(٣٥).

مما تقدم نرى بأن الظروف والأوضاع السائدة في فلسطين آنذاك كانت مهيأة لاستقبال انتفاضة ١٩٢٩. وقد بدأت هذه الانتفاضة في يوم ١٤ أغسطس ١٩٢٩ ـ الذي يوافق في التاريخ العبري يوم صيام احياء لذكرى خراب الهيكل ـ بمظاهرة في تل أبيب نادى فيها المتظاهرون «الحائط حائطنا» كما طالب المتظاهرون «بعزل موظفي حكومة فلسطين الذين غايتهم الجلية احباط انشاء دولة يهودية في فلسطين خلافاً لأحكام صك الانتداب»(٣٦).

وفي اليوم التالي ١٥ أغسطس ١٩٢٩ وهو عيد الغفران عند اليهود، قامت مظاهرة في القدس بقيادة المتطرفين الصهيونيين الذين أتوا من تل أبيب، وبعد أن تلا المتظاهرون قرارات مظاهرة تل أبيب وبعد أن عبروا شوارع القدس حتى وصلوا حائط المبكى، أنشدوا نشيد «هاتيكفا» وعلت أصواتهم مرددة «الحائط حائطنا». مخالفين بذلك التعليمات المحددة التي أصدرها المندوب السامي بالوكالة في اليوم السابق(٣٧).

وفي يوم الجمعة الموافق ١٦ أغسطس ١٩٢٩، المصادف ذكرى المولد النبوي الشريف، خرجت مظاهرة بعد صلاة الجمعة ضمت الآلاف الذين كانوا محتفلين بذكرى المولد النبوي الشريف، وقد حطم المتظاهرون منضدة لليهود كانت موضوعة فوق الرصيف(٣٨)، كذلك أخرج المتظاهرون الاسترحامات التي وضعها المصلون اليهود في خروق الحائط وأحرقها الجمع، كما أحرق بعض الكتب وصحائف الصلاة(٣٩). وفي يوم السبت حدثت واقعة كرة القدم في ملعب

---

(٣٣) كريستوفر سايكس، **مفارق الطرق إلى اسرائيل**، المصدر السابق ص ١٤٨.
(٣٤) د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩، المصدر السابق، ص ١٩٧.**
(٣٥) كريستوفر سايكس، **مفارق الطرق إلى اسرائيل**، ص ١٤٩.
(٣٦) Report by his Majesty's Government in the U.K. of Great Britain and North Ireland to the Council of the L.D.N. on the Administration of Palestine and Transjordan, for the year 1935 (Report 1935), Colonial No. 122- London 436, PP, 83- 84.
(٣٧) د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩**. المصدر السابق ص ١٩٩ .**مذكرات وايزمن «التجربة والخطأ»، ترجمة محمود رشاد الشهابي**. الطبعة الثانية، ص ١١٤.
(٣٨) Y. Porath, *The Palestinian Arab National Movement 1924 - 1939- From Riots to Rebellion*, Frank Cass 1977, England, p.2.
(٣٩) ناجي علوش، **الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ ـ ١٩٤٨**، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، نيسان ١٩٧٢، ص ١٥٧.

لفتا (شمال غرب القدس على **طريق القدس ـ يافا**)[٤٠]. وفي الأيام الأربعة قامت سلطة الانتداب **بالقاء القبض** على عناصر عربية ويهودية متورطة في هذه **الاضطرابات. وما إن حل** يوم الجمعة الموافق ٢٣ أغسطس ١٩٢٩، **حتى كان جو** القدس مكهرباً، وينذر بوقوع اشتباكات عنيفة، **خاصة وأن كثيراً** من الفلاحين الناقمين قد توجهوا **لإقامة صلاة الجمعة**، مسلحين بالعصى والهراوات وأسلحة نارية **وحتى السيوف**[٤١].

وهذا الذي دفع بعددٍ من الخطباء ـ خلال صلاة الجمعة بالحرم، في محاولة يائسة ـ إلى **تهدئة الجماهير**. لكن محاولات الخطباء ذهبت أدراج الرياح مع صعود **بعض المتطرفين** الذين اتهموا الخطباء بعدم الاخلاص **لقضية المسلمين**.

وقد خرج المصلون من المسجد **الأقصى إلى البراق** حيث اصطدموا هناك باليهود الذين **أخذوا يتجمعون** من البلاد والمستعمرات المختلفة في القدس. وتدخلت سلطة الانتداب وصبت جام غضبها كالعادة على الجانب العربي، ولما وصلت أنباء حوادث القدس إلى نابلس والخليل، اندلعت هناك مظاهرات عنيفة ضد الانجليز واليهود.

وكما كان يحدث دائماً فإن الحكومة البريطانية قررت ارسال لجنة تحقيق عن الأسباب التي أدت إلى حدوث هذا الاضطراب، وكانت هذه المرة برئاسة السير والتر شو.

لجنة شو للتحقيق في أحداث ١٩٢٩

أرسلت الحكومة البريطانية ـ على أثر الأحداث الدامية التي شهدها شهر أغسطس ١٩٢٩ في القدس والمدن المجاورة ـ لجنة تحقيق برلمانية كي تحقق في الأسباب التي أدت إلى الاضطرابات ومعرفة ما إذا كانت هذه الأحداث قد حدثت عرضاً أو كانت مدبرة. وكانت اللجنة تتكون من السير والتر شو (رئيس اللجنة) والذي سميت اللجنة باسمه ومن ثلاثة أعضاء آخرين، ينتخبون من كل حزب من الأحزاب الثلاثة[٤٢]. وقد رفعت اللجنة تقريرها في آذار من عام ١٩٣٠ الذي احتوى على حقائق عديدة. حيث ذكر شو في تقريره أن الحاج أمين الحسيني وأعضاء المجلس الإسلامي الأعلى لم يخططوا لهذه الانتفاضة وكل ما يمكن أن يقال عن الحاج أمين الحسيني أنه لم يعمل الكثير لوقف الاضطرابات[٤٣]. كذلك أوضحت اللجنة في تقريرها أن السبب الرئيسي لهذه الاضطرابات يعود إلى نشوء طبقة من العرب ساخطة، بلا أرض، وأن مشكلة الأراضي ستبقى دائماً مصدراً لعدم الاستقرار، كما أكدت اللجنة على أن السببَ المباشر لهذه الاضطرابات يعود أيضاً إلى موقف العرب العدائي من الوطن القومي اليهودي الذي يعتبرونه حجر عثرة في سبيل حصولهم على استقلالهم.

وأوصت اللجنة في تقريرها بما يلي:

ـ الطلب من الحكومة البريطانية إصدار بيان واضح وصريح حول السياسة التي تود اتباعها في فلسطين خاصة فيما يتعلق بالمادة الرابعة من وثيقة الانتداب حول التزاماتها بالمحافظة على حقوق الطوائف غير اليهودية في فلسطين.

ـ وأن تعزز مراقبتها للهجرة اليهودية لمنع تكرار الهجرة الزائدة التي حدثت في سنتي ١٩٢٥، ١٩٢٦، واتخاذ طريقة لاستطلاع رأي الهيئات غير اليهودية في الأمور المتعلقة بالهجرة.

ـ وأن تقوم بتحقيق علمي يقوم به خبراء لدراسة إمكانية ادخال الأساليب الحديثة في الزراعة إلى فلسطين، وأن تقف كذلك بقوة ضد إخراج المزارعين العرب من الأراضي التي يزرعونها وأن توضع القيود على انتقال الأراضي حتى يتم وضع دراسة كاملة لموضوع الأراضي طبقاً لما تتوصل إليه من نتائج.

ـ وأن تعيد تأكيد البيان الصادر عام ١٩٢٢ الذي ينص على أن «المركز الخاص الذي تتمتع به الجمعية الصهيونية بموجب صك[٤٤] الانتداب لا يخولها الاشتراك بأية درجة في حكومة فلسطين.

ـ كما طالبت اللجنة بارسال لجنة دولية وبأسرع وقت لايجاد الحلول المناسبة للمشاكل المتعلقة بحائط المبكى، وطالبت أيضاً بالاحتفاظ وبشكل دائم بقوات من الجيش والشرطة للمحافظة على الأمن.

ـ وكما هو متوقع فإن آراء هذه اللجنة لم تترك أثراً يذكر

(٤٠) ناجي علوش، **الحركة الوطنية الفلسطينية**، المصدر السابق ص ١٥٨.

(٤١) د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩**، ص ٢٨٥.

(٤٢) د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩**، ص ٢٨٨.

(٤٣) ناجي علوش، **الحركة الوطنية الفلسطينية**، المصدر السابق ص ١٦١.

(٤٤) د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩**، المصدر السابق ص ٢٨٩.

فيما يتعلق بمستقبل فلسطين شأنها في ذلك شأن اللجان الملكية التي تكونت فيما بعد. وكذلك اعتبر الصهاينة تقرير شو ميالاً للعرب، وأن اللجنة قد تخطت اختصاصاتها، وهذ مما دفع بالحكومة البريطانية إلى إرسال مبعوث آخر هو جون هوب سمبسون.

لجنة جون هوب سمبسون

أوفدت الحكومة البريطانية جون هوب سمبسون الذي يعد خبيراً عالمياً في مسائل الاسكان والأراضي، حيث كان أثناء تعيينه عضواً في لجنة لعصبة الأمم مكلفة بأمر تبادل السكان بين تركيا واليونان اثر انتصار مصطفى كمال أتاتورك، ليقوم بالتحقيقات التي أوصت بها لجنة شو. وقد قام المستر سمبسون بدراسة أحوال فلسطين، قدم بعدها تقريراً قوبل بالارتياح من قبل العرب وبالاستياء من قبل الصهاينة، إلا أن مقترحات المستر سمبسون أودعت الرف ولم تنفذ. ولقد كان موضوع الأرض من المواضيع الرئيسية التي عالجها هذا التقرير، حيث قال «بأن مساحة الأراضي القابلة للزراعة في فلسطين - باستثناء أراضي قضاء بئر السبع - لم تكن تزيد على ٦٥٤٤٠٠٠ دونم أي أقل بكثير من تقديرات الصهيونيين التي جعلت هذه المساحة ١٦٠٠٠٠٠٠ دونم وأقل كذلك من الرقم الذي سجله مدير دائرة الأراضي والبالغ ١٠٥٩٢٠٠٠ دونم[٤٥]». وقد استخلص المستر سمبسون من التقرير الذي وضعه بشأن الأراضي الصالحة للزراعة الآتي:

(١) أنه لو قسمت جميع الأراضي الصالحة للزراعة في فلسطين بين العرب المزارعين فلن يتوفر لكل أسرة من الأراضي ما يكفيها لكي تعيش عيشة كريمة لائقة[٤٦].

(٢) وأنه لا يوجد في فلسطين متسع لزيادة مستوطن إضافي واحد لإسكان المزيد من اليهود فيه، إذا أريد لحياة الفلاحين أن تبقى على المستوى الذي هي عليه الآن[٤٧].

(٣) وجه المستر سمبسون أيضاً نقداً إلى السياسة العمالية التي كان يتبعها الصهاينة، فعندما تباع الأراضي التي يعمل بها المزارعون العرب، فإنهم في أغلب الأحيان يفقدون أعمالهم بسبب تحوّل هذه الأراضي إلى ما يشبه الوقف ملكاً قومياً لا ينتقل ولا يعمل به غير اليهود. وقد كتب جون هوب سمبسون الذي وصف هذا الشعار بالرذيلة والذي تحول فيما بعد إلى مبدأ قائلاً «لا يؤلف مبدأ الإصرار المتعمد على مقاطعة العمال العرب وعدم تشغيلهم في المستعمرات اليهودية، مناقضة للانتداب فحسب، وإنما يؤلف كذلك، مصدراً دائماً متزايداً للخطر الذي يهدد البلاد»[٤٨].

(٤) انتقد المستر سمبسون أيضاً سياسة الاحتيال التي كانت تتبعها الوكالة اليهودية لجلب المهاجرين، فكثير من العمال تعطى لهم الأموال حتى يفوا بقانون ضمان المعيشة من قوانين الهجرة الذي يتطلب من المهاجر أن يكون مالكاً لألف جنيه على الأقل حتى يعتبر من أصحاب رؤوس الأموال ويسمح له بالدخول بدون شرط لأن معه ضماناً لمعيشته، كما أن صاحب المهنة الذي يملك خمسمائة جنيه يعامل بالمثل. لكن هؤلاء سرعان ما يفقدون هذه الأموال لأنهم في الأصل لا يملكونها وإنما أعطيت لهم من قبل الوكالة اليهودية ليتسنى لهم الدخول إلى فلسطين، ثم تسحب منهم وتعطى لغيرهم. وبذلك يصبحون عبئاً على البلاد وسبباً رئيسياً في ازدياد البطالة[٤٩].

(٥) ركز مستر سمبسون في تقريره أيضاً على ازدياد البطالة في صفوف العمال العرب، وعزا ذلك إلى مزاحمة العمال اليهود، وقد كتب واصفاً هذا الوضع «ولما كان هناك عدد كبير من العمال العرب العاطلين، فلم يكن من العدل أن يستورد العمال اليهود من البلاد الأخرى ليحتلوا الأماكن الشاغرة»[٥٠].

ردود الفعل لتقرير هوب سمبسون

اعتقد عرب فلسطين أنه نتيجة «للتقرير المنصف» الذي توصل إليه تحقيق هوب - سمبسون فإن الحكومة البريطانية يمكن أن تنحو منحى إيجابياً في تعاملها مع هموم الفلسطينيين ومن منطلق إدراكها الجدّي لما يمكن أن تخلفه الهجرة اليهودية المكثفة إلى فلسطين من دمار شامل للهوية

---

(٤٥) ناجي علوش، **الحركة الفلسطينية**، المصدر السابق ص ١٦٢. ردد المتظاهرون اسم كيث روتش Keith-Roach وهو حاكم القدس الذي أمر برفع الستار عن حائط المبكى في عام ١٩٢٨.

(٤٦) د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩**، المصدر السابق ص ٢٨٩.

(٤٧) المصدر السابق ص ٢٩٠.

(٤٨) د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩**، المصدر السابق ص ٢٩٨.

(٤٩) كريستوفر سايكس، **مفارق الطرق إلى اسرائيل**، المصدر السابق ص ٢٠٢.

(٥٠) كريستوفر سايكس، **مفارق الطرق اسرائيل**، المصدر السابق ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

الفلسطينية وضياع لأراضي العرب. ومن هذا المنطلق اقتنعت اللجنة التنفيذية العربية بعدم الحاجة إلى تنفيذ اضرابها السنوي المعتاد في نوفمبر من كل عام في ذكرى وعد بلفور، انطلاقاً من احساسها بأن تطورات ايجابية باتت تحلق في الأفق. ومع ذلك فإن بعض الفلسطينيين تحفظوا على قرار الغاء الاضراب من دافع شكوكهم في إمكانية تحقيق أي نتائج إيجابية ملموسة للعرب على ضوء السياسة البريطانية الثابتة والمؤيدة على الدوام للجانب اليهودي.

إلا أن الصهاينة أبدوا امتعاضاً غير عادي للنتائج التي توصلت إليها لجنة سمبسون ومارسوا ضغوطاً مكثفة على الجانب البريطاني من أجل الغاء الكتاب الأبيض الذي صدر في أكتوبر من عام ١٩٣٠ والمتضمن سياسة بريطانيا الجديدة إزاء مشكلة الهجرة وتحويل الأراضي كما صورها راعي الكتاب الأبيض اللورد باسفيلد وزير المستعمرات. فقد قام حاييم وايزمن رئيس الوكالة اليهودية بتقديم استقالته احتجاجاً على الموقف البريطاني الجديد. كما اندلعت ردود فعل غاضبة ضد بريطانيا في الأوساط اليهودية وتدفقت البرقيات الشاجبة لسياسة بريطانيا على مقر الحكومة البريطانية فيما قامت الصحافة الصهيونية في الولايات المتحدة وبريطانيا بشن نقد لاذع ضد السياسة البريطانية في خطوة وصفها أحد الأعضاء الانجليز في لجنة الانتدابات بأنها مؤامرة دعائية عالمية.

ورغم التحذيرات العربية لبريطانيا من مغبة أي تغيير في سياستها الجديدة وما قد ينتج عن ذلك من خيبة أمل كبرى عند العرب، وعلى الرغم من التحذيرات التي أصدرها بعض الساسة الانجليز من أنّ أي تغيير في السياسة البريطانية لصالح اليهود سيؤدي إلى زيادة أنصار المعسكر المتشدد بين الفلسطينيين، إلا أن الحكومة البريطانية أبدت عدم اكتراث للمشاعر العربية من خلال تبنيها لوثيقة سياسية جديدة أطلق عليها العرب «الكتاب الأسود». وفي واقع الحال فإن السياسة الجديدة عبرت عنها الحكومة البريطانية في خطاب بعثه رئيس الوزراء رامزي ماكدونالد إلى الزعيم الصهيوني حاييم وايزمن في فبراير من عام ١٩٣١[٥١]. لقد جاء خطاب ماكدونالد «الأسود» لينسخ كل الوعود والتطمينات التي قدمتها بريطانيا للعرب بشأن الهجرة اليهودية ومشكلة الأراضي. وفي الواقع فإن السياسة البريطانية الجديدة التي تعبر عن تسليم واضح للمنظمات الصهيونية، جاءت لتفتح الباب واسعاً أمام اليهود من أجل المضي قدماً في مخططهم الصهيوني وعلى أكبر نطاق[٥٢]. وتقول إحدى لجان التحقيق البريطانية التي شكلت فيما بعد، في معرض تعليقها على تغير الموقف البريطاني «فاستبدال الكتاب الأبيض بالكتاب الأسود كان في رأي العرب، دليلاً واضحاً على النفوذ الذي تستطيع اليهودية العالمية أن تمارسه في لندن، وكل ثقة كانت للعرب في عزم الحكومة البريطانية على عمل ما تمليه العدالة في ظل ما يسمونه دائماً بالانتداب المجحف تزعزعت كل التزعزع على الأقل»[٥٣]. وعلى ضوء تلك السياسة الجديدة ازدادت معاناة الفلسطينيين بسبب ازدياد الهجرة اليهودية واستمرار انتقال الأراضي العربية لليهود وما ترتب عن ذلك من بطالة واسعة في أوساط الشعب العربي الفلسطيني.

أما عن ردود الفعل العربية إزاء تلك السياسة البريطانية الجديدة فقد تمثلت في بيانات تنديد أصدرتها اللجنة التنفيذية العربية ودعوات لمقاطعة اليهود اقتصادياً. غير أن بعض الدعوات المتشددة لوقف كافة أشكال التعامل مع اليهود والانجليز على السواء أو لتبني سياسة عصيان مدني لم يكتب لها النجاح لأن غالبية القيادات الفلسطينية كانت تفضل التريث وعدم قطع حبال التعاون مع الجانب البريطاني.

إلا أن الحكومة البريطانية استمرت في سياستها الخاذلة للعرب مما ادى إلى استشراء شعور باليأس في أوساط الفلسطينيين بعد أن تأكد لهم بما لا يدع مجالاً للشك أن سياسة الحكومة البريطانية وما ترافق مع ذلك من ازدياد سطوة التيار المتطرف في الحركة الصهيونية وفي أوساط يهود فلسطين وما كان يعبر عنه القادة اليهود من الحاجة إلى ضرورة التوسع في استخدام القوة المسلحة لتحقيق الهدف الصهيوني، على ضوء كل ذلك، ظهرت دعوة جادة بين عرب فلسطين من أجل العدول عن سياسة الاحتجاجات وبيانات الشجب والادانة والاتجاه نحو النضال السياسي والعسكري لاثبات الذات الفلسطينية. لقد قدمت الحكومة البريطانية اشكالاً كثيرة من التعاطف المادي والمعنوي لصالح الحركة الصهيونية وضربت عرض الحائط بكل التقارير المنصفة التي توصلت إليها لجان التحقيق، ومن ثم فإن النضال الفلسطيني أصبح

(٥١) د. عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**.

(٥٢) محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، ص ٧٢.

(٥٣) د. عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، المصدر السابق، ص ٢٥٨.

موجهاً ضد الانجليز والصهاينة على حد سواء.

أصبحت حكومة الانتداب هدفاً من أهداف المقاومة العربية وقد امتلأت الصحف الفلسطينية بالمقالات النارية الملتهبة التي تهاجم السياسة البريطانية في فلسطين، مما دفع الحكومة البريطانية إلى اصدار قانون جديد للمطبوعات يقضي بتعطيل كل جريدة تعمد إلى نشر مقالات مهيجة للمشاعر(٥٤).

لقد كانت فترة الثلاثينات فترة باهرة في تاريخ النضال الفلسطيني، فخلال تلك المرحلة شهدت الساحة الفلسطينية موجات متتالية من الاحتجاجات والثورات التي برهنت على أن شعب فلسطين أصبح أكثر إدراكاً للمؤامرات التي تحاك ضده بواسطة القوى الكبرى المتآمرة مع الحركة الصهيونية. فقد اندلعت خلال تلك الفترة أعمال عنف واسعة في العديد من المدن الفلسطينية وقامت مظاهرات حاشدة اشترك فيها عشرات الآلاف من المواطنين الرافضين للصهيونية ولسياسة الحكومة البريطانية، كما سقط العشرات بين قتيل وجريح. وبسبب موقف الحكومة الامريكية الذي يقضي بوضع حصص محددة لهجرة اليهود إليها في كل عام، على ضوء كل ذلك بدأت اعداد اليهود تتدفق بازدياد إلى فلسطين. وفي حين كان عدد اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين يزيد على أربعة آلاف مهاجر بقليل في عام ١٩٣١، قفز الرقم إلى ١٢,٥٥٣ مهاجراً في عام ١٩٣٢ ثم ارتفع مرة أخرى في عام ١٩٣٣ ليصل إلى ٣٧,٣٣٧ مهاجراً يهودياً، عدا من وصلوا إلى فلسطين بطريقة غير شرعية(٥٥). ومن هذا المنطلق قرر عرب فلسطين تأسيس تنظيم يضطلع بمهمة وقف الهجرة اليهودية إلى البلاد فيما عرف بلجنة حراسة السواحل والحدود وذلك في عام ١٩٣٤. ومع أن هذا التنظيم الجديد قد سارع على الفور إلى القيام بدوريات الحراسة، فإن تدخل سلطات الانتداب البريطانية حال دون ممارسة لجنة الحراسة الدور المؤمل منها(٥٦).

لقد شهدت فترة الثلاثينات قيام أحزاب سياسية نشطة أسسها عرب فلسطين مثل حزب الدفاع الوطني والحزب العربي الفلسطيني وحزب الإصلاح وحزب الكتلة الوطنية وحزب الاستقلال العربي. وفي أكتوبر من عام ١٩٣٥ عقدت تلك الأحزاب اجتماعاً مشتركاً توّج بمذكرة حاسمة رفعت إلى سلطات الانتداب البريطانية تضمنت عدداً من المطالب الأساسية الرامية إلى تشكيل حكومة نيابية في فلسطين ووقف الهجرة اليهودية وقفاً تاماً ومنع بيع الأراضي لليهود. وقد وصف البعض تلك المذكرة بما يشبه الانذار النهائي الموجه من كل المواطنين العرب للحكومة البريطانية من أجل حل القضية حلاً سلمياً(٥٧).

ويبدو أن الحكومة البريطانية قد تبنت سياسة تقوم على تهدئة الحركة الوطنية الفلسطينية وامتصاص حماسها. وفي هذا الاطار نتفهم المشروع الذي تقدم به السير آرثر جرنفيل واكهوب المندوب السامي البريطاني في فلسطين والداعي إلى إقامة مجلس تشريعي في فلسطين. لقد اقترح واكهوب أن يتشكل المجلس من ثمانية وعشرين عضواً من بينهم واحد وعشرون معيناً والآخرون بالانتخاب. وقد رأى واكهوب أن يكون من بين الأعضاء المعيّنين خمسة موظفين حكوميين من الانجليز وثمانية مسلمون واثنان من المسيحيين وأربعة يهود بالإضافة إلى اثنين من التجار. أما الأعضاء المنتخبون فقد اقترح واكهوب انتخاب ثلاثة من المسلمين وثلاثة من اليهود وعضو مسيحي في عضوية المجلس التشريعي المقترح(٥٨). وكان من الواضح أن الأحزاب والقيادات السياسية العربية قد اختلفت في تقييمها لمشروع واكهوب بين مؤيد ومتحفظ ورافض للمشروع فيما تحفظت الصحافة الفلسطينية على الصلاحيات الضئيلة المحدودة للمجلس والعدد الصغير للنواب العرب الأعضاء فيه. هذا في الوقت الذي رفضت فيه القيادات الصهيونية هذا المشروع ثم تلا ذلك رفض لفكرة المجلس التشريعي من جانب مجلس اللوردات ومجلس العموم البريطانيين(٥٩).

---

(٥٤) كريستوفر سايكس، **مفارق الطرق إلى اسرائيل**، المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٥٥) محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، المصدر السابق ص ٧٢.

(٥٦) كريستوفر سايكس، **مفارق الطرق إلى اسرائيل**، المصدر السابق ص ٢٠٨.

(٥٧) Y. Porath, The Palestinian Arab National Movement (London: Frank Cass, 1977).

(٥٨) انظر كريستوفر سايكس، **مفارق الطرق إلى اسرائيل**، مترجم، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٦، ص ٢١٢). وكان ماكدونالد قد تعرض لهجوم شرس من قبل قادة الصهاينة وعلى رأسهم حاييم وايزمن الذي اتهمه بالتنصل من وعوده التي قطعها لليهود، بينما اتهمه رئيس وزراء بريطانيا السابق لويد جورج بخيانة أمانة الحكم التي أوكلت إليه، وبدفع انجلترا إلى نقض عهدها.

(٥٩) محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، ج ١، منشورات دائرة الاعلام والثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، ص ٧٤. أشار البيان الذي اصدرته الحكومة البريطانية فيما يعرف بالكتاب الأسود إلى ان بريطانيا لا تزال متمسكة بمبدأ إنشاء الوطن القومي وأن تحقيق هذا المبدأ لا يتأتى إلا عن طريق الهجرة والتوطن وأن من حق اليهود أن يستخدموا بني جنسهم في المزارع اليهودية. كما تراجعت بريطانيا عن سياستها في تقييد انتقال الأراضي. انظر صلاح العقاد، **المشرق العربي المعاصر**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٣، ص ٣١٣.

إلا أن حماس عرب فلسطين لم يخبُ بل ازداد اشتعالاً وخصوصاً من عام ١٩٣٥ حين ظهرت على الساحة الفلسطينية العديد من التنظيمات السرية التي تبنت خط الكفاح المسلح ورفض التعامل مع الصهاينة والانجليز على حد سواء. فقد ظهرت خلال تلك الفترة منظمة الشباب الثائر في مدينة طولكرم التي دعت إلى محاربة اليهود والانجليز ومن اسمتهم بالخونة العرب أيضاً، بالإضافة إلى منظمة سرية اطلقت على نفسها اسم اليد السوداء ومنظمات أخرى عديدة، هذا بخلاف المنظمات التي سبق تأسيسها مثل الجهاد المقدس(٦٠).

ومن المعالم المنيرة في تاريخ النضال الفلسطيني الثورة الفلسطينية الكبرى التي اندلعت في عام ١٩٣٦ كمعلم بارز في حركة المقاومة الوطنية. وكانت الظروف مواتية لاندلاع الثورة في ضوء التحديات السافرة التي قام بها الصهاينة في فلسطين برعاية استفزازية من سلطات الاحتلال البريطاني ومن واقع الدور النضالي البارز الذي لعبه بعض القياديين الفلسطينيين في التصدي للاستفزازات الصهيونية، وفي طليعة هؤلاء الشيخ عز الدين القسام. وكانت هذه الفترة قد شهدت ذروة التحديات الصهيونية من خلال عمليات انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود والتي تمت على نطاق واسع. فقد بدأت بعض الأسر غير الفلسطينية، ممن تمتلك أراضي كبيرة في فلسطين، ومن واقع الإحساس باضطراب الأوضاع وعدم اتضاح الرؤية المستقبلية قامت هذه الأسر ببيع آلاف الدونمات للجماعات اليهودية التي قدمت عروضاً مغرية. وعلى ضوء ذلك وجد آلاف الفلاحين العرب أنفسهم مشردين بعد أن أجبرتهم السلطات المنتدبة بتحريض من القوى الصهيونية على الجلاء عن أراضيهم، ومن هؤلاء عرب وادي الحوارث وعرب الزبيدات وأهالي قرية العفولة وآخرون غيرهم(٦١).

كما تزامن مع تلك الاجراءات العدوانية اتساع في نطاق الهجرة اليهودية إلى فلسطين بمباركة من السلطات البريطانية. فقد وصل عدد المهاجرين اليهود الذين دخلوا فلسطين بصورة رسمية عام ١٩٣٤ إلى ما يزيد عن خمسة وأربعين ألف مهاجر ثم يرتفع الرقم في عام ١٩٣٥ إلى ما يزيد عن ستة وستين ألف مهاجر يهودي، هذا عدا من دخل فلسطين بصورة غير رسمية(٦٢).

وقد تزامن مع هذه التطورات المحزنة إحساس متزايد بالقلق من جانب المواطنين العرب بسبب الاتجاه المتنامي في أوساط التجمعات الصهيونية في فلسطين إلى تأسيس حاميات عسكرية واللجوء إلى التسلح على نطاق واسع بحجة حماية المستوطنات اليهودية من أي هجمات عسكرية محتملة من جانب الفلسطينيين. وكانت السلطات البريطانية قد ساهمت في هذه الحملة عن طريق توفير السلاح لليهود بحجة الدفاع عن أنفسهم، بل وعينت بعض المدربين العسكريين لتدريب شبانهم. كل ذلك أدى إلى حدوث قلق وهياج في أوساط المواطنين العرب الذين كانوا يشعرون بأنهم أولى بالحاجة إلى الدفاع عن النفس وحماية أراضيهم التي كانت تتعرض للمصادرة على نطاق واسع.

ويقيناً فإن حركة الشيخ عز الدين القسام تكتسب أهمية خاصة عند دراسة تطور حركة النضال الفلسطيني لأنها جاءت لتخطو بالنضال العربي خطوة جديدة بالانتقال نحو مرحلة المواجهة المسلحة. وكان الشيخ القسام الذي نشأ في حيفا وهو رجل دين بارز قد اكتسب شهرة واسعة في الأوساط الفلسطينية من خلال الدروس التي كان يضطلع بها والتي كرس جزءاً كبيراً منها في الحديث عن الجهاد كمسألة وجوبية تحتمها التطورات التي تمر بها القضية الفلسطينية. وكان الشيخ القسام متصلاً بالأوساط العمالية في حيفا التي كانت مركزاً هاماً من مراكز العمال العرب. ويقول أحد معاصري الشيخ القسام:

«كان (الشيخ القسام) من رجال الدين المتدينين ومن الذين انتسبوا إلى فرع حزب الاستقلال في حيفا... وكانت روحه وعظاته منسجمة مع فكرة الجهاد ووجوبه، وكان بارعاً في الوعظ نافذاً به إلى أعماق النفوس، فتحلق حوله حلقة جهادية متدينة»(٦٣).

(٦٠) محمود زايد، **تاريخ فلسطين ١٩١٤ ـ ١٩٤٨**، بيروت: دار القدس، ١٩٧٤، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٦١) محمود زايد، المصدر السابق، ص ٦٩. مقالات لاذعة تهاجم السياسة البريطانية في فلسطين وتدعو الشعب إلى النضال ضد الوجود الانجليزي. وقد كتب أحد القياديين العرب ويدعى صبحي الخضراء مقالة قوية في جريدة الجامعة العربية بعنوان «بريطانيا أصل الداء ورأس البلاء» حيث كان لهذه المقالة ردود فعل عنيفة لدى الانجليز دفعتهم إلى تقديمه للمحاكمة ونفيه من القدس. انظر محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية**، ص ١٠٢.

(٦٢) Y. Porath، المصدر السابق، ص ص ٣٩ ـ ٤٠. بلغ عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين في عام ١٩٣٥ اثنين وستين ألف مهاجر قدموا بصورة رسمية بالإضافة إلى ١٥ الف يهودي دخلوا إلى فلسطين خلسة. انظر: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص ٦٢٦. ويشير مصدر آخر إلى ان عدد اليهود الذين دخلوا فلسطين في عام ١٩٣١ بلغ ٤٠٧٥ مهاجراً يهودياً ووصل في عام ١٩٣٢ إلى ٩٥٥٣ مهاجراً، ثم ارتفع إلى ما يزيد على ثلاثين الف مهاجر في ١٩٣٣. انظر لذلك صابر طعمة، **التاريخ اليهودي العام**، (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٥) ص ٢٣٩.

وقد انتقل الشيخ عز الدين القسام من مرحلة الوعظ والحديث إلى المرحلة العملية عندما قام هو وعشرة من رفاقه في شهر أكتوبر من عام ١٩٣٥ بالتمركز في قرية يعبد في قضاء جنين بهدف مهاجمة أفراد الجيش البريطاني الذين علموا بأمرهم وحاصروهم واشتبكوا معهم في معركة قدّر لها أن تنتهي باستشهاد الشيخ القسام واثنين من رفاقه بينما هرب الباقون إلى الجبال والأحراش القريبة وكان ذلك في صباح يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥(٦٤) ويصف أحد القياديين الفلسطينيين هذا الحادث بالقول:

«لقد كان للحادثة أثر بليغ في نفوس العرب أثارت عواطفهم واهاجت أعصابهم... حتى لقد خشيت السلطات (البريطانية) من هذه المظاهر وانزعجت أيما انزعاج. وبعد أن وصفت العصبة (جماعة القسّام) بالأشقياء عادت إلى التهدئة ولم تذكرها بسوء. وكان الحادث نموذجاً جديداً للجهاد ومثلاً عالياً على التضحية والاحترام مجردين من كلّ غرض أو شهوة، وغدا اسم القسام وعصبته لا يذكر إلا مع التكريم والاجلال»(٦٥).

بدأت بوادر الثورة العربية الكبرى التي سبقها الاضراب العام ببعض الأحداث الدموية من خلال المصادمات التي جرت بين العرب واليهود خلال أبريل من عام ١٩٣٦. إلا أن الأحداث وإن بدأت فردية، تحولت في فترة من الفترات إلى ما يشبه المواجهة الشاملة عندما عمد كل من العرب واليهود إلى مهاجمة المصالح التجارية والتجمعات السكنية لكل منهما فوقع نتيجة لذلك بعض القتلى من الجانبين في مدينتي يافا وتل أبيب(٦٦)، وفي تلك الظروف عمدت السلطات البريطانية إلى اعلان قانون الدفاع ووضعت قانون الطوارئ موضع التنفيذ واتخذت بعض الاجراءات التعسفية التي استهدفت المواطنين العرب بالدرجة الأولى. من هنا قرر العرب اعلان الاضراب العام حيث تشكلت لجنة قومية من جميع الأحزاب السياسية الفلسطينية للاشراف على تنفيذه وتم توجيه نداء حماسي للدول العربية من أجل الوقوف إلى جانب الأشقاء الفلسطينيين في نضالهم المشروع(٦٧). وفي أواخر ابريل من عام ١٩٣٦ تألفت اللجنة العربية العليا التي كلفت بتنسيق الأمور المتعلقة بالاضراب وبحركة النضال الفلسطيني بشكل عام. وقد ضمت اللجنة في عضويتها شخصيات قيادية فلسطينية تحت رئاسة الحاج أمين الحسيني. وفي الخامس والعشرين من أبريل اصدرت اللجنة العربية بياناً دعت فيه إلى الاستمرار في الاضراب العام طالما استمرت سياسة الحكومة البريطانية إزاء موضوع الهجرة اليهودية. وقد جددت اللجنة المطالب العربية الراسخة والداعية إلى منع الهجرة اليهودية منعاً باتاً ومنع انتقال الأراضي العربية لليهود وانشاء حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي(٦٨).

لم تكن ردة الفعل العربية تقتصر على الأحزاب فحسب، بل اتسعت لتشمل القيام بأعمال عسكرية ضد بعض الأهداف البريطانية الحيوية في فلسطين كخطوط الهاتف وأنابيب البترول وخطوط السكة الحديد وما إلى ذلك. وقد نتج عن أعمال العنف تدمير أنابيب البترول التي كانت تحمل النفط إلى ميناء التصدير في حيفا(٦٩).

لقد اتسم الاضراب العام في فلسطين بالشدة والثبات مع ما ترافق معه من اعلان الامتناع عن دفع الضرائب وما تأكد بصورة لا تدع مجالاً للشك في قيام وحدة وطنية حقيقية بين جميع أبناء فلسطين بمختلف اتجاهاتهم السياسية وطوائفهم الدينية. لقد أصبح الجو العام في جميع أنحاء فلسطين وخصوصاً في المدن الأربع الكبرى يافا وحيفا والقدس وتل أبيب جواً حربياً. فقد كانت الدوريات الإنجليزية وبما تشمله من دبابات ومصفحات تجوب جميع مدن فلسطين في ظل حالة منع التجول التي وصلت في أيام الذروة إلى ٢٢ ساعة في اليوم. كما كانت الأحياء العربية واليهودية في مدن الجانبين تشهد عشرات الحوادث الدامية التي وصلت إلى معدل يومي يقترب من خمسين حادثة اعتداء. وفي تقرير عن احداث الثورة العربية في الأربعة شهور والنصف الأولى تشير المصادر الصهيونية أن أحداث تلك الثورة خلفت ١٧٨ إصابة في صفوف الجيش الانجليزي بين قتيل وجريح. كما بلغ عدد القتلى العرب ٧٠٠ وعدد القتلى اليهود ٨١ وعدد الأشجار

(٦٣) **القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني**، ص ٢٢٩.

(٦٤) المصدر السابق، ص ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(٦٥) مهدي عبد الهادي، **المسألة الفلسطينية ومشاريع الحلول السياسية ١٩٣٤ - ١٩٧٤**، بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٧٥، ص ٣١ - ٣٢.

(٦٦) كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩**، بيروت: مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٤، ص ٢٢٣.

(٦٧) Y. Porath، المصدر السابق، ص ص ١٣١ - ١٣٢.

(٦٨) محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني**، ص ٢٣٢.

(٦٩) Y. Porath، المصدر السابق، ص ٣٩.

المقلوعة من المزارع التي يمتلكها اليهود ٢٠٠ ألف شجرة وعدد الحرائق في المستوطنات والأحياء اليهودية ٢٨٠ وعدد الجسور التي تم تدميرها ٤٨ جسراً عدا ما تم تدميره من منشآت حيوية أخرى كخطوط السكة الحديد وأعمدة الهاتف وغيرها(٧٠).

أما الإحصاءات الانجليزية الرسمية عن نتائج الثورة العربية خلال الشهور الستة الأولى فتشير إلى سقوط ٩٥٥ من المسلمين منهم ١٨٧ قتيلاً و٦٥ من المسيحيين منهم عشرة قتلى و١٢٥ من الجيش منهم ٢١ قتيلاً و٤٧ من البوليس الانكليزي منهم ٧ قتلى و١٢٤ من البوليس الفلسطيني منهم ٩ قتلى. إلا أن المصادر العربية تشكك في صحة الأرقام التي أوردتها المصادر الصهيونية والانجليزية على حد سواء لأن نسبة الإصابات كانت أعلى بكثير في صفوف الانكليز والعرب أيضاً(٧١).

كان رد فعل الحكومة البريطانية في مواجهة الاضراب العام وما تمخض عنه من مطالب عربية وجهت للإدارة البريطانية، عنيفاً واستفزازياً. فقد اقدمت الحكومة البريطانية على اسكات كل الأصوات المتعاطفة مع مطالب العرب التي حاولت أن تقف إلى جانب العدل وتبين الظلم الواقع على الفلسطينيين ومن هؤلاء قاضي القضاة السير مايكل ماكدونال الذي اجبرته الحكومة البريطانية على التقاعد ومغادرة فلسطين بسبب آرائه الصريحة المتعاطفة مع عرب فلسطين. ورغم أن هناك أصواتاً بريطانية أبدت بعض التفهم لموقف العرب وخصوصاً فيما يتعلق بمسألة وقف الهجرة اليهودية ولو بشكل مؤقت، فإن الأصوات المتعاطفة مع الصهاينة كان لها الغلبة. ولذا تبنت الحكومة البريطانية سياسة تقوم على رفض المهادنة مع العرب أو تقديم أي تنازل لهم انطلاقاً من مبدأ مزعوم يقوم على عدم التنازل للعنف، بل اكد بعض الوزراء ذوي الميول الصهيونية بأن مصلحة الحكومة البريطانية على المدى الطويل تكمن في تحالفها مع اليهود وليس مع العرب. ونتيجة لهذه السياسة عمدت الحكومة البريطانية إلى تكثيف وجودها المسلح في فلسطين عبر زيادة وجودها العسكري في فلسطين من خلال القوات العسكرية التي كانت ترد من انحاء مختلفة بما فيها مصر ومالطة، هذا بالإضافة إلى تطبيق أنظمة غاية في القسوة والصرامة ضد الثائرين العرب وفق ما يكفله لها قانون الطوارئ الذي وضع موضع التنفيذ. بل إن الإدارة البريطانية تمادت في غيها عندما قررت في خطوة استفزازية سافرة منح اليهود ٤٥٠٠ شهادة هجرة جديدة، هذا على الرغم من أن أحد المطالب الرئيسية للجنة العربية العليا، بل أهم المطالب على الاطلاق هو وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وفي خطوة أخرى بدأ المندوب السامي البريطاني يكيل المديح لليهود عندما راح ينتقد العرب ويثني على اليهود لاحتفاظهم بفضيلة ضبط النفس(٧٢).

كما اقدمت الإدارة البريطانية على اتخاذ قرارات استفزازية أخرى عندما قررت منح اليهود ١٥٠ ألف دونم إضافي من الأراضي الحكومية وبادرت إلى اتخاذ اجراءات تعسفية من أجل القضاء على الثورة العربية الكبرى، ومن ذلك نفي الشباب العرب إلى مدن أخرى لا ينتسبون إليها، وتطبيق العقوبات الجماعية المشتركة واستخدام الهراوات والغاز المسيل للدموع على نطاق واسع بالإضافة إلى اغلاق مقار بعض الجمعيات والتنظيمات العربية. كما لجأت بريطانيا إلى أسلوب التفتيش والمصادرة مما أثار ردود فعل غاضبة من جانب عرب فلسطين. فقد استنكر علماء فلسطين إقدام السلطات البريطانية على أعمال التفتيش الجائرة واتهموها بالاعتداء الصارخ على حرمات البيوت والنساء وترويع الأطفال والشيوخ واتلاف الاثاث والموجودات البيتية والمؤونة بصورة فظيعة، وخصوصاً إهانة المصاحف الشريفة(٧٣). ويصف تقرير آخر كتبه أحد القياديين الفلسطينيين في الإدارة البريطانية في مواجهة انتفاضة الشعب العربي الفلسطيني بأن:

«السلطة البريطانية تستعمل بفلسطين جنود الحرب لضرب القرى غير المسلحة، وتخريب كل ما في البيوت من اثاث ومؤن وتمزيق المصاحف الشريفة ودوسها بالأقدام، واختلاس النقود والأموال. وسنت هذه السلطة قوانين جديدة لابعاد الوطنيين وتشريدهم واكراه المضربين على فتح حوانيتهم، مما هو مخالف لأقدس حريات الأفراد وعهد حقوق الإنسان»(٧٤).

اكتسبت الثورة الفلسطينية بُعدها العربي الفعلي من خلال

---

(٧٠) محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية**، ص ١٢٠.

(٧١) لمزيد من التفاصيل حول حياة الشيخ عز الدين القسام وتطور نشاط حركته انظر: كامل محمود خلة، المصدر السابق، ص ٢٧٥ ـ ٢٨٣.

(٧٢) محمد عزة دروزة، المصدر السابق، ص ١٢١.

(٧٣) صلاح العقاد، المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٧٤) محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني**، ص ٢٢٣.

المشاركة الملموسة لبعض المتطوعين العرب في أعمال الثورة فقد شارك المناضل العراقي فوزي القاوقجي في أنشطة الثورة بشكل فعال حينما دخل فلسطين على رأس مجموعة من المتطوعين العرب قوامها ١٥٠ مناضلاً وذلك بدعوة من مفتي فلسطين رئيس اللجنة العربية العليا الحاج أمين الحسيني. كما انضم إلى صفوف الثوار الفلسطينيين متطوعون آخرون من العراق والأردن وسوريا ولبنان وكان لهؤلاء جميعاً مواقف بطولية مشهودة. كما تشكلت في بعض البلدان العربية كسوريا والعراق واليمن والسعودية لجان شعبية لدعم نضال الشعب الفلسطيني وجمع المساعدات المادية والاعانات للمنكوبين[٧٥]. ليس هذا فحسب، بل ان الثورة العربية الكبرى كان لها صدى كبير في الأوساط الإسلامية وخصوصاً في الهند، فقد طالبت الصحافة المسلمة في الهند الحكومة البريطانية بتغيير مواقفها إزاء ما يجري في فلسطين، كما اندلعت مظاهرات وتجمعات مستنكرة للسياسة البريطانية في ذلك القطر العربي. إلا أن الحكومة البريطانية ـ على الرغم من تحذيرات المسؤولين الانجليز في حكومة الهند ووزير الدولة لشؤون الهند من الانعكاسات المحتملة لسياسة بلادهم في فلسطين على الأوضاع في أكبر المستعمرات البريطانية هي الهند ـ ومع ذلك فإن بريطانيا لم تلتفت لمثل تلك التحذيرات في ظل سياستها الراسخة في تأييد الأهداف الصهيونية في فلسطين[٧٦].

إلا أن الحكومة البريطانية التي كانت لا تزال مصرة على عدم تقديم أي تنازل للثائرين العرب وخصوصاً فيما يتعلق بموضوع الهجرة، وجدت من المناسب أن توسط بعض أصدقائها من القادة العرب من أجل اقناع اللجنة العربية العليا بوقف الاضراب العام وأعمال الثورة. وقد دخلت الدبلوماسية البريطانية ومن خلال العديد من الوسطاء في مفاوضات مستفيضة مع بعض القادة العرب وعلى رأسهم الملك عبد العزيز بن سعود عاهل المملكة العربية السعودية وملك العراق غازي وإمام اليمن يحيى حميد الدين وأمير شرق الأردن عبد الله من أجل محاولة التوصل إلى صيغة تضمن من خلالها عودة الهدوء إلى فلسطين وفي المنطقة، ولم يحقق لعرب فلسطين مطالبهم التي يطمحون لتحقيقها. كما أن الحكومة البريطانية اصرت على موقفها الرافض لتقديم أي تنازلات طالما استمرت الثورة العربية بالإضافة إلى رفضها لتقديم أي وعود مسبقة بشأن موضوع الهجرة مقابل انهاء الثورة. وقد انصبت السياسة البريطانية في تلك المرحلة على التأكيد بأن المواطنين العرب سيجدون الفرصة سانحة أمامهم للتعبير عن وجهة نظرهم بكل حرية أمام لجنة محايدة هي اللجنة الملكية التي ستكلف ببحث كافة الأمور المتعلقة بأزمة الأوضاع في فلسطين حالما تتوقف الاضطرابات وأعمال العنف في البلاد. وقد ابلغت الحكومة البريطانية هذا الموقف عبر وزرائها وسفرائها إلى المسؤولين العرب في الدول الأربع وزادت على ذلك بأنه في حال استمرار العرب في انتفاضتهم واضرابهم فإن الحكومة البريطانية قد تجد نفسها مضطرة إلى اتخاذ اجراءات أكثر عنفاً في التعامل مع الأوضاع في فلسطين. من هذا المنطلق ولأسباب أخرى عديدة اقتنع الزعماء الأربعة بفكرة اصدار نداء إلى شعب فلسطين من أجل وقف ثورتهم الباسلة، هذا على الرغم من أنهم لم يحصلوا على ضمانات مؤكدة من جانب بريطانيا بالاستجابة إلى كل مطالبهم او بعضها في حالة وقف الثورة[٧٧].

ومع ذلك وعلى الرغم من التفاهم الصريح الذي تم بين الحكومة البريطانية والقادة العرب بشأن البيان المزمع اصداره، ولأن الإدارة البريطانية بدأت تتهيأ لاتخاذ اجراءات قمعية لاخماد الثورة العربية بالقوة لكي لا يبدو الأمر وكأن الوساطة العربية كان لها الفضل الأكبر في انهاء الثورة، فقد وصل إلى فلسطين الجنرال الانجليزي ديل في الوقت الذي بدأت فيه المعدات العسكرية تتدفق عليها، في عرض استفزازي للقوة. وفي الثامن من أكتوبر من عام ١٩٣٦ صدر نداء الزعماء العرب الذي كان موجهاً إلى رئيس اللجنة العربية العليا وإلى «أبنائنا عرب فلسطين» وقد جاء في البيان:

«لقد تألمنا كثيراً للحالة السائدة في فلسطين. فنحن بالاتفاق مع اخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم للاخلاد للسكينة حقناً للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل. وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم»[٧٧].

وحيث إن نداءات الزعماء العرب وحسب ما اتفق عليه مع اللجنة العربية العليا من ضرورة اصدار بيان من جانب اللجنة يوضح موقفها من نداء القادة العرب بحيث يدعو رسمياً لانهاء الثورة، فقد اصدرت اللجنة بياناً بهذا الخصوص تدعو فيه إلى حل الاضراب الذي دام ستة أشهر كاملة. وجاء في

(٧٥) .Y. Porath المصدر السابق، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٧٦) كريستوفر سايكس، المصدر السابق، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٧٧) محمد عزه دروزة، المصدر السابق، ص ١٢٤ ـ ١٢٩.

بيان اللجنة العربية:

«قررت اللجنة العربية العليا بالاجماع وبعد استشارة مندوبي اللجان القومية والحصول على موافقتهم باتفاق الآراء أن تلبي نداء أصحاب الجلالة ملوك العرب وسمو الأمير... وأن تدعو الأمة العربية الكريمة في فلسطين للاخلاد إلى السكينة وانهاء الاضراب والاضطرابات ابتداءً من صباح الاثنين المبارك الواقع في ٢٦ رجب ١٣٥٥ وفق ١٢ تشرين الأول ١٩٣٦ وأن يبكر أفراد الأمة الكريمة في صباح ذلك اليوم إلى معابدهم لإقامة الصلاة على أرواح الشهداء ورفع الشكر له تعالى على ما الهمهم به من صبر وجلد ثم يخرجون من المعابد لفتح مخازنهم وحوانيتهم ومزاولة أعمالهم المعتادة»(٧٨).

ومع توقف الثورة العربية الكبرى عادت الحياة في فلسطين إلى سابق عهدها إلا انه لم يكن هناك تفاؤل يذكر في الأوساط الفلسطينية بأن الأوضاع كانت في طريقها إلى التحسن. هذا في الوقت الذي جددت فيه بريطانيا تأكيدها على موقفها الذي سبق أن اوضحته بأن وقف الاضراب من جانب العرب وفق وساطة الزعماء العرب لا ينطوي على أي تعهد من جانب الحكومة البريطانية. وجاء في بيان لوزير المستعمرات البريطاني أورمسبي غور بأن بريطانيا لم تطلب مساعدة أو مشورة الزعماء العرب بشأن فلسطين، بل جاءت المبادرة من جانبهم. واكد غور أنه لم تقدم حكومة صاحب الجلالة أية تعهدات أو وعود صريحة أو ضمنية(٧٩).

لكن بريطانيا مع ذلك حافظت على أحد وعودها فحسب وهو ما كان قد سبق أن اعلنه وزير المستعمرات البريطاني «اورمسبي غور» في ٩ يونيو من أن الحكومة البريطانية ستعيّن لجنة تحقيق ملكية لايجاد الوسائل الكفيلة بتحقيق سلام دائم في فلسطين، بعد هدوء الأحوال فيها. فقد تشكلت لجنة تحقيق ملكية عرفت باسم لجنة بيل نسبة إلى رئيسها اللورد بيل الذي كان في السابق وزير دولة لشؤون الهند وضمت في عضويتها سبعة أعضاء وعهد إليهم بعدد من الاختصاصات من بينها التثبت من الأسباب الأساسية للاضطرابات التي نشبت في فلسطين والتحقيق في كيفية تنفيذ صك الانتداب على فلسطين بالنسبة لالتزامات بريطانيا نحو العرب ونحو اليهود. إلا أن مهمة اللجنة تزامنت مع قرار بريطاني استفزازي صدر في نفس اليوم الذي غادر فيه أعضاء اللجنة إلى فلسطين لبدء أعمال التحقيق في الخامس من نوفمبر من عام ١٩٣٦. فقد اعلن وزير المستعمرات البريطاني عن موافقة حكومته على منح ١٨٠٠ شهادة هجرة يهودية جديدة إلى فلسطين من منطلق «أن وقف الهجرة في أثناء تحقيق اللجنة الملكية لا تسوغه أسباب اقتصادية ولا غيرها وإنما يعرقل مهمة اللجنة»(٨٠).

وفي اليوم التالي اصدرت اللجنة العربية بياناً اعلنت فيه عن مقاطعتها للجنة بيل من منطلق ان القرار البريطاني ينم عن «تحد شديد لعواطف العرب وعدوان على حقوقهم ودليل على فقدان حسن النية في حل القضية العربية في فلسطين حلاً صحيحاً قائماً على تحقيق مطالبهم وحفظ كيانهم القومي»(٨١).

إلا أن اللجنة الملكية مع ذلك باشرت عملها حال وصولها إلى فلسطين، حيث استمعت إلى شهادات كبار الموظفين الحكوميين في الإدارة المنتدبة، ثم استمعت إلى آراء زعماء اليهود ورؤساء الأحزاب الصهيونية في فلسطين، الذين كانت لهم آراء صريحة بضرورة التزام بريطانيا بصك الانتداب وأنه لا بديل عن إقامة الدولة اليهودية الموعودة على أرض فلسطين وإن كان البعض منهم قد طالب بأن تشمل تلك الدولة شرق الأردن لأنها مكملة لوحدة فلسطين الطبيعية. كما اكد بعض غلاة الصهاينة أنه يتعين على الحكومة البريطانية أن تفهم بأن اليهود مصممون على قيام دولة لهم حتى وإن استدعى ذلك استخدام أقصى درجات القوة. وقال الصهيوني المتطرف جابوتنكسي وهو زعيم حزب الإصلاح إنه لا يهتم بارضاء العرب واقناعهم ولا يرى ذلك ضرورياً لأنهم سيرضخون في نهاية المطاف للأمر الواقع مشيراً إلى أنه من المستحيل أن يكون هناك حلّ وسط في تقسيم البلاد إلى إقليمين أو المساواة بين الشعبين(٨٢). ويعلق حاييم وايزمن على عمل اللجنة الملكية بالقول بأنه ومن واقع معرفته بتاريخ وسيرة أعضاء اللجنة «فقد كان لي الثقة في حيادهم وامانتهم»، مضيفاً بأنه شعر بصداقة وحنان عندما قدمه رئيس اللجنة إلى أعضائها عند الاستماع لشهادته. وقد سرد وايزمن على اللجنة واقع اليهود في العالم وأنه «عرضة للمآسي والكوارث التي يتعرض لها ملايين اليهود في أوروبا» وقال: «إن شهادة هجرة لأي منهم

(٧٨) المصدر السابق، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٧٩) محمد عزة دروزة **القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني**، ص ٢٣٣.

(٨٠) كامل محمود خلة، المصدر السابق، ص ٤٠٦.

(٨١) كتب هذا التقرير القيادي الفلسطيني عوني عبد الهادي عندما كان في المعتقل. انظر لذلك: كامل محمود خلة، المصدر السابق، ص ٤٠٦.

تعني طريق الخلاص»... وعندما يتحدث المرء عن الشعب اليهودي فإنه يتحدث عن شعب هو أقلية في كل مكان.. وأنه «يجب أن يكون لهم مكان في أرض الله الواسعة حيث يمكنهم أن يعيشوا وينشئوا حضارة وثقافة وأن نخدم المدنية بطرقنا ووسائلنا»(٨٣).

وعلى الرغم من النداء الموجه من جانب اللجنة إلى العرب بالتعاون معها من منطلق ما أشارت إليه اللجنة من أنه «سيكون من أكبر دواعي الأسف أن نعود دون أن نستفيد بمشورة ذلك الفريق ومساعدته «إلا أن اللجنة العربية العليا اكدت في اجتماع عقدته في ٢١ نوفمبر ١٩٣٦ وخصص لمناقشة موقفها من لجنة التحقيق، اكدت على تمسكها بقرار المقاطعة، وإن كانت قد تركت المجال مفتوحاً لمراجعة القرار إذا ما طلب ملوك العرب منها ذلك»(٨٤). ولهذا ومن واقع ما شهدته اللجنة العربية من انشقاق واضح في صفوفها بين مؤيد ومعارض لقرار المقاطعة، وعلى ضوء التهديدات بالانسحاب من اللجنة والتي اطلقتها بعض التنظيمات المنضوية تحت لواء اللجنة، على ضوء ذلك ونتيجة للضغوط التي مارسها الزعماء العرب بضرورة التعاون مع اللجنة وعدم مقاطعتها، وهي ضغوط اشترك فيها بعض الشخصيات البريطانية المتعاطفة مع وجهة النظر الفلسطينية، على ضوء كل ذلك قررت اللجنة في الخامس من يناير من عام ١٩٣٧ الغاء قرار المقاطعة والاتصال باللجنة الملكية من أجل شرح وجهة النظر العربية(٨٥).

ومن المهم الإشارة هنا إلى ان اللجنة العربية العليا قد تعرضت لضغوط كبيرة للتعاون مع اللجنة من جانب الزعماء العرب الذين سبق أن تدخلوا من أجل الغاء الثورة العربية الكبرى وكانت اللجنة العربية العليا قد شكلت وفداً فلسطينياً قام بزيارة لكل من بغداد وعمّان والرياض ودمشق حيث عرض على زعماء تلك البلدان وجهة نظر اللجنة العربية من موضوع لجنة التحقيق الملكية وقرار المقاطعة الذي اتخذ حيالها. غير أن الوفد الفلسطيني ابلغ وبكل صراحة بأن من مصلحة عرب فلسطين ابداء كل تعاون مع لجنة التحقيق، بل وبعثت خطابات شخصية من قبل الملك عبد العزيز بن سعود والملك غازي بهذا الخصوص إلى رئيس اللجنة الحاج أمين الحسيني.

في الحادي عشر من يناير عام ١٩٣٧ قدمت اللجنة العربية العليا مذكرة إلى اللجنة الملكية تضمنت موقفها من التطورات التي تمر بها فلسطين. وقد اشارت المذكرة إلى ضرورة عدول الحكومة البريطانية عن تجربة الوطن القومي وايقاف الهجرة اليهودية بشكل فوري تام. كما طالبت اللجنة العربية سلطات الانتداب بضرورة منع انتقال الأراضي العربية لليهود وبضرورة انهاء الانتداب البريطاني على فلسطين وعقد معاهدة بين بريطانيا وفلسطين تقوم بموجبها حكومة وطنية مستقلة ذات حكم دستوري تمثل فيها جميع العناصر الوطنية(٨٦).

كما استمعت اللجنة إلى شهادة عدد من قادة الحركة الوطنية الفلسطينية التي صبت باتجاه التأكيد على أن الأسباب الحقيقية لاضطراب الأوضاع في فلسطين تعود إلى احساس العرب المتزايد بحرمانهم من حقوقهم الطبيعية والسياسية والاضرار الواسعة التي لحقت بعرب فلسطين من جراء سياسة بريطانيا الرامية إلى انشاء وطن قومي لليهود. كما ذكر العرب أعضاء اللجنة بالوعود التي سبق أن قطعتها بريطانيا على نفسها وفي أكثر من مناسبة بخصوص منح الاستقلال للدول العربية. كما كرر العرب المطالب التي تضمنتها مذكرة ١١ يناير فيما يتعلق بالهجرة اليهودية وانتقال الأراضي وإقامة حكم ديمقراطي(٨٧).

في السابع من شهر يوليو عام ١٩٣٧ نشر تقرير اللجنة الملكية حول نتائج التحقيق الذي أجرته في فلسطين. وقد أوصى التقرير بأن تتخلى الحكومة البريطانية عن الانتداب والاستعاضة بدلاً عنه بالتقسيم، حيث اقترحت اللجنة تقسيم فلسطين إلى ثلاثة أقسام بحيث يضم القسم الأول دولة عربية تضم الأجزاء التي تقطنها أكثرية ساحقة من العرب ودولة يهودية تضم الأجزاء التي تقطنها أكثرية من اليهود ومناطق معينة تضم الأجزاء ذات الأهمية الاستراتيجية والدينية الخاصة التي اقترح أن تبقى تحت الانتداب البريطاني. وجاء

---

(٨٢) محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني**، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

(٨٣) Y. Porath المصدر السابق، ص ٢٠١.

(٨٤) المصدر السابق، ص ٢٠١، ٢١٤.

(٨٥) محمد عزة دروزة، المصدر السابق، ص ١٤١ ـ ١٤٢.

(٨٦) كريستوفر سايكس، المصدر السابق، ص ٢٦٨.

(٨٧) كامل محمود خلة، المصدر السابق، ص ٤٢١.

في تقرير اللجنة أنه لما كانت الدولة اليهودية المقترحة ستضم معظم الأراضي الخصبة في فلسطين وستكون بالتالي أفضل حالاً من الناحية الاقتصادية، فإن اللجنة توصي بأن تدفع تلك الدولة مساعدة سنوية للدولة العربية(٨٨).

لقد جاء قرار التقسيم ليشكل مفاجأة قاسية للعرب لأنه جاء ليقضي على أي أمل كان يختمر في الصدور بالمحافظة على عروبة فلسطين. وكان أول رد فعل عربي شعبي على القرار يتمثل في التحضير لمؤتمر عقد في بلودان في الثامن من سبتمبر من عام ١٩٣٧ بحضور وفود تمثل مصر والعراق ولبنان والأردن وسوريا، بالإضافة إلى فلسطين ووفود أخرى تمثل عرب المغرب العربي. ونظمت ذلك المؤتمر لجنة الدفاع عن فلسطين في سوريا التي نجحت في استقطاب اربعمائة وخمسين مندوباً عربياً من كبار الشخصيات في العالم العربي وعهد برئاسة المؤتمر إلى ناجي السويدي أحد رؤساء العراق. لقد كان مؤتمر بلودان حافلاً بالخطب الحماسية والكلمات المهيجة للمشاعر، ولكن يبقى أن تقرر حقيقة وهي أن المؤتمر كان تجمعاً تضامنياً شعبياً مع عرب فلسطين، ولم يكن له ابعاد أكبر من ذلك بأي حال من الأحوال. ومع ذلك فإن المؤتمر وجه للحكومة البريطانية تحذيراً عندما وضّح بعض المشاركين في فعالياته بأن اصرار بريطانيا على المضي قدماً في خطة التقسيم قد يدفع العرب إلى التطلع نحو دول أوروبية أخرى لمساعدتهم مما يمثل تلميحاً باللجوء إلى دول المحور(٨٩).

وفي داخل فلسطين ساد الهياج وأعمال العنف نتيجة لموقف بريطانيا الثابت إزاء موضوع التقسيم وما تأكد من عزمها على اعطاء هذا الموضوع الصيغة الدولية عندما قامت برفع القضية مشفوعة باقتراحها التقسيمي إلى مجلس عصبة الأمم في جنيف. وقد اكد السيد إيدن وزير خارجية بريطانية أمام أعضاء المجلس ان الحل الوحيد لقضية فلسطين من وجهة نظر الحكومة البريطانية يكمن في التقسيم. وكان من الطبيعي أن يزداد التوتر بين عرب فلسطين وأن تكون بريطانيا هدفاً لبعض أعمال العنف.

ففي ٢٦ سبتمبر ١٩٣٧ قتل الحاكم الانجليزي في الناصرة على يد مجهولين. وكان هذا الحاكم - ويدعي لويس اندروز - يعمل كضابط ارتباط بين اللجنة الملكية والسلطة المنتدبة. وعلى الرغم من أن اللجنة العربية العليا استنكرت الحادث الذي وقع للحاكم وأودى بحياته وحياة حارسه الشخصي، إلا أن السلطات البريطانية استغلت الحادث بشكل بشع إذ ساعدت على الفور باتخاذ اجراءات تعسفية حيث قامت باعتقال كبار الشخصيات الفلسطينية وداهمت مقار اللجان القومية الأخرى، في الوقت الذي كانت فيه المنظمات اليهودية السياسية والعسكرية تحظى بدعم السلطات البريطانية وتمارس عملها بمنتهى الحرية. كما اتخذت السلطات البريطانية قراراً بعزل المفتي الحاج أمين الحسيني من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى ورئاسة الأوقاف وسعت لاعتقاله، لولا أنه اعتصم في الحرم القدسي الشريف. كما اعتقلت السلطات البريطانية كبار الشخصيات الفلسطينية وأعضاء اللجنة العربية العليا المتواجدين في فلسطين ونفت بعضهم إلى سيشل. كما قررت الحكومة البريطانية منع أعضاء اللجنة العربية المتواجدين خارج فلسطين من دخول البلاد(٩٠).

يعتقد بعض الكتاب أن يوم الخامس عشر من أكتوبر من عام ١٩٣٧ يمثل المرحلة الثانية من الثورة العربية الكبرى. ففي هذا اليوم جرت غارتان على سيارات ركاب يهودية في ضواحي القدس وتم اتلاف جانب من خط أنابيب شركة البترول العراقية، وتعرضت بعض المستعمرات اليهودية لاطلاق نار بينما دمرت بعض خطوط السكة الحديد وقطعت خطوط الهاتف مما مهد لفرض حظر التجول على مدينة القدس(٩١). وفي مساء اليوم التالي احرق المناضلون العرب مطار اللد مما استدعى قيام السلطات البريطانية بفرض نظام منع التجول على المدينة لمدة ٢٣ ساعة في اليوم الواحد، كما تم تطبيق بعض العقوبات الجماعية، بما في ذلك فرض غرامة مشتركة على المدينة بلغت خمسة آلاف جنيه(٩٢).

اكتسبت الثورة العربية زخماً خاصاً في المرحلة الثانية بتزايد اعداد المتطوعين وبظهور نوع جديد من القيادة السياسية يتمثل فيما اطلق عليه اسم اللجنة المركزية للجهاد، التي اتخذت من دمشق مقراً لها. وكان مقر رئاسة الثوار

(٨٨) كريستوفر سايكس، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(٨٩) مهدي عبد الهادي، المصدر السابق، ص ٣٨.

(٩٠) محمد عزة، دروزة، المصدر السابق، ص ١٥١.

(٩١) حاييم وايزمن، المصدر السابق، ص ١٤٥، ١٤٦.

(٩٢) كامل محمود خلة، المصدر السابق، ص ٤٢٧، ٤٢٨.

مسؤولاً عن اجراء التنسيق والتعاون بين تشكيلات الثوار التي كان يتولى رئاسة كل منها قائد محلي يساعده عدد من رؤساء الفصائل. وكانت الاتصالات بين القيادة في دمشق وفصائل الثورة تتم من خلال الرسل والزيارات التي كان يقوم بها زعماء الثورة من وقت لآخر إلى دمشق. وكانت المساعدات المالية تصل للثوار من خلال التبرعات التي تحصل عليها اللجنة للجهاد ومن خلال السيطرة التي تحققت لفصائل الثورة على بعض القرى ومن خلال ما يجبيه الثوار من ضرائب من السكان المحليين بهدف دعم الانتفاضة المسلحة. كما عمل بعض المثقفين الفلسطينيين كمستشارين لدى قيادات الثوار.

لقد تحقق للثورة العربية في تلك المرحلة الكثير من الانجازات. فقد تمكن الثوار من السيطرة بشكل شبه تام على المناطق الجبلية. واصبحت بعض المدن العربية مثل نابلس في قبضة الثوار الذين بدأوا يتجولون في المدينة بكامل سلاحهم وعدتهم. كما شهدت مدن جنين ويافا ورام الله والقدس، أياماً مشهودة من أيام الثورة العربية. وتمكن الثوار من تدمير معظم خطوط السكة الحديد التي كانت تربط القدس باللد، واللدّ بالحدود المصرية. كما تمكنوا من الاغارة على أهداف جوية في مدن بئر السبع والخليل وبيت لحم وجرش وتمكنوا من احتلال مخافر للشرطة ومكاتب للبريد وبنوك محلية وبعض مكاتب الحكومة المحلية. وقد اضطرت السلطات البريطانية إلى اغلاق العديد من مخافر السلطة خشية أن تسقط في يد الثوار وما يترتب على ذلك من حصولهم على أسلحة وذخيرة، كما تعرضت بعض المستوطنات الصهيونية لهجمات المناضلين العرب مما جعل بعض المنظمات الصهيونية العسكرية كمنظمة الارغون تقدم على ارتكاب أعمال ارهابية من خلال زرعها للقنابل في الأسواق والأماكن العامة في المدن العربية، مما اسفر عن وقوع العديد من الضحايا(٩٣).

وقد اشارت التقارير البريطانية إلى الأعمال المسلحة التي قام بها العرب خلال عام واحد وهو عام ١٩٣٨م مبينة قوة تلك الهجمات، حيث ذكرت تلك التقارير بأن الثوار العرب تمكنوا من القيام بحوالي ٩٨٦ هجوماً على الجيش البوليسي البريطاني و١٧٦ هجوماً على أفراد يهود و٦٥١ هجوماً على المستوطنات والأحياء اليهودية و٣٣١ حادث القاء قنابل و٤١٥ حادث اتلاف لمتلكات يهودية و٧٢٠ حادث قطع لخطوط الهاتف و٢١٠ هجمات استهدفت تخريب أملاك حكومة و٢١٥ حادث خطف و٣٣٥ هجوماً على وسائل مواصلات بالإضافة إلى ١٠٤ هجمات استهدفت تخريب خط أنابيب شركة بترول العراق(٩٤).

لهذا كله اتخذت الحكومة البريطانية اجراءات خاصة للتعامل مع تلك الأحداث القوية. فقد كثفت السلطات البريطانية من عملياتها العسكرية التي اتخذت الطابع الثأري التي كانت تتم ليلاً وبالتعاون مع المنظمات العسكرية اليهودية وخاصة الهاغاناه. لقد أسس أحد الضباط الانجليز الذي كان ذا ميول صهيونية ويدعى وينجيت تنظيماً أطلق عليه اسم «فصائل الليل الخاصة» وجند فيه مجموعة من اليهود المتطرفين اضطلعوا بهجمات عنيفة على أهداف عربية(٩٥) كما كثفت السلطات البريطانية من تواجدها العسكري وجندت لغرض مقاومة الثورة العربية آلاف الأفراد بلغوا زهاء عشرة آلاف رجل، بل إن بعض المصادر قدرت العدد الكلي للقوات البريطانية والتابعة لها التي كلفت بالتصدي للثورة العربية بعدد يقترب ما بين ٤٠ ـ ٥٠ ألف عنصر مزودين بالأسلحة والذخائر والمصفحات والسيارات والطيارات(٩٦). ويقول أحد القياديين الفلسطينيين في معرض حديثه عن الاجراءات البريطانية القمعية الموجهة ضد الثورة العربية:

«فقد عدلت (الحكومة البريطانية) قوانين الطوارئ بحيث أصبحت حيازة بضع رصاصات أو قطعة من سلاح مهما كان نوعه وصلاحه تكفي للحكم بالاعدام أو السجن المؤبد أو المديد، بحيث أصبحت كل عمارة في مدينة أو قرية وكل بيارة أو بستان عرضة للمصادرة أو النسف أو التدمير لمجرد صدور نار ما من جهتها أو وقوع حادث قربها، حتى بلغ عدد الذين شنقوا مئة وستة وأربعين وتجاوز عدد المحكومين بمدد أبدية أو مديدة الألفين، منهم شيوخ طاعنون وفتيان مراهقون ومنهم نساء، وحتى بلغ عدد المنازل والحوانيت التي

(٩٣) Y. Porath، المصدر السابق، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥.

(٩٤) عادل حسن غنيم، المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٩٥) مهدي عبد الهادي، المصدر السابق، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٩٦) عبد الوهاب الكيالي، المصدر السابق، ص ٣٣٢. يرى أحد الكتاب بأن مهندس سياسة التقسيم هذه هو عضو لجنة التحقيق الملكية الدكتور كوبلاند الأستاذ بجامعة اوكسفورد والذي كان قد بلّغ وايزمن بذلك قبل عدة شهور من صدور نتائج التحقيق بشكل رسمي. انظر لذلك: كريستوفر سايكس، المصدر السابق، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٠.

نسفت وهدمت وتصدعت نحو خمسة آلاف»[٩٧].

كما اوفدت الحكومة البريطانية إلى فلسطين أحد أشهر خبراء مقاومة الحركات الشعبية ويدعى دوبجن الذي كان له دور مشهود في هذا المجال في الهند. كما ألفت سلطات الانتداب محاكم عسكرية خاصة اعطيت الحق في اعدام من يُتَّهم بالقتل إذا وجد شاهد واحد فحسب، كما اعتبرت احكام تلك المحاكم نافذة مبرمة لا تستأنف ولا يشملها العفو. كما بدأت الحكومة البريطانية تكثف من اجراءات العقوبات الجماعية واصبحت تلجأ إلى اجراءات استفزازية كأن تقوم بانشاء مراكز خاصة للشرطة على نفقة المواطنين العرب تقوم باعتقال العرب فيها[٩٨]. وعندما كانت القوات البريطانية تقوم بهجوم ضد مواقع الثوار العرب كانت تعمد إلى تكوين درع بشري من السكان العرب يسير أمام القوات البريطانية المهاجمة بهدف ردع العرب الثائرين من قتل إخوانهم العرب الذين كانت السلطات البريطانية مستعدة للتضحية بهم. وفي مطلع فبراير من عام ١٩٣٧ اصدرت الإدارة العسكرية البريطانية أمراً إلى جميع المواطنين العرب بضرورة حمل بطاقات هوية وتصاريح عسكرية خاصة تصدرها السلطات البريطانية، كما وصل التعاون بين سلطات الانتداب البريطانية وكل من الوكالة اليهودية والمنظمة العسكرية اليهودية كالهاغاناه، خلال تلك الفترة إلى أقصى حد[٩٩]. وكانت المنظمات تزود السلطات البريطانية بمعلومات قيمة عن الثوار العرب من حيث تسليحهم وأماكن اختبائهم وتحركاتهم.

في يناير من عام ١٩٣٨ اصدرت الحكومة البريطانية بياناً اكدت فيه التزامها من جديد بفكرة التقسيم. وقد ابلغ وزير المستعمرات البريطانية المندوب السامي على فلسطين بأن الحكومة ستعين لجنة فنية تقوم بتحديد المناطق العربية واليهودية المقترحة وتبحث المسائل الاقتصادية والمالية المتعلقة بالمشروع[١٠٠]. وقد شكلت بريطانيا لهذا الغرض لجنة برئاسة السير جون ودهيد قامت بزيارة إلى فلسطين في أبريل ١٩٣٨. وقد استقبل العرب هذه اللجنة بالاضراب العام وقرروا مقاطعة أعمالها بشكل تام. إلا أن اللجنة التي مكثت في فلسطين قرابة الأربعة شهور وتضمن تقريرها بعض الحقائق المنصفة للعرب، عادت وأوصت في تقريرها بضرورة تقسيم البلاد ولكن على أسس تختلف عما ذهبت إليه اللجنة الملكية[١٠١].

في التاسع من نوفمبر من عام ١٩٣٨ اصدرت الحكومة البريطانية بياناً حول سياستها إزاء الأوضاع في فلسطين الغت بموجبه مشروع التقسيم باعتباره مشروعاً غير عملي واقترحت بدلاً من ذلك عقد مؤتمر في لندن يجمع الزعماء العرب واليهود بالإضافة إلى ممثلين عن الدول العربية المجاورة لفلسطين للنظر فيما يمكن عمله إزاء المشكلة الفلسطينية[١٠٢].

في فبراير من عام ١٩٣٩ بدأت مفاوضات مؤتمر المائدة المستديرة في لندن بحضور وفود تمثل العراق ومصر والسعودية واليمن وشرقي الأردن، بالإضافة إلى فلسطين، غير أن المؤتمر لم ينجح في التوصل إلى حل مرض للطرفين وخصوصاً على ضوء اصرار الممثلين الصهاينة على حقهم الأبدي في فلسطين وتأكيدهم على عدم استعدادهم لقبول أي حل لا يضمن تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية[١٠٣]. ولكن وكما يبدو فإن الوفود العربية نجحت في ترك تأثير أعمق لدى ممثلي الحكومة البريطانية يساعدهم على ذلك تغير الظروف الدولية آنذاك من حيث اقتراب الحرب العالمية الثانية

---

(٩٧) صلاح العقاد، المصدر السابق، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٩٨) محمد عزة دروزة، المصدر السابق، ص ١٨٦ ـ ١٨٨. وكانت السلطات البريطانية رغبة منها في تبرير أعمالها القمعية قد اصدرت بياناً قالت فيه إن الشخصيات الفلسطينية التي تم اعتقالها أو نفيها إنما يشكلون خطراً على الأمن العام ويتحملون ما اسمته بالمسؤولية الأدبية لأعمال الارهاب التي وقعت في الأشهر الماضية واكدت بأنها لم تعد تطيق صبراً على الحالة. انظر المرجع السابق. أما فيما يتعلق بالمفتي فقد اشارت المصادر إلى ان السلطات البريطانية حاولت اعتقاله ولكنه تمكن من الهرب والتجأ إلى الحرم الذي باشرت بريطانيا بوضع قوات حراسة عند باب الأسباط وبدأت في تحري الخارجين والداخلين وخاصة المعممين رغبة منها في اعتقال الحاج أمين الحسيني دون أن تقدم على اعتقاله داخل الحرم لكي لا تثير مشاعر المسلمين، إلا ان المفتي نجح في خرق الحصار البريطاني الذي ضرب حول الحرم وحول مدينة القدس وتمكن من الفرار عن طريق البحر بمركب شراعي نقله إلى ساحل لبنان الجنوبي قرب مدينة صور حيث سمحت له السلطات الفرنسية باللجوء إلى لبنان. انظر: **القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني**، ص ٢٢٨.

(٩٩) عادل حسن غنيم، المصدر السابق، ص ١٨٩.

(١٠٠) كامل محمود خلة، المصدر السابق، ص ٣٢٨ ـ ٣٤١.

(١٠١) عبد الوهاب الكيالي، المصدر السابق.

(١٠٢) Y. Porath المصدر السابق، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(١٠٣) كامل محمود خلة، المصدر السابق، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

وخشية الانجليز ربما من ان اتخاذ موقف سلبي ضد العرب قد يدفعهم إلى تأييد موقف دول المحور خصوصاً وأن بعض الدوائر العربية بدأت تلوح إلى وجود مثل هذا البديل(١٠٤).

وفي ١٧ مايو من نفس العام اصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض حول سياستها في فلسطين اكدت من خلاله بوضوح تخليها عن مشروع التقسيم كما اوضح الكتاب الأبيض بأن سياسة بريطانيا تقوم على الرغبة في قيام حكومة فلسطينية مستقلة في غضون عشر سنوات(١٠٥). كما اشار الكتاب الأبيض إلى أن الحكومة البريطانية ستسمح في غضون السنوات الخمس القادمة بهجرة سنوية لا تتعدى العشرة آلاف مهاجر، إذا ما سمحت قدرة استيعاب البلاد الاقتصادية. كما أن بريطانيا ستمنح ٢٥ ألف شهادة هجرة فورية للاسهام في حل مشكلة اللاجئين اليهود. وأوضح الكتاب الأبيض بأنه لن يسمح بعد انقضاء السنوات الخمس بأية هجرة يهودية إلا إذا كان عرب فلسطين على استعداد لقبولها. أما فيما يتعلق بانتقال الأراضي لليهود فقد اعطى الكتاب الأبيض سلطة القرار حول ذلك للمندوب السامي الذي سيكون له الحق في السماح بالبيع في بعض المناطق ومنع البيع في مناطق أخرى(١٠٦).

وبغضّ النظر عن بعض السلبيات المرتبطة بالكتاب الأبيض فإن البعض كان يرى بأنّ الكتاب يعد تطوراً كبيراً بالنسبة لوجهة النظر العربية من منطلق أن نضال العرب خلال ١٩٣٦ قد تكلل بالنجاح باعلان الحكومة البريطانية عن الغاء التقسيم وقبولها بمبدأ قيام دولة فلسطين، أما الجماعات الصهيونية فقد هاجمت السياسة البريطانية الجديدة وفسرتها بأنها تعد بمثابة نقض للوعود والمواثيق التي قطعتها بريطانيا على نفسها بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. لكن اليهود مع ذلك لم يقطعوا الأمل تماماً من الدور البريطاني في فلسطين، وعندما اندلعت الحرب رموا بثقلهم خلف بريطانيا ودول الحلفاء. ويقول الزعيم الصهيوني ديفيد بن غوريون في هذا الصدد إن سياسة الحركة الصهيونية تقوم على «مساعدة البريطانيين ضد هتلر وكأنه لا يوجد كتاب أبيض ومقاومة الكتاب الأبيض وكأن لا حرب هناك.

أما عن الموقف الرسمي للمناضلين العرب كما ظهر من خلال اللجنة العربية العليا، فنلاحظ أن اللجنة قد ابدت تحفظاً على ما جاء في الكتاب من منطلق أن الاستقلال الذي وعدت به بريطانيا العرب من خلال هذا الكتاب لا يبدو استقلالاً واقعياً. كما أن فكرة الوطن القومي اليهودي لا زالت قائمة ولم يتم استبعادها، والهجرة اليهودية مضمونة الاستمرار لخمس سنوات قادمة بالإضافة إلى ان باب بيع الأراضي العربية لليهود ما زال مفتوحاً.

لكن الكتاب الأبيض بحد ذاته وما مثله للكثير من العرب لكونه بارقة الأمل الوحيدة بعد سنوات مظلمة طويلة كان كافياً لاخماد حماس المناضلين العرب وأدى بالتالي بالثورة العربية إلى دخول دور الجمود والمصاعب. ولم تكن الوعود البريطانية فحسب هي التي اسهمت في اطفاء جذوة الحماس بل إن الظروف الدولية ذاتها قد دفعت بالثورة إلى الدخول في ذلك المصير المحبط. كما أن الصراعات الداخلية بين قادة العمل الوطني الفلسطيني وما أبرزته من ظهور أجنحة متصارعة أسهم في اضعاف حركة الثورة العربية، كما اسهم في ايقاف الثورة استشهاد عدد من القياديين الفلسطينيين وابعاد البعض الآخر منهم خارج الوطن واعتقال البعض الآخر، هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبته السياسات القمعية البريطانية في هذا الصدد. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية التي اندلعت في سبتمبر من عام ١٩٣٩ لتسهم هي الأخرى في تهبيط الهمم وتطغى على أخبار الثورة خصوصاً بعد أن أصبحت فلسطين قاعدة عسكرية بريطانية.

ويبقى أن نقرر حقيقة واحدة وهي أن وعود الكتاب الأبيض سرعان ما ذهبت بها رياح التغيير التي خلفتها انتصارات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. ولذلك لم يكن من المستغرب أن تنكث بريطانيا بوعودها من جديد، عندما اقدمت على التراجع عن كل ما ضربته من وعود حيث فتحت البلاد على مصراعيها للهجرة اليهودية وعاد مشروع التقسيم من جديد يطرح نفسه على أنه المخرج الوحيد للمعضلة الفلسطينية.

الخاتمة

نتائج هذا البحث تدور حول محورين في غاية الأهمية، يمثلان ضدين متنافرين:

١ ـ أن عرب فلسطين مسلمين ومسيحيين قاوموا لأقصى درجة أمكنتهم من المقاومة لكن درجة وعي العرب من حولهم

(١٠٤) كريستوفر سايكس، المصدر السابق، ص ٣١١ ـ ٣١٣.

(١٠٥) محمد عزة دروزة، المصدر السابق، ص ٢٠٠.

(١٠٦) المصدر السابق، ص ٢٠١.

لم تكن في مستوى المقاومة، مما جعل المقاومة على قوتها فاقدة الاستراتيجية قابلة للانكسار أمام الوعود الخادعة.

٢ ـ أن موقف بريطانيا كان حازماً يجند أقصى قدرات الامبراطورية لقمع المقاومة وتحقيق الخطط الصهيونية. ولم تجد بعض الأصوات الفردية البريطانية العادلة صدى لها. وكذلك دعم الموقف الامريكي والغربي بشكل عام الاستراتيجية الصهيونية التي كانت وراء الهندسة السياسية البريطانية في فلسطين. وفي الواقع كانت كل الظروف مواتية لهذه السياسة حتى إن المقاومة الفلسطينية المنعزلة عن أي تأييد خارجي سوى العون العاطفي العربي كانت مكتوباً عليها الانهيار بصرف النظر عن مدى قوتها واصرارها. والمحوران يكشفان المصير المحتوم لأي مواجهة بين طرفين أحدهما تحركه ردود الأفعال (الجانب الفلسطيني) والطرف الآخر تحركه استراتيجية دقيقة التخطيط (الجانب الصهيوني): النصر للاستراتيجية ولا احتمال لنجاح ردود الفعل، بعكس أي مواجهة بين استراتيجيتين فإن النصر أو الهزيمة ترتبط بمدى إحكام كل منهما لخطته وتقديره للموقف بظروفه المختلفة.

العلاقات العمانية الامريكية

في القرن التاسع عشر

د. رأفت غنيمي الشيخ
عميد معهد الدراسات الآسيوية
جامعة الزقازيق مصر

أولاً: السيد سعيد وعصره

يعتبر عصر السيد سعيد بن سلطان ـ وهو حفيد مؤسس أسرة البوسعيد الحاكمة في عمان ـ من ازهى العصور التي مرت بعمان خلال القرن التاسع عشر إن لم يكن أكثرها ازدهاراً رغم الصعوبات الكثيرة التي واجهته في بناء الدولة. ويرى المؤرخون أن السيد سعيد بن سلطان هو بلا شك أبرز الشخصيات في أسرة البوسعيد التي لعبت دوراً في تاريخ عمان والخليج وشرق افريقيا، ولا نكون مبالغين إذا اعتبرناه من الشخصيات الهامة جداً في تاريخ العرب الحديث والمعاصر(١).

ومنذ توليه الحكم في عمان ـ عام ١٨٠٦ واجهته صعوبات شتى في الداخل كالخلافات مع بعض القبائل التي تسعى إلى نبذ السلطة والتمتع بالاستقلال كما هو حال القبائل على امتداد الوطن العربي وكذلك منافسة القواسم من رأس الخيمة على الملاحة في الخليج العربي إلى جانب الصعوبات الخارجية التي واجهته والتي تمثلت في الغزو الوهابي لمنطقة الظاهرة في عمان واستيلائهم على واحة البريمي إلى جانب محاولة الفرس منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر انتزاع ميناء بندر عباس الواقع على الساحل الشرقي للخليج من الحكم العماني.

كل تلك الصعوبات استدعت من السيد سعيد بن سلطان البحث عن خلفاء للمساعدة في التخلص منها ومن ثم اتجهت أنظاره نحو أقطار أخرى عربية مثل مصر وأقطار أجنبية مثل الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وفرنسا.

فبالنسبة لعلاقات السيد سعيد بن سلطان بمصر وحاكمها محمد علي فقد اتصفت العلاقات بين الرجلين بالتقدير المشترك غير المندفع، ورغم أن الرجلين كانا في مواجهة مع النشاط الوهابي في الجزيرة العربية إلا ان الرسائل المتبادلة بين السيد سعيد ومحمد علي كانت قليلة وإن كانت قد عبرت عن اعجاب السيد سعيد بالبناء الحديث للدولة الذي أقامه محمد علي في مصر كما عبرت عن وجود رغبة لدى السيد سعيد في إقامة علاقات أوثق مع باشا مصر(٢).

وتمشياً مع هذه العلاقة الودية بين الرجلين، وانطلاقاً من تقدير محمد علي للدور الذي قام به السيد سعيد بن سلطان في مقاومة النشاط الوهابي في عمان في الفترة من عام ١٨٠٦ ـ ١٨١٨.... فقد أحسن محمد علي وشريف مكة يحيى بن سرور استقبال السيد سعيد عندما ذهب للحج عام ١٨٢٤م إذ ارسل محمد علي مجموعة من كبار ضباطه لاستقباله وتحيته، واطلقت المدافع في جدة حينما اقتربت السفينة العمانية (ليفربول) المقلة للسيد سعيد من الميناء، وعند عودته من الحج

(١) د. صلاح العقاد: **التيارات السياسية في الخليج العربي**، القاهرة ١٩٧٤، ص ١١٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٩.

إلى مسقط حمل معه هدايا كثيرة من محمد علي ومن شريف مكة.

واستمرت الصلات بين الرجلين ودية رغم موقف بريطانيا العظمى المعادي للنشاط المصري في الجزيرة العربية وفي الخليج العربي بصفة خاصة، ذلك الموقف الذي لم يكن باستطاعة السيد سعيد تجاهله نظراً للعلاقة الخاصة التي ربطت بينه وبين البريطانيين الذين ساعدوه ضد اعدائه، ورغم ذلك لم يأخذ السيد سعيد من محمد علي موقفاً عدائياً، بل إن الوثائق المصرية تشير إلى أن السيد سعيد بعث رسالة إلى محمد علي في عام ١٢٥٥ هـ الموافق ١٨٤٠م وطلب فيها بالحاح سرعة ارسال أحد جنود المدفعية أي أحد الجنود العاملين على المدافع الحربية(٣).

وأما علاقة السيد سعيد بن سلطان بالدول الأجنبية فقد تمثلت في ترحيبه بعقد اتفاقية تجارية مع الولايات المتحدة الامريكية عام ١٨٣٣م وترحيبه بوجود قنصل امريكي في السلطنة... كما تمثلت تلك العلاقات في عقد معاهدة بين السلطنة وبريطانيا في مايو ١٨٣٩م التي تعلقت معظم نصوصها بتنظيم التجارة والملاحة بين البلدين وتقديم التسهيلات البحرية للسفن البريطانية في موانئ السلطنة إلى جانب النص على اعطاء القنصل البريطاني في السلطنة الحق في الفصل في المنازعات التي تحدث بين الرعايا البريطانيين المقيمين فيها كما يؤخذ رأيه في القضايا التي تنشأ بين الرعايا البريطانيين وبين العرب.

كما تمثلت علاقات السلطنة الخارجية كذلك في عقد معاهدة تجارية مع فرنسا عام ١٨٤٤م حصلت فرنسا بمقتضاها على نفس الامتيازات التجارية والقضائية التي نصت عليها معاهدة عام ١٨٣٩م مع بريطانيا العظمى.

ثانياً: الولايات المتحدة وعلاقاتها بالوطن العربي

اعلنت الولايات المتحدة الامريكية استقلالها عام ١٧٧٦م ومن ثم جاء اهتمامها بالأقطار العربية عامة وأقطار الخليج العربي والجزيرة العربية بصفة خاصة متأخراً عن اهتمامات الدول الغربية الأخرى مثل البرتغال وهولندا وفرنسا وبريطانيا... إذن جاء اهتمام اميركا بالوطن العربي متأخراً عن غيرها من دول العالم بسبب تأخرها في حصولها على الاستقلال ولأنها عندما حصلت على استقلالها تمثلت بسياسة مؤسسها الأول (جورج واشنطن) George Washington الداعية إلى العزلة وهي السياسة التي سارت عليها الولايات المتحدة لمدة زادت عن قرن من الزمان(٤).

ونتيجة لذلك جاءت علاقة الولايات المتحدة بالوطن العربي على استحياء بما يتمشى مع امكانيات الدولة الجديدة ومع رغبتها في التفرغ للبناء الداخلي على الأرض الامريكية دون تدخل من الغير ودون أن تنغمس في مشكلات الآخرين كما اشار إلى ذلك الرئيس جيمس منرو James Monroe في تصريحه الشهير عام ١٨٢٣م.

ورغم أن أقطار الوطن العربي كانت مجهولة للامريكيين فيما عدا ما قرأوه عنها في الكتب مثل (ألف ليلة وليلة) و(تاريخ فراعنة وادي النيل)، ورغم ان سكان تلك الأقطار كانوا يجهلون كل شيء عن الامريكيين فإن الولايات المتحدة كانت منذ فجر استقلالها في أواخر القرن الثامن عشر راغبة في ابرام معاهدات ودية وتجارية مع دول أوروبا تفتح أبواب التجارة أمام التجار الامريكان في أوروبا وأقطار شمال افريقيا العربية وقد نجحت بالفعل في تحقيق هذا الهدف سواء في الأقطار العربية بشمال افريقيا أو تلك الأقطار في المشرق العربي.

وكانت دولة العلويين بالمغرب الأقصى ـ المملكة المغربية الحالية ـ أول قطر عربي يعترف باستقلال الولايات المتحدة الامريكية وقد سارت العلاقة بين الطرفين قوية وودية منذ ذلك الحين فنجد مثلاً ان الكونجرس الامريكي اقترح على الحكومة أواخر الثمانينات من القرن الثامن عشر عام ١٧٨٦م عقد معاهدة صداقة وتجارة مع المغرب الأقصى كما أنه طلب وساطة المولى محمد بن عبد الله حاكم المغرب لدى نيابات تونس وطرابلس الغرب لوقف هجمات سفنها على السفن التجارية الامريكية العاملة في البحر الأبيض المتوسط.

وعندما انتخب جورج واشنطن رئيساً للولايات المتحدة الامريكية عام ١٧٨٩م اشاد في رسالة بعث بها إلى الحكومة المغربية بالعلاقات الودية التي تربط البلدين منذ فجر الاستقلال الامريكي. والواقع أن مراسلات المولى محمد بن عبد الله مع الكونجرس الامريكي منذ اعلان الاستقلال الامريكي تعتبر أول اعتراف دولي بحكومة الولايات المتحدة الامريكية ولن تنسى الولايات المتحدة ذلك للمغرب. وكانت القنصلية

(٣) دار المحفوظات التاريخية: محافظ الحجاز رقم ٢٦٩ وثيقة ٣٨ بتاريخ ١١ ذو القعدة ١٢٥٥هـ.

(٤) د. سمعان بطرس: **العلاقات السياسية الدولية في القرن العشرين،** ج ١ ص ٢٧٦.

الامريكية في مدينة طنجة المغربية التي قامت عام ١٨٢٠م أول قنصلية أجنبية في المغرب[٥].

وإذا كان المغرب أول قطر عربي يقيم علاقات ودية وتجارية مع الولايات المتحدة الامريكية، فإن سلطنة عمان كانت القطر الثاني الذي أقام هذه العلاقات على المستوى العربي ككل والقطر العربي الأول في منطقة الخليج والجزيرة العربية. ولعلنا نجد تشابهاً بين القطر المغربي والقطر العماني في النظر إلى الولايات المتحدة آنذاك باعتبارها دولة حديثة الاستقلال عن بريطانيا ذات التاريخ الاستعماري في العالم، وعن فرنسا مثيلتها وباعتبارها تسعى لتحقيق مصالح اقتصادية وليست لها نوايا استعمارية واضحة، هذا بالإضافة إلى إنه لم تكن للعرب معها على الأقل خبرة استعمارية مؤلمة تجعلهم يتشككون أو يتخوفون من إقامة علاقات معها. ومن ثم سعت المغرب إلى تكوين علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة في مواجهة التآمر الاستعماري الأوروبي على المغرب كما سعت سلطنة عمان إلى إقامة علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة تحقيقاً للتوازن مع القوى الأجنبية الأخرى الطامعة في مد نفوذها على منطقة الخليج والمحيط الهندي وشرق افريقيا.

ويجب أن نلاحظ ان الولايات المتحدة الامريكية حريصة كل الحرص على توفير الأمن والرعاية لمصالحها الاقتصادية في العالم ومن ثم لم تكن لتقف مكتوفة الأيدي إذا ما تعرضت تلك المصالح للخطر. ولعلنا لا ننسى في هذا المجال قصة السفينة الحربية الامريكية المسماة (فيلادلفيا) في مياه طرابلس الغرب في عهد يوسف القرمانلي أول القرن التاسع عشر[٦].

وتفصيل ذلك أن يوسف القرمانلي باشا انذر الولايات المتحدة عام ١٨٠٠م بأنه ما لم تدفع السفن الحربية الامريكية المارة في البحر المتوسط جزية وهدية سنوية لحكومته فإن سفنه سوف تهاجم السفن الامريكية وتسلبها ما تحمله ولكن الحكومة الامريكية رفضت الخضوع لتهديدات الباشا فتعرضت السفن الامريكية لهجوم من سفن يوسف باشا مما دفع الرئيس الامريكي إلى تكليف بعض القطع البحرية الامريكية بمعاقبة الباشا، وبالفعل حاصرت هذه القطع ميناء طرابلس الغرب واخذت تضربه بالقنابل.

وحدث أثناء ضرب القطع البحرية الامريكية لميناء طرابلس الغرب ان جنحت إحدى هذه القطع على شاطئ الميناء وتدعى (فيلادلفيا) في ٣١ اكتوبر ١٨٠٣م فأسرها جنود يوسف باشا وأخذوا بحارتها البالغ عددهم ٣٠٠ رجل أسرى، ورفض يوسف باشا اطلاق سراح السفينة الامريكية فيلادلفيا وبحارتها إلا إذا تعهدت الولايات المتحدة بدفع مطالبه السابقة، ومن ثم اتجهت الولايات المتحدة إلى أسلوب آخر تجبر به الباشا على اطلاق سراح السفينة وبحارتها وتولى هذه العملية القنصل الامريكي في تونس ويدعى (ايتون)[٧].

قام ايتون باقناع أحمد القرمانلي المقيم بمصر منذ ان فر من طرابلس الغرب أمام بطش أخيه الأصغر يوسف باشا بأن يرافق حملة عسكرية قوامها البدو والمالطيون واليونانيّون لكي يستعيد حكم الولاية من أخيه يوسف. وبالفعل استطاعت الحملة العسكرية احتلال مدينة درنة في ٢٦ أبريل عام ١٨٠٤م مما اجبر يوسف باشا على فتح باب المفاوضات مع الامريكيين حيث قبل اطلاق سراح السفينة الامريكية (فيلادلفيا) وبحارتها الأسرى مقابل ٦٠ ألف قرش بدل ٤٠٠ ألف قرش كان يوسف باشا قد طلبها من الامريكيين، كما تعهد بعدم التعرض للسفن الامريكية ومن ثم قام (ايتون) بالعمل على عودة أحمد القرمانلي إلى مصر وانهاء الحملة العسكرية التي قادها ضد يوسف باشا وإن كان الامريكان قد نجحوا في إحراق السفينة في الميناء قبل الاتفاق مع الباشا[٨].

كما يجب أن نلاحظ ان البعثات التبشيرية الامريكية أخذت تزاول نشاطها في الأقطار العربية منذ أوائل القرن التاسع عشر حيث بدأت تنشئ مستشفيات ومدارس وكنائس في كل من مصر وسوريا ومنطقة الخليج العربي منذ عام ١٨١٩م.

ومن هنا فإن عقد اتفاقية بين سلطنة عمان والولايات المتحدة الامريكية عام ١٨٣٣م جاء متمشياً مع سياسة الولايات المتحدة في المنطقة العربية بمعنى ان قيام سلطنة عمان بتوقيع مثل هذه الاتفاقية لا يمكن النظر إليه على أنه عمل منفرد قامت به السلطنة دون غيرها من الأقطار العربية.

ومما تجدر الإشارة إليه ان المركز التبشيري الثالث للارسالية الامريكية في منطقة الخليج العربي كان قد انشئ في مسقط في عام ١٨٩٤م وعهد إلى الأب (صمويل زويمر) بالاشراف عليه وقد قام زويمر في عام ١٨٩٦م ورفاقه

(٥) د. جلال يحيى، **المغرب الكبير**، القاهرة ١٩٦٩، العصور الحديثة ص ٧٤.

(٦) د. رافت الشيخ، **في تاريخ العرب الحديث**، القاهرة ١٩٧٥، ص ١٠٨.

(٧) د. نقولا زيادة: **ليبيا من الاحتلال البريطاني إلى الاستقلال**، القاهرة ١٩٥٨، ص ٤٧.

(٨) جلين تكر ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة: **معارك طرابلس بين الأسطول الليبي والأسطول الامريكي في القرن التاسع عشر**، ص ٤١٩ ـ ٤٤١.

برحلات من مسقط امتدت إلى المناطق الداخلية... واخذ زويمر في طبع الكتيبات الدينية واوعز إلى أحد الدعاة المسيحيين بتوزيع كتيبات دينية في إحدى مناطق عمان المتميزة بالاستقرار(٩).

وبالنسبة للنشاط الاقتصادي الامريكي، فقد اجتذبت عمان اهتمام الامريكيين في الثلث الأول من القرن التاسع عشر لوقوع السلطنة في طريق الهند والشرق الاقصى، كما أنها مركز للعلاقات مع بقية أقطار الوطن العربي وايران وافريقيا(١٠).

ثالثاً: الاتفاقية التجارية بين السلطنة والولايات المتحدة عام ١٨٣٣م

تمتعت سلطنة عمان في عهد السيد سعيد بن سلطان باستقلال امتازت به عن غيرها من أقطار الخليج العربي، كما تميزت بامتدادها حتى شرق افريقيا حيث صار للسلطنة جناح افريقي في زنجبار إلى جانب القلب الذي مقره مسقط في مدخل الخليج العربي. ورغم ان زنجبار ظلت خاضعة لحكم سلطنة عمان منذ منتصف القرن السابع عشر الميلادي إلا أنها لم تلق العناية الكافية للتنمية والتطور حتى اتجه إليها السيد سعيد بن سلطان في العشرينات من القرن التاسع عشر... حيث ادخل زراعة القرنفل في زنجبار واعتبره محصولاً تجارياً، وحيث انشأ عدة مزارع على الأرض الافريقية ودفع بالتجار العمانيين للتوغل في القارة الافريقية للمتاجرة مع الافارقة... كما قدم مساعدات ذات أثر كبير في نجاح رحلات المستكشفين الاوروبيين داخل افريقيا الذين مارسوا عمليات الكشف خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

كان تطوير الشق الافريقي للامبراطورية العمانية في عهد السيد سعيد بن سلطان عامل جذب للقوى الأجنبية لكي تسعى إلى تقوية علاقتها بالامبراطورية ككل ولكي تحصل على متاجر زنجبار بصفة خاصة... وكانت الولايات المتحدة الامريكية أول القوى الأجنبية في التطلع إلى فتح أسواق زنجبار أمام التجار الامريكان لبيع السلع الامريكية من ناحية ولشراء المنتجات والسلع في الشق الافريقي من الامبراطورية العمانية من ناحية أخرى.

وقد بدأت مقدمات العلاقات التجارية بين الامبراطورية العمانية والولايات المتحدة الامريكية حينما زار التاجر الامريكي الكابتن (ادموند روبرتس) Edmond Robertes الذي ينتمي إلى نيوهامبشير في عام ١٨٢٧م زنجبار متطلعاً إلى تحقيق كسب مادي كبير هناك ولكنه لم يجد التسهيلات التي يلقاها البريطانيون هناك أصدقاء السيد سعيد بن سلطان ومن ثم عاد إلى الولايات المتحدة يحمل فكرة عقد معاهدة مع الامبراطورية العمانية لكي تروج التجارة الامريكية في ممتلكات الامبراطورية(١١).

وافق الرئيس الامريكي (اندرو جاكسون) Andrew Jackson على فكرة عقد معاهدة تجارية بين الولايات المتحدة والامبراطورية العمانية وعهد إلى ادموند روبرتس باجراء المفاوضات اللازمة والتوصل إلى المعاهدة المنشودة وكان وصول السفينة الامريكية (بيكويك) حاملة بعثة روبرتس إلى مسقط دليلاً ليس فقط على الاهتمام الامريكي بكل من آسيا وافريقيا بل وأيضاً كون الامبراطورية العمانية دولة ذات أهمية بارزة.

تم توقيع المعاهدة التجارية بين الامبراطورية العمانية والولايات المتحدة في الحادي والعشرين من سبتمبر ١٨٣٣م، وكانت أول اتفاقية يعقدها السيد سعيد بن سلطان مع دولة كبرى، وقد صارت تلك الاتفاقية المثل الذي سارت على منواله معاهدات عمان مع بريطانيا عام ١٨٣٩م ومع فرنسا عام ١٨٤٤م. وقد ظلت الاتفاقية الامريكية العمانية سارية المفعول حتى عام ١٩٥٨م حين ابطل مفعولها واستبدلت بمعاهدة جديدة للصداقة والعلاقات الاقتصادية والحقوق القنصلية بين الطرفين.

وبموجب هذه الاتفاقية تمتع الامريكيون في ممتلكات السلطان العربية والافريقية بامتيازات اقتصادية وقضائية... حيث صار التجار الامريكيون يتاجرون في أراضي الامبراطورية وينزلون في موانيها يدفعون ٥٪ فقط رسوماً على البضائع التي يجلبونها إلى الموانئ العمانية وأن يعفوا من دفع أية ضرائب أخرى على الصادرات والواردات وأن يعفوا كذلك من رسوم الارشاد الملاحي في موانئ الامبراطورية... كما صار من حق القنصل الامريكي في عمان فض المنازعات التي تنشأ بين رعايا دولته، ونصت المعاهدة كذلك على حق قنصل

(٩) لوريمر، **دليل الخليج القسم التاريخي**، ج ٦ ص ٣٤٤٢.

(١٠) المصدر نفسه، ج ٣ ص ٧٢٨.

(١١) د. ريتشارد ستيفنس، «استعراض لبداية العلاقة الامريكية التجارية والقنصلية مع سلطنة عمان ومسقط (١٨٣٣ ـ ١٨٥٦)»، **مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية** ص ١٢٢.

الامبراطورية في الفصل في القضايا بين رعايا دولته في الولايات المتحدة[١٢].

وفي تقييمنا للاتفاقية التجارية الامريكية العمانية نلاحظ ان الاتفاقية عززت أهمية السيد سعيد بن سلطان وقدرته على الدخول في اتفاقية مع دولة كبرى، مما جعله يميل إلى كسب المزيد من رضا الامريكيين فيعرض عليهم امتيازات تجارية خاصة في شرق افريقيا على أن يقفوا بجواره ويساعدوه بالسلاح لاخضاع (مومباسا) لسيادته. ولم يغضبه عدم استجابة الامريكيين لطلبه.

كما ان عقد السيد سعيد بن سلطان اتفاقية مع دولة كبرى جعله في موقف الندية ويستند إليه في مواجهة القوى الكبرى الأخرى - خاصة انجلترا وفرنسا - في تحقيق نفع له ولسلطته تكسب مكانة دولية وتكسب الامبراطورية اعترافاً دولياً تسعى إليه الأقطار الحديثة ذات الحكومات الناشئة في كل من افريقيا وآسيا، بل وامريكا اللاتينية.

وعلى الجانب الامريكي فقد استقبل الرئيس الامريكي اندرو جاكسون رسالة السلطان التي حملها ادموند روبرتس مع نص الاتفاقية عند عودته إلى الولايات المتحدة بكل تقدير حيث اكدت الرسالة على تمنيات السيد سعيد الطيبة للرئيس الامريكي وشكره على الرسالة التي حملها إليه روبرتس التي حملت المودة والتقدير من الرئيس الامريكي للسيد سعيد.

ومما جاء في رسالة السيد سعيد للرئيس جاكسون: «ولقد استجبت من كل النواحي لرغبات معالي سفيركم روبرتس وذلك بابرام معاهدة صداقة وتجارة بين بلدينا العزيزين... هذه المعاهدة التي سنتقيد بها بكل إخلاص أنا ومن يخلفني في الحكم وتستطيع سيادتكم أن تطمئن بأن كل السفن الامريكية التي ترسو في الموانئ التابعة لي ستلقى نفس المعاملة الكريمة التي تلقاها في موانئ بلادكم السعيدة التي يسود فيها الهناء... وآمل من كل قلبي بأن سيادتكم ستعتبرني صديقك الدائم والحميم، وان صداقتي لسيادتكم لن تزول مع الأيام، بل ستستمر زيادة في الرسوخ إلى الأبد»[١٣].

ونتيجة لما جاء في الرسالة وما احتوته الاتفاقية من نصوص تؤكد على العلاقة مع الولايات المتحدة فقد كان وقع الاتفاقية في الولايات المتحدة طيباً، وتمت مصادقة كل من الرئيس جاكسون والكونجرس دون ابطاء. كيف لا والاتفاقية لم تحمل الولايات المتحدة أية التزامات نحو الامبراطورية العمانية، كما ان الولايات المتحدة قد أصبحت مرتبطة بصداقة إحدى القوى الآسيوية الافريقية التي تفخر بامتلاكها اسطولاً أكبر من الأسطول الامريكي... إذ كان أسطول الامبراطورية العمانية مكوناً من حوالي خمس وسبعين سفينة مختلفة الأحجام كل منها مزودة بعدد من المدافع يتراوح بين أربع وست وخمسين مدفعاً... كما ان السفن العمانية التجارية - وكما لاحظها المبعوث الامريكي روبرتس - تبحر شرقاً إلى الهند وسيلان وجاوة وإلى جانب موانئ شرق افريقيا.

ويمكن أن نضيف أنه رغم أن الاتفاقية احتوت نصاً على أن يكون من حق القنصل الامريكي في الامبراطورية العمانية الفصل في المنازعات بين رعاياه، وأن يكون من حق القنصل العماني إذا وجد في الولايات المتحدة الفصل في الخصومات التي قد تنشأ بين المواطنين العمانيين هناك، فإن هذا النص كان لصالح الولايات المتحدة أكثر من كونه في صالح الامبراطورية العمانية إذ لم يكن من المحتمل أن يقوم مواطنون عمانيون بالإقامة والاتجار في الولايات المتحدة وإن كان تخلص السيد سعيد من مسؤولية الفصل في الخصومات التي تقع بين الأجانب المقيمين في عمان قد يجنبه كثيراً من المشاكل.

وكان رد الفعل البريطاني نحو الاتفاقية الامريكية العمانية يدل على السياسة البريطانية نحو منطقة الخليج العربي وشرق افريقيا والمحيط الهندي بصفة عامة، تلك السياسة التي تقوم على الانفراد بالنفوذ دون منافس من قوة كبرى خارجية أو حتى داخلية. وفي سبيل ذلك قيدت مشايخ امارات الساحل العماني أواخر العقد الثاني من القرن التاسع عشر بمجموعة اتفاقيات اعقبت القضاء على قوة القواسم في رأس الخيمة، تقضي بسيطرة النفوذ البريطاني دون منازع وحرمان تلك الامارات من عقد اتفاقات حتى ولو كانت تجارية دون موافقة الحكومة البريطانية.

وبحكم الصداقة التي قامت بين السيد سعيد وبريطانيا فقد تلقى السيد سعيد تحذيراً بريطانيا من أن تكون للولايات المتحدة اطماع في شرق افريقيا ومن ثم يجب عدم قبول النشاط الامريكي المتزايد في ممتلكات الامبراطورية وتفهم السيد سعيد وجهة النظر البريطانية وعرض على البريطانيين عقد معاهدة مشابهة للمعاهدة مع الولايات المتحدة.

ورغم أن الولايات المتحدة لم يكن من سياستها التدخل في

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

الأمور الداخلية في عمان أو في غيرها من الأقطار التي توجد معها اتفاقيات تجارية وأن جل اهتمام الامريكيين هو الاتجار مع الأقطار الأخرى، ورغم ان البريطانيين تأكدوا أن الامريكيين لا يسعون إلى تكوين مستعمرات في الممتلكات الافريقية للامبراطورية العمانية إلا أن السيد سعيد تفهم الموقف البريطاني فقصر العلاقة بينه وبين الامريكيين على النواحي التجارية فقط... وعقد مع البريطانيين معاهدة تشبه في نصوصها المعاهدة مع الامريكيين وذلك عام ١٨٣٩م.

وقد أدت الاتفاقية الامريكية العمانية التجارية إلى ازدهار التجارة الامريكية في الممتلكات الافريقية للامبراطورية العمانية أكثر من ازدهارها في مقر الامبراطورية بمسقط، إذ تزايد عدد السفن الامريكية التي ترسو في زنجبار وتحمل قماشاً قطنياً أمريكياً متيناً سرعان ما شاع استعماله في شرق افريقيا والخليج العربي والجزيرة العربية، إلى جانب الأدوات المنزلية والبنادق والبارود والساعات والأحذية، وفي المقابل تحمل من زنجبار القرنفل والعاج وصمغ الكوبال الذي يستخدم في تحضير الطلاء، ولب جوز الهند المجفف والتوابل(١٤).

ونتيجة لازدياد النشاط التجاري الامريكي في ممتلكات الامبراطورية العمانية لشرق افريقيا فقد اختارت الحكومة الأمريكية أحد رعاياها ويدعى (المستر ريتشارد ووترز) Richard Waters عام ١٨٣٦م ليكون أول قنصل أمريكي في مسقط ذاتها في عام ١٨٣٨م.

إلا أن النشاط التجاري الامريكي مع زنجبار كان أكثر بصورة واضحة من ذلك النشاط مع مسقط فعلى سبيل المثال زارت مسقط خلال العام ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩م ثلاث سفن امريكية فقط، بلغت قيمة البضائع التي افرغتها في ميناء مسقط حوالي ١١٠٠ دولار فقط. وكان التمر يمثل ركناً أساسياً في التجارة الامريكية العمانية حتى الحرب العالمية الأولى، فكانت السفن الامريكية تنقل من مسقط كميات كبيرة منه إلى الولايات المتحدة.

وقد ظلت العلاقة بين الامبراطورية العمانية والولايات المتحدة الامريكية ودية حتى منتصف القرن التاسع عشر أي على مدى ما يقرب من عشرين سنة منذ عقدت الاتفاقية التجارية بين الطرفين عام ١٨٣٣م ولكن حدث أن اضطربت تلك العلاقة نتيجة عدة عوامل منها:

١ ـ رغبة السيد سعيد في تعديل المادة الثانية من معاهدة الصداقة والتجارة المعقودة بين الطرفين عام ١٨٣٣م التي تنص على ان من حق التجار الامريكيين دخول كل الموانئ الخاضعة للسلطان واصر السلطان سعيد على ان المادة الثانية تشير ـ في رأيه ـ إلى أن هذا الحق كان يقتصر على ميناء رئيسي واحد هو ميناء زنجبار ولم ترغب الحكومة الامريكية في الاستجابة لطلب السلطان فتحرم تجارها بصفة رسمية من التجارة في بقية موانئ الامبراطورية خشية أن تفتح هذه الموانئ أمام تجار دول أخرى.

٢ ـ الخلافات بين السيد سعيد والامريكيين حول مدى السلطة القنصلية الامريكية في عمان على الرعايا الامريكيين، وقد فجر هذا الخلاف ارتكاب بحار امريكي جريمة قتل في حق مواطن عربي... كما فجره الخلاف الذي كثيراً ما كان ينشب بين الرعايا الامريكيين في الامبراطورية وبين التجار الهنود المعروفين باسم البانيان ـ الهندوس من غير ذوي الكتاب ـ والمشمولين بالحماية البريطانية(١٥).

وقد لعب القنصل الامريكي في زنجبار شارلس وارد Chaeles Ward الذي تسلّم مهامّ وظيفته في الجزء الافريقي من الامبراطورية العمانية بتاريخ ٢٤ يناير ١٨٤٦م، دوراً في سوء العلاقة بين السيد سعيد والولايات المتحدة مما ادى إلى قطع العلاقة بين البلدين في يوليو ١٨٥٠م، واعتقد وارد أن القنصل البريطاني في زنجبار كان وراء سوء العلاقة بين الولايات المتحدة وعمان، وتوقع تفكك الامبراطورية بعد وفاة السيد سعيد، واشاع ذلك مما اغضب السيد سعيد.

ورغم ان السيد سعيد كان حريصاً على استمرار العلاقة مع الولايات المتحدة فإنه اضطر إلى توقيف تلك العلاقة بعد ان استنفد الوسائل المتاحة لكي يحل المشكلات التي اثيرت بين الطرفين... فقد بعث السيد سعيد برسالة إلى الحكومة الامريكية في سبتمبر ١٨٤٧م إلا أنه لم يتلق رداً عليها مما دفعه إلى التمسك بتفسيره للمادة الثانية للمعاهدة المعقودة بين البلدين... وكانت الرسالة تطلب ضمانات امريكية محددة حول المدى المحدد للتجارة الامريكية في سواحل افريقيا الشرقية التابعة للامبراطورية العمانية، وتطلب تحديداً للاختصاصات القضائية للقنصل الامريكي في عمان، ووقف أي تدخل في الشؤون الداخلية للامبراطورية من جانب القنصل الامريكي.

وارادت الولايات المتحدة ألا تفقد صداقة السلطان فأرسل

(١٤) دونالد هولي، **عمان ونهضتها الحديثة**، ص ١٨٧.

(١٥) د. ريتشارد سيتفنس، المصدر نفسه، ص ١٣٠.

الرئيس الامريكي (ميلارد فيلمور) رسالة ودية حملها مبعوثه إلى السيد سعيد ويدعى (الكومودور اوليك) وغادر القنصل وارد إلى الولايات المتحدة وعندما وصل اوليك إلى زنجبار في أول ديسمبر عام ١٨٥١م اجتمع مع التجار الامريكيين قبل أن يسلم رسالة الرئيس الامريكي للسيد سعيد، وعرف منهم مدى صداقة السيد سعيد وحسن معاملته لهم، وأنه لم يسئ للعلم الامريكي كما ادعى القنصل (وارد) وأنهم يتمتعون بامتيازات في الامبراطورية تفوق ما يتمتع به غيرهم من التجار الأجانب.

وعندما غادر المبعوث الامريكي (اوليك) زنجبار ترك أثراً طيباً بين أهلها وحكامها، وتحمل القناصل الامريكون منذ عام ١٨٥٢م مسؤولية العمل على تحسين العلاقات بين السلطنة والولايات المتحدة الامريكية... وبالفعل امتلأت تقارير هؤلاء القناصل بالإشادة بروح المودة التي يبديها السيد سعيد نحو الامريكيين وان العلاقات التجارية بين البلدين ثابتة ومستقرة[١٦].

ومما يجدر الإشارة إليه أنه نظراً للاهتمام بالجانب الافريقي من الامبراطورية كان تعيين قناصل امريكيين في زنجبار أسبق من تعيين زملاء لهم في مسقط، بل إن القنصلية الامريكية بمسقط أحياناً ما خلت ممن يشغلها، وأحياناً أخرى تخضع لسلطان القنصل الامريكي في زنجبار، وإذا كان أول القناصل قد وصل إلى زنجبار عام ١٨٣٦م ويدعى (ريتشارد ووترز) - السابق الإشارة إليه - فإن آخر قنصل للولايات المتحدة قد غادر زنجبار عام ١٨٩١م بعد أن خضعت هذه البلاد للسيطرة الانجليزية... بينما تسلم المستر (هنري مارشال) عمله كقنصل للولايات المتحدة في مسقط عام ١٨٣٨م، ثم الغيت القنصلية الامريكية بمسقط في المدة من ١٨٤٥ - ١٨٨٠م، حين عين المستر (ماجبور) Magbour وهو تاجر بريطاني قنصلاً للولايات المتحدة الامريكية في مسقط وفي عام ١٨٨١م اعترفت به فرنسا قنصلاً لها أيضاً في عمان.

ورغم أن العلاقة بين الامبراطورية والولايات المتحدة خلال الفترة الممتدة من الاتفاقية التجارية لعام ١٨٣٣م ولمدة مائة عام تقريباً لم تعتبر ذات أهمية بالغة من وجهة نظر أي من الطرفين إلا أن وجودها في حد ذاته كان يبشر بعهد جديد في مجال العلاقات الدولية.

رابعاً: زيارة سفينة السيد سعيد لنيويورك

تمشيا مع السياسة الودية بين الامبراطورية العمانية والولايات المتحدة التي بدأت مع معاهدة الصداقة والتجارة التي عقدت بين البلدين عام ١٨٣٣م... بعث السيد سعيد سفينته المسماة (سلطانة) في رحلة إلى ميناء نيويورك الامريكي عام ١٨٤٠م لتقوية العلاقات مع الولايات المتحدة وللمتاجرة وشراء الأسلحة التي كان في حاجة إليها أثناء صراعه ضد الوجود البرتغالي في موزمبيق وتولى قيادة هذه السفينة ربان بريطاني يدعى (وليام سليمان) William Soliman واختار السيد سعيد أمين سره الخاص الحاج أحمد بن نعمان ليكون ممثلاً له في الولايات المتحدة، بل أول مبعوث عماني إلى الولايات المتحدة.

وقد حمل الحاج أحمد بن نعمان معه هدية السيد سعيد للرئيس الامريكي وكانت عبارة عن جوادين عربيين، وبعض الجواهر وسيف مطعم بالذهب إلى جانب العطور، وقد اهدى الرئيس الامريكي للسيد سعيد باخرة كبيرة مؤثثة بأثاث فاخر إلى جانب أربعة مسدسات تلقائية الدوران وبندقيتين تلقائيتي الدوران كذلك.

كما حملت السفينة (سلطانة) أكثر من ألف من أجولة التمر العماني وحوالي عشرين بالة من السجاد الايراني، ومائة كيس من قهوة (مخا) و١٠٨ من أنياب العاج وحوالي ثمانين جوالاً من صمغ الكوبال الراتينجي، و١٣٥ جوالاً من القرنفل، وألف جلد من جلود الحيوان المجففة، وهذه الحمولة بيعت لحساب السيد سعيد في نيويورك[١٧].

وحملت (سلطانة) من نيويورك بضائع متنوعة تتألف من ١٢٥ بالة من الملاءات الرمادية تسمى (ميركاني) و٢٤ ثوباً من قماش قرمزي اللون و١٣ حقيبة من الخرز الأحمر والأبيض والأزرق، وعشرين دستة من القماش المطبوع، و٣٠٠ بندقية، وبارود وأطباق من الصيني، وبعض الأشياء الشخصية للسيد سعيد[١٨].

وعندما وصلت (سلطانة) إلى ميناء نيويورك لقي ركابها العرب بعض المضايقات من بعض الامريكيين إذ أثار منظر العرب العمانيين بملابسهم المميزة انتباه الناس في الشوارع نيويورك فتعقبوهم في السير، إلا ان هذه المضايقات سرعان ما

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(١٧) دونالد هولي، المصدر السابق، ص ١٨٨.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

ضاع أثرها حين لقي ركاب السفينة سلطانة كل تكريم وترحيب من محافظ بروكلين ومن رئيس نادي البحرية في نيويورك، وصدرت أوامر الرئيس الامريكي (فان بورين) Van Buren ووزير بحريته بادخال السفينة سلطانة إلى حوض الأسطول الامريكي وتجهيزها للابحار على نفقة الحكومة الامريكية... ومن ثم شحنها بالمنتجات الامريكية التي اشرنا إليها لتعود بها إلى السيد سعيد.

استغرقت رحلة السفينة سلطانة حوالي عشرة أشهر منذ خرجت من زنجبار حتى عادت إليها، وقاد رحلة العودة إلى أرض الوطن ربان أمريكي استطاع أن يجتاز بها المحيط الاطلنطي بأمواجه المضطربة بسلام، عادت وعليها مبعوث السيد سعيد الحاج أحمد بن نعمان بعد أن أتم مهمته على خير وجه فكان خير سفير لبلده في تلك البلاد البعيدة.

وإن دلت رحلة السفينة (سلطانة) إلى نيويورك على شيء فإنما دلت على رغبة كل من امبراطورية عمان في عهد السيد سعيد بن سلطان والولايات المتحدة الامريكية في تقوية واستمرار العلاقات الودية بين الطرفين وخاصة في المجالات الاقتصادية وهي المجالات التي كانت تستهوي التجار الامريكيين أكثر من أي شيء آخر... في الوقت الذي لم تكن فيه حكومة الولايات المتحدة الامريكية راغبة في التدخل في المشكلات السياسية انطلاقاً من سياسة العزلة التي سارت عليها منذ اعلنت استقلالها عن انجلترا.

خامساً: أهمية الصلات بين الامبراطورية والولايات المتحدة الامريكية على المستوى الخليجي والعربي والعالمي

كان للعلاقات بين الامبراطورية العمانية والولايات المتحدة أثر هام على موقف كل من البلدين فقد استفادت الولايات المتحدة بازدهار تجارتها لأكثر من نصف قرن من الزمان، بل إن هذه التجارة فاقت التجارة البريطانية في ممتلكات السلطان العماني. وقد شهدت السنوات ما بين ١٨٣٣ - ١٨٥١م تصاعداً مستمراً في أرباح التجارة الامريكية، ففي عام ١٨٣٣م كان مجموع السفن الامريكية التي وصلت إلى زنجبار تسع سفن بينما كان عدد السفن الانجليزية أربع سفن فقط، وارتفع عدد السفن الامريكية التي وصلت إلي زنجبار عام ١٨٥٦م - وهي سنة وفاة السيد سعيد - إلى ست وعشرين سفينة بينما لم يتجاوز عدد السفن البريطانية اثنتين، وهذا يعني ان السيد سعيد قد ضمن للولايات المتحدة تطويراً لمصالحها في المنطقة.

وعلى الجانب الآخر فقد استفادت عمان في علاقتها بالولايات المتحدة في أن الوجود التجاري الامريكي القوي في الامبراطورية قد جعل مسألة سيادة تلك البلاد واستقلالها عند وفاة السيد سعيد أمراً ثابتاً لا يحتاج إلى نقاش وحتى بعد انقسام الامبراطورية بين ولدي السيد سعيد... ماجد في زنجبار وثويني في مسقط... فقد بقيت السلطنة في مسقط بعيدة عن أي نزاع استعماري لأن سيادتها ضمنتها اتفاقيات دولية بينما وقعت زنجبار فريسة للاستعمارين الانجليزي والألماني.

وقد أشار تقرير عن السياسة الخارجية الامريكية عام ١٩٤٦م نحو امارات الخليج العربي عامة وسلطنة عمان خاصة(١٩) بأنه في الوقت الذي تعترف فيه الولايات المتحدة بالوضع الخاص لبريطانيا العظمى في امارات الكويت والبحرين وقطر والساحل العماني المتصالح، فإنّ سياستنا - أي سياسة الحكومة الامريكية - نحو هذه المنطقة تعتمد على أن الوضع البريطاني الخاص في هذه الإمارات لن يؤدي إلى الحاق الضرر بالمصالح الامريكية أو مصالح السكان المحليين والحكومات القائمة... وأن سياستنا نحو سلطنة عمان تستند على واحدة من أقدم معاهداتنا التي ما زالت نافذة المفعول وهي معاهدة الصداقة والتجارة الموقعة بين الطرفين في الحادي والعشرين من سبتمبر ١٨٣٣م.

ويضيف التقرير مؤكداً على أهمية العلاقة بين الولايات المتحدة وسلطنة عمان مشيراً إلى أن الذكرى المئوية لتوقيع المعاهدة المشار إليها والتي أحييت في مارس ١٩٣٤م تميزت بزيارة قامت بها بعثة دبلوماسية امريكية خاصة لمسقط، وفي عام ١٩٣٧م استقبل الرئيس الامريكي (فرانكلين رزفلت) Franklin Roosevelt في واشنطن السلطان سعيد بن تيمور سلطان عمان كضيفه الخاص.

واختتم التقرير سرده للأحداث المقارنة بين تلك المعاهدات التي وقعتها الامارات العربية الخليجية مع بريطانيا العظمى ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر وبين المعاهدات العمانية البريطانية، فالامارات العربية الخليجية تعهدت لبريطانيا منذ عام ١٨٢٠م بالمساعدة للقضاء على القرصنة في الخليج العربي ووضع حد لدخول السلاح والرقيق إلى بلادهم. وعن طريق

(١٩) Memorandum Prepared in the Department of State (secret) Washington, March 15, 1946, No. 790.0014 - 946 - Current U. S. Policy toward the Arab Principalities of the Persian Gulf and the Gulf of Oman.

سلسلة من المعاهدات اعطى حكام الامارات للبريطانيين حق استغلال أراضيهم مقابل الحماية البريطانية. وفيما بين عامي ١٩١٣ ـ ١٩٢٣م ربط حكام الامارات العربية الخليجية أنفسهم أكثر بالتعهد بعدم اعطاء امتيازات للبحث عن البترول في أراضيهم لأية دولة أخرى دون موافقة وقبول البريطانيين، بينما وافق سلطان عمان في عام ١٩٢٣م على مجرد استشارة الوكيل السياسي البريطاني في الخليج وحكومة الهند البريطانية قبل البحث عن البترول في سلطنته.

دور المستشرقين في تخريب الثقافة والفكر العربي

د. عصمت جودي محمد الجشعمي
(العراق)

المقدمة

اتسم تقدم القوى الأجنبية باتجاه الوطن العربي، بالتوجه نحو **الجوهر للحركة الفكرية (المعتقدات والثقافة ووسائلها)**، وهذا يعني أن الدوافع في التحدي كانت حضارية تهدف إلى إلغاء الدور الحضاري وشل الفاعلية الحضارية وتعطيلها في الأمة. فقد سعت تلك القوى إلى تركيز فاعليتها لإلغاء الفرص المستقبلية لأي نشاط حضاري من خلال تجزئة الوطن لكون وحدته أحد عناصر النشاط الحضاري لأنها تضع الأمة في وضع طبيعي، وكذلك سعيها لتطويع العقلية العربية وجرها إلى مشارب بعيدة عن جوهر تكونها من خلال الدور الذي تؤديه في تحريف المعتقدات العربية والأديان وتشتيت المجتمع وطمس قيمه وتقاليده. إن الواقع الرئيسي والشعار الذي ترفعه دراسات المستشرقين بشكل عام هو العمل في سبيل إنكار المقومات الثقافية والروحية في ماضي الأمة العربية والإسلامية والتنديد والاستخفاف بها، لأن ما يفكر به الغربيون في الوقت الحاضر وارد من انفعالات وتأثيرات تعود إلى خبرات سابقة عميقة الجذور في الفكر الأوروبي ومنذ الحروب الصليبية والقرن الذي سبقها مباشرة، أي نهاية حقبة الألف سنة الأولى من التاريخ المسيحي والتي تم وصفها بـ (الطفولة المبكرة للمدنية الغربية)[١].

البعض من المستشرقين وصف الإنسان العربي بأنه إنسان يخلط بين الواقع والمثال ويتعلق بالأماني ويبتعد عن الواقع وكإنسان متوحش ومخرب وجبان ومزيف ويحتقر الدراسة ويلهث وراء الملذات وعدواني ومتحايل وحاجته للانتقام تطغى على كل شيء، بينما وصف الغربي بأنه محب للسلام وشديد الوعي بقيمة الوقت ومنطقي[٢].

الغاية

الوقوف على مدى تأثير الكتاب والباحثين الغربيين (المستشرقين) في تخريب الثقافة والفكر العربي. واستمرار محاولاتهم المغرضة من أجل طمس معالم تلك الحضارة والثقافة من القرون السابقة وامتداد تأثيرها إلى يومنا هذا.

تعريف الاستشراق ومصدره

عرف الكاتب إدوارد سعيد الاستشراق بأنه (هو علم الشرق في الغرب)[٣]. والمعنى العام للاستشراق هو ما يشير إلى الدراسات والأبحاث والأعمال الكتابية التي قام بها الكتاب الغربيون عن الشرق ـ وهو يحتل ظاهرة بارزة من مظاهر التفاعلات والصراعات الثقافية والسياسية بين الشرق والغرب. إن الاستشراق فرع من فروع المعرفة في الثقافة الغربية موضوعه الشرق. وكلمة (مستشرق) تطلق على كل عالم غربي يعمل بدراسة وتدريس شؤون الشرق ولغاته وآدابه وأديانه وحضارته وثقافته والكتابة عنها، ولذا يكون من الممكن اعتبار الاستشراق بأنه مفهوم أكاديمي نشأ في أوساط جامعية ولا يزال يستخدم في أوساط أكاديمية.

---

(١) د. محمد البهي ـ **المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام** ـ من منشورات الجامع الأزهر ـ مطبعة الأزهر ـ ص ١.

(٢) Patai Raphael- «The Arab Mind», New York-Charles sons-1976-pp. (16-24).

(٣) إدوارد سعيد ـ **الاستشراق** ـ ترجمة كمال أبو ديب ـ بيروت ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ ١٩٨١ ـ ص ٣٨.

هناك وجهات نظر بإضافة عدد من الكتاب الشرقيين الذين يعالجون موضوعات شرقية وإسلامية متأثرين في مناهج وطرق بحثهم بتلك التي يستخدمها المستشرقون الغربيون، ومنهم على سبيل المثال (طه حسين) الذي يؤيد الاستشراق ويرى فيه الخير وآمن بالتصورات والتفسيرات التي قدمها المستشرقون للتراث العربي الإسلامي ومنها ما أورده بكتابيه (الشعر الجاهلي) و(مستقبل الثقافة في مصر)، فكتابه الأول نشر على غرار ما أورده المستشرق (مرجوليوث) مما أثار زوبعة من السخط(٤). وفي كتابه الثاني يدعو إلى تبني الحضارة الغربية بقوله «إننا في هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءاً منه لفظاً ومعنى وحقيقة وشكلاً»(٥).

تاريخ الاستشراق ودوافعه

تأثر الاستشراق بمراحل مختلفة وبعوامل وقوى دينية وثقافية وسياسية مختلفة. وعند البحث عن تاريخ الاستشراق منذ أن بدأ كدراسة منظمة وكجهود مكثفة ومدروسة للدراسات الشرقية في أوروبا نجد أن التاريخ المتفق عليه هو منذ بدء الكتابة عن الشرق العربي الإسلامي في أوروبا بشكل بسيط وغير منظم منذ بداية انتشار الإسلام، حيث سارع رجال الدين المسيحي في أوروبا بدراسة الإسلام لإبعاد دينهم عنه.

وقد اختلف الباحثون في تحديد بداية الاستشراق المنظم فمنهم من يرى أنه بدأ في القرن العاشر الميلادي بالراهب الفرنسي (جرير دي اورلياك) الذي تتلمذ على يد أساتذة مسلمين في الأندلس وأصبح أوسع علماء عصره في أوروبا ثقافة باللغة العربية والرياضيات والفلك، وتقلد منصب البابوية في روما في ما بعد(٦). بينما يقول أحد المستشرقين الألمان (رودي بارت) بأن بدايات الدراسات الإسلامية والعربية تعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي الذي تمت فيه ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللاتينية لأول مرة، وظهر فيه أول قاموس لاتيني عربي. ويؤكد هذا الرأي (لويس ماسينيون) وهو مستشرق فرنسي معاصر أيضاً بقوله ان الترجمة تمّت عام ١١٤١م في مدينة طليطلة برعاية رئيس الرهبان وأنجزت عام ١١٤٣م.

وفي الموضوع ذاته يؤرخ بعض الباحثين الأوروبيين لبدء الاستشراق بقرار مجمع ڤينا الكنسي عام ١٣١٢م بإنشاء عدد من كراسي الأستاذية في اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية. ويعتبرون ذلك بداية الاستشراق الرسمي. أما مفهوم (مستشرق) فلم يظهر في أوروبا إلا في نهاية القرن الثامن عشر للميلاد.

أما المراحل التي مر بها الاستشراق فهي ثلاث مراحل وكما يلي:

المرحلة الأولى: تمتد من بداية الاستشراق حتى بداية عصر النهضة الأوروبية، التي تطور الاستشراق خلالها من كتابات فردية غير منظمة حتى أصبح بحثاً منظماً ورسمياً بمعنى انه أصبح يتم في مؤسسات رسمية وتحت اشرافها وهي الجامعات. أما من حيث محتواه وخصائصه في هذه المرحلة فقد اتسم في مجمله بالعداء للإسلام وساده اتجاه لاهوتي خرافي متطرف في جدله وعدائه للإسلام. وكان الاستشراق في هذه المرحلة مظهراً للصراع الديني والايديولوجي بين العالمين الأوروبي المسيحي والشرق الإسلامي فقد تمثل الدافع للبدايات المبكرة له في ذلك الصراع الذي دار بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي في الأندلس وصقلية. كما كانت الحروب الصليبية دافعاً للأوروبيين للاشتغال بتعاليم الإسلام.

المرحلة الثانية: وتمتد من عصر النهضة حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. وفي هذه المرحلة أثرت في مفهوم الاستشراق عدة عوامل، أهمها (النزعة الإنسانية) التي سادت في عصر النهضة، وحركة التنوير (النزعة العقلية) التي شملت أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر الميلاديين فأدت هاتان النزعتان إلى دراسات للشرق الإسلامي أكثر موضوعية من ذي قبل. وساهمت حركات التنوير بالقيام بمحاولات جادة لفهم الإسلام والنظر إليه نظرة موضوعية محايدة فيها شيء مختلف من التعاطف، واعتبر المسلمون أناساً مثل غيرهم. وظهرت بعض المؤلفات المعتدلة عن الإسلام، وحل محل الآراء التي تبناها رجال اللاهوت عن الإسلام حتى ذلك الوقت آراء أخرى أقرب إلى الموضوعية وصاحب التطور النوعي في مفهوم الاستشراق في هذه المرحلة تطور كمي فأُنشئ المزيد من كراسي اللغة العربية في الجامعات الأوروبية.

(٤) مالك بن نبي ـ إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ـ **الفكر العربي** ـ العدد ٢٢ ـ ١٩٨٣م ـ ص؛١٣٠ ـ ١٤٤).

(٥) أبو الحسن علي الندوي ـ **الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأفكار الإسلامية** ـ الكويت ـ دار العلم ـ ١٩٨٣م ـ ص ١١٠.

(٦) نجيب العقيقي ـ **المستشرقون** ـ ج ١ ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٨١م ـ ص ١٠٠.

المرحلة الثالثة: وتمتد من القرن التاسع عشر الميلادي إلى وقتنا الحاضر. وشهدت عدة تطورات للاستشراق في مفهومه وحركته. ففي هذه المرحلة عاد طابع العداء ليغلب على نظرة الغرب للشرق. وكانت أهم العوامل التي أسهمت في تنمية هذه النظرة العدائية هي المصالح السياسية والاقتصادية والغربية في الشرق ونظرية (الرجل الأبيض وحقوقه) العنصرية التي ظهرت لتبرز استغلال العالم الغربي لغيره من الشعوب، فأصبح الشرقي عدواً في نظر الغرب بعد أن كان في ظل ايديولوجية الثورة الفرنسية إنساناً قبل كل شيء وأصبحت نظرة الغربي لغيره في القرن التاسع عشر نظرة متغطرسة متعالية.

مرت حركة الاستشراق في الفترة الواقعة بين النصف الثاني من القرن الماضي والنصف الأول من القرن الحالي بعصر النهضة والازدهار الاستشراقي. فقد ظهرت خلالها العديد من الجمعيات والمجلات الاستشراقية في مختلف البلدان الأوروبية وروسيا والولايات المتحدة. وعقد فيها العديد من المؤتمرات الدولية للمستشرقين التي حضرها المئات من العلماء والكتاب الغربيين وأقطاب الوطنيين في الغرب والشرق. وكانت بحدود (٢٦) مؤتمراً[٧] للفترة من ١٨٧٣ - ١٩٦٤م وتواكبت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الاستشراق ومضمونه في هذه الفترة مع مرحلة التوسع الاستثماري الأوروبي الذي اتسع ليشمل المنطقة العربية بأكملها باستثناء وسط الجزيرة العربية. وفي هذه الفترة تمّ فصل الاستشراق عن اللاهوت في كل من فرنسا وبريطانيا وأخذت الحركة الاستشراقية اتجاهاً آخر هو اتجاه علمي فقد حاول بعض الأوروبيّين توخّي الموضوعية في القرن التاسع عشر وما بعده. وبدأ هذا الاتجاه في فرنسا على يد (سلفستر دي ساسي)[٨] الذي أصبح إمام المستشرقين في عصره، وجعل من باريس مركزاً للدراسات العربية في أوروبا، وأصبحت مدرسة اللغات الشرقية الحية في عهده النموذج لمؤسسة الاستشراق العلمي والعلماني.

سيطرت بريطانيا وفرنسا على الشرق والاستشراق حتى الحرب العالمية الثانية. وبعد تلك الحرب هيمنت أمريكا على الشرق وحل نفوذها السياسي والثقافي محل النفوذ البريطاني والفرنسي. وأصبح لها الدور الأكبر في حركة الاستشراق وتوجيهها، كما أن الصراع العربي الاسرائيلي يلعب دوراً هاماً في رسم صورة الإنسان العربي في الغرب خاصة في الولايات المتحدة الامريكية، حيث يقوم اليهود الامريكيون ومن يؤازرهم بدور بارز في هذا المجال. ونتيجة لهذه الظروف فقد حدث تناقض في الاهتمام بالاستشراق التقليدي وقيام علماء الاجتماع والخبراء بدور المستشرقين وخاصة في امريكا فلم يعد الاستشراق بمفهومه التقليدي يحظى بالأهمية نفسها التي كان يحظى بها سابقاً، بل أصبح موضع انتقاد حتى من المستشرقين أنفسهم، إلا أن الكتابات والصورة التي ترسمها وسائل الاعلام والكتب الغربية للشرق اليوم وخاصة في امريكا لا تختلف كثيراً عنها في كتابات المستشرقين التقليديين لأن المستشرقين الجدد لا يكتبون بدون الرجوع إلى ما كتبه المستشرقون السابقون ومن ثم يكون التأثر بتفسيراتهم وتصوراتهم متطابقاً.

إن الدوافع السلبية في كتابات المستشرقين تتمثل بالعدائية ومحاولة تشويه التراث العربي الإسلامي والثقافة العربية المعاصرة. أما الدوافع الايجابية فإنها تتمثل بالروح العلمية والرغبة في معرفة العرب والمسلمين وحقيقتهم.

إن نشأة الاتجاه العدائي وتطوره كان لأسباب دينية واستعمارية ففي العصور الوسطى رأى الغرب في الشرق الإسلامي منافساً له وخطراً يتهدده، وأدى ذلك إلى قيام رجال اللاهوت المسيحي في أوروبا بدراسة الإسلام للوقوف في وجهه وحماية المسيحيين الأوروبيين منه. واتبعوا في ذلك تشويه الإسلام وحقائقه فصوروه حركة منشقة عن المسيحية، وصورة مشوهة عنها، ووصفوا الرسول محمد ﷺ بأنه (إله وثني) و(مسيحي منشقّ) و(نبي زائف). ووصفوا المسلمين بأنهم عبّاد أصنام. وكان الهدف من ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية هو التعرف على الإسلام للتمكن من مكافحته[٩]. واتضح لأوروبا المسيحية في القرن الثاني عشر وما بعده أن الصراع العسكري مع الإسلام لا يكفي لاسقاطه فلا بد من فهم مضامينه ومحاولة نقضها[١٠]. فكانت أهداف الأوروبيين في إقبالهم على دراسة الإسلام ضرب إرادة المقاومة عند

(٧) العقيقي - ج ٣ - ١٩٦٥م - ص ١١٠٢.

(٨) المصدر نفسه - ج ١ - ١٩٨١م - ص (١٦٣ - ١٦٤).

(٩) سذرن ريتشارد - **صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى** - حقبة التعقل والأمل (١١٠٠ - ١٣٠٠م) - ترجمة رضوان السيد - الفكر العربي - العدد ٣٢ - ١٩٨٣م - ص(٢٤ - ٤٠).

(١٠) المصدر نفسه.

الخصم عن طريق تشكيكه بصحة عقيدته[١١]. ودعا (روجر بيكون) في القرن الثالث عشر الميلادي إلى نشر المسيحية بالتبشير السلمي عن طريق الفلسفة، رغم اعتقاده أن المسلمين هم أصحاب الفلسفة وأن ما لدى الأوروبيين من فلسفة آتٍ من عند المسلمين[١٢].

وفي القرن الخامس عشر الميلادي وبعد أن قلب الإسلام الموقف بوصوله عسكرياً إلى أوروبا الشرقية فكر الأوروبيون بالهجوم على الإسلام عن طريق مؤتمر لحمل المسلمين اعتناق المسيحية بالجملة عن طريق اقناعهم بأن الإسلام لم يكن أكثر من صورة (معدلة ضالة) للمسيحية[١٣].

اعتمد الأوروبيون على الاستشراق عند التبشير بدينهم بين المسلمين ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وارسالهم إلى العالم الإسلامي. فالتقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكَّن لهم واعتمد عليهم في بسط نفوذه في الشرق[١٤]. وتواكبت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الاستشراق وفي مضمونه مع رحلة التوسع الأوروبي في الشرق، ونشأت رابطة وثيقة بين الاستعمار والاستشراق. فظهرت طائفة من المستشرقين لخدمة الاستعمار وأغراضه[١٥]. وعمل في فرنسا عدد من المستشرقين مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية. وفي بريطانيا أُنشئت مدرسة للدراسات الشرقية للاحتفاظ بالموقع الذي نالته بريطانيا في الشرق. واستمرت تلك المدرسة بخدمة أغراض الدولة بما في ذلك تدريس اللغات الآسيوية لأغراض الحرب في الحرب العالمية الثانية، وعن طريق الاستشراق عمل الاستعمار على هدم مقومات الثقافة العربية والإسلامية فظهرت حركة وعلى رأسها (لويس ماسينيون) تدعو إلى كتابة اللغة العربية العامية وبالحرف اللاتيني[١٦]. وأخذ المستشرقون يبرزون الخلافات المذهبية بين المسلمين ويؤكدون على الفجوات بين الطوائف والشعوب الإسلامية[١٧].

عمل الكثير من اليهود في حقل الاستشراق كمستشرقين أوروبيين في الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا ومن خلال ذلك ارتبط الاستشراق بالصهيونية واستخدم لأغراضها، وأقبل اليهود على الاستشراق لأسباب دينية وسياسية وثقافية تتمثل في محاولتهم إضعاف الإسلام بالقول بأن اليهودية هي مصدره الأول. وكذلك لخدمة الصهيونية كفكرة ودولة من أجل طمس الحضارة والثقافة العربية.

مع كل ما ورد آنفاً فإن حركة الاستشراق لم تخلُ من بعض الأعمال الحيادية للمستشرقين التي اتسمت بالروح الحيادية والعلمية وكان دافعها معرفة الحقيقة عن العرب والمسلمين. وعليه فإن من الصعب أحياناً وصف المستشرق الواحد بأنه موضوعي أو متحيز. فمثلاً يقال عن (لويس ماسينيون) انه غير موضوعي في حديثه عن اللغة العربية بينما نجده غير متحيز في وصفه للعقيدة الإسلامية بقوله إنها (تمثل ديناً واضحاً منصفاً بحماسة وحيوية)[١٨]. وفي وصفه للتنظيمات الحرفية الإسلامية بقوله (وهناك ضرب من فكرة التعاون لدى العامل المسلم... وذلك لأن شيئاً من فكرة الاعتدال والإحساس بالأمة الواحدة هو الأصل في الإسلام، فلم توجد نزاعات وخصومات في ميدان الحرف الإسلامية تسير وفق نوع من القانون والتقاليد الأخلاقية التي كانت تتطلب من العمل الجودة والبيع بسعر معقول)[١٩].

إن إنتاج وتهيئة المستشرقين يقسم إلى قسمين وهم القدماء والمحدثون، فإن المستشرقين القدماء لم يؤثروا في ثقافتنا الحالية، أما في العصر الحديث فإن اهتمام الغرب بالشرق العربي والإسلامي نابع من المصالح الغربية السياسية في المنطقة[٢٠].

إن العدوانية الغربية تجاه الشرق العربي والإسلامي حالياً ليست نابعة من كراهية للإسلام ولا من نزعة مسيحية قومية

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) ريتشارد - **صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى** - ترجمة رضوان السيد - (١١٠٠ - ١٣٠٠)م.

(١٣) إدوارد سعيد - **الاستشراق** - ١٩٨١ - ص ٩١.

(١٤) محمد البهي - **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي** - القاهرة - مكتبة وهبة - ١٩٦٤م - ص ٥٢٢.

(١٥) شاخت - **تراث الإسلام** - ج ١ - ترجمة حسين مؤنس - الكويت - ١٩٧٨م - ص ٨٣.

(١٦) خالد وفروخ - **التبشير والاستعمار في البلاد العربية** - بيروت - المكتبة العلمية - ١٩٨٣م - ص ٢٢٤.

(١٧) محمد البهي - **الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي** - ص ٢٣.

(١٨) لويس ماسينيون - **المصادر العربية التي استعملها المدرسون اللاتينيون** - ترجمة إبراهيم السامرائي - عمان - دار الفكر للنشر والتوزيع - ١٩٨٥م - ص ٤٧.

(١٩) المصدر نفسه - ص ٦٨.

(٢٠) مالك بن نبي - **المصدر السابق** - ص ١٣٠.

بقدر ما هي نابعة من حرص على تحقيق المصالح الغربية في المنطقة(٢١). فلم يعد الإسلام مصدر خطر لأوروبا. ونهضت أوروبا وأصبحت مركز قوة ثقافياً وسياسياً. كما أن الغرب يئس من تحويل المسلمين إلى مسيحيين فانعدمت المحاولات الرامية إلى تبشير المسلمين أو كادت تنعدم(٢٢) وانتهت المسيحية بوصفها نظاماً فكرياً وسلوكياً في الغرب منذ زمن. فالدوافع الحالية للاستشراق هي إما علمية هدفها معرفة الشرق أو سياسية ترمي إلى خدمة مصالح الغرب.

تاثير الاستشراق ودور المستشرقين بتخريب الفكر العربي

احتوت حركة الاستشراق عدداً هائلاً من المستشرقين والمؤسسات والمجلات الاستشراقية، ففي موسوعة العقيقي عن الاستشراق ورد ذكر ما يزيد عن (١٧٠٠) مستشرق والعديد من الجمعيات الاستشراقية وبحدود (٥٠٠) مجلة تتعلق بالاستشراق منها (٣٠٠) متخصصة في الاستشراق وعدد كبير من دور النشر والمؤسسات الاستشراقية. وقام المستشرقون بكتابة عدد لا حصر له من الكتب والأبحاث والمقالات بلغات مختلفة.

لقد وصل عدد كبير من نتاجات المستشرقين إلى المثقفين العرب بوسائل مختلفة منها الترجمة إلى العربية أو عن طريق اللغات الأصلية للمستشرقين. وقد كانت نتيجة الحركة الواسعة للاستشراق بما شملت من تفسيرات وتصورات للتراث العربي والإسلامي والعقلية العربية المعاصرة آثارها على الثقافة العربية وعلى مفهوم الذات للإنسان العربي وخاصة الذات المتحكمة والمنعكسة (إدراك الإنسان لنفسه بما يراه الآخرون). فلم يعد في وسع أحد في الغرب اليوم أن يكتب عن العالم العربي أو يفكر به دون الرجوع إلى كتابات المستشرقين والتأثر بالتصورات ووجهات النظر التي فرضها الاستشراق على الفكر في مجال دراسة هذا الجزء من العالم وفهمه. كما أن الدارسين للحضارة العربية الإسلامية والعلاقات الغربية ـ العربية من العرب أنفسهم قلما يتجنبون الرجوع إلى أعمال المستشرقين والتأثر بتفسيراتهم وآرائهم(٢٣). وأصبحت النظرة الخارجية للإنسان العربي تؤثر على نظرته لنفسه خاصة في هذا الوقت الذي يتفوق فيه الغرب بتقنياته ووسائل إعلامه ومؤسساته العلمية على العالم العربي.

إن تأثير الاستشراق على الثقافة العربية وعلى شخصية الإنسان العربي كالسيف ذي الحدين، فبالرغم من الأفكار المدسوسة والحاقدة على العرب والمسلمين ونظرة التعالي والغطرسة الغربية من جانب المستشرقين بشكل عام، فقد أسهم بعض المستشرقين اسهاماً واضحاً في احياء التراث العربي الإسلامي وفهرسته، ويسّر ذلك وصول العرب والمسلمين إلى تراثهم واتصالهم به، وكانت أعمالاً علمية توخت الحقيقة. وقد تخلل هذه الأعمال مديح وتقديرات للتراث العربي الإسلامي وما تضمنه من انجازات، فوجد الإنسان العربي المعاصر في هذه الأعمال مصدراً للاعتزاز بماضيه وتراثه وساعده ذلك كله على الاحتفاظ بشخصيته الثقافية عندما داهمته الثقافة الغربية المعاصرة(٢٤) ولا يزال ماضيه المجيد يدعم تماسكه الثقافي. إلا أن الاعتزاز بالماضي وبالرغم من الدور الهام الذي يلعبه في المحافظة على الشخصية الثقافية العربية تطور ليصبح ظاهرة مرضية لأنه أصبح يعمل كمسّكن للإنسان العربي حيث عزله عن مشكلاته القائمة(٢٥).

نتيجة ظهور الكتابات والآراء المختلفة للمستشرقين من حيث موقفهم من التراث العربي الإسلامي فقد انقسموا إلى فريقين: الفريق الأول ينتقد ويشوّه، والفريق الثاني ينصف ويمدح. ويقول مالك بن نبي (إن الفكر الإسلامي أصيب بصدمة من الثقافة العربية أدت إلى مركب نقص)(٢٦) ونتج عن هذه الصدمة وما ترتب عليها من مركب نقص انقسام المفكرين العرب والمسلمين إلى معسكرين: أحدهما أصيب بشلل ثقافي ودفعه مركب النقص إلى الدعوة إلى تمثل الفنون والعلوم والأشياء الغربية حتى اللباس، والآخر يحاول التغلب على مركب النقص بتناول حقنة اعتزاز من الماضي يُعزّي بها النفس واندفع للاهتمام بالأشياء بدل الأفكار(٢٧).

إن التحليل المذكور أعلاه الذي قدمه مالك بن نبي ليس

---

(٢١) دي بلوا فرانسوا ـ **في نقد المستشرقين** ـ ترجمة رضوان السيد ـ **الفكر العربي** ـ العدد ٣٢ ـ ١٩٨٣م ـ ص ١٤٥ ـ ١٥١.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) محمود حمدي زقزوقة ـ **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري** ـ قطر ـ رئاسة الحاكم الشرعية والشؤون الدينية ـ ١٤٠٤ هـ ـ ص ٩.

(٢٤) مالك بن نبي ـ مصدر سابق.

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) المصدر نفسه.

(٢٧) المصدر نفسه.

بعيداً عن الحقيقة. فالإنسان العربي بشكل عام يعاني من مركب نقص مضافاً إلى ذلك أعمال المستشرقين (المشوِّهين) للحقائق وبالتالي فإن هذه الأمور أسهمت بتكوين الشعور بالعجز الذي يعاني منه الإنسان العربي، فاهتزاز الثقة بالنفس لا يقل خطورة عن الهروب بها إلى الماضي وسحره. إن الصورة التي يراها العربي في كتابات المستشرقين (الناقدين والمشوهين) صورة قاتمة للعرب وللإنسان العربي بينما يقابلها صورة مضيئة ومشرقة للإنسان الغربي. وهذا ما يحرص المستشرقون المغرضون على عمله فجوهر الاستشراق (هو التمييز بين الفوقية الغربية والدونية الشرقية)[٢٨].

وصف المستشرقون الإنسان العربي بشكل مشوه وبعيد كل البعد عن الحقيقة فمنهم من قال إنه متوحش ومخرب ومزيف ويحتقر الدراسة[٢٩]. ومنهم من وصفه بأنه عدواني ومتحايل وحاجته للانتقام تطغى على كل شيء[٣٠]. وقال (جروبنيوم) بأن السمات البارزة للإنسان العربي هي الكراهية والشكلية وأن العربي غير قادر على الابداع وأن عقليته (فسيفسائية) غير قادرة على الربط والتصور[٣١]. وحاول إثبات أن الحضارة العربية الإسلامية لم تأت بجديد يذكر، والتأكيد على أن أصول الحضارة العربية الإسلامية مستمدة من اليهودية والمسيحية، وأن عبقريتها تكمن في قدرتها على الاستعارة من الثقافات الأخرى، أما ما يستعار فلا يهضم ويبقى غريباً في جسمها. أما بقية المستشرقين (المشوهين) فيؤكدون في كتاباتهم بأن الحضارة العربية الإسلامية لم تؤثر على الحضارة الغربية ولم تكن برأيهم سوى جسر عبرت عليه الثقافة الإغريقية إلى أوروبا وعاملاً مساعداً على النهضة الأوروبية ليس إلاّ، والفلسفة العربية في رأي (رينان) هي الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية، والساميون في رأيه أيضاً سطحيون في تفكيرهم وفلسفاتهم بينما الأوروبيون صناع حضارة وحملة للإبداع[٣٢].

لقد تركت الصور المشوهة للإنسان العربي والتفسيرات الخاطئة والحاقدة للحضارة العربية الإسلامية ودورها في التاريخ الإنساني آثاراً سلبية على شعور الإنسان العربي نحو ذاته وتراثه، بالإضافة إلى رسم صورة مشوهة له ولتراثه في الخارج وبشكل خاص في الغرب. إن هذه التصورات والتفسيرات لا يقتصر تأثيرها على مصادر المعرفة التي يرجع إليها الباحثون والكتاب خارج البلاد العربية فحسب، بل تتخلل مصادر المعرفة التي يرجع إليها العرب في دراستهم لثقافتهم وتراثهم. ويشمل ذلك الباحثين ورجال الاعلام وأساتذة الجامعات ومعلمي المدارس ومؤلفي الكتب المدرسية والطلاب في مختلف مراحلهم الدراسية. وأصبح مألوفاً أن يسمع المرء صدى هذه الأوصاف والتفسيرات والتصورات بين المثقفين العرب.

نتيجة اتساع حركة الاستشراق فقد أصبحت كتب المستشرقين وأعمالهم المكتوبة الأخرى مصادر مهمة للمعرفة عن التراث العربي الإسلامي، وقلّما يجد المرء دراسة عربية حديثة متعمقة لجانب من جوانب الحضارة العربية الإسلامية تخلو من رجوعها إلى كتابات المستشرقين وتفسيراتهم وتصوراتهم للتراث العربي الإسلامي، وكذلك الإشارة إلى عدد من النصوص المذكورة فيها وبشكل مطابق لرأي الكاتب الذي تولد لديه من خلال اقتناعه بما ورد في كتابة المستشرقين.

التغريب الاجتماعي ودور الجاليات الأجنبية

استخدم الاستعمار في مجال التغريب الاجتماعي أسلوبين: انصبّ **الأول** على تشجيع هجرة الجاليات الأجنبية إلى الوطن العربي، بينما اتجه **الثاني** إلى سلخ التجمعات القومية والطوائف الدينية من المجتمع العربي وإحاطتها بسياج من العزلة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وإلحاقها بنفوذ القوة المحتلة. وقد كان لكل من الأسلوبين دوره في تحقيق الغربة الاجتماعية في المجتمع العربي وإضعاف بنائه الاجتماعي والنفسي والثقافي.

وقد دفعت ضرورات تعزيز النفوذ الاستعماري وتأمين مستقبل المصالح الأوروبية في الوطن العربي، بالحكومات الاستعمارية نحو تشجيع الهجرة الأوروبية إلى أقطار الوطن العربي، وتكوين الجاليات الأجنبية، ومنحها التسهيلات اللازمة اجتماعياً في مجالات الاقتصاد والسياسة، ولم يكن الموقف الاستعماري منحازاً لطرف معين من هذه الجاليات على أساس قومي أو ديني، فالمهم في نظر الدول الاستعمارية ليس نوعية

(٢٨) المصدر نفسه.
(٢٩) المصدر نفسه.
(٣٠) المصدر نفسه.
(٣١) المصدر نفسه.
(٣٢) ادوارد سعيد ـ المصدر السابق ـ ص ٤٣، ص ٤٩.

هذه الجاليات إنما المهم كيفية اقصاء السكان الأصليين وجعل الجاليات الأوروبية قائدة في الأماكن التي ستستقر بها، وتمكينها من دورها التخريبي، غير أن هذا لا يعني أن المساواة بين الجاليات الأجنبية كان قاعدة مطلقة فقد كانت هناك استثناءات في نوع الامتيازات تفرضها طبيعة الدولة المسيطرة، فمع أن كلا من فرنسا وانكلترا شجعتا هجرة الجاليات الأجنبية إلى الوطن العربي غير أن الفرنسيين أعطوا اهمية أكبر للمعمرين الفرنسيين في أقطار المغرب العربي. ولا سيما أن فرنسا كانت تنطلق من نظرية سياسية تعتمد أساساً على أن تعد كل أرض يمتد إليها النفوذ الرسمي هي فرنسية من هنا أصبح ترجيح العنصر الفرنسي من بين الجاليات الأجنبية أمراً مهماً، أما انكلترا فإنها كانت أقل تزمتاً فقد شجعت هجرة الأوروبيين جميعاً إلى مصر، وشجعت هجرتهم إضافة إلى الهنود إلى عدن والمحميات، وإضافة لكل هؤلاء شجعت هجرة الايرانيين إلى سواحل الخليج العربي.

هكذا نجحت السلطات الاستعمارية من خلال تشجيع الهجرة الأوروبية وهجرة الجاليات الأخرى من مناطق احتلالها في آسيا وافريقيا إلى الوطن العربي إلى ايجاد بؤر اجتماعية تنسق معها وتعمل على سياسة الهدم القومي والثقافي في البناء الاجتماعي، وإحداث تخلخل في التركيب القومي للمجتمع يساعد على خلق مراكز قوى في السياسة الداخلية.

لقد أوجدت سلطات الاحتلال أوضاعاً اجتماعية واقتصادية وفكرية وثقافية لهذه الجاليات جعلتها تتخذ مواقف معادية للسكان، إضافة إلى نزعة الاستعلاء التقليدية التي كانت تحملها، لذلك لم تتوان هذه الجاليات عن أداء دور اجتماعي جماعي مضاد للحركة القومية في اللحظات التي شعرت أن هذه الحركة على وشك تحقيق انتصار يهدد سلطة الاحتلال، ويهدد امتيازاتها ووجودها هي، لقد انطلقت هذه الجاليات في مواقفها من تناقضها الحضاري مع العرب إلا انها نجحت أن تعطي هذا التناقض ابتداءاته الحياتية. ودفعها الطمع بسبب مصالحها الاقتصادية إلى الوقوف ضد حركة التيار الفكري العربي الحضاري وضد القضية القومية للعرب وقضاياهم الوطنية، وإسهامها المباشر وغير المباشر إلى عرقلة وتدمير الحركات الوطنية والوقوف ضدها بشكل مسلح أحياناً لإنهائها.

موقف المفكرين العرب والمسلمين من تأثير الاستشراق

اختلف المفكرون العرب والمسلمون بموقفهم من الاستشراق وتأثيره على الثقافة العربية فمنهم من يرفضه جملة وتفصيلاً بوصفه عدواً للإسلام والمسلمين ومنهم من يؤيده ويتحمس له. فالاستشراق في رأي الفريق الأول يمثل خلفية الصراع الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب وهو يمثل عداوة الغربي للشرقي[٣٣]، وهدفه هو هدم مقومات الأمة الثقافية وإضعاف ثقة الإنسان العربي بمثله وقيمه العربية والإسلامية وإشعاره بالعجز الثقافي وحمله على تفضيل المثل والقيم الغربية[٣٤].

والمستشرقون كما يصفهم الأمير شكيب ارسلان (إذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة نادرة في زاوية كتاب قد يكون محرفاً سقطوا وتهافتوا عليها كتهافت الذباب على الحلوى وجعلوها معياراً ومقياساً، ويرجع كل هذا التهور إلى قلة الاطلاع في الأصل هذا إذا لم يعُد ذلك إلى سوء قصد، لأن الغربي لم يبرح عدوّاً للشرقي ورقيباً له والنادر لا يعتدّ به)[٣٥]. ويرى هذا الفريق أن المؤيدين للمستشرقين هم دعاة لحركة التغريب وهم مقلدون مستسلمون.

أما المؤيدون للاستشراق فيرون فيه الخير. ويؤمنون بالتصورات والتفسيرات التي يقدمها المستشرقون للتراث العربي الإسلامي ولعل من الأمثلة الواضحة على ذلك (طه حسين) في كتابيه (الشعر الجاهلي) و(مستقبل الثقافة في مصر). فكتابه الأول نشره على غرار ما تقتضيه مُسلّمة قدمها المستشرق (مرجوليوث)، مما أثار زوبعة من السخط. وفي كتابه الثاني يدعو إلى تبني الحضارة الغربية بقوله (إننا في هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى وحقيقة وشكلاً)[٣٦].

وقام فريق من المؤيدين للمستشرقين بتبني الدعوة إلى إحلال اللهجات العربية العامية بدل اللغة الفصحى، واستخدام

(٣٣) العقيقي ـ المصدر السابق ـ ج ٢ ـ ص ١١٥١.
(٣٤) خالد وفروخ ـ المصدر السابق ـ ص ٢١٧.
(٣٥) ابن نبي ـ المصدر السابق.
(٣٦) الندوي ـ المصدر السابق ـ ص ١١٠.

الحرف اللاتيني بدل الحرف العربي. والدعوة إحياء الثقافات القديمة التي سبقت الإسلام[٣٧].

مقترحات الرد على حركة الاستشراق والنهوض بالثقافة العربية

نتيجة الحركة الواسعة والنشطة للمستشرقين وما زيفوا به واقع الثقافة والحضارة العربية والإسلامية فقد ألقي اليوم على عاتق المخلصين واجب دقيق يقضي بأن نتابع أفراداً وجماعات وأجهزة كافة التطورات العلمية المتسارعة التي تعمل عملها في وسائط الاعلام والتربية وأساليب توجيه العقل البشري، بل وغسله متى شاء المسيطرون. يمتد ذلك لغرس الرغبات وتسعير الغرائز الذي يتمثل في مستجدات كالسيول الداهمة وتقنيات كطوفان عصري... ونحن نرجو باستثارة قدرات الرصد والتحليل أن ننتقل من منطقة ردود الفعل إلى الفعل القادر المصدر للمستقبل دون وجل منه أو مفاجأة، يؤدي لاضطراب نلج به متاهة مداخل الفروع لتغيب عنا ملامح الحل النابع من الأصل في خضم اللجج السوداء المصطنعة التي لا تبين فيها علامة ولا تظهر فيها منارات لشاطئ.

أرجو من وراء ذلك أن تكون توجهاتنا الثقافية سديدة راشدة لا تولي وجهها قبل الشرق أو الغرب فهي التي تزود في النهاية أرواحنا وعقولنا بقوة الدفاع والوجود في زمن عصيب. كما أرجو أن تكون لهذه التوجهات قاعدة متينة وسليمة كما للقرار الاقتصادي من دقة وكما للقرار العسكري من مرتكزات على استراتيجيات شاملة. بحيث نتصرف في الأزمة الثقافية برؤيا توضيح كافة مواردنا المتاحة للخروج من الأزمة وتتمثل هذه الموارد أساساً في العودة لأصولنا الإسلامية والعربية عودة تتجاوز المناداة بالشعار إلى النهج الذي بنى به رواد هذه الحضارة الشامخة أنفسهم أولاً بها... فبنوا من بعد ذلك دولاً عظمى حفظت للإنسان العربي علماً رفيعاً في الخارج. إن الأمور الأساسية التي ينبغي التركيز عليها هي ما يلي:

١ ـ لا وجود ولا مستقبل لأمة بلا عقيدة تجمع عليها ثم تتجمع حولها، وتمضي بها سلوكاً لا يعرف الازدواجية. وهذا يقتضي منا تفهماً واسعاً لعقيدتنا الإسلامية وتاريخنا العربي الأصيل وعدم السماح بانحراف السلوك بدعوى جهل العقيدة، إذ كيف يمكن التصور بأن يدعي أناس اعتناق عقيدة يجهلونها، فإن وجود الأمة واستمرار بقائها مع منافسة القوى الأخرى وتزاحمها مرهونان سلماً أو حرباً بتلك البديهية. فإذا حنطت العقيدة في توابيت وتحولت المكتبات إلى قبور ثم صارت وصايا تزخرف بها اللوحات في البيوت والمصانع والمدارس، فلا بد أن تمتلئ القلوب التي فرغت منها أو افرغت منها نتيجة الغزو الأجنبي على الثقافة والحضارة العربية بعقائد وأفكار أخرى. ومن هذا الموقع تتوالد كل المسميات التي نشكو منها والتي نعقد لها الندوات والمؤتمرات تحت مسميات (الغزو الثقافي ـ الاستعمار العقلي ـ الانتماء الضائع... الخ) من المسميات. إن القلب والعقل المشغولين بعقيدة اقتناعاً وعاطفة لا يمكن أن يزاحما بعقيدة أخرى في نفس الوقت، ولذا علينا جميعاً وابتداءً من داخل الأسرة الدفاع عن عقيدتنا وتعاليمها وانتهاءً بأنحاء الأمة بكاملها. وبذلك سيكون الرد عنيفاً وواسعاً وشاملاً على ما يحاوله المستشرقون وغيرهم من طمس لحضارتنا وعقيدتنا وتاريخنا الناصع المشرق.

٢ ـ لا وجود ولا مستقبل لأمة بلا تاريخ تحميه وتعتز به أجيالها محمياً من انتقادات المستشرقين المدسوسة والمعادية ومن تبعهم في مناهجهم من التلاميذ والأتباع.

إن لكل أمة تاريخها ولا بد لكل أمة من معرفة تاريخها فإذا تعلمت أمة تاريخها من أعدائها أو من المتعاونين أو المتأثرين بتوجهات هؤلاء الأعداء فلا بد أن يسقط هذا التاريخ ويشوه ويغمز ويجرح في عقول وقلوب أبنائها تمهيداً لاعجاب الأمة بتاريخ آخر. ولقد بلغت هذه العداوة المعادية للمنهج العلمي والتي كشفتها الدراسات المتزنة إلى الحد الذي رأينا فيه أعلاماً مرموقة من المؤرخين يتجاهلون المنهج العلمي ويسايرون أهواءهم إذا ما تناولوا التاريخ الإسلامي بالذات وبعيداً عن كل أصول علمية متعارف عليها.

٣ ـ لا وجود ولا مستقبل لأمة بلا لغة واحدة تفهم بها عقيدتها، وتزن بها تاريخها، وتتفاهم بها أجيالها، بعيداً عن استفحال الشتات الذي تشجع عليه الرطانة واللهجات المحلية تركيزاً في القلب والمركز حيث نشأت اللغة وانطلقت العقيدة.

إذاً كيف نتصور بناءً سليماً للعقيدة في العقول والقلوب مع تدهور اللغة وكيف ندرس تاريخنا ونعتز به ومناهج اللغة تؤدي إما لاغتراب الأجيال عنها أو كرههم لها النابع من قصور طرائق التدريس. لا بد من غرس محبة اللغة أولاً واحترام معلميها والابداع في مناهجها ومستوى تعليمها في المدارس والجامعات. كما ينبغي اعلاء شأنها في الأجهزة التي

(٣٧) خالد وفروخ ـ المصدر السابق ـ ص ٢٢٤.

تتولى تلقين وتعليم لسان الملايين التي لا تعرف القراءة والكتابة وهم غالبية أبناء أمتنا. ولا بد لنا من استرداد الثقة بمستقبلها في مجالات التقنيات والعلوم والآداب. وإذا كنت تعلم ما نعلم من ترابط اللغة مع قضية العقيدة والتاريخ، فلا بد من أن يتضح هدف تلامذة المستشرقين ومن تبعهم لتشجيع لهجات الشتات العامية وهو أمر مقصود ضمن استراتيجية ثابتة تلتحق بها دعوات مسخ كتابة لغتنا العظيمة بالحرف اللاتيني وبما يعقبها من تعاظم الهوة مع كل تراثنا اللغوي والتاريخي والعلمي بل من الانقطاع والغربة من كتاب الله (القرآن الكريم).

إذن لا بد لنا من بداية جماعية خفاقة متحمسة داخل كل بيت وعى هذه القضية لتكون لغة الحديث والتفاهم اليومية المعتادة، ولا بد أن يتسرب هذا الحرص والحماس في التعامل بالشارع والسوق والحقل والمصنع والمكتب ودور المعرفة بإصرار لا يعرف التردد والنكوص.

الخاتمة

إن ظهور المستشرقين والاستشراق كحركة منظمة وموجهة ومدروسة استهدفت طمس معالم الحضارة العربية والإسلامية بشكل أساس على الرغم من العدد القليل من الكتاب المستشرقين الذين وقفوا موقف الحياد وانصفوا العرب والمسلمين بكتاباتهم، استوجبت علينا كعرب وكمسلمين الرد عليها، وما البحث الذي وضعته بين يدي القارئ الكريم والمستجد من ما كتب وقيل عن الاستشراق ودوافعه ورأي المفكرين العرب والمسلمين بصدده وتأثيره على الثقافة العربية والمقترحات للرد عليه والنهوض بالثقافة العربية بعد محاولة المستشرقين لطمسها وتشويهها إلا جهد متواضع ومحاولة بسيطة لتوضيح موقف المستشرقين والغاية من عملهم وكتاباتهم. آملاً أن أكون قد وُفقت فيها لما فيه الخير والرفعة للعرب والمسلمين جميعاً.

المراجع

- مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، **الفكر العربي**، العدد ٢٢، نيسان/حزيران ١٩٨٣م.
- بابير، جي. ان ـ **الاستشراق في هولندا** ـ ترجمة عبد الله الشحام ـ أبحاث اليرموك ـ سلسلة الآداب واللغويات ـ ١٩٨٦م.
- محمد البهي ـ **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي** ـ القاهرة ـ مكتبة وهبة ـ ١٩٦٤م.
- محمد الجابري ـ **فقد العقل العربي ـ تكوين العقل العربي** ـ دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨٥م.
- أنور الجندي ـ **شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي** ـ دمشق ـ المكتب الإسلامي ـ ١٩٧٨م.
- خالد مصطفى، وفروخ، عمر ـ **التبشير والاستعمار في البلاد العربية** ـ بيروت ـ المكتبة العصرية ـ ١٩٨٢م.
- فرنسوا دي بلوا ـ في نقد المستشرقين ـ ترجمة رضوان السيد ـ **الفكر العربي** ـ العدد ٣٢ ـ حزيران ١٩٨٣م.
- محمود حمدي زقزوقة ـ **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري** ـ قطر ـ المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ـ ١٤٠٤هـ.
- سذرن ريتشارد ـ **صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى**، (حقبة التعقل والأمل) ـ ترجمة رضوان السيد ـ **الفكر العربي** ـ ١٩٨٣م.
- إدوارد سعيد ـ **الاستشراق** ـ ترجمة كمال أبو ديب ـ بيروت ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ ١٩٨١م.
- نجيب العقيقي ـ **المستشرقون** ـ ج ١، ج ٢ ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٨١م، ج ٣ ـ ١٩٦٥م.
- أبو الحسن علي الندوي ـ **الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية** ـ دار العلم ـ ١٩٨٣م.

سيرة الإمام أحمد بن سعيد البوسعيد
مؤسس الدولة البوسعيدية (١٧٠٠ ـ ١٧٨٣)

د. عبد القادر حمود القحطاني

قسم التاريخ ـ جامعة قطر

مقدمة

حينما قررت الاشتراك في هذا المؤتمر الموقر، رأيت أن أهم موضوع في رأيي يستحق الكتابة فيه شخصية الإمام أحمد بن سعيد، وأعماله، وقمت بجمع المادة المتعلقة بذلك. وقد شملت المادة التي جمعتها كل جوانب شخصية هذا القائد العربي وأعماله، ووضعت خطة البحث بحيث تغطي كل جوانب حياته السياسية والعسكرية والاقتصادية، وعلاقاته بدول العالم. ولكن لما بدأت الكتابة وجدت أنه من الصعب تغطية كل هذه النقاط التي أشرت إليها ببحث يقدم إلى مثل هذا المؤتمر. ولذلك فقد رأيت انه لا بد أن يقتصر البحث على جوانب معينة لهذا الزعيم العربي، وعلى هذا الأساس، فقد اقتصرت كتابتي في هذا البحث على العناصر الآتية:

أولاً: حياة وأعمال أحمد بن سعيد قبل توليه الإمامة (١٧٠٠ ـ ١٧٤٤م).

ثانياً: موقف أحمد بن سعيد من الغزو الفارسي لبلاده.

ثالثاً: مبايعة الإمام أحمد بن سعيد بالإمامة سنة ١٧٤٤م.

رابعاً: سياسة الإمام أحمد بن سعيد الداخلية.

خامساً: التجارة في عهد الإمام أحمد بن سعيد.

سادساً: الأحداث الداخلية التي واجهت الإمام أحمد بن سعيد.

وإنني لعلى ثقة بأن بقية الجوانب التي لم يشملها بحثي هذا والمتعلقة بهذا الزعيم، سوف يتعرض لها بقية السادة الزملاء المشاركين وأتمنى شخصياً أن أتمكن من عمل دراسة لبقية الموضوعات التي لم أتعرض لها في بحثي هذا، وعلى وجه الخصوص المتعلقة بسياسة الإمام أحمد الخارجية.

أولاً: حياة وأعمال أحمد بن سعيد قبل توليه الإمامة (١٧٠٠ ـ ١٧٤٤م)

ولد أحمد بن سعيد البوسعيدي الأزدي العماني، مؤسس الدولة البوسعيدية في سنة ١٧٠٠م في منطقة (ادم) بعمان الداخلية وهي المنطقة التي تعتبر مقراً لعائلة البوسعيد[1]. وتذكر بعض الروايات التاريخية، أن الشيخ خلف بن سنان، وكان من الكشف، أي الأشخاص الذين يتنبأون بالمستقبل، لقي أحمد بن سعيد وكان صبياً صغيراً في منطقة (ادم) فوضع الشيخ خلف يده على رأس هذا الصبي وقال له: (اتّقِ الله في الرعية)[2]. وكأن هذا الرجل قد تنبأ بأن أحمد بن سعيد سيصبح حاكماً لبلاده، وقد صدقت فراسته.

وبدأ أحمد حياته أيام صباه يرعى الإبل في مسقط رأسه بمنطقة (ادم). ولما شب عمل بالتجارة[3] كبقية أفراد قبيلته التي كان أفرادها يزاولون التجارة والملاحة على الشاطئ

(١) د. محمد مرسي عبد الله: **امارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى، (١٧٩٣ ـ ١٨١٨)**، ج ١، القاهرة ١٩٧٨، ص ٦٨.

(٢) أبو محمد بن عبد الله بن حميد بن سلوم السالمي: **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، القاهرة، ١٣٣٠هـ، ص ١٣٦.

(٣) د. مديحة أحمد درويش: **سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، دار الشروق، جدة، ١٩٨٢.

الشرقي لعمان، مع أن منطقتهم (ادم) تقع على أطراف المرتفعات الوسطى في عمان. وكان الإمام أحمد يعتبر أحد ملاك السفن، وسنرى انه بعد توليه الإمامة اهتم بتشجيع العمل بالتجارة، وبتقوية قواته البحرية التي أصبحت أساس السيادة في عمان(٤).

تعيين أحمد بن سعيد والياً على صحار

برز أحمد بن سعيد، من بين صفوف قبيلة الهناوية التي تعود إليها أسرة البوسعيد، وذلك لما عرف عنه من رجاحة العقل والحكمة، ونجاحه في التجارة. وقد انتقل أحمد بن سعيد من مسقط رأسه (ادم) إلى ولاية صحار الساحلية الواقعة في منطقة الباطنة(٥).

وقد ولاّه الإمام سيف بن سلطان الثاني اليعربي، ولاية صحار وأعمالها. وكانت (صحار) تعد ميناء هاماً في الخليج العربي(٦). ونظراً لرجاحة عقله، وشجاعته أصبح مستشاراً للإمام سيف، وموضع سره وساعده الأيمن في الشؤون السياسية والتجارية(٧). وقد أظهر أحمد بن سعيد في اثناء ولايته على صحار العدل والإنصاف بين الرعية واغدق كرمه وإحسانه عليهم، فقصده شيوخ قبائل الشمال والظاهرة وخاصة قبيلة الجبور سكان سهل الباطنة، وتزوج منهم. ونتيجة لهذه السياسة التي اتبعها مع الأهالي، أن حبوه حباً شديداً. فلما بلغ ذلك الإمام سيف، قال لبعض خاصيته: (والله ما فعل أحمد بن سعيد هذا إلا لينفر الناس مني وأن يصير ما صار إلي إليه)(٨). فاستدعاه الإمام سيف إلى مسقط وكان قد أمر عبيده أن يقبضوا على أحمد بن سعيد ويحبسوه في الحصن الشرقي من مسقط وأقبل أحمد بن سعيد إلى مسقط لمقابلة الإمام سيف ولكن قبل أن يراه أحد من خاصة الإمام، التقى به رزيق وكان بين أحمد بن سعيد ورزيق صداقة قديمة فنصحه الأخير أي رزيق أن يعود إلى صحار فلما استفسر أحمد عن الأمر قال له رزيق: (إن الإمام يريد أن يقتلك) فسمع أحمد النصيحة من صديقه وعاد إلى مقره في صحار.

والجدير بالذكر أن رزيق كان يشغل أمين صندوق بيت المال في عهد الإمام سيف، وكان الإمام قد أخبره بما في نيته إزاء أحمد بن سعيد ونظراً للصداقة التي تربط رزيق بأحمد بن سعيد فإنه لم يستطع كتمان ما يدبر له الإمام من مكيدة في السر.

وقد أخبر بعض الناس الإمام سيف أنهم رأوا أحمد بن سعيد يتحدث مع رزيق فاستدعى الإمام رزيق إلى مجلسه وعند مثوله قال له: (لقد اسررت إليك عما في قلبي فاذعت سري وعصيت أمري). إلا أن رزيق أنكر ما نسب إليه ومع ذلك فقد أمر بالإمام بحبسه وبعد ثلاثة أشهر تم إطلاق سراحه. كما ان الإمام سيف حرك قواته من مسقط إلى صحار بقصد القبض على أحمد بن سعيد. ولما وصل إلى مشارف المدينة قابله أكابر القوم من الجبور وغيرهم من أهل منطقة (بركاء) أو (بركة) وأخذوا يهدئون من غضبه ويصفون له أحمد بن سعيد على أنه رجل مخلص ومطيع له، ولكنه يخشى أن يمس بسوء. ولكي يبرهن أحمد عن طاعته بعث ابنه الأكبر (هلال) إلى الإمام سيف وقد أكرم الإمام وفادة هلال. ثم عاد بعد ذلك إلى مسقط وبرفقته هلال الذي أعاده الإمام إلى أبيه بعد بضعة أشهر(٩). وهذا في رأيي أمر طبيعي أن يشعر الإمام سيف بالغيرة والحقد والخوف على زوال ملكه بعد أن استطاع أحمد بن سعيد كسب محبة الناس له نتيجة معاملته الطيبة معهم ولا نستبعد أن يكون أحمد بن سعيد قد لجأ إلى التقرب من أبناء الشعب بقصد الوصول إلى قمة الحكم. وهذا هو ما أشار إليه بعض المؤرخين على أنه كان طموحاً(١٠).

الأحداث التي شهدتها عمان قبل تولية أحمد بن سعيد الإمامة

شهدت عمان بين ١٧١٨ و١٧٤٤، حروباً أهلية دامية أدت إلى تدخل الفرس في شؤونها الداخلية. وجاءت هذه الأحداث

---

(٤) جون. ب. كيلي: **بريطانيا والخليج (١٧٩٥ ـ ١٨٧٠)**، ج ١، ترجمة محمد أمين عبد الله، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٢١.

(٥) روبرت جيران لاند: **عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً**، ترجمة: محميد أمين عبد الله، القاهرة، د. ت، الطبعة الانجليزية، لندن، ١٩٦٦، ص ٥٣.

(٦) د. صلاح العقاد: **التيارات السياسية في الخليج العربي**، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٤٩. وانظر: حميد بن محمد بن رزيق: **الفتح المبين في مسيرة السادة البوسعيديين، تحقيق: عبد المنعم عامر ومحمد مرسي، القاهرة ١٩٧٧، ص ٣٢٩.**

(٧) أحمد حمود المعمري: **عمان وشرق افريقيا**، ترجمة: محمد أمين عبد الله، القاهرة ١٩٨٠، ص ٧٠.

(٨) أحمد عبيدلي: **الإمام عزان بن قيس (١٨٦٨ ـ ١٨٧١)** بيروت، ١٩٨٤، ص ٥٧.

(٩) حميد بن محمد بن رزيق: **الفتح المبين**، ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢.

(١٠) د. محمد مرسي عبد الله: المرجع السابق، ص ٦٨.

المؤسفة نتيجة للخلاف حول منصب الإمامة، عقب وفاة الإمام سلطان بن سيف اليعربي عام ١٧١٨م[١١].

وقد حكمت دولة اليعاربة عمان من عام ١٦٢٤م حتى عام ١٧٤٤م أي ١٢٠ سنة، استطاعت خلالها طرد الغزاة المحتلين البرتغاليين من البلاد والخليج وشرق افريقيا وتكوين قوة بحرية، وخاصة في عهد ائمتها ناصر بن مرشد وسيف بن سلطان الأول، حيث أصبحت عمان في عهدهما تملك أسطولاً بحرياً كبيراً لعب دوراً في المحيط الهندي والخليج العربي[١٢]. ولكن على الرغم مما حققه اليعاربة من مكاسب في المجال الداخلي والخارجي، فإن نشوب الخلافات الداخلية فيما بينهم في أواخر عهدهم على السلطة، أدى إلى ضعفهم وإلى فقدان سيطرتهم على كثير من المناطق مما عرض البلاد لغزو خارجي جديد تمثل بالفرس. وأصبحت البلاد في حاجة ماسة إلى زعيم جديد يوحدها ويحررها. وكان هذا الزعيم هو أحمد بن سعيد البوسعيدي. وقبل أن نتناول هذه الشخصية التاريخية التي هي موضوع بحثنا هذا، نواصل الحديث عن الأحداث التي حصلت على الساحة العمانية ودوره فيها كمنقذ للبلاد[١٣].

ثانياً: موقف الإمام أحمد بن سعيد من الغزو الفارسي لبلاده

حدث خلاف بين القبائل العمانية بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف الثاني في عام ١٧١١ حول من يخلفه، البعض تمسك بعقد البيعة بالإمامة لابنه سيف بن سلطان الثاني، على الرغم من أنه كان لم يتعدَّ سن البلوغ، والبعض الآخر اعترض على ذلك بحجة أنه لا ينطبق عليه الشروط لتولي الإمامة حسب المذهب الإباضي. وتوصل أهل الحل والعقد إلى تعيين (مهنا اليعربي) إماماً للبلاد وكان ذلك في عام ١٧١٨م. غير أن (مهنا) قتل بعد سنتين من توليه الإمامة، على يد أحد أنصار (يعرب بن بلعرب) الذي أعلن نفسه إماماً في عام ١٧٢٠م. وقد شهدت البلاد في عهد يعرب ١٧٢٠ ـ ١٧٢٣ اعنف الاضطرابات والتفكك حتى اطلق عليه العمانيون اسم (بلاء العرب). وعقب وفاة يعرب في نهاية عام ١٧٢٣ انتخب سيف بن سلطان الثاني، وذلك بعد أن بلغ السن التي تؤهله لتوليه الإمامة. وفي الوقت الذي تم انتخاب سيف إماماً للبلاد قامت إمامة أخرى في البلاد تزعمها بلعرب بن حمير وبذلك تجدد الاضطراب والصراع حول السلطة بين الزعيمين سيف وبلعرب[١٤]. وحينما لاحظ الإمام سيف بن سلطان أن كفّة الميزان تميل إلى صالح خصمه بلعرب بن حمير استعان بالبلوش للقتال معه. بيد أن هؤلاء لم يتمكنوا من تحقيق النصر الحاسم على قوات خصمه، حينئذ لجأ الإمام سيف إلى طلب المساعدة العسكرية من ملك الفرس نادر شاه Nadir Shah[١٥] وكان هذا الطلب في الواقع خطأ فادحاً ارتكبه الإمام سيف ضد بلده وشعبه حيث إن الجنود الفرس ارتكبوا جرائم فظيعة ضد هذا الشعب العربي، وبالتالي كانت شؤماً على مستقبله هو نفسه.

وقد جاء طلبه في حقيقة الأمر مواتياً لاطماع ملك الفرس الذي كان يحلم بالسيطرة على عمان وبالذات على مينائها مسقط، ذلك الميناء الذي أصبح أهم الموانئ في منطقة الخليج العربي. وكان يهدف من وراء ذلك إلى التحكم في التجارة الشرقية كلها لبلاده[١٦].

ووصلت القوات الفارسية إلى (جلفار) رأس الخيمة في ١٦ ابريل ١٧٣٧، وكانت بقيادة لطيف خان، ثم تقدمت بمساعدة رحمة بن مطر زعيم الهولة ـ القواسم في رأس الخيمة إلى منطقة الظاهرة واحرزت انتصاراً ضد قوات الإمام بلعرب المنافس للإمام سيف والزمت الأهالي بدفع الخراج لفارس. وفي أثناء هذه الانتصارات دب الخلاف بين القائد الفارسي لطيف خان والإمام سيف حول الاستيلاء على حصون مسقط. وهنا ادرك الإمام أن الحملة الفارسية لم تأت لمساعدته وإنما جاءت لتحقيق الأطماع الفارسية في ضم عمان إلى فارس. وترتب على هذا الخلاف قيام القائد الفارسي بسحب قواته إلى رأس الخيمة تاركاً الإمام سيف وحيداً أمام خصومه. وبمجرّد

(١١) د. بدر الدين عباس الخصوصي: **دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر**، ج ١، ط ٣، الكويت ١٩٨٤، ص ٧١.
وانظر: د. سلطان بن محمد القاسمي: **تقسيم الامبراطورية العمانية (١٨٥٦ ـ ١٨٦٢)**
مؤسسة البيان، دبي ١٩٨٩، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(١٢) مديحة أحمد درويش: المرجع السابق ص ٦٩.

(١٣) عمان ٩٣: كتاب صادر عن وزارة الاعلام في سلطنة عمان، ص ٢٩.

(١٤) د. جمال زكريا قاسم: **دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا (١٧٤١ ـ ١٧٦١)** القاهرة، ١٩٦٨، ص ٣٧ ـ ٣٩.

(١٥) J. G. Lorimer: *Gazetteer of Persian Gulf, Oman and Central Arabia»*. Calcutta, 1915, Chapters II-V, p. 405.

(١٦) لجنة تدوين تاريخ قطر، **مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية**، ج ٢، الدوحة، ١٩٧٦، ص ٧٠٨.

انسحاب القوات الفارسية عادت الثورة من جديد ضد الإمام سيف بن سلطان الثاني الذي لجأ للمرة الثانية إلى طلب النجدة من نادر شاه(١٧). وعادت القوات الفارسية إلى عمان في سنة ١٧٣٨، تحت قيادة القائد لطيف خان وميرزا تقي خان. ونجحت القوات الغازية في الاستيلاء على مسقط وبعض المناطق العمانية الأخرى(١٨).

وأدّى هذا التصرف من جانب الإمام سيف إلى مزيد من الغضب والسخط عليه وعلى سياسته المبنية على روح الأنانية والتسلط من جانب الشعب العماني مما دفع العلماء وأعيان البلاد إلى اعلان خلعه وتعيين سلطان بن سيف بن مرشد بن عدي اليعربي إماماً للبلاد في ذي الحجة ١١٥٤هـ/١٥ فبراير ١٧٤٢م(١٩).

وعلى أثر ذلك لجأ الإمام سيف بن سلطان الثاني للمرة الثالثة إلى طلب النجدة من نادر شاه على الرغم من تجاربه مع القوات الفارسية. ووصلت القوات الفارسية للمرة الثالثة إلى عمان في سبتمبر ١٧٤٢ تحت قيادة ميرزا تقي خان الذي كان قد عاد على رأس قواته إلى فارس. وفي هذه المرة فرض القائد الفارسي حصاراً محكماً على ولاية صحار من جهة البر والبحر. امتد هذا الحصار قرابة تسعة أشهر وصمد والي صحار أحمد بن سعيد مع أهالي المدينة صمود الجبال ازاء هذا الحصار العدواني الظالم. وقد نال الوالي إعجاب الإمام سلطان بن مرشد الذي جمع جيشاً كبيراً من وادي السمايل ونخل والمعاول والرستاق والشرقية وأزكي ونزوى وبهلا والظاهرة وسار في مقدمته مصطحباً معه شقيقه سيف بن مهنا ثم انضم هو ورجاله إلى أحمد بن سعيد في حربه مع الفرس. وبعد أن تمكن من شق طريقه عبر خطوط المحاصرين إلى الخطوط التي يرابط فيها جنود أحمد بن سعيد، أصابته رصاصة أودت بحياته بعد ثلاثة أيام من إصابته. وكذلك أيضاً قتل شقيقه سيف بن مهنا، في المعركة التي دارت مع الفرس حول أسوار مدينة صحار. وقد شاءت إرادة الله أن يموت خصمه الإمام سيف بن سلطان الثاني، بعده بأيام قليلة(٢٠). وعلى الرغم من كثرة الجنود الفرس وما يمتلكونه من أسلحة متطورة تفوق ما عند القوات العمانية المدافعة، إلا أنهم عجزوا عن اقتحام صحار، بل إن والي المدينة أحمد بن سعيد استطاع القيام بشن هجوم مضاد عليهم خارج المدينة، وتحرير منطقة الباطنة في عام ١٧٤٣م، ثم واصل تحرير بقية المناطق العمانية من الغزاة الفرس بشكل نهائي في سنة ١٧٤٩م(٢١).

فعلى سبيل المثال يذكر جيران لاند: ان أحمد بن سعيد عرف ببسالته في مقاومة الاحتلال الفارسي لبلاده، ورفضه الاستسلام لهم واستطاع دحرهم وإخراجهم من بلاده. وبذلك نال احترام أبناء شعبه الذي كافأه بانتخابه إماماً للبلاد(٢٢). وكان عدد الجنود الفرس الذين حاصروا صحار ستون ألفاً وان الحصار استمر تسعة أشهر من البر والبحر حتى ضاقت الحالة بالأهالي نتيجة غلاء المعيشة وقلة المؤن الغذائية، وإن الفرس كانوا يقذفون المدينة يومياً بثلاثة آلاف قذيفة مدفع، مما تسبب في قتل عدد كبير من الأهالي وتدمير الكثير من المنازل والمحلات التجارية في المدينة(٢٣). وإن الفرس قتلوا من أهل (نزوى) وحدها عشرة آلاف من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ ولم يسلم من أهلها إلا من قدر على الهرب، وهم قليل. وبرغم ما وصلت إليه صحار من سوء الحالة فإن زعيمها أحمد بن سعيد لم يستسلم لهم، وإنما ظل يقاوم ويرسل الغزوات حتى مل العجم وطلبوا الصلح بعدما مات أكثرهم(٢٤). وعقد صلح بين القائد الفارسي ميرزا تقي خان وأحمد بن سعيد في ١٧٤٣ تضمن الآتي:

١ ـ أن يرفع الفرس الحصار عن صحار وأن تغادر قواتهم عمان.

٢ ـ يحتفظ نادر شاه بمسقط وأن يدفع له أحمد بن سعيد الجزية.

---

(١٧) حصاد ندوة الدراسات العمانية، نوفمبر ١٩٨٠، المجلد ٢، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٨١، ص ٥٤ ـ ٥٦.

(١٨) د. مصطفى عقيل: **التنافس الدولي في الخليج العربي (١٦٢٢ ـ ١٧٦٣)**، الدوحة، ١٩٩١، ص ٢٧٨.

(١٩) لجنة تدوين تاريخ قطر، **مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية**، ج ٢، الدوحة، ١٩٧٦، ص ٧٠٨.

(٢٠) سرحان بن سعيد الأزكوي: **تاريخ عمان المقتبس من كتاب الغمة الجامع لأخبار الأمة**، تحقيق: عبد المجيد حسيب القيسي، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٤٤ ـ ١٥٢.

وانظر: Ahmed Hammoud Al Maamari, *Whither Oman*, 1981, New Delhi, p. 4.

(٢١) جون. ب. كيلي: المرجع السابق ص ٢٠ ـ ١٥٢.

(٢٢) روبرت جيران لاند: المرجع السابق، ٥٣.

(٢٣) **أبو سالم عبيد فرحان**: مخطوطة قام بتحقيقها الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٨٤ ـ ١٨٦.

(٢٤) حميد بن محمد بن رزيق: المرجع السابق، ص ٣٤٤.

٣ ـ تظل صحار وبركة تابعتين لأحمد بن سعيد.

ولكن هذه الاتفاقية لم يلتزم بها أحمد بن سعيد الذي اضطر لقبولها لأسباب سياسية وعسكرية، إذ إننا نلاحظ أنه بعد وفاة الإمام سيف بن سلطان الثاني، في سنة ١٧٤٤ قام نائبه في مسقط ماجد بن سلطان بإرسال رسالة إلى نادر شاه يطلب منه دعم سلطته مقتفياً بذلك سياسة سلفه. فلما علم أحمد بن سعيد بتلك الاتصالات أسرع بارسال حملة عسكرية تحت قيادة والي بركة خلفان بن محمد البوسعيد إلى مسقط وتمكنت هذه القوة من ارغام الحامية الفارسية المتبقية في المدينة على الاستسلام والرحيل من البلاد. وبالفعل غادرت القوات الفارسية وفي عرض البحر حسب زعم المصدر تم اغراق السفن التي تحمل القوات الفارسية بضربها بالمدافع[٢٥].

ويذكر مصدر آخر أن أحمد بن سعيد بعد أن ضيق الخناق على القوات الفارسية في مسقط ومطرح وارغمها على الاستسلام قام بدعوة هذه القوات إلى وليمة كبيرة في سهل (بركة) وذلك بمناسبة الصلح ومغادرة البلاد وما إن حان وقت الغداء حتى نفخت الأبواق من القلعة ونادى المنادون (من له ثار عند الفرس فليأخذه) واقبل الناس من كل أنحاء البلاد للانتقام من الدخلاء الفرس. ويؤكد المصدر ان الإمام أحمد بن سعيد اصدر تعليماته إلى قواته البحرية بحرق واغراق السفن التي تحمل القوات الفارسية العائدة إلى بلادها[٢٦]. وإن كنت شخصياً أستبعد أن يكون الإمام أحمد قد لجأ إلى مثل هذا الفعل ضد الغزاة بعد أن استسلموا له.

مبايعة الإمام أحمد بن سعيد ١٧٤٤م

تعتبر وفاة الإمام سلطان بن مرشد اليعربي، علامة بارزة على انهيار ونهاية عصر دولة اليعاربة التي حكمت عمان وشرق افريقيا قرابة مائة وعشرين عاماً (١٦٢٤ ـ ١٧٤٤) وذلك نتيجة لانقسام اليعاربة على أنفسهم من ناحية ولظهور قوى جديدة في البلاد ليست من اليعاربة تقود النضال ضد الوجود الفارسي وهي قوة أحمد بن سعيد البوسعيدي الذي استطاع تحرير بلاده من قبضتهم بعد استسلام ما تبقى منهم في مسقط للقائد العماني خميس بن سالم البوسعيدي[٢٧].

وتم انتخاب بلعرب بن حمير بن سلطان بن سيف اليعربي بعد وفاة الإمام سلطان بن مرشد يوم ٢٠ ربيع الآخر ١١٥٧هـ/١٧٤٤م للمرة الثانية إماماً لعمان وذلك بتأييد قبائل بني غافر ونعيم والقواسم وقبائل منطقة الصير، وفي الوقت نفسه انتخبت قبائل الهناوية في الرستاق أحمد بن سعيد البوسعيد تقديراً لجهاده الوطني ضد الغزاة الفرس.

وأدى انتخاب إمامين للبلاد في وقت واحد إلى صراع دموي بين قوات الطرفين. كان نتيجة هذا الصراع تغلب الإمام أحمد على منافسه وقتل الإمام بلعرب بن حمير في أثناء المعارك[٢٨].

وقد بدأ الصدام المسلح بين قوات الطرفين عندما قام بلعرب بحبس علماء الدين في مدينة نزوى كالشيخ حبيب بن سالم وغيره من العلماء، كما قام بالقبض على عدد من الأعيان والشخصيات الهامة في البلاد وأودعهم السجن حتى مات البعض منهم في سجنه كالشيخ عامر بن سليمان الريامي. وازاء هذه الأعمال غير المسؤولة التي تفتقر إلى الأخلاق والحكمة أن أعد الإمام أحمد حملة عسكرية واسند قيادتها إلى ابن عمه خلفان بن محمد البوسعيدي للقيام بتخليص أهل نزوى والمناطق الأخرى التي تعاني من ظلم وجبروت بلعرب بن حمير. وتمكن القائد خلفان من تحقيق المهمة الموكلة إليه حيث استطاع قتل بلعرب بن حمير وإعادة الأمن والسكينة إلى المناطق التي كانت تعاني من الظلم والتسلط من قبل بلعرب وعلى أثر ذلك اجتمع أهل الحل والعقد في الرستاق وعقدوا البيعة بالإمامة لأحمد بن سعيد البوسعيد[٢٩].

ويؤكد جون John أن أحمد بن سعيد تولى الإمامة في ١٧٤٤ وهذا ما يؤكده لوريمر Lorimer وغيرهما من المؤرخين بعد ان كان في هذا العام قد طرد آخر جندي فارسي من بلاده بما فيها مسقط[٣٠]. وتذكر بعض المصادر أن أحمد بن سعيد دعا عقب نجاحه في طرد الفرس من بلاده إلى عقد اجتماع يضم رؤساء وشيوخ القبائل في مدينة الرستاق

(٢٥) **حصاد ندوة الدراسات العمانية**: نوفمبر ١٩٨٠، المجلد ٢ ص ٥٨ ـ ٦٠.

(٢٦) محمد مرسي عبد الله: المرجع السابق، ص ٧٠ ـ ٧١.

(٢٧) Miles S. B.: «The Countries and Tribes of the Persian Gulf», volume 2, London, 1919, p. 160.

وانظر: كذلك حميد بن محمد بن رزيق: المرجع السابق، ص ٦٠.

(٢٨) **حصاد ندوة الدراسات العمانية**: نوفمبر ١٩٨٠، المجلد ٢ ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢٩) سرحان بن سعيد الازكوي: المرجع السابق، ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

(٣٠) John Whelan: *Oman-Ameed Practical Guide*, London, 1981, p. 1. See also: Lorimer: pp, 406-407.

لاختيار أحدهم إماماً للبلاد فوقع اختيارهم عليه نظراً لما قام به من أعمال وطنية كان منها تخليص البلاد من الغزاة الفرس.

وقد اتخذ الإمام أحمد بن سعيد من مدينة الرستاق عاصمة لحكمه إلا انه مع ذلك كان يزور مسقط بين وقت وآخر ويقيم فيها عدداً من الأيام(٣١).

رابعاً: سياسة الإمام أحمد بن سعيد الداخلية

عمل الإمام أحمد بن سعيد رحمه الله منذ أن تولى إمامة عمان على توحيد قبائلها ودعم اقتصادياتها بتشجيع تجارتها وإصدار القوانين الجمركية والإدارية التي تنظم أمورها المالية. وادراكاً منه لأهمية القوة العسكرية لحماية، البلاد فقد اهتم بالمحافظة على القوة البحرية التي بنيت أيام اليعاربة وزاد عليها الكثير من السفن الحربية. كما اهتم بانشاء جيش ثابت ومنظم أشرف بنفسه على تسليحه وتدريبه(٣٢).

ويمكن القول، إن البلاد شهدت ولأول مرة في عهده نوعاً من السلطة المركزية بعد أن استطاع توحيد القبائل المتناحرة تحت حكمه. ولأجل تثبيت مركزه عمد إلى مصاهرة الأسرة الحاكمة السابقة حيث تزوج ابنة الإمام سيف بن سلطان الثاني آخر أئمة اليعاربة(٣٣). وترك لزعمائها حرية مزاولة نفوذهم على مقاطعتهم في نخل والحزم والجبل الأخضر. كما عقد صلحا مع زعيم القبائل الشمالية ـ الغافرية، ناصر بن محمد الجابري، بأن ابقاه زعيماً على منطقة الظاهرة، بعد أن اعترف بالولاء للحكومة المركزية.

واستحدث الإمام أحمد مناصب جديدة في الجهاز الإداري كمنصب (جباة الضرائب) وقادة الأسطول وعين ابناءه كولاة في المقاطعات والمدن الهامة، وأسس لقباً لأفراد الأسرة الحاكمة كلقب سيد الذي كان يلقب به أبناءه(٣٤).

وكان الإمام أحمد يتمتع بشعبية واسعة نظراً لعدله وتسامحه. وقد أكد الرحالة (نيبور) الذي زار مسقط سنة ١٧٦٥، ان حرية الأديان في عهد الإمام احمد بن سعيد كانت محترمة من قبله ومن قبل رعاياه وأن الأجانب يتاجرون ويمارسون أعمالهم بحرية واطمئنان(٣٥).

خامساً: التجارة في عهدالإمام أحمد بن سعيد

أصبحت عمان في عهد الإمام أحمد بن سعيد في أوج قوتها وازدهارها: فإلى جانب اهتمامه بالاستقرار السياسي، اهتم بالناحية التجارية فكان إلى جانب امتلاكه أسطولاً حربياً، يمتلك أسطولاً تجارياً ضخماً وقد توسعت التجارة في عهده توسعاً لم يسبق له نظير في عهد أي ممن سبقه من أئمة عمان ـ وأصبحت مسقط من أهم المدن التجارية في الخليج العربي، وغدا ميناؤها من أهم الموانئ التجارية التي ترتادها السفن الأوروبية(٣٦).

ويعود هذا النشاط التجاري والملاحي في مدينة مسقط إلى الحماية والرعاية التي كان يلقاها التجار والبحارة المغتربون من جانب السلطات المحلية في المدينة. واستفادت مسقط من تحول النشاط التجاري إليها من بندر عباس بعد أن هجر الأوروبيون ذلك المركز في سنة ١٧٦٣ على أثر الفوضى السياسية التي اجتاحت ايران حينذاك. وكانت السلع التجارية بكافة أنواعها تباع في أسواق مسقط ومناطق التفريغ فيها الخاصة بالسلع الكمالية من اللؤلؤ إلى تصدير واستيراد الحبوب كالقمح والبن والأسماك والفواكه. كما كانت السلع الهندية المصنعة من أهم البضائع التي يقبل عليها المواطنون(٣٧).

ومن أهم السلع التي كان يتم استيرادها من الهند، التوابل والأرز والسكر والسلع المصنعة كالمنسوجات القطنية والحريرية والتبغ والآلات الانجليزية والأواني الخزفية

(٣١) د. خالد يحيى العزي: **الواقع التاريخي والحضاري لسلطنة عمان ـ بغداد ١٩٨٦**، ص ١١٨. (هذا المؤلف يذكر في صفحة ١١٨ ان الإمام أحمد توفي في سنة ١٧٧٥ وفي السطر الذي يليه مباشرة يعود ليقول أنه توفي في ١٧٨٣م. إنه أمر يثير الاستغراب.

(٣٢) لجنة تدوين تاريخ قطر: **مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية**، ج ٢، ص ٧٨٨ ـ ٧٨٩.

(٣٣) رودولف سعيد روت: **سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي (١٧٩١ ـ ١٨٥٦)** ترجمة: عبد المجيد القيسي، البصرة ١٩٨٣، ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٣٤) روبرت جيران لاند: المرجع السابق، ص ٥٤.

(٣٥) د. محمود علي الداود: محاضرات عن التطور السياسي الحديث لقضية عمان، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٣.

(٣٦) د. علاء الدين نورس: **السياسة الايرانية في الخليج العربي في عهد كريم خان (١٧٥٧ ـ ١٩٧٩)**، بغداد ١٩٨٢، ص ٥٦.

(٣٧) روبرت جيران لاند: المرجع السابق، ص ٥٥ ـ ٥٦.

الصينية والمعدنية. ومن اليمن كان يتم استيراد البن والعسل والماشية والبخور. وكانت السفن التجارية تنقل البضائع إلى الخليج العربي والعراق وإلى اليمن وإلى فارس وتعود محملة ببضائع أخرى. فمثلاً كانت تنقل البن اليمني من اليمن إلى العراق وتعود محملة بالتمور وبعض المنتجات الأخرى(٣٨).

ويعود انتعاش التجارة في عهد الإمام أحمد بن سعيد إلى تشجيعه ودعمه لها وللعاملين بها، وذلك لأنه كما اشرنا عمل بهذه المهنة الشريفة قبل أن يؤسس الدولة البوسعيدية. ولم يكتف بتوثيق علاقة بلاده بالدول المجاورة فحسب وإنما قام بالاتصال مع بقية دول العالم: مع افريقيا والهند والصين ومع دول أوروبا وبالذات مع بريطانيا وفرنسا(٣٩).

وفي عهد الإمام أحمد بن سعيد فتحت البلاد أمام الأجانب للتجارة وكانت الرسوم الجمركية تشكل المورد الرئيسي لحكومة الإمام أحمد بن سعيد فقد بلغ دخل حكومته من الرسوم سنة ١٧٦٥ أكثر من مائة ألف روبية أي ما يعادل عشرة آلاف جنيه استرليني حسب قيمتها حينذاك(٤٠).

ويذكر مصدر آخر أن دخل حكومة الإمام أحمد بن سعيد السنوية من الرسوم الجمركية على البضائع بلغ أكثر من مليون روبية(٤١) وهذا الرقم في رأيي قد يكون أقرب إلى الحقيقة.

وفي الواقع كان يعزز هذا النشاط التجاري، صناعة السفن في عمان وجلبها من الدول المصنعة لها. فقد كان في ميناء مسقط خمسون سفينة من الطراز الغربي بالإضافة إلى عدد كبير من سفن الشحن الشراعية وعدد آخر من المراكب ذات الأحجام المختلفة. وكانت جميعها تزاول أعمالها التجارية والملاحية بين موانئ عمان كميناء مسقط وصور ومطرح ومع بقية دول العالم حيث كانت تتاجر مع دول آسيا وافريقيا والصين وغيرها من الدول. وقد لعب التجار العمانيون دوراً هاماً في التجارة الدولية كموزعين للسلع التي ترد من كلكتا وملاكا وبتافيا فضلاً عن التجارة الداخلية لمسقط وزنجبار التي كانت خاضعة لعمان. وكانت مسقط تعتبر من أهم الموانئ التجارية في منطقة الخليج العربي، وقد عرفت مسقط بتجارة العبور Transit(٤٢).

وعن الأمن في مسقط، يقول أحد وكلاء شركة الهند الشرقية الانجليزية الذي زار مسقط سنة ١٧٥٥: إن هناك كميات هائلة من السلع والبضائع مكدسة على الطرق من غير رقابة أو حراسة عليها إذ لا توجد مستودعات لخزنها، ومع ذلك لم نسمع عن حادثة سرقة أو سطو على هذه السلع أيا كانت. كما كان هناك أسطول حربي مهمته حماية طرق الملاحة التجارية والقضاء على القرصنة البحرية، على نحو ما فعل هذا الأسطول مع القراصنة الهنود على ساحل ملبار، حينما تسببوا في حجز شحنة من الأرز في طريقها إلى عمان(٤٣). ففي عام ١٧٧٦م أرسل الإمام أحمد بن سعيد سفينته الحربية (الرحماني) إلى مقاطعة (ميسور) الهندية للاستفسار عن سبب انقطاع وصول الأرز إلى مسقط. وبعد أن علم أن السبب في ذلك الانقطاع يعود إلى أعمال القرصنة التي يمارسها الهنود على ساحل ملبار، بادر بارسال حملة تاديبية إلى هناك وكان من نتائج هذه الحملة استمرار وصول الأرز دون انقطاع، كما أن حاكم ميسور بادر بارسال مبعوث من قبله إلى الرستاق لمقابلة الإمام أحمد لتأكيد الصداقة بين البلدين والعمل على توثيقها لما فيه مصلحة الطرفين. وتم تعيين مبعوث تجاري لـ(ميسور) في مسقط، بشكل دائم للقيام بتوثيق العلاقات التجارية، واستمر هذا المبعوث في مسقط حتى سقوط مقاطعة ميسور في سنة ١٧٩٩ تحت الاحتلال البريطاني(٤٤).

ويشير (لوريمر) إلى حادثة تأديب قراصنة ملبار بأنها تمت في عهد حاكم مانجلور الذي كانت (ملبار) تتبع مقاطعته والذي قام بارسال مبعوث من قبله إلى الرستاق لمقابلة الإمام، وكان هذا المبعوث يدعى (طيبو صاحب) ليقدم الشكر له على

(٣٨) Bailey. R. W.: *Records of oman (1867-1947)*, London, 1988, p. 49.
مركز الوثائق، جامعة قطر، تحت رقم (٢١٧٩).

(٣٩) د. جمال زكريا قاسم: **دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا**، ص ٩٥ ـ ١٠٢.

(٤٠) جون. ب. كيلي: ص ٢٧ ـ ٢٩.

(٤١) د. محمود علي الداود: المرجع السابق، ص ٢٣.

(٤٢) ج. ج. لوريمر: دليل الخليج، ج ٢ (القسم التاريخي)
قام بترجمته لجنة الترجمة بالديوان الاميري لدولة قطر، الدوحة، ١٩٧٥، ص ٦٥٣، ٦٥٧ ونفس المؤلف بالانجليزية ص ٤١٤، ٤١٧ وانظر: جيران لاند: ٥٧.

(٤٣) **عمان ٩٢**، ص ٢٩ ـ ٣٥، وانظر كذلك: **دليل الخليج**، ج ٢، ص ٦٥٧.

(٤٤) **حصاد ندوة الدراسات العمانية**: المجلد ٢، ص ٦٨ وانظر أيضاً: Miles, S. B: OP Cit, p. 265.

ما قام به ضد قراصنة ملبار وكان ذلك سنة ١٧٧٤ وليس في سنة ١٧٧٦ كما ذكر المصدر السابق. وقد اقيم لهذا المبعوث مقر في مسقط كان يعرف باسم (بيت النواب)[٤٥]. وفي اعتقادي أن لوريمر هو أقرب إلى الواقع من غيره في تسجيل تاريخ حادثة تأديب قراصنة ملبار إذ إن الإمام أحمد بن سعيد كان في سنة ١٧٧٦ مشغولاً في الدفاع عن البصرة ضد الغزاة الفرس كما انه كان في حالة استنفار عسكري لأي رد فعل من جانب فارس ضد بلاده، رداً على وقوفه إلى جانب الدولة العثمانية التي كانت تحكم ولاية البصرة والعراق بشكل عام، هذا إلى جانب أن كريم خان كان يهدد بغزو عمان بشكل مكشوف.

واستطاع الإمام بهذا العمل الذي قام به ضد قراصنة ملبار تأمين السفن التجارية التي تنقل الأرز والسلع الأخرى من الهند إلى منطقة الخليج بما فيها العراق، بل انها وضعت حداً لقراصنة البحر بعدم التعرض للسفن التجارية العمانية التي كانت تنقل أيضاً التموين إلى المستعمرات الفرنسية في افريقيا عبر المحيط الهندي وبهذا تكون حكومة الإمام أحمد بن سعيد قد سبقت الحكومة البريطانية في مقاومتها لعملية القرصنة البحرية التي كانت تهدف إلى تأمين الملاحة التجارية في المحيط الهندي. وقد عاصر الإمام أحمد حاكم (حيدر اباد) المسلم نظام الملك، وكانت العلاقات بينهما جيدة[٤٦].

وقد أثار نجاح الإمام أحمد في المجال التجاري ملك فارس كريم خان الذي هدد بغزو عمان ولكن بعد أن فشل في اقناع السلطة العثمانية في البصرة وكذلك وكيل شركة الهند الشرقية التي كانت تتخذ من البصرة مقراً لها بالوقوف إلى جانبه قرر مهاجمة البصرة في نهاية عام ١٧٧٥. وقد وقف الإمام أحمد كما اشرت إلى جانب السلطة العثمانية في الدفاع عن البصرة التي حاصرها الفرس سنة ١٧٧٦م وارسل اسطولاً مكوناً من عدة سفن حربية بما فيها سفينته الخاصة (الرحماني) التي استطاعت قطع السلاسل الحديد التي أقامها الفرس في مياه الخليج أمام البصرة وذلك لمنع اقتراب السفن المعادية إلى مواقعهم[٤٧]. وحدث هذا التدخل في عهد السلطان العثماني مصطفى الثالث، كما يقول (جمال زكريا) الذي قرر دفع (جزية) سنوية من خزانة البصرة إلى عمان واستمرت تدفع حتى عهد الإمام سعيد بن سلطان[٤٨].

الحقيقة أن تدخل الإمام أحمد بن سعيد في الدفاع عن البصرة ضد الفرس كان سنة ١٧٧٦ وفي عهد السلطان العثماني عبد الحميد الأول وليس في عهد مصطفى الثالث، كما يذكر المصدر الآنف الذكر إذ إن السلطان العثماني مصطفى الثالث حكم بين (١٧٥٧ و١٧٨٩)[٤٩]. ويؤكد هذا (مصطفى النجار) الذي أشار إلى أن تدخل الإمام أحمد بن سعيد إلى جانب السلطة العثمانية في البصرة للدفاع عن المدينة ضد الفرس كان في سنة ١٧٧٦، كان في عهد السلطان عبد الحميد الأول الذي اصدر فرمانا سلطانياً يقضي بدفع خراج البصرة السنوي إلى إمام عمان ومنح التجار العمانيين حرية مزاولة التجارة في العراق، واعفائهم من دفع الرسوم التي كانت تدفع على البن الذي يجلبه التجار العمانيون إلى العراق[٥٠].

ولذلك نرى أنه حينما توقفت الدولة العثمانية عن دفع الخراج أو المكافأة التي قررت دفعها لعمان في عهد السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي توترت العلاقات بين عمان والدولة العثمانية[٥١].

وفي ختام هذا البحث المتواضع نستطيع أن نقول ان الانجازات التي حققها الإمام أحمد بن سعيد في تأسيس وتوثيق حكمه والتصدي للاطماع الفارسية وابعاد بلاده عن حلبة الصراع الانجليزي الفرنسي وما حققته بلاده في عهده من شأن على مستوى الخليج العربي ومن سمعة طيبة على مستوى العالم يعد في الواقع الحال انجازاً عظيماً في تاريخ عمان الحديث.

توفي الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي إلى رحمة الله ليلة الخميس من شهر ذي القعدة سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م، وبعض المصادر تذكر أنه توفي في ديسمبر ١٧٨٣م وهذا التاريخ الأخير هو اصدق من المصدر السابق لأن معظم المصادر تؤكد

(٤٥) ج. ج. لوريمر: **دليل الخليج**، ج ٢، ص ٦٥٣ ـ ٦٥٧.

(٤٦) صلاح العقاد: المرجع السابق، ص ٥٠ ـ ٥١.

(٤٧) **عمان ٩٢**، ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٤٨) جمال زكريا قاسم: **دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا**، ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٤٩) د. عبد العزيز محمد الشناوي: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، ج ١، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٥١٩.

(٥٠) مصطفى النجار وآخرون: **تاريخ الخليج الرعبي الحديث والمعاصر**، البصرة، ١٩٨٤، ص ٦٤.

(٥١) دليل الخليج، ج ٤، الدوحة، قطر، ١٩٧٥، ص ١٨٦٨.

هذا التاريخ. وتوفي وعمره ٨٣ عاماً، قضى ٣٩ عاماً منها في السلطة، وقيادة البلاد، والعمل على رفعة شأنها واستقرارها وبنائها، ودفن غربي حصن الرستاق. وعقب وفاته مباشرة اجتمع أعيان البلاد من أهل الحل والعقد، وعقدوا البيعة بالإمامة لابنه سعيد، الذي يأتي في المرتبة الثانية بين أولاده السبعة، علماً بأن الأول (هلال) توفي في حياة أبيه. وقد أكمل سعيد، ما بدأه والده في بناء الدولة البوسعيدية التي تحكم البلاد حتى يومنا هذا.

المراجع

أولاً: المراجع العربية

١ ـ أبو محمد عبد الله بن حميد بن سلوم السالمي: **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، القاهرة، ١٣٣٠ هـ.

٢ ـ أحمد عبيدلي: **الإمام عزان بن قيس (١٨٦٨ ـ ١٨٧١)**، بيروت، ١٩٨٤.

٣ ـ **أبو سالم عبيد فرحان**، مخطوطة، قام بتحقيقها الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٨٠م.

٤ ـ أحمد حمود المعمري: **عمان وشرق افريقيا**، ترجمة: محمد أمين عبد الله، القاهرة، ١٩٨٠م.

٥ ـ د. بدر الدين عباس الخصوصي: **دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر**، ج ١، ط ٢، الكويت، ١٩٨٤م.

٦ ـ د. جمال زكريا قاسم: **دولة البوسعيد في عمان وشرق افريقيا (١٧٤١ ـ ١٧٦١)**، القاهرة، ١٩٦٨م.

٧ ـ جون. ب. كيلي: **بريطانيا والخليج (١٧٩٥ ـ ١٨٧٠)**، ج ١، ترجمة: محمد أمين عبد الله، القاهرة، ١٨٩٩م.

٨ ـ حميد بن محمد رزيق: **الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين**، تحقيق: عبد المنعم عامر ومحمد مرسي، القاهرة، ١٩٧٧م.

٩ ـ **حصاد ندوة الدراسات العمانية** ـ نوفمبر ١٩٨٠، المجلد ٢، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٨١م.

١٠ ـ د. خالد يحيى العزي: **الواقع التاريخي والحضاري لسلطنة عمان**، بغداد، ١٩٨٦.

١١ ـ سرحان بن سعيد الأزكوي: **تاريخ عمان**، المقتبس من كتاب كشف الغمة **الجامع لأخبار الأمة**، تحقيق: عبد المجيد حسيب القيسي، القاهرة، ١٩٨٠م.

١٢ ـ ج. ج. لوريمر: **دليل الخليج**، ج ٢ (القسم التاريخي) ترجمته لجنة الترجمة بالديوان الأميري ـ بدولة قطر، الدوحة، ١٩٧٥م.

١٣ ـ ج. ج. لوريمر: **دليل الخليج**، ج ٤ (الجزء الخاص بالتاريخ) ترجمته لجنة الترجمة بالديوان الأميري ـ بدولة قطر، الدوحة، ١٩٧٥م.

١٤ ـ د. صلاح العقاد: **التيارات السياسية في الخليج العربي**، القاهرة، ١٩٧٤م.

١٥ ـ روبرت جيران لاند: **عمان منذ ١٨٥٦، مسيراً ومصيراً**، ترجمة: محمد أمين عبد الله، القاهرة، د.ت، الطبعة الانجليزية، لندن، ١٩٦٦م.

١٦ ـ رودولف سعيد روت: **سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي (١٧٩١ ـ ١٨٥٦)**، ترجمة عبد المجيد القيسي، البصرة، ١٩٨٣م.

١٧ ـ سعيد بن علي المغيري: **جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار**، القاهرة، ١٩٧٩م.

١٨ ـ د. محمد مرسي عبد الله: **امارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى (١٧٩٣ ـ ١٨١٨)** ج ١، القاهرة، ١٩٧٨م.

١٩ ـ د. مديحة أحمد درويش: **سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر**، دار الشروق ـ جدة، ١٩٨٢م.

٢٠ ـ **عمان ٩٢** ـ كتاب صادر عن وزارة الاعلام في سلطنة عمان، ١٩٩٢م.

٢١ ـ د. مصطفى عقيل: **التنافس الدولي في الخليج العربي (١٦٢٢ ـ ١٧٦٣)**، الدوحة، ١٩٩١م.

٢٢ ـ د. مصطفى النجار وآخرون: **تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر**، البصرة ـ ١٩٨٤م.

٢٣ ـ د. عبد العزيز محمد الشناوي: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، ج ١، القاهرة، ١٩٨٠م.

٢٤ ـ لجنة تدوين تاريخ قطر ـ **مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية**، ج ٢، الدوحة، قطر، ١٩٧٦م.

٢٥ ـ د. عبد الأمير محمد أمين: **القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر**، بغداد، ١٩٦٦م.

٢٦ ـ د. محمود علي الداود: **محاضرات عن التطور السياسي الحديث لقضية عمان**، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٤م.

٢٧ ـ د. علاء الدين نورس: **السياسة الايرانية في الخليج العربي في عهد كريم خان (١٧٥٧ ـ ١٧٧٩)**، بغداد، ١٩٨٢م.
٢٨ ـ د. سلطان بن محمد القاسمي: تقسيم الامبراطورية العمانية (١٨٥٦ ـ ١٨٦٢)، مؤسسة البيان، دبي، ١٩٨٩م.
٢٩ ـ **الموسوعة السياسية**، ج ٤، تاليف: عبد الوهاب الكيالي، بيروت، ١٩٩٠م.

ثانياً: المراجع الأجنبية

1- «Records of Oman 1867-1947» by: Bailey, R. W., London, 1988.
2- J. G. Lorimer: «Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia» (Historical) Chapters II-V, Calcutta, 1915.
3 - Sykes, P: «A History of Persia,» Volume 2, London, 1951.
4- «Oman Ameed Practical Guide,» by: John Whelan, London, 1981.
5- Miles, S. B.: «The Countries and Tribes of the Persian Gulf,» Volume, 2, London, 1919.
6- Ahmed Hamoud Al Maamiry: «Whither Oman?» First Edition, 1981, New Delhi-India.

مسيرة الدبلوماسية الأردنية عام ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠

وتحدّياتها في التسعينات

د. عبد الفتاح الرشدان
الأردن

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل وتقييم نشاط الدبلوماسية الأردنية في المجالين العربي والدولي، لكي يتم التعرف على الانجازات التي حققتها الدبلوماسية خلال عام ١٩٨٩/١٩٩٠، التي فاقت السنوات السابقة بما تم فيها من تطورات ومستجدات ضخمة وهامة حلت بالمجتمع الدولي بأسره، وحاولت الدراسة عرض التحديات التي تواجهها الدبلوماسية الأردنية خلال العقد الحالي وتطلعاتها للمستقبل في ضوء المتغيرات الدولية الجديدة.

وخلصت الدراسة إلى أنه بالرغم من إمكانات الأردن وموارده المحدودة، إلا أن الدبلوماسية الأردنية بقيادة جلالة الملك الحسين استطاعت أن تحقق تقدماً ملموساً خلال السنوات الماضية، وقامت بدور رئيسي في الدفاع عن القضية الفلسطينية، وفي تطوير العمل العربي المشترك، ومحاولة المحافظة على الموقف العربي واستقلال الشخصية العربية في الإطار الدولي. وإذا كانت الدبلوماسية قد حققت الكثير من الانجازات، فإنه يبقى أمامها الكثير من التحديات التي يجب مواجهتها بمزيد من العمل والإعداد والاعتماد على المؤسسية والتخطيط لتبقى بمستوى يؤهلها لمجابهة الظروف والمتغيرات المستجدة.

مقدمة

تتعرض هذه الدراسة لمسيرة الدبلوماسية الأردنية خلال عامي ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠، باعتبار أن هذه الفترة لم تكن مجرد فترة زمنية عادية تضاف إلى عمر الدولة الأردنية الحديثة، وإنما باعتبارها أشبه بعلامة بارزة في الحياة السياسية الأردنية، حيث امتازت بسمات خاصة، ولم تكن فترة اتصالية كاملة، وإنما واكبتها تطورات وتغيرات كثيرة على جميع المستويات المحلية والإقليمية والدولية. وحتى يمكن القول معها بأن هذه المتغيرات عكست نفسها خلال هذه الفترة لتجعل منها وحدة زمنية متميزة بكل مقياس.

وإذا كان العقد الماضي قد عايش مرحلة بارزة من مراحل تطور العلاقات الدولية، إلا أن الفترة الواقعة ما بين نهاية العقد الماضي، وبداية العقد الحالي قد فاقت تلك السنوات السابقة، بما تم خلالها من تطورات ومستجدات ضخمة وهامة حلت بالمجتمع الدولي بأسره شرقاً وغرباً. وهذه المستجدات غير المسبوقة تنبئ بأننا على عتبات عالم جديد ذي هموم وإشكاليات جديدة، تحتاج إلى تخطيط واستراتيجية جديدة.

وعلى الصعيد الداخلي لم تكن المتغيرات التي أصابت المجتمع الأردني أقل أهمية من المتغيرات الدولية، إذ دخل الأردن في مرحلة سياسية جديدة، وبدأت ملامح الديمقراطية تضفي بظلالها على الشارع الأردني، من خلال إجراء انتخابات

برلمانية حرة، جاءت بمجلس نيابي جديد، ثم صدور الميثاق الوطني، واتخاذ مجموعة من الاجراءات التي انبثق عنها سلسلة من الإصلاحات السياسية والاجتماعية، مما جعل هذه الفترة بحق فترة بارزة، وأمكن وصفها بأنها الحد الفاصل بين زمنين، لكل منهما ملامحه على الصعيدين الداخلي والخارجي.

هدف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل وتقييم النشاط الدبلوماسي الأردني المتعدد الجوانب في المجالات المختلفة، لكي يتم التعرف على ما تم انجازه وتحقيقه من جهة، ولتحديد المجالات التي تحتاج إلى المزيد من النشاط وبذل الجهد، حتى تتمكن الدبلوماسية الأردنية من التصدي للتحديات التي تواجه الدولة، وتجعل منها أداة قادرة على تحقيق الأهداف المرسومة من جهة أخرى. وذلك لمعرفة المدى الذي استطاعت الدبلوماسية الأردنية في تطورها أن تستفيد منه وأن تستمر في نشاطها على الرغم من الصعوبات التي تواجهها، وما هي تطلعاتها للمستقبل في ضوء المتغيرات الدولية الجديدة على مسرح السياسة الدولية.

فرضية الدراسة

تقوم هذه الدراسة على افتراض أن مكانة الدولة وهيبتها السياسية (Political Prestige) يمكن أن تنشئها في علاقاتها الدولية، بالاعتماد على سلوكها السياسي والدبلوماسي، وعلى طبيعة المؤسسات السياسة والاجتماعية الموجودة فيها، دون الاعتماد على القوة المسلحة أو عوامل التكنولوجيا. وعلى الرغم من إمكانات الأردن المحدودة، فقد استطاع أن يخلق لنفسه مكانة هامة، وهيبة سياسية في العالم العربي والدولي. وذلك أنه اختط سلوكاً سياسياً معتدلاً واتبع دبلوماسية مرنة ومتوازنة تقوم على عدم الانحياز، والتمسك بالمواثيق الدولية واحترام مبادئ وقرارات الأمم المتحدة، دون أن يكون لديها قوة عسكرية كبيرة أو تقدم تكنولوجي.

منهج البحث

تقوم الدراسة على توظيف المنهج التحليلي، وذلك عن طريق تحليل الوثائق والبيانات المتعلقة بنشاط الدبلوماسية الأردنية، خلال الفترة التي تغطيها الدراسة، ومن خلال تحليل واستقراء خطابات الملك الحسين، المتعلقة بسياسة الأردن الخارجية، بالإضافة إلى استخدام أسلوب المقابلة الشخصية مع بعض الأشخاص ذوي العلاقة والاهتمام بموضوع السياسة الخارجية، والدبلوماسية الأردنية.

تعريف الدبلوماسية وأهميتها

يمكن تعريف الدبلوماسية بأنها إدارة العلاقات الدولية من خلال التفاوض، وتنظيم هذه العلاقات والتوفيق بينها، وفي هذا الإطار فإنها تقوم بدور هام في العلاقات الدولية، فعن طريقها تتم إقامة هذه العلاقات، وتدعيمها، ومعالجة جميع الشؤون التي تهم مختلف الدول والتوفيق بين المصالح المتعارضة، ووجهات النظر المتبادلة. وكذلك فإن الدبلوماسية تلعب دوراً هاماً في توثيق العلاقات بين الدول وإشاعة الود وحسن التفاهم بين أعضاء الجماعة الدولية. وهي بالنسبة لكل دولة أداة فعالة لتوطيد مركزها، وتعزيز نفوذها، وتأكيد هيبتها في مواجهة الدول الأخرى(١).

وتعد الدبلوماسية من أهم الأدوات التي تستخدمها الدولة في تنفيذ سياستها الخارجية من أجل الوصول إلى الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها مع الدول الأخرى. والدبلوماسية ذات خصائص ومميزات تتأثر بالسياسة العامة التي تسلكها الدولة. وبمستوى الإمكانات والموارد والقوة التي تتوفر لديها وهي تُستخدم في مضامين مختلفة لتعزيز العلاقات الودية بين الدول أحياناً، ولفض النزاعات، وإنهاء الحرب أحياناً أُخرى(٢) ومن المعروف أن الدبلوماسية الحديثة تطورت كثيراً عما كانت عليه في السابق، إذ اتسع النشاط الدبلوماسي ليشمل مساحات جغرافية واسعة من العالم، وأصبحت كذلك معظم دول العالم تشارك في النشاطات الدبلوماسية. واتخذت الدبلوماسية الشكل البرلماني بحيث تشارك فيها الدول بأسلوب النقاش والحوار البرلماني، والتصويت في المنظمات الدولية. وشملت كذلك مؤتمرات القمة على مستوى القادة والزعماء(٣).

والدبلوماسية لا تعمل في فراغ، بل تعمل وسط المصالح المختلفة والتيارات المتصارعة على المسرح السياسي العالمي وهي التي بسببها تتكون ظاهرة الصراع الدولي(٤). ولا بد أن

(١) السيد عليوه، **إدارة الصراعات الدولية: دراسة في سياسات التعاون الدولي**. الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ ١٩٨٨ ص ٥٢.

(٢) Adam Walson, «Diplomacy: The Dailogue Between States» Eyrmethean, London 1982 PP 14-21.

(٣) ohn Rourk, «International Politics in the World Stage». The Dushkin Group, Inc, Sluice Duke, Guilford 1978, PP. 309-312.

تدرك الدبلوماسية لأي بلد أبعاد التغير الذي يطرأ في المجتمع الدولي. وأن تعرف الوسائل المستخدمة في العلاقات الدولية، للمحافظة على المصالح القومية، والدفاع عن القضايا والحقوق الأساسية، وتعد الدبلوماسية الأكثر استخداماً من جانب الدول في تنفيذ سياستها الخارجية. وإن أهم المسؤوليات التي تناط بالعمل الدبلوماسي في تنفيذ السياسة الخارجية ـ وربما في صنعها ـ تمثيل الدولة وعرض سياستها واتجاهاتها للدول الأجنبية، وكذلك حماية مصالح الدولة في الخارج. ولم يعد العمل الدبلوماسي مقتصراً على المؤسسات الدبلوماسية التقليدية، بل دخل في ذلك عمل القادة والزعماء ورؤساء الدول والحكومات بالإضافة إلى وزراء الخارجية.

وسوف تتناول هذه الدراسة المتغيرات والتطورات التي حدثت على المستوى الداخلي والدولي أولاً، ثم تناقش أداء الدبلوماسية الأردنية وموقفها من الدول العربية وقضاياها الراهنة، وكذلك نشاطها على الصعيدين الإقليمي والدولي خلال فترة الدراسة، وأخيراً أهم التحديات التي تواجه الدبلوماسية الأردنية مع محاولة استشراف آفاق الدبلوماسية في التسعينات.

الدبلوماسية الأردنية والمتغيرات الداخلية

تعد التطورات السياسية والاجتماعية، التي شهدها الأردن مع السنة الأخيرة من العقد الماضي، من أهم الأحداث التي حصلت في تاريخ المملكة منذ حصولها على الاستقلال عام ١٩٤٦. لما احدثت من تغيير شامل لمجريات الأمور التي كانت سائدة على الصعيدين السياسي والاجتماعي. ومن المعروف ان الأردن بلد محدود الموارد الاقتصادية، ولم يشهد وجود متغيرات اجتماعية حادة وفوارق بين فئات المجتمع المختلفة حتى عام ١٩٧٥، ولكن هذه الحالة اخذت بالتغير بصورة تدريجية بعد ذلك. وشهد الأردن كغيره من الدول العربية الأخرى بعض الظواهر الاقتصادية الجديدة، مثل الارتفاع الهائل في أسعار العقارات وازدياد حركة العمران واتساع قطاع الخدمات والسياحة، وكل ذلك تأثر أيضاً بالحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٦، مما جعل الأردن مركزاً للكثير من الشركات والمصالح والمؤسسات الاقتصادية والتجارية، وبطبيعة الحال فقد ادت مثل هذه التطورات إلى ظهور فئات اجتماعية جديدة، استفادت واثرت إلى حد كبير وبشكل سريع، وانتشرت اعداد كبيرة من الشركات والمؤسسات والمصانع التي غطت تقريباً كل مجالات الحياة الاقتصادية والانتاجية والمالية في البلاد.

ومع منتصف الثمانينات، بدأ الأردن يعاني من تفاقم حجم المديونية، دون أن تجدّ محاولة للسيطرة عليها، سيما وان الدول العربية التي كانت وافقت على تقديم الدعم المالي للأردن في مؤتمر بغداد عام ١٩٧٩، قد تخلت عن التزاماتها ولم تفِ بها، مما ادى إلى ارتفاع تكاليف المعيشة بنسبة ٣٠٪ وبالتالي تدهور الوضع النقدي، وانخفاض قيمة الدينار الأردني بنسبة ٤٠٪ عام ١٩٨٩، وتدخل صندوق النقد الدولي، من أجل إعادة جدولة الديون، وما ترتب على ذلك من اجراءات اقتصادية صارمة(٥).

هذا بالإضافة إلى تضخم مشكلة البطالة، التي تفشت بصورة كبيرة بين قطاعات المواطنين المختلفة. وهذه العوامل مجتمعة ادت إلى خلق طبقة واسعة من الفقراء والمعوزين، ودخلت هذه الشرائح الفقيرة في حالة ضيق وعسر ادت إلى خلق نوع من التبرم والاحباط لدى فئات كثيرة من المجتمع، تمخض عنها غليان جماهيري.

أما بالنسبة للعوامل الاجتماعية، فلا شك ان المجتمع الأردني، قد شهد في العقدين الأخيرين، نوعاً من التطور والتحديث على المستوى المادي، الذي لم يواكبه تحديث أو تنمية على المستوى السياسي، من حيث وجود مؤسسات سياسية مستقرة وذات فاعلية وتأثير. ومما يجدر ذكره أن ارتفاع نسبة التعليم، وانخفاض نسبة الأمية، وازدياد اعداد خريجي الجامعات والمعاهد العليا، قد صاحبه أيضاً ازدياد في نسبة الوعي الثقافي والاجتماعي والسياسي، كل ذلك ترك أثره على المجتمع الأردني لكي يشعر بالحاجة إلى وجود ممارسات سياسية عصرية تعتمد على المؤسسية التي توفر اطاراً سياسياً حديثاً، وتلبي وتفسح المجال أمام المشاركة الشعبية، والمحافظة على حقوق وحريات الفرد والمجتمع.

وقد ارتبطت هذه العوامل الداخلية بعوامل خارجية، فالأردن كدولة مرتبطة بدول العالم الأخرى، وخاصة بفضل ثورة الاتصالات والمعلومات، تأثرت بالتفكير السياسي المطروح عالمياً وعربياً. فهناك اتجاه متزايد بين مختلف القوى السياسية والوطنية والقومية، على أهمية العمل في مناخ ديمقراطي، واحترام حقوق الإنسان وإفساح المجال للآراء والاجتهادات المختلفة.

(٤) اسماعيل صبري مقلد. **نظريات السياسة الدولية**، الكويت. ذات السلاسل للطباعة والنشر ١٩٨٧ ص ٢٦٣.

(٥) احمد أبو الحسن زرد. **الانتخابات البرلمانية الأردنية والتعددية الحزبية السياسة الدولية**، ٩٩، يناير ١٩٩٠ ص ١٩٠.

ولا بد من الإشارة إلى ان القيادة السياسية في الأردن وعلى رأسها جلالة الملك الحسين، شعرت بضرورة التطور، واحداث تغييرات في السياسة الأردنية، واتخاذ خطوات واسعة نحو ترسيخ الديمقراطية، وتوسيع مجالات الحرية والدعوة إلى التعددية السياسية، والسماح للأحزاب بمختلف اتجاهاتها للعمل داخل الأردن.

هذا التوجه من قبل جلالة الملك الحسين قد سبق التطورات التي بات من المؤكد أن تفرض نفسها على دولنا، وخاصة المؤثرات الدولية التي بدأت تهب رياحها على المنطقة(٦).

وقد وقعت بعض الاضطرابات الداخلية في نيسان عام ١٩٨٩، وذلك كنتيجة ورد فعل للأزمة الاقتصادية، وما تمخض عنها من اجراءات التقشف التي اعلنتها الحكومة في ذلك الوقت، وكانت الاحداث العنيفة في جنوب المملكة، ولكن بفضل حكمة جلالة الحسين وتجاوب المواطنين، أدّيا إلى تحديد حجم الأحداث وانهائها في وقت قصير. وعلى أثر ذلك وجه الملك الحسين كلمة إلى الشعب الأردني في ١٩٨٩/٥/٢٦، قال فيها:

«اجتزنا محنة مؤلمة وعابرة، بينما ما زلنا نعيش في ضائقة مالية اقتصادية، تشكل لنا تحدياً مشتركاً»، واكد الملك في خطابه بأنه ستتخذ الاجراءات اللازمة للاتجاه بخطى اسرع نحو اجراء انتخابات نيابية لتوطيد قواعد المشاركة، مؤكداً أهمية الاعتماد على الذات، والعمل على تحويل الأحداث التي جرت من حادث نأسف عليه إلى منطلق جديد لإعادة البناء(٧).

وفي ١٩٨٩/٧/٦، وجه جلالة الملك الحسين كلمة إلى الشعب الأردني بمناسبة سفره لبريطانيا قال فيها إنه سيتابع العمل الذي يسعى إلى وضع ميثاق وطني مؤسس على احترام الدستور(٨). وقد اتخذت الاجراءات من أجل اجراء انتخابات نيابية جرت في ١٩٨٩/١١/٨، وسط جو شهد جميع المراقبين بنزاهته، وشاركت فيه نسبة كبيرة من المواطنين، وربما كانت الانتخابات النيابية أول تجربة في دول العالم الثالث تتم بصورة حرة وديمقراطية بدون تدخل الحكومة. وفي ١٠/٤/ ١٩٩٠، قرر الملك الحسين تشكيل لجنة ملكية لصياغة الميثاق الوطني تمثل كافة الاتجاهات والتيارات السياسية والفكرية في الأردن، ووجه إلى رئيس اللجنة رسالة أكد فيها ان الديمقراطية ليست غاية، بل طريق حياة وخدمة للمصالح، مادتها الشعب وغايتها خدمته... وإن صياغة الميثاق الوطني تشكل خط البداية الذي يتلاقى عليه الشعب للانطلاق نحو التعددية السياسية(٩).

وفعلاً تم انجاز الميثاق الوطني، بعد عمل استمر عدة شهور، وتمت الموافقة عليه في مؤتمر شعبي عام، وحسبما اشار رئيس اللجنة الملكية لصياغة الميثاق، فإن هذه الوثيقة التي انتهت إليها، تشكل مدخلاً منهجياً للاصلاح في شتى الميادين، وتمثل توافقاً وطنياً بين جميع الأطراف والاتجاهات السياسية في البلاد، واتفاقاً مع الجوامع الفكرية والسياسية المختلفة، والاتجاهات الوطنية المتعددة في المجتمع الأردني، وهي بهذا المفهوم تشكل حلقة أخرى من حلقات مسيرتنا الديمقراطية، مكملة لما سبقها ومتصلة بما سيأتي بعدها من خطوات. ويعد الميثاق الوطني رؤية مستقبلية متكاملة لتنمية طاقات الإنسان الأردني في الابداع والتجديد. وخطوة متقدمة نحو تحرير العمل الوطني العام من الشك والجمود، وتطوير المشاركة الشعبية، وممارسة تعددية سياسية تقوم على أساسها تنظيمات وأحزاب وطنية تلتزم بالدستور والشرعية، وتؤمن بالنهج الديمقراطي وتحترم قواعده(١٠).

وفي الفصل الأخير من الميثاق، وضعت اللجنة تصورها لأبعاد العلاقة الأردنية العربية والإسلامية والدولية، وحددت منطلقات هذه العلاقة ومنهجيتها، وما ترتبه من التزامات متبادلة على مختلف الصعد، بما يتناسب مع موقع الأردن الجغرافي والسياسي. ويعزز هويته القومية ودوره كعضو في الأمم المتحدة، ويضمن استمرار مساهمته في صياغة علاقات دولية قائمة على أساس احترام حرية الشعوب واستقلالها وحقها في تقرير مصيرها. والالتزام بمبادئ الحق والعدل والمساواة والسلام العادل بين الشعوب واحترام حقوق الإنسان ورفض التمييز والهيمنة بجميع أشكالهما(١١).

(٦) طارق خوري. **مستقبل الأردن، الديمقراطية، الهوية، التحديات**، عمان ١٩٩٠ ص ١٧، ١٨.
(٧) خطاب جلالة الملك الحسين، الرأي، عمان ١٩٨٩/٥/٢٧.
(٨) خطاب جلالة الملك الحسين، **الرأي**، عمان ١٩٨٩/٧/٧.
(٩) خطاب جلالة الملك الحسين، **الرأي**، عمان ١٩٩٠/٤/١١.
(١٠) كلمة السيد أحمد عبيدات رئيس اللجنة الملكية لصياغة الميثاق الوطني. **الرأي**، عمان ١٩٩٠/٢/٣١.
(١١) الميثاق الوطني، الصحف الأردنية، عمان ١٩٩٠/١٢/٣١.

الدبلوماسية الأردنية والمتغيرات الدولية الجديدة

لعل من أهم المتغيرات الجذرية التي أصابت الوضع السياسي العالمي مع نهاية العقد الماضي هو ذلك الضعف والانهيار الذي أصاب الكتلة الاشتراكية، وأدى إلى انتهاء الحرب الباردة التي كانت نارها قد استمرت بين الشرق والغرب، منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها. فمنذ مؤتمر يالطا في أواخر الحرب الثانية تم وضع أسس النظام العالمي، الذي استمر أساساً لإدارة العلاقات الدولية منذ عام ١٩٤٥ ـ ١٩٩٠، أي ما يزيد على أربعة عقود. فقد تمخضت الحرب العالمية الثانية عن مولد عملاقين دوليين عظيمين هما: الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بدلاً من القوتين التقليديتين بريطانيا وفرنسا. أصبحت الولايات المتحدة الامريكية زعيمة للدول الغربية بأسرها، واطلق عليها اسم الكتلة الغربية. وتحولت هذه الكتلة إلى معسكر استراتيجي ـ اقتصادي يدعمه حلف الاطلنطي، ويناصب العداء للاتحاد السوفياتي، الذي قام بدوره بتكوين معسكر استراتيجي ـ اقتصادي مضاد يشمل دول أوروبا الشرقية ويدعمه حلف وارسو. وقد تسابق المعسكران في صناعة الأسلحة وكسب الانصار والأصدقاء من الدول الأخرى وخاصة العالم الثالث. وقد تم ترتيب الأوضاع الداخلية والخارجية لتلك الكتل على أساس هذا الاستقطاب الثنائي حتى نهاية العقد الماضي.

وعلى الرغم مما حققته الكتلة الشرقية برعاية الاتحاد السوفياتي من انجازات اجتماعية واستراتيجية وايديولوجية، إلا أنه ومنذ مطلع السبعينات كان للركود السياسي والاقتصادي الطويل أوخم العواقب على القوى الاجتماعية داخل هذه الكتلة، وبدأت الانفجارات الاجتماعية والسياسية تتلاحق وبسرعة في هذه الدول؛

إذ بدأ الرئيس السوفياتي السابق مخائيل غورباتشوف منذ توليه السلطة في الاتحاد السوفياتي باتباع سياسة البرويسترويكا وسياسة الانفتاح التي تقوم في أساسها بالتخلي عن الاشتراكية والارتباط بالدول الرأسمالية من أجل الحصول على مساعدات اقتصادية ومالية. وأدى ذلك كله إلى حدوث ما يسمى بزلزال أصاب الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية.

وقد اجتاز النظام العالمي الجديد مرحلة تاريخية حاسمة من التبدلات والتحولات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية المكثفة والمتلاحقة، وهو الذي عُد بحق ثورة في المفاهيم والتصورات التي حكمت العلاقات الدولية لمدة طويلة. فبدخول المرحلة الجديدة سار الوفاق الدولي خطوات، وازداد التقارب بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة التي وصلت تدريجياً إلى مرحلة التبعية السوفياتية لأمريكا الرأسمالية. وما كاد عام ١٩٨٩ ينتهي حتى كانت الحدود المتعارف عليها بين الشرق والغرب، والتي كان جدار برلين شاهداً عليها تتبدد وتزول. وكانت قمة المتوسط بين الزعيم السوفياتي غورباتشوف والرئيس الامريكي جورج بوش في كانون أول ١٩٨٩ بمثابة الاعلان الرسمي لنهاية الحرب الباردة، وبدء علاقة تمتاز بالتفاهم وتقارب وجهات النظر بين الدولتين.

ويعد مطلع عقد التسعينات، بداية لمتغيرات جديدة، ونقطة تحول في مسار عالمي جارف بات يدعو إلى إعادة النظر والمراجعة في كثير من الأمور وترتيب الأولويات بعد أن ولت الحرب الباردة وأصبحت في ذمة التاريخ. إن أول نتائج هذه المتغيرات كان زوال الاتحاد السوفياتي نهائياً من الخريطة العالمية. والحقيقة ان صانعي القرار والمهتمين بالشؤون السياسية والدولية قد فرض عليهم أن يبدأوا بإعادة تخطيط سياستهم واستراتيجيتهم من جديد على ضوء التطورات الجديدة.

وإذا كان الأردن ومعه الدول العربية، قد رحب بهذا التطور الذي قد يبشر بظهور علاقات دولية تساهم في إشاعة الأمن والسلام الدولي الذي يعد اللبنة الأولى لكل تقدم وتطور تنشده الأمم. ولكن الشكوك ما زالت تساور الدول الصغيرة، ومنها الأردن لأن الانفراج الذي تشهده الساحة الدولية، إنما يتجه بصورة أساسية إلى العلاقات بين الدول الكبرى. وإذا كان له نتائج ايجابية فإنها لم تنعكس على أوضاع المجتمع الدولي بشكل عام، ولم تصل لتمسّ أوضاع العالم الثالث الاقتصادية والبيئية، الاجتماعية، بل على العكس، ففي الوقت الذي نشهد فيه تطوراً متزايداً في الحوار بين الشرق والغرب، نلاحظ أن الفجوة تزداد بين الشمال الغني والجنوب الفقير، مما يدل على أن الوفاق بين الشرق والغرب قد يكون على حساب الجنوب.

ويمكن القول إن التقارب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قد بدأ يلقي نتائجه السلبية على الدول العربية، ابتداء من فقدان العلاقات الدولية لتوازن القوى، ومروراً بالصراع العربي الاسرائيلي، وأخيراً حرب الخليج التي أثبتت بأن سياسة الوفاق كانت لصالح الغرب والشرق، وعلى حساب الدول العربية ومنطقة الشرق الأوسط، بعد أن كان العرب يعتمدون على الاتحاد السوفياتي صديقاً لهم وداعماً لقضاياهم، وخاصة القضية الفلسطينية التي تعد من أهم المعضلات التي تهدد أمن واستقرار المنطقة بأسرها.

ومما لا شك فيه أن سياسة الاتحاد السوفياتي تجاه الصراع العربي الاسرائيلي في عام ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ قد تراجعت

كثيراً، وأصبحت محكومة بمبدأ الحرص على تعزيز المصالح المتبادلة مع واشنطن، ورفض فكرة التوازن الاستراتيجي العسكري. وكذلك وافق الاتحاد السوفياتي على مبدأ التسوية المرحلية، واعطاء الولايات المتحدة الدور الأساسي في تسوية النزاع العربي الاسرائيلي، كما وتراجع عن الشروط التي كان يضعها من أجل إعادة العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل(١٢).

وأدت سياسة الوفاق بالاتحاد السوفياتي إلى فتح أبواب الهجرة اليهودية الجماعية إلى الأراضي العربية المحتلة دون قيد أو شرط مما يؤدي إلى تعزيز سياسة التوسع الاسرائيلية، ويهدد الوجود والهوية العربية في الأراضي الفلسطينية. ولقد ادركت الدبلوماسية الأردنية مدى تأثير هذه التطورات على المنطقة وخاصة النزاع العربي ـ الاسرائيلي الذي يعتبر بالنسبة للأردن القضية الرئيسية. وقد كثفت الدبلوماسية الأردنية اتصالاتها حتى لا تكون فريسة أو ضحية لهذه التطورات، وحتى لا يكون التقارب على حساب مصالح الأمة العربية والقضية الفلسطينية.

الأردن والمجال العربي

انتهج الأردن منذ تولي جلالة الملك الحسين زمام المسؤولية، سياسة تعمل على تحقيق التقارب والقضاء على أسباب التمزق العربي، من أجل تحقيق الاتفاق والتعاون، ووقف التدهور المستمر في الصف العربي(١٣). ومن هنا فقد استمر الأردن في دعم مسيرة التضامن العربي، وخاصة في قمة الوفاق والاتفاق التي احتضنتها عمّان في عام ١٩٨٧. وقد دأب الأردن بالسعي المتواصل للتنسيق وتقريب المواقف وحشد الطاقات لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية المفروضة على الأقطار العربية.

واستمر الأردن في تقوية العلاقات الثنائية مع الدول العربية كافة، وتعزيزها انطلاقاً من روابط الأخوّة التي تجمع الأردن مع غيره من الدول العربية، والتزاماً بميثاق الجامعة العربية. وقد بادر الأردن انسجاماً مع الثوابت التي يقوم عليها، وتمسكاً بالأهداف العليا التي يسعى إليها، وتجسيداً لمبادئ الثورة العربية الكبرى التي يحمل الأردن لواءها، إلى بذل كل جهد مخلص في سبيل جمع صفوف الأمة العربية وتوحيد كلمتها(١٤).

وأكدت بيانات الحكومة الأردنية المتعاقبة على ضرورة العمل على توفير أسباب الوصول إلى وحدة الأمة العربية عن طريق السعي لحشد أقطار الأمة العربية حول هذا الهدف عن طريق تهيئة المناخ المناسب والملائم لإزالة الشوائب التي عكرت صفو العلاقات بين الأقطار العربية، ومحاولة تجاوز حالة الانقسام والضعف والعزلة التي تسود واقع الأمة العربية في الوقت الراهن والانتقال بها إلى حالة الوئام ولمّ الصفوف لمواجهة التحديات التي تحيط بها(١٥).

ولما كان الموقف الأردني هو الالتزام الكامل بالتضامن العربي نصاً وروحاً، وهو الحريص على احترام كافة تطلعاته والتزاماته القومية، لذا ارتبطت اهتمامات الدبلوماسية الأردنية بالدول العربية على مر التاريخ بخدمة الأهداف الاستراتيجية ومصالح الأمن القومي للأردن والدول العربية(١٦). وقد كان الشعب الأردني دوماً مؤمناً بوحدة المصير العربي. ومن هنا ساندت الدبلوماسية الأردنية باستمرار القضايا الوطنية للشعوب العربية، ومدت لها يد العون والتأييد اللازمين في اطار الجهود المشتركة للتخلص من التبعية والاستعمار. ولا شك بأن عمل جلالة الملك الحسين من خلالة زياراته المتواصلة والمتكررة للعواصم العربية، بغرض التشاور والتنسيق مع الزعماء والقادة العرب، تعد بمثابة مؤتمرات قمة عربية مستمرة، فالملك الحسين يكاد أن يكون من الزعماء العرب القلائل الذين لهم قنوات مفتوحة مع جميع الأنظمة والحكومات العربية(١٧).

الأردن والقضية الفلسطينية

تصدرت القضية الفلسطينية قائمة القضايا التي جهدت الدبلوماسية الأردنية على متابعتها خلال العامين الماضيين،

(١٢) احمد يوسف أحمد: «تأثير التطورات الجديدة في الكتلة الاشتراكية على الوطن العربي»، **المستقبل العربي**، العدد ١٣٢، شباط ١٩٩٠. ندوة عقدت بمركز دراسات الوحدة العربية ص ١٢٢.

(١٣) مقابلة مع السيد أحمد اللوزي رئيس مجلس الاعيان الأردني، عمان، ١٩٩١/٨/٢٥.

(١٤) خطاب جلالة الملك الحسين في افتتاح الدورة الأولى لمجلس الأمة الأردني، **الرأي**، عمان، ١٩٨٩/١١/٢٨.

(١٥) البيان الوزاري لحكومة السيد طاهر المصري أمام مجلس النواب الأردني، عمان، ١٩٩١/٧/١١.

(١٦) مقابلة مع السيد أحمد اللوزي. المرجع السابق.

(١٧) محمد فضة، **الأردن ومؤتمرات القمة**، لجنة كتابة تاريخ الأردن، عمان، ١٩٩١ ص ٦٣ ـ ٦٤.

باعتبارها القضية الأساسية والمصيرية بالنسبة للأردن. والتزم الأردن بالوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني ودعم حقوقه الوطنية المشروعة، ومساندته في نضاله العادل، لا سيما انتفاضته الباسلة ضد الاحتلال والسيطرة الصهيونية. وبذلت الحكومة الأردنية كل جهد ممكن لمساعدة منظمة التحرير الفلسطينية على تحقيق أهدافها الوطنية باستعادة حرية الشعب الفلسطيني وسيادته على ترابه الوطني(١٨).

وقد جاءت خطوة فك العلاقة القانونية والإدارية مع الضفة الغربية المحتلة لترفد انتفاضة الشعب الفلسطيني بتأييد الأردن السياسي والمعنوي المطلق، ولكي يعيد القضية إلى أصولها، قضية شعب مستعمر يطمح إلى تحقيق استقلاله الوطني فوق تراب ابائه وأجداده(١٩). وشكلت هذه الخطوة استجابة للمطالب الفلسطينية والعربية، وحققت انتصاراً للقضية الفلسطينية ودفعاً لحضورها، وتحريكاً لأبعادها. ولم يكن قرار فك الارتباط، ليؤثر سلبياً على طبيعة التزام الأردن بدعم الشعب الفلسطيني، أو ليضعف من قريب أو بعيد العلاقة التاريخية والوطنية بين الأردن وفلسطين، بل استمر الأردن بدعمه المتواصل للشعب الفلسطيني، وتأييده لمنظمة التحرير الفسطينية، باعتبارها الممثل الشرعي له، وكثف الأردن اتصالاته الدولية، في محاولة لتأمين التفهم والمساندة اللازمة للموقف الفلسطيني من خلال اجماع عام على عقد مؤتمر دولي للسلام(٢٠).

وقد تميزت الأعوام القليلة الماضية بتزايد الأخطار المحدقة التي تواجه القضية الفلسطينية، في ظل ازدياد تعنت العدو الصهيوني، ومحاولة استثماره للظروف والمستجدات الدولية، بهدف تحقيق اطماعه التاريخية، بإقامة اسرائيل الكبرى. فقد ازدادت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتدفق على الأراضي الفلسطينية المحتلة ما يقارب مائة وخمسين ألف مهاجر خلال عام ١٩٩٠ ومن المتوقع أن يزداد عدد المهاجرين اليهود، ليصل إلى أكثر من مليون مهاجر خلال فترة وجيزة. في الوقت الذي ما زالت فيه الحكومة الاسرائيلية ترفض أية تسوية سلمية للصراع العربي ـ الاسرائيلي يقوم على أساس احترام قرارات الأمم المتحدة والشرعية الدولية.

ولمواجهة هذه الأخطار التي تهدد الوجود العربي في الأراضي المحتلة وتهدد الدول العربية المجاورة، فقد عملت الدبلوماسية الأردنية على تحذير الأمة العربية، والمجتمع الدولي من المخاطر التي سوف تترتب على الأردن وفلسطين والوطن العربي باكمله نتيجة الهجرة اليهودية المتزايدة من الاتحاد السوفياتي. ويعتبر جلالة الملك الحسين أول مسؤول عربي أعلن وركز على خطورة موضوع الهجرة حيث لا يجوز النظر إليه على أنه شيء ثانوي بل انه يعد أكبر خطر حل بالمنطقة منذ عام ١٩٦٧(٢١).

وقد اكد الأردن خلال العامين الماضيين استمراراً لما اكده خلال العقود الماضية على ضرورة تطبيق الشرعية الدولية وصولاً إلى انهاء الاحتلال الاسرائيلي باعتباره الأساس الذي يمكن الوصول من خلاله إلى سلام عادل ودائم للقضية الفلسطينية(٢٢).

الأردن والأزمة اللبنانية

أما بالنسبة للأزمة اللبنانية، فقد شهد عام ١٩٨٩ تطورات كبيرة نحو حل الأزمة واحتواء المشكلة، في اطار تاكيد عروبة ووحدة لبنان. وقد اولت الدبلوماسية الأردنية الاهتمام الكبير والجهد البالغ لتفادي حالة التدهور التي وصل إليها القطر اللبناني الشقيق، والتي باتت تحمل بوادر تقسيمه، مما يهدد النظام العربي برمّته ويعرّض المنطقة للتقسيم والتفتت.

وقد ايد الأردن تشكيل اللجنة الثلاثية العربية العليا، التي قرر تشكيلها القادة العرب، في مؤتمر القمة العربية الطارئة في الدار البيضاء، من الملك الحسن الثاني والملك فهد بن عبد العزيز والرئيس الشاذلي بن جديد، حيث عُهد إليها بمهمة اجراء الاتصالات واتخاذ الاجراءات اللازمة، كتوفير المناخ المناسب لدعوة أعضاء مجلس النواب اللبناني لإعداد ومناقشة وثيقة الاصلاحات السياسية، التي يمكن أن تكون قاعدة للحوار والوفاق الوطني. وينتخب المجلس رئيساً للجمهورية، يقوم بتشكيل حكومة وفاق وطني، تكون ملتزمة باجراء الاصلاحات السياسية التي تحقق السيادة الوطنية للبنان وتؤكد وحدته وهويته العربية.

(١٨) جلالة الملك الحسين في كتاب التكليف السامي لحكومة الشريف زيد بن شاكر. عمان، ١٩٨٩.
(١٩) جلالة الملك الحسين في خطاب العرش السامي في افتتاح الدورة الأولى لمجلس الأمة الأردني، المرجع السابق.
(٢٠) المصدر نفسه.
(٢١) وليد الخالدي. «الأوضاع الراهنة والقضية الفلسطينية». الندوة، المجلد الثاني، العدد الأول شباط ١٩٩٠، ص ١٤.
(٢٢) مقابلة مع السيد د. أحمد عناب رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الأردني، عمان، ١٩٩١/٨/٢٦.

وعبّر الأردن في كل مناسبة عن تشجيعه ودعمه للجهود الأخيرة التي بذلها أعضاء اللجنة لانجاز المهمة المأمولة منها، مما يؤدي إلى استعادة الشعب اللبناني لوحدته الوطنية، وسيادته الكاملة على أرضه، تمهيداً لإعادة بناء لبنان الشقيق وتعميره، وقد ايدت الأردن اللجنة الثلاثية طوال عملها، حتى نجحت في تحقيق تطور ايجابي تمثل في اجتماع البرلمانيين اللبنانيين في كنف المملكة العربية السعودية في مدينة الطائف، وانتهائهم إلى اقرار وثيقة الاتفاق الوطني وانتخابهم الرئيس رينيه معوض رئيساً للجمهورية. وقد استطاع الشعب اللبناني تجاوز النكبة ونتيجة الحادث الاجرامي الذي أودى بحياة الرئيس معوض. وتم انتخاب الرئيس الياس الهراوي، الذي ايد الأردن اختياره، مؤكداً قدرته على تحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه، واعتبر انتخابه خطوة واسعة على طريق تنفيذ اتفاق الطائف(٢٣).

وأكد الأردن أن الشرعية الدستورية التي يمثلها الرئيس الجديد، وحكمة الشعب اللبناني سوف تسهمان في عودة السلام إلى ربوع لبنان، ليستأنف دوره على الصعيد القومي جنباً إلى جنب مع اشقائه العرب. وفيما يتعلق بتطور الأوضاع في لبنان عام ١٩٩٠، اعتبر الأردن اتفاقَ الطائف الاطارَ المناسب للمحافظة على مصالح جميع الأطراف اللبنانية، حيث إنه السبيل إلى إخراج لبنان إلى دائرة الأمن والاستقرار. واعرب الأردن عن أسفه للاحداث الدامية التي عاشها لبنان خلال ذلك العام.

كما واصل الأردن ادانته للاعتداءات المتكررة التي تقوم بها اسرائيل على الأراضي اللبنانية، كما أيد صمود المواطنين في جنوب لبنان، واكد الأردن على ضرورة التزام اسرائيل بقرارات المجتمع الدولي، وبصفة خاصة قرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥ لعام ١٩٧٨ الذي اجمعت فيه إرادة المجتمع الدولي على انسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضي اللبنانية.

الأردن والحرب العراقية ـ الايرانية

أما بالنسبة للحرب العراقية ـ الايرانية، فإن قمة الوفاق والاتفاق التي عقدت في عمّان عام ١٩٨٧، ابرزت موقفاً عربياً واحداً في دعم العراق الشقيق ومساندته في دفاعه عن نفسه وعن أمته، وكان للموقف العربي ولصمود العراق وانجازاته البطولية الأثر الاكبر في اقناع ايران بقبول قرار مجلس الامن رقم ٥٩٨. وقد ايدت الدبلوماسية الأردنية الجهود الدولية التي بذلت لتطوير اتفاقية وقف اطلاق النار إلى سلام عادل ودائم بين القطرين الجارَيْن المسلمين، وعدم تحويلها إلى حالة من عدم الاستقرار، تحمل مخاطر كامنة على أمن المنطقة واستقرارها(٢٤).

وناشد الأردن القيادة الايرانية، وطالبها بأن تتجاوب مع الحاجة الإنسانية لتبادل الأسرى واعادتهم إلى ذويهم التزاماً بالشريعة السمحة واحتراماً للقوانين الدولية. ولم تألُ الدبلوماسية الأردنية جهداً في ابراز الموقف العراقي المسؤول، وفي حشد التأييد له من على المنابر الدولية، ومن خلال الاتصالات الثنائية، مع مبادرات مختلف دول العالم، لا سيما الدول الكبرى. وبذل الأردن أقصى إمكانياته للوقوف إلى جانب العراق للتوصل إلى سلام عادل مشرِّف بين الجارين المسلمين، بحيث يضمن تسوية المشكلات القائمة بين البلدين ويعيد علاقات الجوار الطبيعية بينهما، ويرسي دعائم الاستقرار في المنطقة بأسرها.

الأردن ومجلس التعاون العربي

انسجاماً مع الثوابت التي يقوم عليها الأردن، ووفاء للأهداف العليا التي يتمسك بها، وتجسيداً لمبادئ الثورة العربية الكبرى التي يحمل الأردن لواءها، فقد بادرت الدبلوماسية الأردنية دائماً إلى بذل كل جهد مخلص في سبيل جمع صفوف أمتنا وتوحيد كلمتها(٢٥)، وكان من ثمار هذا الموقف، أن تمَّ تأسيس مجلس التعاون العربي، في ٢/١٦/ ١٩٨٩. وضمّ الأردن والعراق ومصر والجمهورية العربية اليمنية، في اطار يستند إلى صيغة متقدمة من صيغ العمل القومي، بهدف الارتقاء بذلك العمل إلى ما يفيد الشعب العربي، ويقدم له نموذجاً ناجحاً للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، في زمن أخذت فيه التجمعات الاقتصادية تأدية دور مهم حيوي على الساحة الدولية.

وقد سعى الأردن من خلال مجلس التعاون العربي، نحو رفد العمل العربي المشترك في اطاره الأرحب (اطار الجامعة العربية)، بما يكفل تطوير عمل الجامعة لتتمكن من مواكبة تقلبات العصر، وبما يؤمن مصالح أمتنا العربية في تعاملها مع

(٢٣) خطاب جلالة الملك الحسين في افتتاح الدورة الأولى لمجلس الأمة الأردني. المرجع السابق.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) مقابلة مع السيد أحمد اللوزي، المرجع السابق، ومقابلة مع السيد عبد الله النسور وزير الخارجية الأردني السابق، عمان ١٩٩٢/١/٢٥.

دول العالم. وقد انعقدت إلى جانب قمة التأسيس في العاصمة العراقية، القمة الثانية في الاسكندرية في حزيران عام ١٩٨٩، ثم القمة الثالثة في صنعاء في أيلول عام ١٩٨٩، لكي يبدأ الاتحاد الحقيقي لتحقيق بدايات التكامل بين دول مجلس التعاون العربي في مختلف القطاعات والأنشطة الصناعية والاقتصادية والاعلامية والثقافية.

وأكد الأردن على الدوام، ان هذا التجمع لا يعوق العمل العربي، ويسعى إلى تكامل أوسع، بل إن قواعد تأسيسه تجعله مفتوحاً لانضمام دول عربية أخرى، بما ينفي عنه تماماً إمكانات الانغلاق أو التنافس أو التمايز في المحيط العربي، ويمكن اعتباره محاولة في مواجهة التحولات الإقليمية والعالمية والتجمعات الكبرى في مناطق العالم الأخرى، إذ يتميز عالم اليوم بانه يعيش عصر التكتلات الاقتصادية التي اثبتت نجاحها خاصة في الدول المتقدمة، لذلك فإن أهمية هذه التكتلات يجب أن تبرز في الدول النامية التي هي أكثر حاجة إلى السعي نحو التكامل الاقتصادي للنهوض بمستوى التنمية فيها وتجاوز الأزمات الاقتصادية التي تعاني منها وتحقيق مستويات من النمو والتقدم والرخاء لشعوبها(٢٦).

وغني عن القول ان ما يجمع الدول الأربع من منطلقات سياسية وتواجهات استراتيجية هو العامل الأساسي في وضع وتنفيذ البرامج والمشروعات الاقتصادية المشتركة، وتهدف هذه المشروعات للاستفادة من الموارد البشرية والطبيعية والصناعية الهائلة التي تمتلكها هذه الدول. وسيؤدي ذلك إلى رضاء شعوبها، وزيادة فرص التشغيل، وتوفير مصادر نقدية لإعادة الاستثمار وتحقيق قاعدة من التكامل تكفل الوقوف في وجه المنافسات الخارجية. ومن الطبيعي أن يكون لهذا كله آثار إيجابية على خطة العمل السياسي الخارجي مما يجعله اكثر فعالية وأدعى إلى الاحترام والقبول.

ويشير بعض المهتمين أن هذه التكتلات (مجلس التعاون العربي) هي حالات صحية وروافد تدعم الجامعة الأم، وانها على الأقل ليست سلبية بالنسبة للجامعة وإنما قد يكون وجودها ايجابياً لأن نجاحها هو نجاح للجامعة، وعملية الربط بينها وبين الجامعة عملية اجرائية وسهلة(٢٧). وهي بالتالي لا تشكّل أي عائق أمام عمل الجامعة طالما انها ليست موجهة ضد أحد، وإنما تسعى لتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات ذات العلاقة.

الأردن وأزمة الخليج

عند انفجار الخلاف بين العراق والكويت في نهاية تموز عام ١٩٩٠، بذلت الدبلوماسية الأردنية بقيادة جلالة الملك الحسين، جهوداً مكثفة من اجل احتواء هذا الخلاف، ومنع تدهور العلاقات بين العراق والكويت. وقام جلالة الملك الحسين بزيارة لبغداد في ٢٩ تموز ١٩٩٠ ثم بعدها للكويت، وحاول اقناع المسؤولين في كلا البلدين باتباع سياسة المرونة والحوار الودي، تمهيداً لتسوية النزاع بين البلدين الشقيقين، ويبدو أن هذه المحاولات لم تفلح في احراز التسوية بينهما.

وفي أعقاب القمة العربية الطارئة التي عقدت في القاهرة، ظهر في الأفق أن الدول الغربية وعلى رأسها امريكا تخطط وتعدّ لتدخل عسكري مباشر في المنطقة العربية. ومعلوم أن مثل هذا التدخل يحمل من السلبيات الكثير، مما يجعل العالم العربي ضحية من جديد للدول الاستعمارية، وما يؤدي ذلك إليه من انقسام في الصف العربي، يفقد الدول العربية القدرة على مواجهة مشاكلها بإرادة مستقلة ويجعلها عاجزة عن إيجاد معادلة مشتركة لتلافي أية خلافات طارئة يمكن أن تحصل داخل النظام العربي(٢٨). ولا يخفى أيضاً ما يمكن أن تجلبه التدخلات الأجنبية من دمار للبيئة وإنهاك للثروات الاقتصادية والموارد الطبيعية التي تتمتع بها المنطقة العربية، وما ستؤدي إليه الحرب من تدمير للقوة العراقية وتعريض الأمن القومي العربي للخطر، وفقدان العالم العربي عنصر التوازن الاستراتيجي الذي كان يمثله العراق، سواء على مستوى القضية الفلسطينية أو على مستوى التحديات الأخرى للمنطقة بأسرها.

وعلى ضوء هذه الحقائق والمعطيات، كثفت الدبلوماسية الأردنية نشاطها واتصالاتها بكافة الأطراف العربية والأجنبية. وبيّنت وجهة نظر الأردن الرسمية، حول جذور وأسباب الأزمة، والوسائل الكفيلة بايجاد حل سلمي وعادل للأزمة(٢٩).

ومع اقتراب ١٥ كانون الثاني ١٩٩١، وهو التاريخ المحدد للهجوم على العراق، ضاعفت الحكومة الأردنية بقيادة جلالة

(٢٦) رابح رتيب، «مجلس التعاون العربي، وامكانات التكامل الاقتصادي»، **السياسة الدولية**، يوليو ١٩٨٩ ص ٧٢.

(٢٧) وحيد عبد المجيد، مصر والنظام الإقليمي العربي، في التسعينات. **السياسة الدولية**، العدد ١٠٠، ابريل ١٩٩٠ ص ١٢٨.

(٢٨) ليلى شرف، «موقف الأردن من أحداث الخليج الموقف الرسمي، الشعبي، وموقف المثقفين» **المستقبل العربي** العدد ١٤٨، حزيران ١٩٩١ ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٢٩) **الكتاب الأبيض**، المرجع السابق.

الملك الحسين جهودها، بهدف اقناع الدول الأوروبية في التحالف الدولي لتحاشي المواجهة العسكرية مع العراق. وعندما عجزت الحكومة الأردنية عن تلافي نشوب الحرب فإنها وجّهت جهودها لوضع حدّ لها بالسرعة المكنة.

ولقد كانت الصعوبات الاقتصادية والسياسية التي عانى منها الأردن أثناء حرب الخليج، وبعدها واضحة، فقد تزعزعت العلاقات التقليدية بين الأردن ودول الخليج العربي والدول الغربية وشُنّت حرب اقتصادية ضد الأردن وأوقفت السعودية تصدير البترول إلى الأردن، وتم طرد الدبلوماسيين الأردنيين والعاملين في السعودية(٣٠).

وقد طالب جلالة الملك الحسين بضرورة وقف العمليات العسكرية ضد العراق ورفع الحصار الاقتصادي عنه، بحيث يبقى العراق محافظاً على قوته الاستراتيجية، وتسحب القوات الأجنبية من أراضيه. وأكد الملك وجوب وجود ضغط دولي قوي من قبل القوى الكبرى على اسرائيل حتى تمتثل للانسحاب من الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧(٣١).

الدبلوماسية الأردنية في المجال الدولي

وتعمل الدبلوماسية الأردنية بنشاط متواصل في المجال الدولي العام على إقامة علاقات صداقة وتعاون مثمر مع كل دول العالم التي يتبادل الأردن معها التوجه نفسه، وتتجه نحو تحسين المناخ السياسي في العالم، بما يوفر الفرصة الملائمة لإقامة علاقات أفضل بين شعوب العالم كافة، وبما يحقق المصالح المشتركة(٣٢).

ويؤكد الأردن في سلوكه الدولي، تمسكه بمبدأ سيادة القانون الدولي والتزامه بميثاق الأمم المتحدة وقراراتها، ويسعى لأن يكون السلام هدفاً أولياً لسياسة الدول كافة. وعلى ضوء ذلك يكون هناك حاجة ملحة لإقرار المفاهيم الجديدة في العلاقات الدولية، وضرورة إعلاء القيم الإنسانية، وحق الشعوب في تقرير مصيرها، واختيار الطريق الملائم لتطورها ونموها، واحترام استقلالها وسيادتها وترابها الوطني، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى.

ويرى الأردن ضرورة حل مشكلات الشرق الأوسط في الإطار الدولي باعتبارها مشكلات متشابكة ويمكن أن تهدد الأمن الدولي، إذ يؤكد جلالة الملك الحسين أن أزمة الخليج والاقتصاد العالمي ببعده النفطي، والقضية الفلسطينية، وأسلحة الدمار الشامل هي مشكلات شرق أوسطية متشابكة تماماً، وفي رأينا أن أي موقف أو توجه أو جهد دولي يبذل للتصدي لواحدة من هذه المشكلات دون غيرها، سوف يفشل في تحقيق الأمن والاستقرار في المنطقة وإحلال السلام بينها... وسوف يؤدي في أحسن الأحوال إلى التجميد المؤقت لانفجار الأزمات وليس إلى استئصال أسبابها في الوقت الذي يتوجه فيه العالم، كل العالم، نحو التعاون بدل المجابهة، ونحو التنمية والازدهار بدل القتل والتدمير(٣٣).

الأردن والعلاقات مع الدولتين العظميين

يحرص الأردن في سياسته الخارجية على تحقيق عنصر التوازن في علاقاته مع القوتين العظميين(٣٤)، وإن كان الأردن قد اهتم بتنشيط علاقاته الطبيعية مع الاتحاد السوفياتي سابقاً، فإنه في الوقت نفسه يعمل على الحفاظ على علاقته الممتازة والتقليدية مع الولايات المتحدة الامريكية، وعلى التعاون معها بما يحقق الاستقرار والتقدم والسلام في المنطقة.

وقد تابع الأردن باهتمام كبير تطورات العلاقة بين الشرق والغرب، خلال الفترة الأخيرة بكل أبعادها، وناشد الدولتين العظميين لبذل كل الجهد من أجل تخفيف حدة التوتر بينهما للوصول إلى مرحلة يسودها التفاهم، وبحيث يمتد هذا التفاهم لتشمل سياسته نظرتهما تجاه القضايا والمشاكل الإقليمية وخاصة في منطقة الشرق الأوسط، وتطلع شعوبها إلى الاستقرار والسلام.

وتلعب الولايات المتحدة الامريكية دوراً أساسياً ومؤثراً في قضية الشرق الأوسط، **وتنظر الدول العربية إلى الولايات المتحدة على أنها شريك كامل في عملية السلام،** التي تهدف إلى إيجاد تسوية سلمية للقضية الفلسطينية. وتحرص الأردن من هذا المنطلق على استمرار التشاور حول تطورات الموقف في الشرق الأوسط مع الحكومة الامريكية. وذلك من خلال زيارات جلالة الملك الحسين والمسؤولين الأردنيين إلى

(٣٠) مقابلة مع الدكتور عبد الله النسور، المرجع السابق.

(٣١) Ann Moselyy Lesch. «Contrasting Reaction to the Persian Gulf Crisis, Egypt, Syria, Jordan and the Palestinians», *Middle East Journal*, Vol 45 No. 1, winter 1991. P. 215.

(٣٢) مقابلة مع السيد أمين عام وزارة الخارجية، عمان ١٩٩١/٩/٧.

(٣٣) خطاب جلالة الملك الحسين في تخريج الدورة الحادية والثلاثين لكلية القيادة والأركان، **الرأي**، عمان، ١٩٩٠/١٢/١٠.

واشنطن. ويؤيد الأردن هدف الولايات المتحدة الرامي إلى تحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط، طالما كان قائماً على العدل والشرعية وتحقيق تسوية للقضية الفلسطينية تعترف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وحقه في إقامة دولته المستقلة.

هذا، ومرت العلاقات الأردنية الامريكية بأزمة حقيقية في أثناء حرب الخليج، وتزعزعت العلاقات التقليدية مع الولايات المتحدة، حيث كانت مغضبة من موقف الأردن تجاه العراق. مع أن الأردن كان يسعى لتحقيق الأمن والاستقرار في المنطقة وقد حدد ذلك جلالة الملك الحسين «كنا دوماً نسعى لإشاعة الاستقرار في المنطقة وإقامة علاقات طيبة مع جيراننا، وعملنا ما في وسعنا لتحقيق هذه الأهداف. إلا أن الأغلبية في هذا العالم بما فيهم الولايات المتحدة تبنوا نظرة مفادها، إما أن تكون معهم أو ضدهم، ان هذا الأمر غريب جداً لم أواجه مثله في السابق إطلاقاً»(٣٥).

ولكن سرعان ما عاد الدفء إلى العلاقات الأردنية الأمريكية بعد انتهاء أزمة الخليج، وخاصة بعد قبول الأردن الدخول في مسيرة السلام دون وضع أي عقبات أمام هذه المسيرة، ولذلك استطاع الأردن أن يمحو الكثير من الظلال التي وضعت بينه وبين الولايات المتحدة، وشهد هذا العام انفراجاً واضحاً في العلاقات بينهما(٣٦).

وانطلاقاً من تمسك الأردن بمبادئ عدم الانحياز، ورغبة في تحقيق التوازن في علاقته بالقوتين العظميين، وإيمانه بأنه دون هذا التوازن لا يمكن لأية دبلوماسية حكيمة لدولة غير منحازة، أن تحقق أهدافها. والمعروف أن الأردن نادى دائماً بفكرة عقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط تشارك فيه الدول المعنية، وتدرك الأردن أهمية الدور السوفياتي في التوصل إلى تسوية سلمية لهذه المشكلة.

وقد شهدت الفترة ابان أزمة الخليج درجة عالية من التشاور من خلال الاتصالات التي تمت بين جلالة الملك الحسين والرئيس السوفياتي غورباتشوف من خلال الرسائل التي حملها يفجيني بريماكوف عضو مجلس الرئاسة في الاتحاد السوفياتي خلال رحلاته المكوكية في المنطقة والتي التقى فيها مع الملك والمسؤولين الأردنيين ضمن الجولات التي قام بها في دول المنطقة، لبحث تطورات أزمة الخليج، وإمكان تجنب المواجهة العسكرية لحل هذه المشكلة.

الأردن والأمم المتحدة

يواصل الأردن تأييده ودعمه الكامل للأمم المتحدة، والتزامه بميثاقها وأهدافها(٣٧) ومبادئها التي استقرت في ضمير شعوب المنطقة، والتي تعتبر المصدر الأساسي لصياغة علاقات الأردن الدولية ويؤمن الأردن بأن من أبرز الظواهر التي يعيشها عالمنا المعاصر في المرحلة الراهنة، أن ثمة عدداً من القضايا والمشكلات الجديدة أصبحت تطرح نفسها على المسرح الكوني، وتفرض ذاتها على ساحة العلاقات الدولية، يمكن القول معها ان ما يجابه العالم اليوم من تحديات نوعية جديدة، تعترض مسيرته على طريق التنمية والتقدم، بل والاستمرار ذاته، لا تختص بمجموعة من الدول دون غيرها، ولا تقتصر على جانب من المجتمع الدولي دون آخر، وتشمل الأسرة الدولية بأكملها، ولا يمكن التصدي لها إلا من خلال العمل الجماعي الذي يدار بروح الفريق المتضامن. وتبقى المنظمة الدولية المنبر الأهم والإطار الأنسب لتحقيق التوفيق والانسجام اللازمين لمواجهة مشاكل هذا العالم وحلها(٣٨).

ويرى الأردن أن الطريق المناسب لتحقيق عملية السلام هو عقد المؤتمر الدولي بمشاركة جميع الأطراف المعنية بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية، وبإشراف الأمم المتحدة، ومشاركة الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن، وعلى أساس قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر عام ١٩٦٧، ومختلف قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة بحقوق الشعب الفلسطيني والنزاع العربي - الاسرائيلي. ويؤمن الأردن بأن الأمم المتحدة بميثاقها وقراراتها، تشكل الإطار الطبيعي والمناسب لتحقيق تلك التسوية(٣٩).

ونبّه الأردن إلى أنه إذا كان تحسن العلاقات بين الشرق والغرب، يشكل خطوة أساسية في خلق مناخ دولي ملائم، فلا بد أن يرافق ذلك تطوير العلاقات الاقتصادية، باتجاه إقامة

(٣٤) مقابلة مع السيد أمين عام وزارة الخارجية، المرجع السابق.
(٣٥) جلالة الملك الحسين في مقابلة مع مجلة **تايم** الامريكية، منشور في صحيفة **الرأي**، عمان، ١٦/٧/١٩٩١.
(٣٦) مقابلة مع السيد عبد الله النسور، المرجع السابق.
(٣٧) مقابلة مع السيد أمين عام وزارة الخارجية، المرجع السابق.
(٣٨) كلمة وزير خارجية الأردن في الدورة العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٨٩، منشورات وزارة الخارجية الأردنية، عمان.
(٣٩) المصدر نفسه.

نظام اقتصادي أكثر توازناً وعدلاً. وذلك نابع من إيمان الأردن بأن الفجوة الاقتصادية بين الدول المتقدمة والدول النامية، ما هي إلا نتيجة للخلل الذي يعتري النظام الاقتصادي الدولي القائم وأن الدول النامية لا تستطيع أن تنجح في رفع مستوى شعوبها قبل التوصل إلى حلول جماعية لهذه القضايا. ورحب الأردن بعقد الدورة الاستثنائية للجمعية العامة في شهر نيسان عام ١٩٩٠، التي كان موضوعها التعاون الاقتصادي الدولي، وبشكل خاص تنشيط النمو الاقتصادي للبلدان النامية وتنميتها(٤٠).

ويرى الأردن أن منطقة الشرق الأوسط أحوج ما تكون إلى المعيار الموحد الذي ينظم العلاقات بين دولها تحت مظلة الشرعية الدولية، بعيداً عن الانتقائية، حتى تكون حركة هذه المنطقة منسجمة مع التطورات الايجابية التي يشهدها العالم. وسيبقى الأردن على استعداد تام للتعاون مع الأمم المتحدة للعمل على التوصل إلى حل سلمي لجميع مشاكل المنطقة، لتنعم دولها وشعوبها بالعيش بحرية وكرامة، ولتستطيع تقرير مستقبلها والمساهمة في إقامة نظام دولي جديد على أسس من المساواة والمشاركة ليكون السلام رديفاً للعدل، حيث لا يمكن أن يكون هناك سلام بدون عدل(٤١).

وانطلاقاً من إيمان الأردن الراسخ بوحدة مصير الإنسانية، فقد واصل دعوته إلى ضرورة مضاعفة المجتمع الدولي جهوده من أجل إقامة عالم خال من العنف ومن الأسلحة النووية، على أساس التخلي عن سياسات المواجهة، والبحث عن توازن مقبول للمصالح وثقة وتفاهم متبادلين بين الشعوب.

الأردن وحركة عدم الانحياز

شارك الأردن في القمة التاسعة لحركة عدم الانحياز التي عقدت في بلغراد في أيلول ١٩٨٩، وأكد التزامه الكامل بمبادئ حركة عدم الانحياز التي أثبتت حيويتها وضرورتها لتحقيق التطور المتكافئ في إطار العلاقات الدولية، إذ كشفت الأحداث والتطورات التي يشهدها المجتمع الدولي، عن أهمية الحفاظ على دول حركة عدم الانحياز وسط التحديات المتزايدة في مواجهة الأخطار المستمرة التي تهدد استمرار التقدم والتنمية وخاصة في دول العالم الثالث.

ويؤمن الأردن أن حركة عدم الانحياز ما زالت تملك من أسباب القوة ما يجعلها قادرة على تخطيط دورها بما يتفق مع التحديات الجديدة، وذلك باتباع الأسلوب الذي يمكّن استمرارها في الدور الذي رسم لها منذ إنشائها، ويعتقد أن دور الحركة في حل المشاكل الداخلية بين أعضائها يجب أن يكون أكثر فعالية، ويقدر دور الحركة في دعم القضايا العربية بشكل عام والقضية الفلسطينية بشكل خاص، وقد التزم الأردن بجميع قرارات الحركة(٤٢).

الأردن ومنظمة المؤتمر الإسلامي

دأب الأردن دائماً على إعلاء قيم الإسلام الرفيعة، ومبادئه السامية، والالتزام بقواعده التي تقوم على التسامح والعدل والمساواة. ومن هنا فقد ساهم الأردن بالمشاركة في الدورتين الثامنة عشرة لوزراء خارجية المؤتمر الإسلامي التي عقدت في الرياض عام ١٩٨٩، والدورة التاسعة عشرة لوزراء خارجية منظمة المؤتمر الإسلامي التي عقدت في القاهرة عام ١٩٩٠.

وأكد الأردن من خلال الاجتماعات التي شارك فيها بأن الفهم العميق لواقع التحديات التي تواجهها الأمة العربية والإسلامية، أمر ضروري وخاصة في وقت أخذت فيه الدول التي لا يربط بينها دين أو لغة، مثل ما يجمع بين الأمة العربية والإسلامية من أواصر الأخوة والتراث والتاريخ والعقيدة والمصير بتوحيد جهودها وإمكاناتها لتأمين مصالحها المشتركة(٤٣).

ودعا الأردن إلى الاهتمام بالمشكلات والمآسي التي تعاني منها الدول الإسلامية مثل جمهورية بنغلاديش، وجمهورية السودان، حيث حلت الكوارث الطبيعية بهما وخلفت وراءها المآسي والأهوال، وضرورة تقديم العون والمساعدة لهذين البلدين، حتى يتمكنا من إعادة بناء ما لحق بهما من أضرار نتيجة كوارث الفيضان(٤٤). وشدد الأردن على ضرورة الانتباه إلى التحديات الثقافية والفكرية والدعائية التي تتعرض لها العقيدة الإسلامية، ومحاولة مواجهة مثل هذه التحديات بتوحيد المواقف والتنسيق الكامل حتى لا يتبعثر الجهد

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) كلمة وزير خارجية الأردن في الدورة العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٩٠، منشورات وزارة الخارجية الأردنية. عمان.

(٤٢) مقابلة مع السيد أمين عام وزارة الخارجية، المرجع السابق.

(٤٣) كلمة وزير خارجية الأردن في المؤتمر الإسلامي الثامن عشر في الرياض ٨٩/٣/١٦. منشورات وزارة الخارجية، عمان.

(٤٤) المصدر نفسه.

ويضيع الهدف[٤٥]

وذكّر الأردن خلال الدورة الثامنة عشرة بمناسبة مرور ما يزيد على عشرين عاماً على تأسيس المنظمة، بحلول الوقت لاجراء مراجعة شاملة لعمل المنظمة وأدواتها بهدف تطوير وتعزيز فعاليتها وكفاءتها، ولتجنب الازدواجية والتداخل اللذين يعيقان عملها، وبما يتلاءم مع الأهداف التي تعلقها عليها الدول الإسلامية، وبما يمكّن المنظمة من القيام بدور طليعي ومؤثر في المحافل الدولية وفي خدمة القضايا الإسلامية المصيرية[٤٦].

ودعا الأردن إلى ضرورة تعبئة الأمة الإسلامية لصفوفها وتوحيد جهودها، لمواجهة التغيرات الدولية والتحديات الجدية التي يفرضها عليها النظام الدولي الجديد، حتى لا تبقى الأمة الإسلامية على هامش الأوضاع المستجدة والتطورات المتلاحقة. وإنه من غير المعقول أن تراقب الأمة العربية والإسلامية الانفراج الدولي، وترحب به، دون إنجاز انفراج تام في العلاقات بين الأقطار العربية والإسلامية. كما لا يمكن الاستمرار في تجاهل محاولات استهداف المسلمين كأمة وكحضارة، وخاصة، الحملات التي تهدف إلى الحيلولة دون تمكن الأمة الإسلامية من اللحاق بركب العلم والتقدم[٤٧].

تحديات الدبلوماسية الأردنية في التسعينات

تطورت الدبلوماسية الأردنية خلال الأعوام الماضية على مختلف الأصعدة، الاقليمية والدولية، كي تتمكن من التعامل مع الواقع الدولي الجديد، وتستوعب التغيرات الجوهرية التي حدثت في أسس وطبيعة العلاقات بين مختلف الدول ولا سيما الكبرى منها في ظل سياسة الوفاق وانتهاء الحرب الباردة. وبلا شك أن الدبلوماسية الأردنية استفادت من تجارب الماضي، وأحسنت التصرف في تطبيقاتها العملية، ضمن الامكانات والموارد المتاحة. ذلك أن الدبلوماسية الحديثة لم تعد عملية اتصالات، وتنظيم علاقات، وجمع معلومات فقط، بل اصبحت عملاً مؤثراً في تخطيط السياسة الخارجية وتنفيذها، وإقامة العلاقات بين الدول على أسس قوية وسليمة تحافظ على مصالح كل منها، وتحقق المساواة فيما بينها، وتفتح المجال أمام نموها وتطورها[٤٨].

وتسعى الدبلوماسية الأردنية من منطلق ادراكها لحقائق التطورات الدولية إلى المبادرة في كل الشؤون العربية والعالمية، من أجل المشاركة والتأثير فيما يجري على الساحة الدولية، وبحيث لا تكون تابعة أو معزولة عن الأحداث الجارية في المجتمع الدولي، وساهمت الدبلوماسية الأردنية في تأسيس المنظمات على المستوى العربي والإقليمي وشاركت كذلك في كل المؤتمرات الدولية التي لها مساس بمصلحة الأردن والأمة العربية.

وفي ظل التطورات الحالية على الساحات الدولية والعربية، فإن من ابرز سمات العلاقات الدولية الراهنة، إعادة ترتيب للأولويات فيما يتعلق بالقضايا التي تحظى بالاهتمام العالمي، وتمسّ مصالح الأمة العربية. ومن هنا كان على الدبلوماسية الأردنية مواجهة هذه التحديات التي يحملها عقد التسعينات التي من أهمها:

١ - تبني سياسة التنمية المستقلة التي تقوم على الاعتماد على الذات، وتعبئة الموارد المتاحة، وتنمية الاعتماد المتبادل بين الأردن والوطن العربي. وهي وإن كانت سياسة طويلة الأجل إلا أنها سوف تساعد الأردن على التخفيف من التعرض للضغوط السياسية الخارجية، التي عادة ما تقترن بالمعونات الاجنبية، ذلك أن الأردن يؤمن بضرورة اعتماد العرب على أنفسهم في إطار كتلة واحدة متماسكة حتى تتمكن الأمة العربية من المحافظة على وجودها ومستقبلها ودورها، فلا قوة لأي دولة عربية خارج إطار التضامن، لأن قوة كل دولة تكمن في اتحاد المجموعة وتماسكها. حيث انه في ضوء انتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب، والتحولات العميقة التي جرت في الاتحاد السوفياتي، وهي تقود إلى ما يشبه الاندماج بين أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية. مما يعني تبدلاً تاماً في السياسات الخارجية، وانتفاء للتنافس الذي تقوم عليه القوة العسكرية بين المعسكرين ليحل محله التنافس الاقتصادي والتكنولوجي[٤٩]، وهذا يعني طغيان العامل

(٤٥) المصدر نفسه.

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) كلمة وزير خارجية الأردن في المؤتمر الإسلامي التاسع عشر في القاهرة ٣١/٧/٩٠ منشورات وزارة الخارجية الأردنية. عمان.

(٤٨) Harles O. Lerche and Abdul A-Said «Diplomacy-Political Technique For Implementing Foreign Policy». In Elmer Plishke (ed), *Modern Diplomacy*, N.Y American Enterprise Institute 1979, pp. 20-21.

(٤٩) كلمة جلالة الملك الحسين في مؤتمر القمة العربي الطارئ في بغداد، ١٩٩٠.

الاقتصادي على العالم السياسي، وسيادة نمط تعاوني في العلاقات الدولية على المستوى العالمي. ويستدعي ذلك الدول العربية التعامل مع مشاكلها الاقتصادية من خلال إطار جماعي عربي يضمن قدرة الأمة على مواجهة التكتلات الدولية الاقتصادية الكبرى التي يتجه الاقتصاد العالمي إلى تكوينها في أوروبا وأمريكا وشرق آسيا(٥٠).

٢ ـ **التوجيه الديمقراطي:** إذا استطاع هذا التوجيه أو قدّر له أن يستمر في عقد التسعينات، فإنه يشكل فرصة وتحدياً في آن واحد، فهو فرصة لصانع القرار لكي يتكيف مع المتغيرات الديمقراطية التي تجتاح العالم، وتعمق من الممارسة الديمقراطية في الأردن، وذلك بإطلاق حرية تكوين الأحزاب، وتغيير قانون الانتخاب بما يتلاءم مع التعددية السياسية، واجراء التعديلات اللازمة على القوانين والأنظمة بما يتلاءم والميثاق الوطني الذي وضع ليكون بمثابة إطار مرجعي لتوضيح الكثير من المسائل التي ترتبط بالمسيرة الديمقراطية، ومستقبل الأردن السياسي والاقتصادي.

إن تعميق الممارسة الديمقراطية، وتجذيرها بصورة عقلانية وسليمة، بحيث يكون لهذه الممارسة مصداقية أمام العالم، يجعل الأردن قادراً على الاستمرار في تقديم نموذج يحتذى في الوطن العربي، ويجعل الدبلوماسية الأردنية أكثر مصداقية(٥١)، ويقوي من قدرة الأردن على مواجهة التحديات ويعطيه دوراً هاماً في الدعوة إلى الوحدة العربية وقيادتها، ويضفي المزيد من الشرعية على نظام الحكم، الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من الاستقرار السياسي والأمني. ويعطي ذلك كله دافعاً للدبلوماسية الأردنية على المستوى الدولي، للمطالبة بالاحترام غير المقيّد وغير المشروط لحقوق الإنسان وحرياته الأساسية، بما في ذلك الحق الثابت للشعوب في تقرير مصيرها، وفي اختيار انظمتها ومؤسساتها السياسية في سلام واستقرار وعدل، على أساس مبادئ السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية.

٣ ـ **هيكل النظام الدولي الجديد:** إن عمليات التغير في خلال الفترة القصيرة الماضية، وما يجري من تغيرات على اعتاب هذا العقد، تنبئ بمولد نظام جديد سوف تترسخ فيه تبدلات وتحولات جوهرية، ويرتب ذلك على صانع القرار والدبلوماسية الأردنية أن يكون قادراً على التعامل معها، والتخطيط لإنشاء علاقات مع القوى الجديدة، تتصف بالقوة والمتانة.

إن الدول التي لم تشارك في صنع هذا النظام، سوف تجد نفسها شاءت أم أبت تدور في إطاره وتتأثر به. وهذا يضع الدول الصغرى وخاصة التي ينتمي إليها الأردن في أحد موقفين: إما الإسهام في صياغة هذا النظام والتأثير عليه أو السعي إلى التكيف مع البيئة الجديدة التي تفرضها هذه التحولات. وقد أشار جلالة الملك الحسين إلى خطورة هذه المرحلة وضرورة الإعداد لها، ويأتي لقاؤنا اليوم والوطن والأمة يسيران على منحنى تاريخي في غاية الدقة والخطورة، حيث يترتب على كيفية اجتيازه، نجاحاً أو فشلاً لا قدر الله، مصير هذا الوطن وقدرته على التعامل مع النظام العالمي الجديد والأخذ في التشكّل والتبلور، إذ لا يوجد دولة واحدة في هذا العالم مهما بلغ حجمها، وعظمت مقدرتها تستطيع أن تعيش في عزلة عنه أو في منأى عن التأثر بدوله الأخرى. والتي تنتظمها جميعاً شبكة من العلاقات المعقدة يمليها الاعتماد المتبادل الذي تفرضه على كل دوله سواء رغبت أو لم ترغب أن تتفاعل مع الآخرين أخذاً وعطاء(٥٢).

وعلى ضوء ذلك، فإن الأردن والدول العربية مدعوة جميعاً في ظل الأوضاع المتردية التي تعيشها إلى التخطيط والإعداد للتعامل مع عقد التسعينات الجديد بما تملكه من أجل تعظيم فرصته للاستفادة من التطورات الايجابية التي يمثلها العقد الحالي، وفي الوقت ذاته تقليل الأثر السلبي للتحديات التي تمليها التطورات السالبة في هذا العقد. يفتح هذا العقد ككل تطوراً جديداً وفرصاً جديدة، على الدبلوماسية الأردنية أن تستغلها وتنميها بما يحقق مصالحها، كما أنه يقرر تحديات، عليها الإعداد العلمي للتعامل معها سواء كانت على مستوى تطور العلاقات الدولية ونظامها العالمي من جهة، والعلاقات الإقليمية في الدائرة التي ينتمي إليها الأردن بحكم الجغرافيا والتاريخ والثقافة من جهة أخرى.

٤ ـ **تحقيق السلام:** يؤمن الأردن بأن السلام يتفق ومنطق العصر ويستجيب لمتطلبات التنمية والاستقرار، وأن السلام كي يستمر لا بد أن يكون شاملاً وعادلاً، وهذا يتطلب

---

(٥٠) ابراهيم سعد الدين عبد الله، التنمية المستقلة والتغيرات الدولية المعاصرة. «**المستقبل العربي**»، ١٥٧، آذار ١٩٩٢ ص ١٨.

(٥١) مقابلة مع الدكتور عبد الله النسور، المرجع السابق.

(٥٢) كلمة جلالة الملك الحسين في المؤتمر الوطني العام لإقرار الميثاق الوطني، **الرأي**، عمان ٩١/٦/١٠.

(٥٣) جلالة الملك الحسين في مقابلة تلفزيونية مع شبكة ايه بي سي الأمريكية منشورة في صحيفة **الرأي**، عمان ٩١/٧/٧ ص ٢٤.

السعي للقضاء على جذور الصراع من أساسها. إن منطقة الشرق الأوسط أكثر مناطق العالم توتراً وعدم استقرار. وما لم تنجح عملية السلام التي تعد شرطاً أساسياً لتحقيق الاستقرار والتنمية، فإن المنطقة ستبقى مهددة بخطر الحرب والدمار.

وقد حدد الأردن على لسان جلالة الملك الحسين العناصر الأساسية لإقامة سلام عادل وشامل في المنطقة، وهي تتلخص في مبادئ الأرض مقابل السلام وعدم جواز ضم الأراضي بالحرب وفق قرار مجلس الأمن ٢٤٢، وحق الفلسطينيين على ترابهم الوطني، والأمن للجميع، وشمولية الحل بانتهاج أسلوب شامل يحقق السلام للجميع وليس فقط للأراضي المحيطة باسرائيل ولكن للمنطقة بأشملها[٥٣]. ويؤمن الأردن بالتسوية الشاملة التي تتعدى الأردن وسوريا ولبنان ومصر واسرائيل لتشمل المنطقة بأسرها والعالم، وهذا يحتاج كما يقول الملك الحسين إلى دبلوماسية هادئة ومحاولة خلق عملية تعليم لفوائد السلام من أجل حصر الفجوات القائمة. والأردن ملتزم بقضية السلام العادل والدائم، فقد نادى به باستمرار منذ زمن طويل[٥٤].

وكان الأردن أول من بادر إلى تحريك الجهود الدبلوماسية الرامية إلى ارساء دعائم السلام في المنطقة، وإلى التأكيد على ضرورة التعامل مع القضية الفلسطينية بطرق أكثر جدوى وجدية. ومن هنا فقد سارع الأردن إلى قبول وتأييد مبادرة الرئيس الأمريكي جورج بوش التي أطلقها في بيانه يوم ٦ آذار عام ١٩٩٠ عندما أعلن أن الوقت قد حان لانهاء الصراع العربي الاسرائيلي والمشكلة الفلسطينية، بإعمال الشرعية الدولية المتمثلة في قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨. وقد قرر الأردن المشاركة في المفاوضات التي بدأت في مؤتمر مدريد في تشرين أول عام ١٩٩١ ولا زالت مستمرة حتى الآن في واشنطن. وهذا يجعل الدبلوماسية الأردنية ملتزمة بحشد الطاقات وتعبئة الموارد ووضع الخطط بالتعاون مع أطراف النزاع من أجل إنجاح العملية وتحقيق أهدافها المنشودة في إقرار الأمن والسلام.

٥ ـ تحقيق الوفاق القومي بين جميع الدول العربية:
بالرغم من الخلافات والاجتهادات المتباينة وخاصة التي سبقت أزمة الخليج أو تمخضت عنها. فإن الأردن دأب، ولا يزال، على رأب الصدع العربي، وتقوية العلاقات العربية، وقد كانت عمان مكاناً لعقد قمة الوفاق والاتفاق في ١٩٨٧/١١/٨، والتي أجمع القادة العرب فيها على تجاوز خلافاتهم وعلى إزالة أسباب العجز وعوامل التمزق والانقسام، واعتماد التضامن العربي قاعدة أساسية لعمل عربي مشترك هدفه تجسيد وحدة موقفهم وبناء قدرات الأمة العربية وتوفير عناصر القوة والمنعة لها.

إن التحديات التي تتعرض لها الأمة العربية في الحاضر والمستقبل، وخاصة المشاكل العربية الأساسية التي ما زالت دون حل جذري، والتي قد تجعل المنطقة عرضة للحروب، واحتمالات التدخل الأجنبي، كما حدث في أزمة الخليج، يستدعي التحرز والاحتياط لمواجهة أية محاولة للنيل من الأمة أو الاعتداء عليها والمساومة على حقوقها من قبل القوى الأجنبية. ويؤمن الأردن بأن مواجهة مثل هذه التحديات، لا يكون إلا ببناء القوة الذاتية والتضامن العربي، والنشاط الدبلوماسي الذي يسعى لتنقية الأجواء وتحقيق الدعم للقضايا العربية.

الخاتمة

في ضوء ما سبق، وعلى الرغم مما يقوله البعض[٥٥] من أن الدبلوماسية الأردنية لم تكن قادرة على تحقيق شيء وظلت قاصرة عن القيام بدورها المطلوب وخاصة إبان أزمة الخليج وبعدها، إلا أنه يمكن القول بأن الدبلوماسية الأردنية، وعلى رأسها جلالة الملك الحسين، بذلت جهوداً كبيرة وحققت تقدماً ملموساً خلال السنوات الماضية، وقامت بدور رئيسي في تطوير العمل العربي المشترك والدفاع عن القضية العربية، ومحاولة المحافظة على وحدة الموقف العربي واستقلال الشخصية العربية في الإطار الدولي. ولكن يجب أن ندرك أن الأردن وضمن الإمكانات والموارد المتاحة وهي محدودة جداً وفي ظل ظروف الصراع العربي ـ الاسرائيلي، ونتائجه السلبية على واقع الأوضاع السياسية والاقتصادية في الأردن، قد تحمّل أعباء جسيمة وأكبر من طاقاته، ولعب دوراً أساسياً في تفاعلات النظام العربي المعاصرة وخاصة في مواجهة اسرائيل، ومواجهة الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفياتي، والسعي لتعبئة ضغط عالمي على اسرائيل لتصفية آثار نكسة عام ١٩٦٧ ودفع فكرة المؤتمر الدولي للسلام ومحاولة التمهيد لعقده.

ويمكن القول بأن مستقبل الدبلوماسية الأردنية خلال العقد القادم سيكون محصلة للتعامل بين عدد من المتغيرات الداخلية (القدرات الاقتصادية، القدرات العسكرية، التطور الديمقراطي

(٥٤) جلالة الملك الحسين في مقابلة مع صحيفة **النيويورك تايمز**، منشورة في صحيفة **الدستور**، عمان ٩٠/٨/٢١، ص ١٦.

الخ...) والمتغيرات الإقليمية (مدى القوة والتماسك في النظام العربي، مستقبل الدور الاسرائيلي في المنطقة، نتائج مفاوضات السلام بين الدول العربية واسرئيل، مستقبل دور دول الجوار الجغرافي إزاء الأردن). فالأردن والمنطقة على عتبة مرحلة جديدة، تحمل تحولات جذرية وعميقة وتحديات كثيرة تفرض على الدبلوماسية الأردنية مسؤولية التصدي لها بحكمة ووعي كبيرين.

ولعل في توجيهات جلالة الملك الحسين للحكومة حين كان يتحدث عن المرحلة القادمة خير هادٍ للدبلوماسية الأردنية «ومن هنا سوف تحرص حكومتي على التعامل مع المرحلة بمزيد من الشجاعة والحس بالمسؤولية والانضباطية والوعي حماية لهذا الوطن وأبنائه من أي خطر أو تآمر، وتعزيزاً لنهضته ومكانته وحرصاً على كرامته وأمنه وصوناً لأسباب بنائه وازدهاره. ولا بد من أن يدرك الجميع أن دور الأردن القومي التاريخي مستمر في حضوره وقد تحملنا في سبيله ما تحملنا من سوء فهم وحصار وقبلنا مواجهة التحديات في سبيل المبادئ التي دافع آباؤنا عنها وهم يندفعون برايات ثورة العرب الكبرى لتحرير الأمة، ودافع عنها جنودنا على أسوار القدس وعلى ضفتي النهر، وحين نتصدى اليوم لمعركة السلام فإننا نتذكر دائماً تضحيات الأجداد والآباء في مواجهة الظلم والعدوان والقهر من أجل العدل والسلام والحرية للوطن وكل أبنائه ومستقبل أجياله»[٥٦].

والخلاصة أن الأردن كدولة صغيرة ذات موارد محدودة لم تتوان عن أن تلعب دوراً بارزاً في نصرة القضايا العربية في محاولة التأثير على الساحتين العربية والدولية، وذلك بحكم موقعها الجغرافي الاستراتيجي، وبحكمة القيادة السياسية التي استطاعت أن تؤكد في كل المناسبات والأحداث أنها القادرة على أن تلعب دوراً متوازناً ومرناً في تحركاتها وعلاقاتها مع الدول العربية والأجنبية. هذا النمط المتوازن والمرن يمنح الدبلوماسية الأردنية زخماً كبيراً ويفسح لها آفاقاً أرحب في القدرة على التحرك ومواجهة الأحداث بعيداً عن استخدام القوة، وبأسلوب حضاري يكون قادراً على إحراز التقدم والاستقرار للأردن والمنطقة العربية. وإننا نقر بأن الدبلوماسية لم تكن لتلعب الدور المطلوب بدون قيادة جلالة الملك الحسين وتوجيهه لها، والمطلوب أيضاً أن تحاول الدبلوماسية الأردنية أن تدخل في مرحلة التخطيط لمواجهة الأحداث والتطورات بصورة أكثر وضوحاً وأن تنهج نهجاً أكثر اعتماداً على المؤسسية وأكثر قدرة على رصد الأحداث ومواجهتها.

(٥٥) مقابلة مع السيد الفرحان، رئيس لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الأمة الأردني عمان، ١٣/٨/١٩٩١.

(٥٦) كلمة جلالة الملك الحسين في الدورة العادية الثالثة لمجلس الأمة، **الرأي**، عمان ٢/١٢/١٩٩١م.

بحوث التاريخ العربي والإسلامي

دور الاباضية في نشر الإسلام في بلاد المغرب

د. آمال محمد حسن خليل

أستاذة التاريخ ـ كلية البنات ـ جامعة عين شمس

نشأة الإباضية

عمان[١] هي الموطن الأم للاباضية[٢] في العالم الإسلامي. والاباضية بمعناها الواسع: المذهب الإسلامي المستمدة أصوله من القرآن الكريم ثم الحديث والسنة الشريفة ثم الاجماع.

والمذهب الاباضي أقدم من اسمه حيث تميزت جذوره الفكرية والسياسية في السنوات الأخيرة من خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وحين قبل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب التحكيم وبايع المخالفون لرأيه في التحكيم عبد الله بن وهب الراسبي أميراً للمؤمنين سنة سبع وثلاثين للهجرة.

أما اسم إباضية[٣] فنسبة إلى عبد الله بن إباض[٤] الذي عاصر معاوية بن أبي سفيان (٤٠ ـ ٦١هـ) مؤسس الدولة

---

(١) ـ عمان شبه جزيرة في شرقي الجزيرة العربية وتتصل برا ببقية شبه الجزيرة العربية عن طريق السهل الساحلي أو عن طريق الوديان، كذلك تتصل شمالاً بالعراق والهلال الخصيب ولم يكن يفصلها عن العراق سوى البحرين.
انظر: د سيدة كاشف ـ **عمان في فجر الإسلام** ص ٨ القاهرة ١٩٧٩.

(٢) ـ فتح همزة (اباض) أو كسرها يختلف فيها الاباضية أنفسهم ففي عمان موطن ائمة وعلماء الاباضية يفتحون الهمزة، وبذلك تصبح النسبة إلى اباض (الأباضية).
انظر: أبا زكريا: **السير** ـ ص ٣١، ٤١ (تحقيق عبد الرحمن أيوب، تونس ١٩٨٥). د. سيدة كاشف: عُمان في فجر الإسلام، ص. ٧١.
انظر السمائلي ـ **أصدق المناهج** (تحقيق وشرح د. سيدة كاشف ـ القاهرة ١٩٧٩) ـ د. سيدة كاشف ـ **عمان في فجر الإسلام** ص. ٧١.
وفي شمال افريقية يكسرون الهمزة وبذلك تكون النسبة إلى إباض (الإباضية) أما أُباض كما جاءت في ياقوت، فهي بضم الهمزة وتخفيف الباء الموحدة، وألف وضاد معجمة، اسم قرية بالعرض ـ عرض اليمامة ـ لها نخل لم ير أطول منها، وعندها كانت وقعة خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ مع مسيلمة الكذاب.
انظر: **معجم البلدان** ج ١ ص. ٦٠ (دار إحياء التراث العربي ببيروت ـ لبنان ١٩٧٩).

(٣) ـ قال الشيخ الشماخي في **القول المتين** رداً على المخالفين (وأما تسمية مذهبنا بالاباضية... فلكون عبد الله بن اباض ـ رضي الله عنه ـ كان المجاهد علناً، المناضل في سبيل تحقيق الحقائق وتصحيح قضايا العقول فيما أحدثه أهل المقالات والبدع من الزور والافتراء في شريعة ربنا وكان شديداً في الله ـ تعالى ـ وله مناظرات مع أهل النطس والتفلسف كانت الحجة التي يخنس أمامها كل ثرثار).
انظر: السمائلي ـ **إزالة الوعثاء** ص ٥٠.
النطس: (نطس) ـ نطسا: أدق النظر في الأمور واستقصاها ـ النطيس: المدقق في نظر الأمور.
انظر: **المعجم الوسيط** مادة نطس... خنس: تخلف وتوارى.

(٤) ـ هو عبد الله بن اباض المقاعسي المري التميمي من بني مرة بن عبيد بن مقاعس.
انظر: ابن قتيبة: **المعارف** ص. ٦٢٢ (تحقيق د. ثروت عكاشة... ط ٤، دار المعارف... مصر ١٩٦٩) ـ المبرد: **الكامل** ج ٢ ص. ١٧٩ (ط ...١ مطبعة التقدم مصر ١٣٢٣هـ). البغدادي: **الفرق بين الفرق** ص. ٢٤ (تحقيق محمد محيي الدين عبد المجيد نشر مكتبة محمد علي صبيح... مصر د. ت) ـ البغدادي: **مختصر كتاب الفرق** ص. ٨٨. (اختصار عبد الرازق بن رزق الله... مطبعة الهلال مصر ١٩٢٤).
الشهرستاني: **الملل والنحل** ص. ٢٤٤ (تحقيق محمد بن فتح الله بدران، القسم الأول ط ١ مطبعة الأزهر ١٩٤٧)... الرازي: **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين** ص. ٦٤ (تحقيق طه عبد الرؤوف، مصطفى الهواري ـ القاهرة ١٩٧٨) ـ ابن رسته: **الأعلاق النفيسه** ص. ٢١٧ (ج ...٧ مطبعة بريل ليدن ١٨٩١)... الباروني: مختصر تاريخ الاباضية ص ١٧ (مطبعة الإرادة... تونس ١٩٣٨)... السمائلي: **أصدق المناهج** ص. ٢٠ (تحقيق د. سيدة كاشف. القاهرة ١٩٧٩)... الشماخي: **السير** ص. ٣٢ ـ ٣٣ (مخطوط في دار الكتب تحت رقم ١٠٩٨٢ ـ ٨٢٩٥ح).

الأموية وعبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ)[٥] مؤسس الدولة الأموية الثانية[٦].

وقد عاصر عبد الله بن اباض فقيه الاباضية الإمام التابعي جابر بن زيد[٧] (٢١ ـ ٩٣هـ) إلا أن ابن اباض اشتهر بأنه كان (مدافعاً عن الحق، مناضلاً لأهل السوء، معترضاً للباطل عن الانتشار والإشاعة في بلاد المسلمين، محامياً عن أهل الحق، مناصراً لهم، سيفاً ماضياً لا يثنى عن رد الباطل، ولا يقصر في مناصرة حق حد استطاعته)[٨].

وكان الاباضية قبل انتسابهم إلى عبد الله بن اباض يصفون أنفسهم باسم (الجماعة المؤمنة المسلمة) أو (المسلمين) أو (جماعة المسلمين) أو (أهل الدعوة)، وكانوا يقبلون تسميتهم (المحكِّمة) لأنهم أبوا تحكيم الرجال في الدين، وقالوا: (لا حكم إلا لله) كما تسموا (بأهل الاستقامة) وتسموا باسم (الوهبية) نسبة إلى عبد الله بن وهب الراسبي.

كذلك كان الاباضية يسمون باسم (الشراة) من قولهم: (شرينا أنفسنا لدين الله، فنحن الشراة أو من الآية القرآنية الكريمة ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتَلون وعدا عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[٩].

العوامل التي أدت إلى انتشار المذهب الاباضي في المغرب العربي

أثرت دعوة الاباضية تأثيراً كبيراً في البربر وذلك لتعلقهم بالعدل والمساواة وحبهم للحرية. فقد كانت الظروف في بلاد المغرب مهيَّأة لتقبل المذهب الاباضي، إذ كانت بلاد المغرب ـ كغيرها من البلاد الإسلامية ـ تعاني من الفتن السياسية الناجمة عن الخصومات القبلية بين القيسية واليمنية، فعرب الفتح الذين استقروا في المغرب كانوا من اليمنية وهم الذين آزروا موسى بن نصير خلال ولايته التي استمرت حتى عام (٩٦هـ)... وعندما عزل الخليفة سليمان بن عبد الملك[١٠]، موسى بن نصير، ولى محمد بن يزيد القرشي وكان قيسياً، قام هذا الوالي ـ وبتحريض من الخليفة ـ بتصفية آل موسى،

(٥) ـ القلهاتي: **الكشف والبيان** ج ١ ص ٢٠.

(٦) ـ اضطرب المؤرخون في سيرة ابن اباض وتاريخ وفاته، فمصادر الاباضية اعتبرته من المعاصرين لمعاوية بن أبي سفيان، وحتى أواخر عصر عبد الملك بن مروان، بينما نسبته المصادر الأخرى إلى عهد الخليفة مروان بن محمد الذي بويع له بالخلافة سنة ١٢٧هـ.
انظر المسعودي: **التنبيه والإشراف** ص. ٢٨٣ (تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي... طبع دار الصاوي ـ القاهرة ١٩٣٨) ـ الشهرستاني: **الملل والنحل** ص. ٢٤٤ ـ الرازي: **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين** ص. ٦٤.
وحول هذا الخلال يقول الزركلي: عده الشماخي في التابعين، وقال: (كان على ما حفظت ممن خرج إلى مكة لمنع حرم الله من مسلم بن عقبة المري عامل يزيد ابن معاوية، وكان كثيراً ما يبدي النصائح لعبد الملك بن مروان. وفي حفظي أنه يصدر في أمره عن رأي جابر بن زيد) وعده محمد بن زكريا الباروني في مقدمة النصف الثاني من المائة الأولى للهجرة بعد جابر بن زيد. وقال القلهاتي وهو من مؤرخي الاباضية كالشماخي والباروني (نشأ في زمان معاوية بن ابي سفيان وعاش إلى زمان عبد الملك بن مروان وكتب إليه بالسيرة المشهورة).
وفي هامش على الأغاني لم يذكر مصدره (خرج بن اباض في أيام مروان بن محمد وهذا وهم، فقد مات قبل أيام مروان بأربعين عاماً وانتشر مذهبه قديماً في بربر المغرب. قال ابن خطيب: (رغب الاباضيون من البربر في موادعة روح بن حاتم إلى أن توفي، وكانت وفاة روح سنة ١٧٤هـ، وعرف مذهب ابن اباض باسمه قبل هذا التاريخ... وقال الذهبي (ان عكرمة كان يرى رأي الاباضية وتوفي سنة ١٠٥ هـ.
انظر: **الأعلام** ج ٤ ص. ١٨٤ ـ ١٨٦ (١٠ أجزاء ط ٢ ـ القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩م).

(٧) ـ كان جابر بن زيد من كبار التابعين، أدرك سبعين صحابياً من أهل بدر. وكان عبد الله بن العباس من أعظم أساتذة جابر، كما أخذ عن عائشة أم المؤمنين، وقد تعمق في دراسة القرآن والحديث وعلوم الشريعة الإسلامية وقضى معظم حياته العلمية في البصرة، وفي النصف الثاني من القرن الأول الهجري ألف موسوعته العلمية النفيسه التي عرفت (بديوان جابر). ولم يقتصر نشاطه على الفقه والاستزادة من العلم، أو على التأليف والتعليم، بل كان يعمل للرجوع بالدولة الإسلامية إلى نهج أبي بكر وعمر وعثمان في سني خلافته الأولى وعلي بن أبي طالب قبل التحكيم. وكان يحض تلاميذه على العمل على قيام الإمامة العادلة المبنيّة على الأصول الصحيحة للإسلام... وحين توفي جابر بن زيد حمل تلميذه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي البصري رسالته الدينية والسياسية وأخذ في تنظيم الحركة الاباضية التي انتصرت في عمان ـ موطن جابر بن زيد ـ وقامت الامامة فيها... انظر السمائلي: **إزالة الوعثاء** ص. ٢ ـ ٣.

(٨) المصدر نفسه ص. ٥٥.

(٩) ـ سورة التوبة الآية ١١١.

(١٠) ـ تولى الخلافة من سنة (٩٦ ـ ٩٩هـ).
وانظر الكندي: **الولاة والقضاة** ص. ٦٦، ٦٧.

إذ تتبعهم وبطش بهم واستولى على أموالهم وأودع عبد الله ابن موسى السجن وفرض عليه ما لا يطيق من المغارم وعذبه حتى مات.

ثم عاد نفوذ اليمنية في ولاية يزيد بن أبي مسلم (١٠١ ـ ١٠٣هـ) فسجن يزيد بن محمد وعذبه، انتقاماً لما لقيته اليمنية على يديه من عسف واضطهاد، وبعد موت يزيد بن أبي مسلم تولى بشر بن صفوان[١١] وكان من غلاة اليمنية، فاستمر في اضطهاد القيسية وقام قبل موته بتعيين نقاش بن قرط الكلبي المغربي، امعاناً في اذلال القيسية.

وحين ولى الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) عبيدة بن عبد الرحمن القيسي ولاية المغرب، قام بتتبع عمال موسى بن نصير حتى استأصل شأفتهم، واستمرت المحنة في عهد عبد الله بن الحبحاب الذي تقلد ولاية المغرب سنة ١١٦هـ.

وبالإضافة إلى انشغال الولاة بالخصومات القبلية فقد تنافسوا على جمع الأموال إرضاء للخلافة من جهة، وكسباً للانصار وإشباعاً لنهمهم من جهة أخرى، فأرسلوا الحملات إلى أطراف المغرب بهدف السلب والنهب، وكان البربر يشكلون غالبية تلك الجيوش.

وقد عانى البربر من سوء معاملة عمال الأمويين لهم، وإرهاقهم بالمغارم والجبايات إلى درجة أن اعتبر بعضهم بلاد المغرب دار حرب، حتى بعد اعتناقهم الإسلام، جرياً على سياسة الخلافة الأموية في سائر الأمصار الإسلامية[١٢]. ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ـ (٩٩ ـ ١٠١هـ) ـ ولى المغرب إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم[١٣]، في محاولة منه لوضع حد لتسلط الولاة، واستعادة ثقة البربر في الخلافة الإسلامية.

أمر إسماعيل بن عبيد الله بإسقاط الجزية عن من أسلم من البربر وتحرير من استرق من نسائهم، كما أمره بإقرار القرى في يد غنامها، بعد أخذ الخمس لتؤول الأرض إلى أصحابها فيجنوا ثمارها، ويدفعون عنها خراجها المعلوم، كما حرص الخليفة على أن يجمع إسماعيل بن عبيد الله بين أعباء الإدارة والحرب، إلى جانب جمع الخراج والصدقات ليحول دون جور الجباة واستبدادهم، لكن هذه السياسة انتهت بوفاته[١٤].

فعندما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة[١٥]، ولى يزيد بن أبي مسلم سنة (١٠٢هـ) فاستبد بالبربر، وقضى على الاصلاحات التي أنجزها سلفه، فأعاد فرض الجزية على من أسلم من الموالي، ليتسنى للخلافة الحصول على مزيد من الأموال والتنصل من دفع مزيد من الأعطيات للجند المسلمين من الموالي، واشتط في معاملة البربر، لدرجة أنه كان يشم حرسه من البربر على أيديهم، فكان يشم الرجل في يده اليمنى باسمه، وفي اليسرى بكلمة حرس[١٦]، وجرى عبيدة بن عبد الرحمن على سياسة العنف هذه.

وتفاقمت الأحوال وازدادت سوءاً خلال ولاية عبد الله بن الحبحاب[١٧] الذي أسرف في سياسته، فجند الجيوش لسلب

(١١) ـ ولي مصر قبل يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١هـ، ثم ورد إليه كتاب يزيد بتأميره على افريقية سنة ١٠٢هـ ثم ولاّه هشام بن عبد الملك على افريقية حتى توفي بالقيروان سنة ١٠٩هـ.
انظر البلاذري: **فتوح البلدان** ص. ٢٧٤ (مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان ـ مصر ١٩٥٩م) ـ الكندي: **الولاة والقضاة** ص. ٧٠ ـ ٧١.

(١٢) ـ ابن عبد الحكم: **فتوح افريقية والأندلس** ص. ١٠٦ ـ ١١٨ (الجزائر. ١٩٤٢). د. سعد زغلول: **تاريخ المغرب** ص. ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ـ د. محمود إسماعيل: **الخلافة والخوارج** ص. ٢٨ ـ ٢٩ (دار العودة... بيروت ١٩٧٦).
محمد علي دبوز: **تاريخ المغرب** ج ٢ ص. ١٧٠، ٢٠٧، ٢١٦، ٢٢١، ٢٣٢، ٢٣٤ ـ ٢٣٥ (ط ١... مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ مصر ١٩٦٤).

(١٣) ـ البلاذري: **فتوح البلدان** ص. ٢٧٣.

(١٤) ـ ابن عبد الحكم: المصدر السابق ص. ١٠٨...، البلاذري، المصدر السابق ص. ٢٧٣.
د. سعد زغلول. ـ المرجع السابق ٢٣٥ ـ ٢٣٦، ٢٣٨ ـ د. محمود إسماعيل المرجع السابق ص ٢٩ ـ ٣٠.

(١٥) ـ يزيد بن عبد الملك بن مروان: ولي الخلافة بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١هـ وتوفي سنة ١٠٥هـ.
انظر السيوطي: **تاريخ الخلفاء** ص. ٢٤٧ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ ط ١ مصر ١٩٥٢).

(١٦) ـ يقول البلاذري: (لما ولي يزيد بن عبد الملك، ولى يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف افريقية والمغرب... فقدم افريقية في سنة اثنتين ومائة، وكان حرسه من البربر فوشم كل امرىء منهم على يده حرس، فانكروا ذلك وملوا سيرته، فدب بعضهم إلى بعض وتضافروا على قتله، فخرج ذات عشية لصلاة المغرب، فقتلوه في مصلاه).
انظر فتوح البلدان ص. ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(١٧) ـ ولاه هشام بن عبد الملك افريقية سنة ١١٦هـ وقتل سنة ١٢٣هـ.
انظر ابن عبد الحكم: **فتوح افريقية والأندلس** ص. ١٢٠.

البربر وسبيهم في أقاصي المغرب، ونشر الهلع والرعب في تلك المناطق، وعين ابنه إسماعيل على طنجة، وجعل معه عمر بن عبد الله المرادي فأساء السيرة، واعتبر البربر فيئاً ـ أسلموا أم لم يسلموا ـ وعاملهم معاملة الرقيق.

وهكذا تسبب الولاة الأمويون في المغرب في إثارة مشاعر الحقد والكراهية عند البربر على الولاة والخلفاء على السواء، مما أوجد مناخاً ملائماً لانتشار المذهب الإباضي(١٨)، ولذلك سار الإباضيون في اتجاهين يكمل أحدهما الآخر:

الاتجاه الأول: علمي سياسي يهدف إلى توضيح مبادئهم، وتمثل ذلك في تبادل الرسائل بين ابن إباض والمخالفين لآراء الإباضية يبين فيها موقف الإباضية من المخالفين لهم وفلسفتهم وفكرهم السياسي. وبعد ابن إباض يظهر هذا الاتجاه في مدرسة البصرة الإباضية، بزعمائها الذين عكفوا على تعليم المذهب لأهل جماعتهم، والتأليف فيه.

أما الاتجاه الثاني: فهو الاتجاه العلمي، الذي تمثل في الخروج على الأمويين ومحاولة إيجاد سلطان فعليّ لهم يعلون به مذهبهم، ويحملون المجتمع على العمل بمبادئه، وكان هذا الاتجاه تحت رعاية الاتجاه الأول(١٩).

وأول من دعا إلى المذهب الإباضي في افريقية سلمة بن سعد بن علي بن أسد الحضرمي وذلك في أوائل المائة الثانية من الهجرة، وكان سلمة شديد التمسك بالمذهب الإباضي فيؤثر عنه قوله: «وددت أن يظهر هذا الأمر بالمغرب يوماً واحداً من غدوة إلى الليل فما أبالي أن يضرب عنقي»(٢٠).

وقد طاف سلمة بن سعد جميع بلاد المغرب الإسلامي، وكان يرى أنه يجب على المسلمين أن ينتقدوا الانحراف، وينهوا عن المنكر، ولكنه لا يتعجل الثورة، ولا يدعو إلى رفع السلاح، إلا حينما يكون في ذلك مصلحة الأمة.

وكان يقصر عمله على ناحيتين، الأولى: أن يبين للناس أن ما يرون في سلوك الأفراد الحاكمين ليس هو ما جاء في دين الله، وأن هؤلاء الحكام قد خالفوا أمر الله في عباد الله، وأموالهم، ودمائهم، وأنه يجب على أفراد الأمة أن يتمسكوا بدين الله، وأن يعملوا به في أنفسهم فإن صانوه في أنفسهم صانوه في نظامهم.

أما الناحية الثانية: فكان يتخير الشباب الذين يتوسم فيهم الصفاء والذكاء والنبوغ، ويدعوهم إلى السفر إلى المشرق، لاستكمال دراستهم على كبار تابعي التابعين الذين تمتلىء بهم العواصم الإسلامية في المشرق، واستمر سلمة يدعو إلى التفقه في الدين وفهمه فهماً صحيحاً، من المؤمنين الصادقين، وكان يدعو الناس إلى السفر إلى منازل الوحي وإلى مرابع الإسلام حيث ثبت واستقر في قلوب المؤمنين، وانعكس على سلوكهم، فكانوا مظهراً حقيقياً له (٢١).

حملة العلم الخمسة

كوّن سلمة بن سعد بعثة من أربعة طلاب للسفر إلى البصرة وهم:

(١) إسماعيل بن درار الغدامسي... من غدامس جنوبي طرابلس.

(٢) أبو داود القبلي النفزاوي... من نفزاوة جنوبي تونس.

(٣) عاصم السدراتي... من غرب الأوراسي.

(٤) عبد الرحمن بن رستم... من القيروان.

توجه هؤلاء إلى البصرة حيث انضم إليهم عبد الأعلى بن السمح أبو الخطاب الحميري اليمني وقد عرفوا بحملة العلم الخمسة حيث ظلوا في صحبة أبي عبيدة مسلم يتلقون العلم على يديه ويعدون العدة للظهور.

وكانت الدعوة الإباضية في تلك المرحلة تمر بمرحلة الكتمان، فكان الشيخ أبو عبيدة مستخفياً متخوفاً من بعض أمراء البصرة، فأدخلهم سرداباً وجعل فيه سلسلة فصار يعمل القفاف بباب السرداب فمتى رأى شخصاً مقبلاً حرك السلسلة فيسكتون فإذا انصرف فيأخذون في عزمهم(٢٢).

دور الإباضية في نشر الإسلام في المغرب

كان الفضل الأكبر لانتشار الإسلام بتأثير الدعاة الإباضية

(١٨) ـ المصدر نفسه ص. ١١٨ ـ د. محمود إسماعيل: **الخلافة والخوارج** ص ٣٠ ـ محمد علي دبوز: **تاريخ المغرب الكبير** ج ٢ ص. ٢١٩.

(١٩) ـ السمائلي: **إزالة الوعثاء** ص. ٦٤، ٦٥، ٨٣ ـ ١٠٠ ـ السمائلي: **الحقيقة والمجاز** ص. ٤١ (سلطنة عمان ١٩٨٠) ـ رفعت فوزي عبد المطلب: **الخلافة والخوارج** ص. ٢٢ ـ ٢٣ (ط ١... القاهرة ١٩٧٣).

(٢٠) ـ أبو زكريا: **السيرة** ص. ٤٢ ـ الزاوي: **تاريخ الفتح العربي** ص. ١٢١ (٢٧.... دار المعارف مصر ١٩٦٣) ـ د. سعد زغلول عبد الحميد: **تاريخ المغرب** ص. ٢٨٨ ـ ٢٨٩ (دار المعارف الاسكندرية ١٩٦٤).

(٢١) ـ علي يحيى معمر: **الاباضية في الجزائر** ص. ١٥، ٢٣ ـ ٢٤ (ط ١... القاهرة ١٩٧٩م).

(٢٢) ـ أبو زكريا: **السيرة** ص. ٥٧ ـ ٥٩... السمائلي: **إزالة الوعثاء** ص. ٥٧ ـ ٥٨ الزاوي: **تاريخ الفتح** ص. ١٢١.

فقد كان لهم أكبر الأثر في انتشار الإسلام في ربوع القارة الافريقية، وفي تشرب البربر لتعاليم الإسلام وأخذهم لها مأخذ الجد، وقد أدى هذا إلى أن أصبح البربر يقرأون القرآن الكريم لا بلسانهم فقط بل ليتعبدوا ويتفكروا فيما جاء به، لهذا نادوا كما أمرتهم الشريعة الإسلامية، بأنه لا فضل لعربي على آخر، ولا فضل له على الأعجمي إلا بالتقوى[٢٣].

وقد تكاتفت جهود الإباضية لنشر الإسلام بين المغاربة، ففي الوقت الذي كان فيه سلمة بن سعد يعمل على تكوين بعثة علمية كان محمد بن عبد الحميد بن مفطير الجناني من جبل نفوسة قد رحل إلى البصرة يأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم وعلماء البصرة وعاد ابن مفطير إلى وطنه حيث ظل يعمل على التدريس والفتوى حتى رجعت بعثة العلم إلى المغرب فأمسك عن الفتوى متنازلاً عنها لحملة العلم[٢٤].

مكث حملة العلم الخمسة في صحبة أبي عبيدة خمس سنوات، وعند عودتهم إلى بلادهم أشار عليهم أن يتولى إمامتهم أبو الخطاب عبد الأعلى، كما أنه كان قد أعلن إسماعيل بن درار الغدامسي لتولي القضاء، فعلمه أصول الفقه والإفتاء وأوصاهم بمداومة الاتصال به، واستفتائه فيما يعن لهم من مسائل وإخباره بنشاطهم أولاً بأول[٢٥] حيث اعتبر الإباضية بلاد المغرب أرض جهاد لقيام الإمامة الإسلامية ونشر الإسلام[٢٦].

وبدا ذلك واضحاً في جنوب المغرب، فاليعقوبي في كلامه عن زويلة[٢٧] يقول عن أهلها: (وهم قوم مسلمون اباضية كلهم يحجون البيت الحرام وأكثرهم من زناتة)[٢٨] ويقول مؤلف الاستبصار: (وكلمة التوحيد والهداية في بلاد الصحراء متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة)[٢٩].

ويقول أبو الفداء عن غدامس[٣٠] «وأهلها قوم من البربر مسلمون، ولهم مسجد جماعة وليس لهم رئيس ومرجعهم إلى مشايخهم»[٣١].

كما أنشأ الإباضيون جماعات عربية إسلامية من التجار والزراع والصناع لنشر الإسلام[٣٢]. وقد أغفلت المراجع الحديثة الأجنبية والعربية دور الدعاة الذين شقوا طريقهم بين البربر منذ القرن الأول الهجري فاندسوا بين القبائل والأفراد في الجبال وفي السهول والمراعي والوديان ينشرون بين أهلها عقيدة الإسلام وفرائضه بالحجة والاقناع وبالمثل الصالح تحقيقاً لمبدأ أن يكون الإسلام دنيا وديناً.

وكان إغفال دور الدعاة أو التقليل من شأنه في تلك المرحلة أيضاً من تاريخ بلاد المغرب الإسلامي سبباً جعل المؤرخين العرب المعاصرين والأجانب لا يتوفرون على دراسة تاريخ الدولة المغربية المستقلة التي قامت بفضل الدعاة، وما كان لها من فضل في نشر الإسلام، والعروبة، وفي المشاركة الجادة في الحضارة الإسلامية[٣٣].

وعلى هذا اعتبر المؤرخون العرب المعاصرون، وكذلك المؤرخون الأجانب نهاية المرحلة الأولى لنشر الإسلام في بلاد المغرب تنتهي بنهاية خلافة عمر بن عبد العزيز أو في أواخر خلافة هشام بن عبد الملك أثناء ثورة ميسرة في سنة (١٢٢هـ).

---

(٢٣) ـ د. يحيى هويدي: **تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الافريقية** ص. ٢٨ ـ ٢٩ (مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦).

(٢٤) ـ الباروني: **الأزهار الرياضية** ج ٢ ص. ١٥٣ (تحقيق محمد علي الصليبي سلطنة عمان ١٩٨٧م). علي يحيى معمر: **الاباضية في ليبيا** ص. ٢٨ (ط ١.. مكتبة وهبة.. مصر ١٩٦٤).

(٢٥) ـ أبو زكريا: **السيرة** ص. ٦٠ ـ د. سعد زغلول: **تاريخ المغرب** ص. ٣٠٩، وهامش (٤).

(٢٦) ـ د. سيدة كاشف: **اباضية عمان** ص. ٢٧٩.

(٢٧) ـ بفتح أوله وكسر ثانيه، وبعد الياء المثناة من تحت الساكنة لام، وهي مدينة غير مسورة في وسط الصحراء وتقع مقابل أجدابية في البر بين بلاد السودان وافريقية وزويلة إحدى أمصار برقة.

انظر ياقوت: معجم البلدان ج ٣ ص. ١٥٩.

(٢٨) ـ **البلدان** ص. ٦ (تصحيح ونشر هنري بريس ـ الجزائر ـ ١٩٦٠).

(٢٩) ـ **الاستبصار** ص. ١١٢ (تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد ـ مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٨).

(٣٠) ـ بفتح الغين والدال المعجمتين، وألف وميم مكسورة وسين مهملة. انظر ابا الفداء: **تقويم البلدان** ص. ١٤٧ (تصحيح وطبع رينود ـ ديسلان... باريس ١٨١٥).

ويقول البكري عنها: (بين غدامس وجبل نفوسة سبعة أيام في الصحراء).

انظر **المغرب** ص. ١٨٢ (باريس ١٩٦٥).

(٣١) ـ أبو الفدا: **تقويم البلدان** ص. ١٤٧.

(٣٢) ـ ابن الأبار: **الحلة السيراء** ص. ٧٧ (تحقيق د. حسين مؤنس ـ ط ١ القاهرة ١٩٦٣).

أما المرحلة الثانية من مراحل نشر الإسلام في بلاد المغرب في نظر هذا الفريق من المؤرخين فتبدأ في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حين أغار بنو هلال وبنو سليم على بلاد المغرب من مصر، فتم إسلام البربر، وبعد ظهور المرابطين في بلاد المغرب في القرن الخامس الهجري، ثم ظهور الموحدين في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)(٣٤).

والحق أن إسلام أهل المغرب تم بالدرجة الأولى عن طريق الدعوة والحجة والإقناع بفضل الفقهاء والدعاة ولم يفرض بالقوة أو السيف، ولم يستعبد الإسلام هذه الشعوب وإنما أشعرها بالعزة والكرامة وقوى النزعة إلى الحرية والاستقلال.

وقامت الدعوة الإسلامية على أساس مبدأ الحرية والإخاء والعدالة والمساواة بغض النظر عن العرق أو اللون... كذلك قام الإسلام في بلاد المغرب على أساس حب الجار والتسامح مع أهل الذمة وإنشاء المساجد وفتح الكتاتيب والمدارس(٣٥).

فقد قام العلماء الإباضية بفتح المدارس لتعليم القرآن، ومثال ذلك ما قام به العالم الإباضي عمر بن يمكتن - من علماء النصف الأول من القرن الثاني الهجري - فقد أنشأ أول مدرسة لتعليم القرآن، وكان الناس يقبلون عليها حتى أصبحت المدرسة مناراً للعلم، ليس في جبل نفوسة فقط بل في الجنوب الليبي كله(٣٦).

وقد أنشأ أبو عبيدة في البصرة ما يمكن تسميته بالثورة السرية، وكان هو زعيمها، له الكلمة العليا في الشؤون الدينية من فتوى وقضاء وتدريب الدعاة وحملة العلم الذين يرسلون إلى الأمصار.

كما لم يغفل أبو عبيدة ومشايخ الإباضية في البصرة عن أتباعهم في الأمصار الأخرى وخاصة أنهم يحتاجون بشكل دائم إلى المساعدات المالية، فأنشأ بيت مال خاصاً بجماعة المسلمين الإباضية في البصرة وأوكل إلى حاجب الطائي مهمة الإشراف على الشؤون المالية والعسكرية وشؤون الدعوة وكانت موارد بيت المال تستخدم لمساعدة الدعاة في المناطق البعيدة.

وكانت موارد بيت المال في البصرة تأتي من مصدرين: الأول عبارة عن ضريبة فرضها الإمام على أتباعه في البصرة والثاني كان يأتي من التبرعات السخية التي يدفعها أثرياء الإباضية، وكان التجار يتحملون النصيب الأكبر في هذا الشأن(٣٧).

وكان الإباضية يعتمدون في نشر مذهبهم وفي نشر الإسلام على الحجة والإقناع وليس على القوة أو العنف... وليس أدل على ذلك من الرسالة التي كتبها عبد الله بن إباض رداً على رسالة عبد الملك بن مروان إليه(٣٨).

ويبين تاريخ الإباضية في بلاد المغرب بوضوح صلة المغرب العربي الإسلامي بالمشرق العربي الإسلامي... وكان الإباضية وعلماؤها يرعون هذه الصلة دائماً ويحرصون عليها، وأصبحت بلاد المغرب بفضل هذه الصلة القوية أصيلة في العروبة والإسلام(٣٩).

فقد تمسك الإباضية منذ البداية بالدعوة لنشر الإسلام، وإقامة العدل، ونرى - على سبيل المثال - في سيرة الشيخ الفقيه العماني أبي المؤثر الصلت بن خميس في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) والتي وردت في مخطوط (كتاب سير الأئمة القائمين بالحق في الأمة) وهو المعروف باسم (السير والجوابات عن العلماء والأئمة رحمهم الله تعالى) ما نصه (فإن استطاعوا أن يتعدوا مصرهم إلى غيرهم وجب ذلك عليهم كلما قدروا عليه فليدعوا الناس إلى الدخول في دين الله والتسليم للعدل)(٤٠).

واعتبر إباضية عمان أن أمرهم واحد في المشرق والمغرب، ففي سيرة الإمام محبوب بن الرحيل(٤١) إلى أهل عمان يقول:

(٣٣) - د. سيدة كاشف: **اباضية عمان** ص. ٢٥٢.
(٣٤) - انظر مثلاً: د. حسن إبراهيم: **انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى** ص. ٤... وما أشار إليه من مراجع أجنبية.
(٣٥) - د. سيدة كاشف: **اباضية عمان** ص. ٢٥٢ - ٢٥٣.
(٣٦) - علي يحيى معمر: **الاباضية في موكب التاريخ** - الحلقة الثانية ص. ٣٩ - ٤٠.
(٣٧) - السمائلي: **الحقيقة والمجاز** ص. ٦٧، ٦٩ - ٧٠.
(٣٨) - عن النص الكامل للرسالة انظر: السمائلي: **إزالة الوعثاء** الجزء الخاص بالملاحق.
(٣٩) - انظر على سبيل المثال: أبا زكريا: **السيرة** ص. ٦٣ - ٦٤، ٨٨.
(٤٠) - انظر: صفحة ٦٠٩ من المخطوط. والمخطوط محفوظ في وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان تحت الرقم العام ١٨٥٤ والرقم الخاص ٢، وقد حققته الدكتورة سيدة كاشف ونشر الجزء الأول والجزء الثاني (مطبعة فيصل الحلبي - القاهرة ١٩٨٨).
(٤١) - محبوب بن الرحيل: من علماء الاباضية في عمان، في القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث الهجري... أما جده فهو من تلاميذ جابر بن زيد. انظر السمائلي: **إزالة الوعثاء** ص. ٤٧.

وكانت المحكمة واحد، لو حكم رجل من المغرب تولاه من كان منهم بالمشرق ولو حكم بالمشرق تولاه من كان بالمغرب(٤٢).

ويتبين لنا من نجاح الإباضية في تأسيس دولهم في المشرق والمغرب أن دعاتهم كانوا مدربين تدريباً واعياً لنشر الإسلام، وإحياء الإمامة الإسلامية العادلة بطريق الإقناع والتعليم والمناقشة والمنطق(٤٣).

فقد عرفت بلاد المغرب بفضل الإمامة الرستمية الاستقرار... فقد أوجدت الدولة الرستمية، بفضل علاقاتها الطيبة وحسن جوارها مع الدول التي قامت في بلاد المغرب - على الرغم من اختلاف مذاهبها - نوعاً من الاستقرار والوحدة بين المغاربة أدى إلى دفع الحضارة الإسلامية نحو التقدم والازدهار كما أدى إلى ازدياد انتشار الإسلام في أعماق أقاليم المغرب، فضلاً عن ازدياد التعريب بين المغاربة(٤٤).

كذلك قامت العلاقات بين الدولتين الرستمية والأموية في الأندلس على أساس التحالف القوي المتين، والصداقة المتبادلة، كما حرص الرستميون على أن تكون علاقتهم مع مصر علاقة حسن جوار، وعلى الرغم من أن العلاقات السياسية كانت ضعيفة فقد نشطت العلاقات التجارية والثقافية.

فقد كان عدد كبير من المصريين على المذهب الإباضي، بل من بين هؤلاء الإباضية المصريين علماء لهم وزنهم في رأي الرستميين، فكانوا مرجعاً لهم في شؤونهم وفتاويهم(٤٥).

ويذكر الشماخي أن عدل عبد الرحمن بن رستم جذب إليه الإباضية وغيرهم من سائر البلدان، فسار التجار (أصحاب رؤوس الأموال) بما لديهم إلى تاهرت من مصر وافريقية والمغرب(٤٦).

وقد ارتبط الإسلام بطرق التجارة، فكانت الدولة الرستمية على صلة تجارية وثيقة فيما يلي المغرب جنوباً في الصحراء وبلاد السودان... فكانت أول من نشر الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية في أقطار السودان؛ فكان التجار والفقهاء يحملون الإسلام إلى تلك الأقطار النائية، بل إن بعض التجار كان يجمع بين التجارة والتعليم فيقومون بمزاولة النشاط الاقتصادي والتعليمي... وينشئون المساجد والزوايا والربط ومدارس تعليم القرآن.

وكان التجار والفقهاء يؤثرون في السودان بنظافتهم، وأمانتهم وسلوكهم ولهذا وجد الإسلام طريقه إلى الصحراء والسودان في القرون الثلاثة الأولى للهجرة بفضل تجار الإباضية ودعاتهم، وبفضل مصاهرتهم لأهل البلاد... فظفر الإسلام بأقوى القبائل وأشجعها، وأكثرها عدداً ثم قوي الإسلام والمسلمون إلى أن قامت بعد ذلك الامبراطوريات الافريقية الكبرى، وقد ظهرت في هذه المناطق بعض المؤثرات الإباضية التي تركها الإباضية، بدت في بعض من شاهدهم الرحالة ابن بطوطة من الإباضية في بلاد السودان في رحلته المشهورة.

ومع أن الدولة الرستمية كانت إباضية المذهب، إلا أنها لم تفرض مذهبها على الناس، بل تركت الناس يختارون من المذاهب الإسلامية ما يشاؤون... فكانت دولة الحرية الفكرية، وحرية الكلام في حدود الدين الإسلامي، فكان فيها المالكية والمعتزلة والصفرية، وكل المذاهب الموجودة في المشرق.

كذلك رحبت الدولة الرستمية في ديارها بالعلويين أبناء علي بن أبي طالب، أما أهل الذمة من اليهود والنصارى فقد تمتعوا في الدولة الرستمية بكافة حقوقهم التي فرضتها الشريعة الإسلامية ووجدوا في الميادين الاقتصادية والعلمية، وفي مجال الأعمال المختلفة كل ما يجده المسلمون.

وصاحب انتشار الإسلام انتشار اللغة العربية، لغة القرآن، والحضارة الإسلامية، وقد جعلتها الدولة الرستمية لغة رسمية للدولة فانتشرت بين البربر، وكان الوعاظ والعلماء يحثون الناس على تعلمها، ومع أن اللغة البربرية كانت لا تزال لغة التخاطب في المنازل والأسواق وفي القرى النائية وفي الجبال إلا أن كثيراً من الكلمات العربية دخلت في اللغة البربرية، كما أصبحت اللغة البربرية تكتب بحروف عربية(٤٧).

من هذا العرض يتضح أنه إذا كان الفضل الأول في دخول الإسلام في بلاد المغرب يرجع إلى العرب الفاتحين، فإن الفضل

(٤٢) - مخطوط السير والجوابات ص. ٣٥٦ عن الدكتورة سيدة كاشف، **اباضية عمان** ص. ٢٦٩.

(٤٣) - السمائلي: **الحقيقة والمجاز** ص. ٦٧.

(٤٤) - د. محمد عيسى الحريري: **الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي** ص. ٢١٤ (ط ٣... دار القلم - الكويت ١٩٨٧).

(٤٥) - المرجع نفسه ص. ١٩٢.

(٤٦) - الشماخي: **سير** ص. ١٥٨ - د. سيدة كاشف: **اباضية عمان** ٢٩٩.

(٤٧) - محمد علي دبوز: **المغرب الكبير** ج ٣ ص. ٣٢٣ - د. سيدة كاشف: **اباضية عمان** ص. ٢٩٩.

الأكبر في نشر الإسلام وازدهاره في بلاد المغرب يرجع إلى دعاة الإباضية. فقد اعتبرت الإباضية بلاد المغرب أرض جهاد لنشر الإسلام ولقيام الإمامة الإسلامية العادلة، وربطوا بينهم وبين بلاد المغرب بواسطة الدعاة، وحملة العلم والتجار.

وفي القرنين الثاني والثالث ظهر أثر جهود الإباضية، **فقامت** الإمامة الإباضية التي التزمت في سياستها بالدين، وأحيت سيرة الخلفاء الراشدين، وأنعشت المغرب الأدنى والأوسط. وتقدمت بلاد المغرب بفضل جهود الدولة الإباضية التي قامت بها، في نواحي الحضارة الإسلامية... وصار المغرب العربي حصناً للدين ورمزاً للأخوة الإسلامية.

المصادر والمراجع

١ ـ المخطوطات

(١) الشماخي (أبو العباس أحمد بن عبد الواحد. ت ٩٢٨هـ): كتاب **السير** (وهو في ذكر الرجال من العلماء الإباضية) مخطوط في دار الكتب تحت رقم ١٠٩٨٢ ـ ٨٢٩٥ج.

٢ ـ المصادر العربية

(٢) ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي. ت ٦٥٨هـ) **الحلة السيراء**. ٢ جزء. تحقيق د. حسين مؤنس. الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٦٣.

(٣)ابن أبي بكر (أبو زكريا يحيى. ت بعد سنة ٤٧٤هـ): **السيرة وأخبار الأئمة**. تحقيق عبد الرحمن أيوب. الدار التونسية للنشر. تونس ١٩٨٥.

(٤) ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. ت ٦٣٠هـ): **الكامل في التاريخ**. ٩ أجزاء. نشر دار الكتاب اللبناني. الطبعة الرابعة ١٩٨٣.

(٥) الإدريسي (أبو عبد الله محمد الشريف السبتي. ت نحو ٥٤٨هـ): **وصف افريقيا الشمالية والصحراوية**. مأخوذ من كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نشر وتصحيح هنري بيريس. الجزائر ١٩٥٧.

(٦) الأشعري (أبو الحسن علي بن إسماعيل. ت ٣٣٠هـ): **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**. الجزء الأول. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. الطبعة الأولى. مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠.

(٧) الباروني (الشيخ أبو الربيع سليمان. ت ١٣٥٩هـ): **مختصر تاريخ الإباضية**، نشر مكتبة الاستقامة. مطبعة الإرادة. تونس ١٩٣٨.

(٨) الباروني (سليمان بن الشيخ عبد الله. ت ١٣٥٩هـ): **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**. الجزء الثاني. تحقيق محمد علي الصليبي. سلطنة عمان ١٩٨٧.

(٩) البلاذري (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي. ت ٢٧٩هـ): **فتوح البلدان**. مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان. مصر ١٩٥٩.

(١٠) البغدادي (عبد القاهر بن طاهر بن محمد. ت ٤٢٩هـ): **الفرق بين الفرق**. تحقيق محمد بن محيي الدين عبد الحميد. نشر مكتبة محمد علي صبيح. مصر. د. ت.

(١١) مختصر كتاب **الفَرق بين الفِرق**. اختصار عبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر بن خلف الرسعني. حرره فيليب حتّي. مطبعة الهلال. مصر ١٩٢٤.

(١٢) البكري (أبو عبيدة بن عبد الله بن عبد العزيز. ت ٤٨٧هـ): **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** وهو جزء من أجزاء الكتاب المعروف بـ **المسالك والممالك**. باريس ١٩٦٥.

(١٣) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد. ت ٨٠٨هـ): **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. الجزء الثاني. دار الكتاب اللبناني. بيروت ١٩٧٧.

(١٤) الرازي (فخر الدين محمد بن عمر الخطيب. ت ٦٠٦هـ): **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ـ مصطفى الهواري. نشر مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة ١٩٧٨.

(١٥) ابن رستة (أبو علي أحمد بن عمر. كان حياً سنة ٢٩٠هـ): **الأعلاق النفيسة** المجلد السابع. مطبعة بريل. ليدن ١٨٩١.

(١٦)السمائلي (سالم بن حمود بن شامس السيابي): **أصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج**. تحقيق وشرح د. سيدة إسماعيل كاشف. القاهرة ١٩٧٩.

(١٧) **إزالة الوعثاء**. تحقيق وشرح د. سيدة إسماعيل كاشف. القاهرة ١٩٧٩.

(١٨) **الحقيقة والمجاز في تاريخ الإباضية باليمن والحجاز**. سلطنة عمان ١٩٨٠.

(١٩) السمعاني (القاضي أبو سعيد عبد الكريم بن أبي بكر محمد بن أبي المظفر المنصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي. ت ٥٦٢هـ): **الأنساب**. لندن ١٩١٢.

(٢٠) الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم. ت ٥٤٨هـ): **الملل والنحل**. تحقيق وشرح محمد بن فتح الله بدران. القسم الأول. ط ١. مطبعة الأزهر. القاهرة ١٩٤٧.

(٢١) الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير. ت ٣١٠هـ): **تاريخ الرسل والملوك**. الجزء السادس. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. مصر ١٩٦٤.

(٢٢) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله. ت ٢٥٧هـ): **فتوح افريقية والأندلس والجزائر** ١٩٤٢.

(٢٣) أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر. ت ٧٣٢هـ): **تقويم البلدان** اعتنى بتصحيحه وطبعه رينود ـ البارون ماك كوكين ديسلان. باريس ١٨١٥.

(٢٤) ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم. ت ٢٧٠هـ): **المعارف**. حققه وقدم له د. ثروت عكاشة. الطبعة الرابعة. دار المعارف. مصر ١٩٦٩.

(٢٥) القلهاتي (أبو عبد الله محمد بن سعيد الأزدي. القرن الرابع هـ): **الكشف والبيان**. تحقيق وشرح د. سيدة إسماعيل كاشف ٢ جزء. نشر القاهرة ١٩٨٠.

(٢٦) الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف. ت ٣٥٠هـ): **الولاة وكتاب القضاء** مهذب ومصحح بقلم رفن كست. مطبعة الآباء اليسوعيين. بيروت ١٩٠٨.

(٢٧) المبرّد (أبو العباس محمد بن يزيد ت ٢٨٥هـ): **الكامل** الجزء الثاني. الطبعة الأولى. مطبعة التقدم. مصر ١٩٦٩.

(٢٨) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين. ت ٣٤٥هـ): **التنبيه والإشراف**. تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي. طبع دار الصاوي. القاهرة ١٩٣٨.

(٢٩) ـــ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. ٢ جزء في مجلد. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. كتاب التحرير. شركة الإعلانات الشرقية. القاهرة ١٩٦٦.

(٣٠) مجهول (كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري): **الاستبصار في عجائب الأمصار**. وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب. تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد. مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨.

(٣١) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله. ت ٦٢٦هـ): **معجم البلدان** ٥ أجزاء دار إحياء التراث العربي. بيروت لبنان ١٩٧٩.

(٣٢) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الإخباري ت نحو سنة ٢٨٤هـ): **وصف افريقيا الشمالية**، مأخوذ من كتاب البلدان لليعقوبي. اعتنى بتصحيحه ونشره هنري بيريس. الجزائر ١٩٦٠.

٣ ـ المراجع العربية

(٣٣) خير الدين الزركلي: **الأعلام**. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين. ١٠ أجزاء. الطبعة الثانية. مطبعة كوستاتسوماس وشركاه. القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩.

(٣٤) رفعت فوزي عبد المطلب: **الخلافة والخوارج في المغرب العربي والصراع بينهما حتى قيام دولة الأغالبة**. الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٧٣.

(٣٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: **تاريخ المغرب العربي**. ليبيا وتونس والجزائر والمغرب من الفتح العربي حتى قيام دولة الأغالبة والرستميين والأدارسة. دار الإسكندرية ١٩٦٤.

(٣٦) د. سيدة كاشف: **عمان في فجر الإسلام**. العدد الأول. سلطنة عمان وزارة التراث القومي والثقافة. نوفمبر ١٩٧٩.

(٣٧) د. عرفان عبد الحميد: **دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية**. مطبعة الإرشاد. بغداد ١٩٦٧.

(٣٨) علي يحيى معمر: **الإباضية في موكب التاريخ**. الحلقة الأولى: نشأة المذهب الإباضي. الطبعة الأولى. مكتبة وهبة. مصر ١٩٦٤.

(٣٩) ـ الحلقة الثانية في ليبيا. الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٦٤.

(٤٠) **الإباضية في الجزائر**. الطبعة الأولى. مطبعة الدعوة الإسلامية. القاهرة ١٩٧٩.

(٤١) مجمع اللغة العربية بالقاهرة. **المعجم الوسيط**. إشراف د. إبراهيم بيومي مدكور. مجلدان. دار المعارف ١٩٨٠.

(٤٢) محمد علي دبوز: **تاريخ المغرب الكبير**. ٣ أجزاء الطبعة الأولى. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. مصر ١٩٦٤.

(٤٣) د. محمد عيسى الحريري: **الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي**. الطبعة الثالثة. دار القلم للنشر والتوزيع. الكويت ١٩٨٧.

(٤٤) د. محمود إسماعيل: **الخوارج في المغرب الإسلامي**. دار العودة. بيروت ١٩٧٦.

(٤٥) محمود البشبيشي: **الفرق الإسلامية**. الطبعة الأولى. مطبعة الرحمانية. مصر ١٩٣٢.

(٤٦) د. يحيى هويدي: **تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الافريقية** الجزء الأول: في الشمال الافريقي. مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦.

الخلافة العباسية بين أواسط القرن الخامس والسابع

أ. د. بدري محمد فهد
كلية الآداب ـ جامعة بغداد.

حالة الخلافة

كان السلاجقة قوماً من الاتراك ينتشرون في آسيا الوسطى ـ متنقلين طلباً للعيش حتى استقروا في بلاد ما وراء النهر (أي نهر جيحون ـ آموداريا ـ أوكسُوس) وذلك أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين. وقد جاء اسمهم من اسم جدهم سلجوق بن دقاق (أو تقاق)[١].

ثم انتشروا غرباً بالتدريج فدخلوا خراسان بعد أن طلبوا الإذن من السلطان محمود الغزنوي بعبور نهر جيحون بحجة قلة المراعي حول مدينة بخارى وعدم كفايتها لمواشيهم[٢].

وقد أدى تجمعهم إلى بروز رئيس لهم، وتكوينهم قوة، لم تظهر في عهد السلطان محمود الغزنوي حيث ظلوا خاضعين له، حتى إذا مات هذا السلطان سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م وقام بعده ابنه مسعود الذي لم يستطع أن يسيطر على الدولة كما كان أبوه مسيطراً عليها، كثرت الفتن وانشغل بها مما مهد الطريق لقيام السلاجقة، ومحاولتهم التخلص من النفوذ الغزنوي، وفرض سيطرتهم على خراسان. وهكذا تمت لهم السيطرة على نيسابور وأصبح طغرلبك أول سلاطينهم عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م. وبذلك قامت الدولة السلجوقية دولة مسلمة جديدة لعبت دوراً في توجيه الأحداث في المشرق الإسلامي[٣].

وكان لا بد من حدوث الصدام بين الطرفين، وهذا ما حصل، فوقعت جملة معارك بين الطرفين، ثم كانت المعركة الحاسمة التي اندحر فيها السلطان مسعود عام ٤٣١هـ/١٠٣٩م مما جعل الغرنويين ينسحبون إلى الهند تاركين خراسان للسلاجقة دون منازع[٤] ومنذ هذا التاريخ أخذ طغرلبك يوسع رقعة نفوذه[٥].

ثم قسم السلاجقة البلاد بين أفراد البيت السلجوقي، فاتخذ طغرلبك مدينة الري مقر حكمه سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م[٦]. وتوسع نفوذ السلاجقة في الحقب اللاحقة ليشمل العراق والجزيرة الفراتية ثم آسيا الصغرى والشام. وليؤدي دوراً سياسياً حضارياً مهماً مدة تزيد على قرنين من الزمان. كما كان للسلاجقة دور مهم في الحرب ضد البيزنطيين والصليبيين وتمهيدهم بذلك الطريق أمام العثمانيين لا سيما بعد سكناهم في آسيا الصغرى واقامتهم دولة سلاجقة الروم وتوسعهم فيها على حساب الدولة البيزنطية[٧].

(١) الحسيني: **أخبار الدولة السلجوقية**.
(٢) ابن النظام الحسيني: **العراضة في الحكاية السلجوقية** ٣١.
(٣) انظر عبد النعيم حسنين: **سلاجقة إيران والعراق**: ٢٩.
(٤) ابن النظام الحسيني: ٣٣، ابن الأثير: **الكامل** ١٠/٤٨٣، الراوندي: **راحة الصدور**: ١٠٠.
(٥) ابن الأثير ١٠: ٤٨٣، ٤٩٦، ٥٠٤، ٥٠٧ فما بعدها.
(٦) ابن الأثير ٩: ٥٠٧.
(٧) عبد النعيم حسنين: ٢، ٣، ٢٤ـ ٣٠، ٣١ـ ٣٨.

بدأ السلاجقة بالاتصال بالخليفة العباسي للمسلمين لكسب عطفه واعترافه بدولتهم واكساب حاكمها الصفة الشرعية، لهذا كتبوا إلى الخليفة القائم بأمر الله كتاباً خلاصته أن سبب قيامهم هو الجهاد وإقامة شرع الله ومحاربة الكفار ونشر العدل بين الناس، وأن سبب حربهم للدولة الغزنوية هو عتوها وظلمها(٨). وقد لبى الخليفة طلب السلطان طغرلبك، وأرسل إليه رسولاً منه يحمل الهدايا والخلع ويطلب منه أن يحضر إلى بغداد(٩).

كانت الخلافة العباسية خلال هذه الفترة ما تزال خاضعة للدولة البويهية المشرفة على الزوال، والتي تقلص ظلها عن كثير من البلاد حيث استقلت عنها كالدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر وخراسان، والدولة الغزنوية التي اقتطعت خراسان وأجزاء من الهند، وقيام الدولة الفاطمية بمصر وتوسع نفوذها إلى الشام والحجاز مما جعل ابن خلدون يقرر «أنهم قاسموا بني العباس في ممالك الإسلام شق الأبلّة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم....»(١٠)، كما أصبحت بلاد البحرين واليمامة في يد القرامطة، ولم يبق مستظلاً بظل الخلافة سوى جزء من العراق، وإن كان سلطان الخليفة الروحي ما زال قائماً. وفي هذا المعنى قول البيروني «ان الذي بقي بأيدي الخلفاء اعتقادي لا ملكي دنيوي كمثل ما لرأس الجالوت عند اليهود من آمر الرئاسة الدينية من غير ملك ولا دولة...»(١١). ومع هذا فقد نازع الخليفة العباسي هذه الزعامة الخليفة الفاطمي بمصر، والخليفة الأموي بالأندلس.

ولم تكن الحالة الاجتماعية بأحسن حالاً من الحالة السياسية لدولة الخلافة فالفتن الطائفية قائمة منذ أجج أوارها البويهيون بتعصبهم وتصرفات جنودهم السيئة. كما كان للعيارين واللصوص دور في إشاعة الرعب والفوضى لا سيما في أوقات حدوث الأزمات السياسية. ولم يكن الجانب الاقتصادي سليماً خلال هذه الفترة بل كانت موجات الغلاء تتكرر نتيجة للحروب والنزاعات والفتن وسوء الإدارة المالية للبويهيين(١٢).

وفي عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م دخلت جيوش السلاجقة بقيادة طغرلبك العراق. وعند اقتراب السلطان من بغداد خرج لاستقباله الوزير رئيس الرؤساء في موكب عظيم من القضاة والنقباء والأشراف والشهود والخدم. ثم عمد السلطان طغرلبك إلى التخلص من آخر أمراء بني بويه رغم وعوده للخليفة بعدم التعرض له وبذلك أنهى الوجود البويهي نهائياً(١٣).

ولم يكن رأي الشعب مطابقاً لرأي الحكومة العباسية في استقبال السلاجقة حيث تصدت العامة لجيش السلاجقة عند دخوله بغداد فنهبته واستمر النهب حتى وصلت العامة إلى مقر السلطان (طغرلبك)، إلا أن الجيش هجم على العامة واضطرها إلى التراجع والاحتماء داخل بغداد، وكان ذلك طبيعياً بالنسبة لجيش لجب مدرب تجاه أناس يعوزهم التنظيم والسلاح(١٤).

وهكذا أصبحت الدولة العباسية تحكم من قبل الخليفة العباسي وحكومته من وزراء وكتاب وإداريين، وتحكم من قبل السلطان السلجوقي ودولته التي تضم العراق إلى جانب دويلات وإمارات أخرى. ولقد جرت محاولة للوفاق بين السلطنتين في بادىء الأمر لذلك تزوج الخليفة القائم بأمر الله من إرسال خاتون خديجة ابنة داود أخي السلطان طغرلبك(١٥).

وقد وقف السلاجقة إلى جانب الخليفة في صراعه ضد المعارضين لحكمه مثل البساسيري (أبي الحارث أرسلان بن عبد الله) التركي الأصل أحد مماليك بني بويه وقائد الجيش الذي اتهم وزير الخليفة بأنه يكاتب حاكم مصر (الخليفة الفاطمي المستنصر)(١٦) وعند دخول السلاجقة بغداد انسحب البساسيري إلى مدينة الحلة وعندما وقع الخلاف بين السلطان طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال استغل البساسيري هذه الفرصة فهاجم بغداد ومعه أمير الحلة دبيس بن مزيد الأسدي(١٧)

(٨) البنداري: **تاريخ دولة آل سلجوق**: ٩، ١٠، الراوندي: ١٦٦ـ ١٦٧.
(٩) الراوندي: ١٦٨.
(١٠) ابن خلدون: **المقدمة**: ٢١.
(١١) البيروني: **الآثار الباقية**: ١٣٢.
(١٢) الدوري: **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**: ٣٠، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٦٨، ٦٩.
(١٣) ابن الأثير ٩: ٦١٢، ٦٥٠.
(١٤) انظر بدري محمد فهد: **العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري**: ٣١٣.
(١٥) البنداري: ١٠ـ ١١، ابن الأثير ٨: ٧٤.
(١٦) ابن الأثير ٩: ٦٠٨، ٦٢٦، ٦٥٠ ابن خلدون: **المقدمة**: ٢١.
(١٧) ابن الأثير ٩: ٦٤٠ فما بعدها.

وأمير الموصل قريش بن بدران وحاصروا الخليفة وأسروه وقتلوا الوزير رئيس الرؤساء ثم أرسل الخليفة مبعداً عن بغداد إلى حديثة عانة وأودعوه لدى ابن عم قريش بن بدران (أي عند مهارش بن المجلي) وتجرأ البساسيري بعد ذلك على أن يخطب ببغداد للخليفة المستنصر الفاطمي(١٨). كما سارع إلى ضرب الدنانير باسم الخليفة الفاطمي هذا وسماها المستنصرية(١٩) ويبدو أنه اعتقد بأن مجيء السلاجقة أمر طارىء ففرض سيطرته على العراق(٢٠) وفي هذه الأثناء استغاث الخليفة بالسلطان السلجوقي وبعث إليه رسالة يطالب بالمجيء إلى العراق لإنقاذه(٢١).

لهذا بادر السلطان فور انتهائه من القضاء على حركة أخيه إلى التوجه إلى العراق ومحاربة البساسيري والقضاء على حركته وقتله وصلبه قبالة باب النوبي(٢٢)، وأعيد الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد فعظم نفوذ طغرلبك وزادت العلاقة الودية بين الجانبين مما شجع السلطان على طلب الزواج من ابنة الخليفة العباسي(٢٣). ولما توفي السلطان طغرلبك خلفه ابن أخيه ألب أرسلان (محمد بن داود جغري بك) حاكم خراسان الذي استوزر نظام الملك (أبا علي الحسن بن إسحاق الطوسي) وظلت العلاقة ودية بين الجانبين خلال سلطنة ألب أرسلان ٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ/١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م، وكان التعاون والاحترام قائمين بين الخلافة والسلطنة السلجوقية، وكانت الهدايا يتم تبادلها بين الطرفين، ففي سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م أرسل الخليفة القائم بأمر الله عميد الدولة بن جهير ومعه الخلع للسلطان ولولده ملكشاه. وكان السلطان قد أرسل يطلب من الخليفة أن يأذن له في جعل ولده ملكشاه ولي عهده، فأذن الخليفة بذلك وسيرت له الخلع مع عميد الدولة(٢٤). ولم يرد السلطان بغداد خلال حكمه. وقد صاهر الخليفة السلطان ألب أرسلان إذ طلب ابنته لولي العهد المقتدي بأمر الله فأجيب إلى طلبه وعقد النكاح بظاهر نيسابور(٢٥).

ولما وقعت الحرب بين البيزنطيين والسلاجقة عام ٤٦٣هـ/١٠٧٠م كان لهذا الانتصار صداه المدوي في البلاد الإسلامية فقد اغتنم الخليفة هذه الفرصة وبعث بالتهنئة إلى السلطان ألب أرسلان(٢٦)، وقد أعلنت الفرحة في بغداد إذ ضربت الطبول والبوقات وأعلن خبر الفتح في المساجد(٢٧)، وقد تكرر هذا الاحتفال وأعلن الفرح عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م عندما جاء رسول السلطان يبشر الخليفة بتحرير بعض مدن الشام والجزيرة من البيزنطيين: خرج موكب لاستقبال رسول السلطان ضم كبار رجال الدولة العباسية يرافقهم ضاربو الطبول والبوقات(٢٨).

وفي عهد هذا السلطان ألب أرسلان أنشئت المدرسة النظامية ببغداد عام ٤٥٧هـ/١٠٦٤م ضمن مجموعة من المدارس التي أنشأها الوزير نظام الملك. وفي هذا الوقت أنشأ شرف الملك أبو سعد مدرسة للخليفة في مشهد أبي حنيفة ببغداد في السنة نفسها(٢٩).

ثم تولى سلطنة السلاجقة ملكشاه فبادر إلى طلب الخطبة باسمه على منابر بغداد(٣٠) فخطب له وأرسل إليه عهد السلطنة من الخليفة القائم عام ٤٦٦هـ/١٠٧٣ وبذلك أعطي السند الشرعي لحكمه، لقطع دابر المنافقين له أو الطامعين في السلطنة(٣١).

وتكررت مسألة المصاهرة بين السلاجقة وخلفاء بني العباس؛ ففي سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م أرسل الخليفة وزيره فخر

(١٨) ابن الجوزي: **المنتظم** ٨: ١٩٦، ابن الأثير ٩: ٦٤١ ـ ٦٤٣.
(١٩) ابن الجوزي ٨: ١٩٦.
(٢٠) ابن الأثير ٩: ٦٤٤.
(٢١) الراوندي: ١٧٢.
(٢٢) ابن الجوزي ٨: ٢١٢، الراوندي: ١٧٥، ابن الأثير ٩: ٦٤٨ ـ ٦٤٩.
(٢٣) الحسيني: ٢١، ابن الأثير ١٠، ٢٠.
(٢٤) ابن الأثير ١٠: ٧٠، ٧١.
(٢٥) البنداري: ٤٥، ٤٦، ابن الأثير ١٠: ٧١.
(٢٦) الحسيني: ٥٣، الراوندي: ١٩١.
(٢٧) انظر بدري محمد فهد: **العامة** ٢٠٩.
(٢٨) م.ن.
(٢٩) البنداري: ٣٤، الحسيني ٦٨ ـ ٦٩، ابن الأثير ١٠: ٤٩، ٥٥.
(٣٠) ابن الأثير ١٠: ٧٦.
(٣١) **آل سلجوق** ٤٧، ابن الأثير ١٠: ٩٠.

الدولة أبا نصر ابن جهير إلى السلطان يخطب ابنته لنفسه، فسار فخر الدولة إلى أصبهان لمواجهة السلطان وحصل المقصود وعاد الوزير إلى بغداد(٣٢). وقد زار السلطان ملكشاه بغداد مرتين كانت الأولى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م والثانية سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م إلا أن هذه العلاقة الودية أصابها الكدر في أواخر عهد الخليفة المقتدي بأمر الله ابن القائم وذلك عندما بدأ السلاجقة يفكرون بالاستيلاء على الخلافة عن طريق ابن الخليفة المقتدي (أبي الفضل جعفر) من زوجته السلجوقية (ابنة ملكشاه) بتقديمه على ولي العهد ابن الخليفة الأكبر (المستنصر بالله). لهذا عندما قدم السلطان للمرة الثالثة إلى بغداد عام ٤٨٥هـ كان ينوي إخراج الخليفة من بغداد، ولهذا أرسل إليه يطلب منه ذلك فترددت الرسل بينهما فأمهل الخليفة عشرة أيام إلا أن الصدف شاءت أن يصاب السلطان بمرض مفاجيء ثم يتوفى عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م وبذلك تخلص الخليفة المقتدي من ذلك المأزق(٣٣).

إلا أن السلاجقة اختاروا بعده بركيا روق سلطاناً عليهم وقدم إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة المقتدي بأمر الله يطلب الخطبة، فأجيب إلى ذلك وخطب له ولقب بركن الدين(٣٤). وفي سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م توفي الخليفة المقتدي بأمر الله فجأة وبويع لولده المستظهر بالله(٣٥).

لقد كانت هذه العلاقة ودية كما قدمنا ثم ساءت في آخر عهد الخليفة المقتدي وقد زامن ذلك حدوث الانقسامات بين السلاجقة وحصول المعارك بين المتنافسين من السلاطين لا سيما بعد وفاة ملكشاه ووزيره نظام الملك مما شجع الخلفاء على السعي إلى طلب الاستقلال، وبذلك يحل عهد جديد للخلافة، هو عهد انتعاشها.

انتعاش الخلافة

آلت الأمور بين السلاجقة بعد موت السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان منذ ٥١١هـ إلى سلطنة ابنه محمود الذي جلس على عرش السلطنة في مدينة أصفهان، وفي عهده توفي الخليفة المستظهر بالله سنة ٥١٢هـ/١١١٨م وانتقلت الخلافة إلى المسترشد بالله(٣٦). وقد أدت المنافسة على عرش السلاجقة إلى الحرب بين السلطان سنجر وابن أخيه محمود التي انتهت باندحار محمود، واعتراف الخليفة بسلطنة سنجر(٣٧). ثم اصطلحا على أن يكون محمود نائباً عن عمه في العراق، وقد اعترف الخليفة المسترشد بالله بذلك فاكتسب صفته الشرعية. وبذلك أصبح للسلاجقة سلطانان أحدهما سنجر وهو الكبير وعاصمته مدينة مرو، والثاني محمود وكان أشبه بالتابع لعمه ومقره همذان(٣٨) وظل نفوذ سنجر قوياً حتى توفي سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م.

ونظراً لصغر سن السلطان محمود فإنه لم يستطع السيطرة على بطانته مما أدى إلى ضياع أمواله، وتشتيت غلمانه، وطمع إخوانه فيه(٣٩). وفي خلال ذلك حلت جملة من النكبات ببغداد مثل مهاجمة أمير الحلة دبيس بن صدقة بغداد ونهبه وإفساده(٤٠)، وظهرت حركات العيارين في سنة ٥١٤هـ(٤١) التي أثارت الفوضى والاضطراب. وقد شملت الفوضى مدينة البصرة التي هاجمها أمير الحلة دبيس بن صدقة، بعد أن هرب من لقاء جيش الخليفة المسترشد عام ٥١٧هـ/١١٢٣م والتجأ إلى قبائل المنتفق(٤٢) التي اتفق معها على نهب البصرة، فدخلوها ونهبوا أسواقها وقتلوا الكثير من أهلها حتى وصل إليها الجيش السلجوقي فانهزم دبيس بن صدقة(٤٣).

نتيجة لانشغال السلاجقة بمشاكلهم الكثيرة هذه بدأت

(٣٢) ابن الأثير ١٠: ١٢٠.
(٣٣) ابن الجوزي ٩: ٦٢، ٦٩، ابن الطقطقي: **الفخري**: ٢١٧.
(٣٤) ابن الأثير ١٠: ٢٢٩.
(٣٥) م.ن.
(٣٦) ابن الجوزي ٩: ١٩٧، ابن الأثير ١٠: ٥٢٥، ٥٣٤، ابن الطقطقي: ٢٢١.
(٣٧) ابن الأثير ١٠: ٥٤٨-٥٥٣.
(٣٨) حسين أمين ٩٢-٩٤.
(٣٩) البنداري: ١١٤-١١٨.
(٤٠) ابن الجوزي ٩: ٢١٧، ابن الأثير ١٠: ٥٦٥.
(٤١) ابن الجوزي ٩: ٢١٦.
(٤٢) ابن الأثير ١٠: ٦٠٧.
(٤٣) م.ن.

الخلافة العباسية تسترد قوتها شيئاً فشيئاً وتغتنم الفرص المتاحة للحد من سلطان السلاجقة وذلك بعد أن فقد الأمل بعدل سلاطين السلاجقة وخضوعهم للخلافة، وفي هذا المعنى قال المسترشد «لقد فوضنا أمرنا إلى آل سلجوق فبغوا علينا فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون»(٤٤).

ثم انتهى الأمر بين الطرفين إلى التهيؤ للحرب أواخر عام ٥٢٠هـ/وأوائل عام ٥٢١هـ حيث فرض السلطان محمود حصاراً على بغداد إذ ظلت العامة ترشق الجند بالسباب والنبال حتى تقرر الصلح بينهما ورحل السلطان محمود عن العراق. وفوض شحنكيه بغداد إلى بهروز(٤٥). وعندما تسارعت الأحداث بوفاة السلطان محمود عام ٥٢٥هـ استغلّ الخليفة هذا الأمر فأصبح يسمح بذكر اسم أي راغب في السلطنة في خطبة الجمعة. وفي الوقت نفسه كان قد كتب إلى السلطان سنجر يخبره بأنه صاحب الحق الأول في الخطبة وأن عليه منع من يحاول الحصول على هذا الامتياز(٤٦). وقد نجحت جهود الخليفة المسترشد في شق وحدة الصف السلجوقي. وثار النزاع بين المتنافسين من أمراء البيت السلجوقي وبذلك تهيأ الظرف المناسب لاستعادة الخلافة سيطرتها(٤٧).

وعندما أراد الملك مسعود المجيء إلى بغداد منافسة للسلطان سلجوقشاه الذي دخلها قبله، إلا أن الخليفة المسترشد رفض إجابة طلب مسعود، فوقعت الحرب بين الطرفين وقد حلت الهزيمة بجيش مسعود الذي كان يقوده حليفه عماد الدين زنكي (صاحب الموصل) ثم حصل اتفاق بين مسعود وسلجوقشاه والخليفة وقسموا البلاد بينهم لصد السلطان سنجر الذي كان يتهددهم على أن يكون العراق للخليفة(٤٨) وقد تقدم مسعود وحليفه سلجوقشاه وتأخر عنها قليلاً الخليفة المسترشد، وقبل وقوع المعركة وصلت أخبار إلى الخليفة باقتراب عماد الدين زنكي وأمير الحلة دبيس، فرجع مسرعاً والتقاهما وكان النصر للخليفة. أما بالنسبة لسنجر فإنه انتصر ونصب بدلاً من مسعود وسلجوقشاه سلطاناً جديداً هو طغرل ابن أخيه محمد عام ٥٢٦هـ/١١٣١م(٤٩).

وشاءت الظروف في عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م أن يتوفى السلطان طغرلبك بن السلطان محمد فلما سمع مسعود وكان ببغداد خف مسرعاً واستولى على همذان وبذلك أصبح سلطاناً على السلاجقة(٥٠).

إن العلاقة بين الخليفة والسلطان مسعود لم تبق ودية، فمنذ كان مسعود ببغداد التجأ إليه بعض الأمراء ممن كانت تصلهم رسائل السلطان طغرلبك يمنيهم بالاقطاعات إن وقفوا إلى جانبه فقبض الخليفة على أحدهم وهو (غلبك) فهرب الباقون ملتجئين عند مسعود، ولما طالب الخليفة بتسليمهم إليه رفض مسعود(٥١)، وقد زاد العداء بينهما بالتجاء عدد من أمراء مسعود إلى الخليفة وطلبوا الأمان من غدر مسعود، وشجعوا الخليفة على قتال مسعود، وقد حدثت المعركة بينهما قرب همذان ووقع الخليفة أسيراً على أثرها(٥٢). ويبدو أن هناك مؤامرة مدبرة حدثت قبل المعركة أو في أثنائها لانسحاب بعض الأمراء بأجنادهم من جيش الخليفة عند اصطدام الطرفين، وفي هذا يقول البنداري «ولما تراءى الجمعان مال الجنس إلى الجنس، فمال الترك إلى الترك»(٥٣).

وقد اهتز للنبأ أهل بغداد بعد سماعهم له، فخرجوا يتظاهرون ضد السلاجقة(٥٤) وقد أطلق السلطان مسعود الخليفة متظاهراً بأنه فعل ذلك بناء على أمر من السلطان(٥٥).

ثم أعلن أن الخليفة الذي كانت له خيمة مفردة لوحده قد هجم عليه جماعة من الاسماعيلية فقتلوه(٥٦)، والراجح أنه أمر

(٤٤) السمرقندي: جهاز مقالة: ٣١.
(٤٥) ابن الجوزي ٩: ٢٥٤ـ ٢٥٩، ١٠: ١ ـ ٥.
(٤٦) ابن الجوزي ١٠: ٢٥، ابن الأثير ١٠: ٦٧٤.
(٤٧) حسين أمين: ٩٨ـ ١٠٢.
(٤٨) ابن الجوزي ١٠: ٢٥، ابن الأثير ١٠: ٦٧٤ـ ٦٧٨.
(٤٩) ابن الأثير ١٠: ٦٧٨.
(٥٠) ابن الجوزي ١٠: ٤١، ابن الأثير ١٠: ٦٨٦، ١١، ١٩، ٢٠.
(٥١) ابن الجوزي ١٠: ٣٦، ابن الأثير ١١: ١٩.
(٥٢) ابن الجوزي ١٠: ٤١ـ ٤٥، ابن الأثير ١١: ٢٤ فما بعدها، **آل سلجوق**.
(٥٣) البنداري ١٦٥.
(٥٤) ابن الجوزي ١٠: ٤٦، ابن الأثير ١١: ٢٦.
(٥٥) ابن الأثير ١١: ٢٧، ٢٨.
(٥٦) ابن الجوزي ١٠: ٤٩، الراوندي: ٣٣٠، ابن الأثير ١١: ٨٢٧.

مدبر وفق نصيحة السلطان سنجر. أو كان من تدبير السلطان مسعود وحده ليتخلص نهائياً من الخليفة[٥٧]. يؤيد هذا ما ورد عن مسعود من رأي في الخليفة المرتقب الذي يريده أن يلي الخلافة «لا أريد أن يلي الأمر إلاّ رجل لا يدخل نفسه في أمر غير أمور الدين ولا يجند ولا يجمع علي ولا على أهل بيتي»[٥٨].

تولى الخليفة الراشد بعد قتل أبيه المسترشد[٥٩] وكان يعتزم السير على سياسته الرامية إلى التخلص من سيطرة السلاجقة، لهذا نراه يرفض في سنة ٥٣٠هـ/١١٣٦م طلب السلطان مسعود بأن يقدم مالاً مقداره ٧٠٠ ٠٠٠ (سبعمائة ألف)، وأن على صاحب المخزن أن يقدم ٣٠٠ ٠٠٠ (ثلثمائة ألف) لأولاد السلطان، وأن يقسط على أهل بغداد مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ (خمسمائة ألف). فلما سمع الخليفة بهذه المطالب رفض، وأعلن أنه مطالب بالثأر لأبيه لا إلى دفع مبالغ تؤخذ منه أو من العامة، ثم أمر بالحال أن يسعى الشحنة للتجنيد وتدوين العسكر[٦٠]، ولما أعلن الراشد رفضه نهضت العامة عند سماعها بهذا الطلب مساندة الخليفة، ثائرة ضد السلاجقة، وهكذا اندفعت نحو دار السلطنة السلجوقية ببغداد الذي كان ينزله السلاطين عند مجيئهم إلى بغداد، فنهبته[٦١].

ولما اشتدت العداوة بين الطرفين ورد بغداد جملة من الأمراء السلاجقة للقتال إلى جانب الخليفة، فجاء مسعود وحاصر بغداد من الجانب الشرقي فلم يصمد الأمراء طويلاً فتفرقوا، فاضطر الخليفة إلى العبور إلى الجانب الغربي ثم الذهاب مع عماد الدين زنكي إلى الموصل لشعوره بعدم تمكنه من مقاومة السلطان مسعود، ولم يلبث بالموصل إلا قليلاً خرج بعدها إلى أصفهان فقتل بها وقد اتهم الباطنية بقتله على باب أصفهان ٥٣٢هـ/١١٥٧م[٦٢].

وكان السلطان مسعود عند دخول بغداد قد جمع العلماء والفقهاء والأعيان وحملهم على أن يشهدوا بعدم صلاحية الخليفة الرشد، وأنه يحق خلعه واستبداله بغيره، فخُلع واستخلف مكانه المقتفي لأمر الله ٥٣٠هـ/١١٣٥م[٦٣].

ولم تصفُ للسلطان مسعود الحياة السياسية فالخلافات والأطماع بين الأمراء كانت جارية، والاضطرابات وظهور العيارين على مسرح الأحداث ببغداد مستمرة، وكانت جماهير بغداد متحفزة للوثوب فما ان قدم بعض الأمراء السلاجقة المنشقين على السلطان مسعود وهجومهم على بغداد ونهبهم الأموال واعتداؤهم على النساء حتى خرجت العامة تقاتلهم بالميازر الصوف والمقاليع التي يرمون بها الحجارة، وبالأسلحة، فوقع عدد كبير من القتلى بين الطرفين[٦٤].

ثم كانت وفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م في همذان وبموته لم يبق للسلاجقة سلطان قوي، وقد أفل نجمهم بعده، وفي هذا المعنى يقول المؤرخ ابن الأثير «ومات معه سعادة البيت السلجوقي فلم يعلُ بعده راية يعتدّ بها ولا يلتفت إليها»[٦٥].

استغل الخليفة المقتفي لأمر الله هذه الأحوال فأراد أن يزيد من حدة النزاع والتخاصم بين أفراد البيت السلجوقي فأزال اسم السلطان محمد بن السلطان محمود (أخي ملكشاه) وأدخل إلى بغداد الأمير سليمان شاه بن محمد بعد أن أخذ عليه العهد والميثاق بطاعة الخليفة والخطبة له، ولقب ألقاب أبيه غياث الدين والدنيا وجهزه الخليفة بثلاثة آلاف فارس[٦٦] فتوجه إلى بلاد الجبل لمحاربة السلطان محمد «إلا أنه خسر المعركة فاتجه السلطان محمد نحو بغداد مطالباً بالخطبة فحاصرها» سنة ٥٥٢هـ. إلا أن وقوع الفتنة في همذان جعلت السلطان يترك بغداد ويعود إلى عاصمة ملكه، ثم وردت الأنباء بوفاته عام ٥٥٤هـ/١١٥٩[٦٧].

ومما قام به الخليفة المقتفي لإنهاء الوجود السلجوقي

(٥٧) البنداري: ١٦٥.
(٥٨) ابن واصل: مفرج الكروب: ٦١- ٦٢.
(٥٩) ابن الجوزي ١٠: ٥٠، ابن الأثير ١١: ٢٨.
(٦٠) ابن الجوزي ١٠: ٥٤.
(٦١) بدري محمد فهد: العامة: ٣١٤.
(٦٢) ابن الجوزي ١٠: ٥٤- ٦٠، ٧٦.
(٦٣) ابن الجوزي ١٠: ٥٦، ٦٠.
(٦٤) بدري محمد فهد: العامة: ٣١٤.
(٦٥) ابن الأثير ١١: ١٦٠.
(٦٦) ابن الأثير ١١: ٢٠٦.
(٦٧) م.ن ١١: ٢١٢- ٢١٥.

تصفية أعوانهم بالعراق إذ باشر بعد استخلافه أي سنة ٥٣١هـ بتتبع الذين افتوا بفسق الخليفة الراشد وكتبوا المحضر فعاقبهم. ونكب الوزير الزينبي (علي بن طراد)(٦٨). واخذ يعين الولاة من قبله. كما قام بجملة إصلاحات أخرى. وكان لعامة بغداد دور بارز في حصار عام ٥٥٢هـ بالرغم من طول مدة الحصار إذ كانت تقاتل في الزوارق بنهر دجلة وفي الشوارع، وعلى الأسوار وهي تحمل السيوف والنبال والمقاليع وزراقات النار.

وقد أبدى صبيان بغداد في هذا الحصار شجاعة نادرة كالتي أظهروها عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م فقد كانوا يحملون القوارير الملأى بالنفط لرميها على فرسان السلاجقة، أو يعومون في دجلة ليصلوا إلى سفن السلاجقة لحرقها أو قتال جندها(٦٩).

وقد كان فشل الحصار وانتصار الخلافة العباسية مناسبة مفرحة إذ أدت إلى تخلص العراق من السلاجقة نهائياً فعلقت الزينة ببغداد وخرجت عامة الناس مبتهجة تعبر عن فرحتها وقام الصبيان بأنواع اللعب تعبيراً عن فرحهم بهذا النصر كما القيت القصائد بهذه المناسبة(٧٠).

ولا بد من الإشارة إلى أن نهضة الخلافة في هذه الفترة لم تكن موجهة لطرد السلاجقة من العراق فقط، بل كانت تسعى لوضع حد للأمراء المحليين، وأصحاب النفوذ في الدولة، فمن ذلك إصدار الخليفة المستنجد عام ٥٥٨هـ/١١٦٢م أمره بقتال بني أسد وإجلائهم عن الحلة لإثارتهم الفتن وعصيانهم أوامر الخلافة في مساعدتهم للسلاجقة في أثناء حصار بغداد عام ٥٥٢هـ/١١٥٦م(٧١) كذلك أمر الخليفة بإلقاء القبض على الأمير توبة العقيلي لأنه قد وافق عسكر بني همذان في الخروج على الخليفة وإعلان العصيان(٧٢).

إن ما كان يتمتع به الخليفة المستنجد بالله من مقدرة سياسية وإدارية جعلته يفرض هيبة الدولة في أنحاء العراق، ففضلاً عما تقدم من محاربته بعض العصاة من الأمراء، فإنه كان يعاقب أمراء جيشه إذ أساءوا التصرف كما حصل عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م حيث أمر بالقبض على الأميرين يزدن وتنامش والتضييق على الأمير قايماز(٧٣). ولعل محاسبته هذه للقادة وكبار موظفي الدولة جعلتهم يتآمرون عليه ويتخلصون منه عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م بقتله في الحمام(٧٤).

وقد واصل الخليفة المستضيء بأمر الله جهود والده المستنجد في الاستعداد والترقب للسلاجقة، وضرب العابثين بالأمن في العراق لهذا وجدناه عام ٥٦٨هـ/١١٧٢م وعلى اثر سماعه بقدوم العساكر السلجوقية يأمر بالتجنيد وعمارة سور بغداد، وجمع الغلات وخزنها، ثم عرض العسكر(٧٥)، ونراه عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م يستخدم هذا العسكر المجهز للقضاء على أحد أعوان السلاجقة(٧٦). وكذلك قام جيش الخلافة عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م بطرد بعض المغامرين من السلاجقة(٧٧).

أما جهود الخليفة المستضيء في معاقبة القبائل التي تثير الفتن فكانت استمراراً لجهود الخلفاء قبله فقد أمر عام ٥٧١هـ بتأديب قبيلة خفاجة، فلما توجه إليهم الجيش هربوا وتركوا منازلهم(٧٨).

وتولى عرش السلطنة السلجوقية طغرل الثالث بن أرسلان شاه وكان ذلك في عهد الخليفة الناصر لدين الله الذي يعدّ أقوى الخلفاء العباسيين في عهد الدولة العباسية الأخير، وقد حدثت حروب بين الجانبين ثم ظهرت قوة جديدة في المشرق هي قوة الخوارزمشاهية، وقد اتصل الخليفة بسلطانها وأطمعه في تمليكه ما كان للسلاجقة بعد أن أظهر له سيئات وتصرفات طغرل، فتقدم خوارزم شاه نحو الري والتقى بجيش طغرل الذي قتل في المعركة وبذلك انتهى الوجود السلجوقي في المشرق(٧٩).

(٦٨) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة** ٥: ٢٦٠.
(٦٩) ابن الجوزي ١٠: ابن الأثير ١١: ٨٦، البنداري: ٢٠٤، **العامة**: ٣١٤.
(٧٠) العماد الكاتب: **الخريدة** ج ١ ق ١ ص ٣٦ـ ٣٧.
(٧١) ابن الأثير ١١: ٢٩٦، الذهبي: **دول الإسلام** ٢: ٧٣.
(٧٢) ابن الجوزي ١٠: ٢١٠، ابن الأثير ١١: ٣٢٠.
(٧٣) ابن الجوزي ١٠: ٢٢٧.
(٧٤) ابن الأثير ١١: ٣٦٠، سبط ابن الجوزي ج ٨ ق ١ ص ٢٨٥.
(٧٥) ابن الجوزي ١٠: ٢٤٠.
(٧٦) ابن الأثير ١١: ٤٠٩.
(٧٧) ابن الجوزي ١: ٢٦٤، ابن الأثير ١١: ٤٤٠.
(٧٨) ابن الجوزي ١٠: ٢٦٠.
(٧٩) ابن الأثير ٩: ٢٣٠.

هكذا استرجعت الخلافة العباسية سيطرتها على العراق وطردت السلاجقة بجهود متواصلة. وقد كان لعامة الشعب في العراق بعامة وبغداد بخاصة دور في مؤازرة الخلافة للاستقلال عن السلاجقة، ومما مر من مواقف عامة بغداد في السنين ٥٢٠هـ، ٥٢٥هـ، ٥٤٣هـ، وما قامت به من أدوار قتالية عظيمة تجلت فيها الشجاعة والتضحية، ولم تكن هذه الروح النضالية من عامة بغداد وحدها بل تجلت في مدن العراق الأخرى فنرى في عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م وعلى أثر اشتباك الجيش العباسي مع السلاجقة في الحلة أن انضم أهلها إلى جانب الجيش العباسي وهتفوا بشعار الخليفة(٨٠)، كما دافع أهل واسط عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م عن مدينتهم عندما قصدها السلاجقة إذ عمدوا إلى فتح شق في نهر دجلة أدى إلى تسريب الماء وإغراق كثير من أفراد الجيش السلجوقي، مما اضطر الباقين إلى الرحيل عنها(٨١).

وفي هذه الفترة ولا سيما بعد أن فشل الحصار عام ٥٥٢هـ استرجعت الخلافة هيبتها في نفوس عامة الشعب، وزاد تعلقهم بها، خاصة وأن الخليفة أصبح يمارس دوره في قيادة الجيش وتفقد أحوال الناس. فمما ورد عن المقتفي لأمر الله أنه بعد فشل الحصار خرج من داره وركب سفينته في نهر دجلة لتفقد السور من أوله إلى آخره ليعرف مدى الضرر الذي أصابه، كما أنه عبر الجانب الغربي فنظر آثار الخراب مما أصاب بعض الدور من الحرائق، ثم عاد إلى منزله بعد أن أمر بتوزيع الأموال على الفقراء(٨٢).

وفي السنة التالية أي سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م قام الخليفة نفسه بزيارة مدينة الانبار متفقداً أحوالها ثم سار إلى مدينة كربلاء وبعدها إلى مدينة واسط وكان خلال ذلك يقوم بتفقد مساجد هذه المدن وأسواقها ليقف بنفسه على شؤون الرعية(٨٣). وفي عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م كرر زيارته لمدينة واسط ثم انحدر إلى مدينة الغراف لتفقد أحوالها(٨٤).

وهكذا أثمرت جهود الخلفاء المسترشد وابنه الراشد، ثم المقتفي بعدهما في إنهاء السيطرة السلجوقية على العراق تساندهم جماهير العراق ولا سيما عامة بغداد العاصمة ليصبح بعد ذلك مستقلاً مالكاً لإرادته. لذا فإن قول بعض الباحثين بأن استعادة الخلفاء لسلطانهم القديم في العراق لم يكن راجعاً إلى قوة الخلفاء وإنما كان راجعاً إلى عوامل أخرى لم يكن للخلفاء دخل فيها مثل انصراف السلاجقة إلى النزاع الداخلي، والنظام الاقطاعي العسكري الذي أدى إلى انقسام المشرق الإسلامي إلى دويلات صغيرة(٨٥)، أو قوله بأن الخلفاء في هذا العصر لم يكن لهم حول أو قوة وأنهم كانوا أمواتاً لبسوا أثواب أحياء(٨٦). إن هذه الأقوال غير صحيحة وفيها غمط لجهود الخلفاء المذكورين في مكافحة النفوذ السلجوقي إلا أن مما لا ينكر أن ضعف السلاطين السلاجقة بعد وفاة مسعود في سنة ٥٤٧هـ وفشل الحصار حول بغداد عام ٥٥٢هـ أديا إلى تشجيع الخلفاء على التوسع على حساب الامبراطورية السلجوقية، وهو الذي يفسر لنا محاولات الخليفة الناصر لدين الله العودة بالخلافة إلى عهد القوة وإحياء أمجاد أسلافه الحربية.

(٨٠) ابن الجوزي ١٠: ١٤٨، ابن الأثير ١١: ١٦٢.
(٨١) ابن الأثير ١١: ٢٣٧.
(٨٢) ابن الجوزي ١٠: ١٧٥.
(٨٣) ابن الجوزي ١٠: ١١٥.
(٨٤) ابن الجوزي ١٠: ١٨١، ابن الأثير ١١: ٢٥٢.
(٨٥) حافظ أحمد حمدي: **الشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي**: ٤٥.
(٨٦) حافظ أحمد حمدي: **الدولة الخوارزمية والمغول**: ٣٢.

المصادر والمراجع

- د. إبراهيم طرخان: **النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى** ـ القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- ابن الأثير: علي بن محمد الشيباني الجزري (٦٣٠هـ/١٢٣٤م): **الكامل**، دار صادر، دار بيروت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- الاربلي: عبد الرحمن سنبط قنيتو (٧١٧هـ/١٣١٧م): **خلاصة الذهب المسبوك** ـ بغداد ١٩٦٤.
- الأيوبي: محمد بن عمر بن شاهنشاه صاحب حماة (٦١٧هـ/١٢٢٠م): **مضمار الحقائق وسر الخلائق** ـ تحقيق د. حسن حبشي ـ القاهرة ١٩٦٨.
- د. بدري محمد فهد: **تاريخ العراق من العصر العباسي الأخير** ـ بغداد ـ مطبعة الإرشاد ١٩٧٤. تاريخ أمراء الحج ـ مجلة **المورد** عدد ٤ سنة ١٩٨١.
- البنداري: الفتح بن علي الأصفهاني (٦٤٣هـ/١٣٤٥م) **تاريخ دولة آل سلجوق** ـ بيروت ١٩٧٨.
- البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد (٤٤٠هـ/١٠٤٨م): **الآثار الباقية عن القرون الخالية** ـ تحقيق د. إدوارد شاخت ـ لايبزك ١٩٢٣.
- ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف (٨٧٤هـ/١٤٦٩م): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ـ ١٣٤٨ ـ ١٣٧٥هـ/ ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦م.
- التقي الفاسي: محمد بن أحمد المكي (٨٣٢هـ/١٤٢٨م): **منتخب المختار** ـ تحقيق عباس العزاوي ـ بغداد ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.
- ابن جبير: محمد بن أحمد الأندلسي (٦١٤هـ/١٢١٧م) **الرحلة** ـ بيروت ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي (٥٩٧هـ/١٢٠١م)
- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ـ ١٣٥٧ ـ ١٣٥٩هـ.
- حافظ أحمد حمدي: **الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي** ـ دار الفكر العربي ١٩٥٠.
- **الدولة الخوارزمية والمغول** ـ دار الفكر العربي ١٩٤٩.
- حسين أمين: **تاريخ العراق في العصر السلجوقي** ـ بغداد ١٣٨٥هـ/١٩٨٥م.
- الحسيني: علي بن ناصر (القرن السابع الهجري): **أخبار الدولة السلجوقية** ـ نشر محمد اقبال، لاهور ١٩٣٣.
- ابن خرداذبة: عبيد الله بن عبد الله (٢٨٠هـ/٨٩٢م) **المسالك والممالك** ـ تحقيق أم. جي. ودي غويه، بريل. ليدن ١٣٠٩هـ.
- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ/١٤٠٦م): **المقدمة** ـ دار إحياء التراث ـ بيروت. تاريخ ابن خلدون ـ بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- الدوري: د. عبد العزيز: **تاريخ العراق الاقتصادي** ـ بغداد ١٩٤٨.
- الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد (٧٤٨هـ/١٢٤٧م) **دول الإسلام**، حيدر آباد الدكن ١٣٣٣هـ.
- **المختصر المحتاج إليه** ـ تحقيق د. مصطفى جواد ـ بغداد ج ١ سنة ١٩٥١، ج ٢ سنة ١٩٦٣.
- الراوندي: محمد بن علي (كان حياً في سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م) **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية** ـ ترجمة الشواربي وعبد النعيم حسنين ـ القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.
- ابن رجب: عبد الرحمن بن شهاب الحنبلي (٧٩٥هـ/١٣٩٢م) **الذيل على طبقات الحنابلة** ـ القاهرة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣م.
- الرسولي: الأشرف أبو العباس إسماعيل: (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) **العسجد المسبوك** ـ القسم المخطوط في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب، بغداد، والقسم المطبوع ـ ١٩٧٥م.
- الرحيم د. عبد الحسين مهدي: **الخدمات العامة في بغداد** ـ بغداد ١٩٨٧.

- ابن الساعي: علي بن أنجب البغدادي (٦٧٤هـ/١٢٧٥ - ١٢٧٦) **الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير** - تحقيق د. مصطفى جواد- بغداد ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.
- سبط بن التعاويذي: محمد بن عبيد الله (٥٨٣هـ/١١٨٧م) **ديوانه** - تحقيق مرجليوث، القاهرة ١٩٠٣.
- سبط بن الجوزي: يوسف بن قزاوغلي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** - ج ٨، حيدر آباد الدكن ١٣٧٠ - ١٣٧١هـ/١٩٥١ - ١٩٥٢م.
- السمعاني: عبد الكريم بن محمد التميمي (٥٦٢هـ/١٩٦٦م) **الأنساب** - نشر مارجليوث - لندن وطبعة دائرة المعارف العثمانية.
- السمرقندي: النظامي العروضي (حوالي ٥٥٢هـ/١١٥٦م) **جهار مقالة** - ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب - القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩.
- سوسة: أحمد نعيم: **ري سامراء في عهد الخلافة العباسية** - بغداد ١٩٤٨ - ١٩٤٩.
- أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) كتاب **الروضتين** - اعتناء الكوثري - ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.
- ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا (٧٠٩هـ/١٣٠٩م): **الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية** - القاهرة ١٣٤٠هـ.
- د. عبد النعيم حسنين: **سلاجقة إيران والعراق** - القاهرة ١٩٥٩.
- العماد الكاتب: محمد بن محمد الأصفهاني (٥٩٧هـ/١٢٠١م) **خريدة القصر وجريدة العصر** - القسم العراقي - تحقيق الأثري - ج ١، ٢ بغداد ١٩٥٥ - ١٩٦٤.
- القرشي: عبد القادر بن أبي الوفاء محمد (٧٥٥هـ/١٣٧٣م): **الجواهر المُضيّة في طبقات الحنفية** - حيدر آباد ١٣٣٢هـ.
- القزاز: د. محمد صالح: **الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير** - النجف ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- القلقشندي: أبو العباس أحمد (٨٢١هـ/١٤١٨م): **صبح الأعشى** - القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧.
- ابن الفوطي: عبد الرزاق بن أحمد الشيباني (٧٢٣هـ/١٣٢٣م): **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب** - ج ٤ تحقيق د. مصطفى جواد. دمشق ٩٦٢٠ ج ٥ تحقيق محمد القاسمي لاهور (١٣٩٥هـ/ ١٩٤٠م).
- الماوردي: علي بن محمد البصري (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** - القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م).
- مجهول: **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة** - تحقيق د. مصطفى جواد - بغداد ١٣٥١هـ.
- المصنف: أبو بكر بن هداية الله (١٠١٤هـ) **طبقات الشافعية** - بغداد ١٣٥٦هـ).
- ابن النظام الحسيني: محمد بن محمد (٧٤٣هـ) **العراضة في الحكاية السلجوقية** - ترجمة وتحقيق د. حسين أمين - بغداد ١٩٧٩.
- ناجي معروف: **المدارس الشرابية** - بغداد ١٩٦٥م.
- **تاريخ علماء المستنصرية** - بغداد ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.
- ابن النجار: محمد بن محمود البغدادي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م): **التاريخ المجد لمدينة السلام** - نسخة مصورة من مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب، رقم ٥٧٥، ١٢٧.
- النويري: أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٢هـ/١٣٣٢م): **نهاية الأرب في فنون الأدب** - القاهرة ١٣٤٩ - ١٣٦٩هـ/ ١٩٢٩ - ١٩٤٩م).
- نظام الملك: الحسن بن علي الطوسي (٤٨٥هـ/١٠٩٢م): **سياسة نامة** (أو سير الملوك) - ترجمة د. يوسف بكار، دار الثقافة، الدوحة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (٦٩٧هـ/١٢٩٧م): **مفرج الكروب** - تحقيق د. الشيال ١٩٥٣ - ١٩٦٠.
- ياقوت الحموي: شهاب الدين الرومي البغدادي (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) **معجم البلدان** - باعتناء مارجليوث - القاهرة ١٩٢٤ - ١٩٣٠م.

—— Duri (A.A): DIWAN. E. I. VOL. 11.
—— SHDJUKS: E. I. VOL. IV.

القضاء والقضاة بإفريقية في عهد الولاة (٨٠ ــ ١٨٤هـ/ ٦٩٩ ــ ٨٠٠م)

د. فريد بن سليمان
كلية الآداب ـ قسم التاريخ ـ صفاقس ـ تونس

يعتبر الفتح الإسلامي لبلاد المغرب من أطول الفتوحات نسبياً إذ استوجب حملات عديدة ومتكررة للجند العربي انطلاقاً من مصر بداية من سنة ٢٧هـ/٦٤٨م إلى حوالي سنة ٧٥هـ/٦٩٣م، تاريخ القضاء على المقاومة البربرية التي تزعمتها الكاهنة[١]. تخللت هذه المدة الطويلة فترة هدنة أثناء الفتنة الكبرى وشهدت خلالها إفريقية تأسيس مدينة القيروان التي تطورت بسرعة من قاعدة عسكرية إلى مصر من أهم الأمصار الإسلامية الأولى. وقد اتجهت عناية الولاة الأوائل إلى تمهيد البلاد قبل كل شيء، لإقرار العرب بها وكسر شوكة البربر الثائرين أو المرتدين عن الإسلام. ولم يكن ليتجه تفكيرهم إلى التنظيم الإداري والبلد يعوزه الاستقرار الكافي، لذلك فإنه ما إن توفر هذا العامل الأساسي والضروري واستقرت البلاد لحسان بن النعمان حتى فكر هذا الوالي في تنظيم البلاد فدوّن الدواوين، وصالح على الخراج، وكتبه على عجم افريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية[٢]. ثم زاد الوالي موسى بن نصير في إحكام هذا التنظيم وتدعيمه بإرساء مؤسسة القضاء وتعيين أول قاضٍ لافريقية. ومنذ ذلك التاريخ لم تنفك هذه المؤسسة تتطور وتتشعب تدريجياً، وهو محور اهتمام هذه الدراسة عن القضاء والقضاة بافريقية في عهد الولاة من سنة ٨٠هـ/٦٩٩م تاريخ تعيين أول قاض بها إلى حدود سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م تاريخ انتهاء فترة الولاة وقيام الإمارة الأغلبية وذلك بالاعتماد على ما توفر لدينا من مصادر أقل ما يقال عنها انها قليلة جداً وجافة.

المصادر والإشكالية

اعتبر المؤرخ الفرنسي جوتييه(GAUTIER) الفترة الفاصلة بين قدوم العرب الفاتحين في منتصف القرن السابع الميلادي وزحف قبائل بني هلال العربية في منتصف القرن الحادي عشر «قروناً مظلمة» في تاريخ بلاد المغرب فاتخذ المؤرخ هذه السمة البارزة في نظره عنواناً لكتابه[٣] ويعلل ذلك بسبب رئيسي هو قلة المصادر عن هذه الفترة والحال أنه خلال القرن الأول من هذه الفترة شهدت بلاد المغرب أعمق تحول وأخطر منعرج في تاريخها وأكبر قطيعة مع ماضيها باعتناقها الدين الإسلامي واستعمالها اللغة العربية[٤]. لكن حكم جوتييه ـ مع ما فيه من مغالاة ـ ينطبق أكثر على فترة الولاة لافتقارها إلى المصادر، وهو ما يفسر إلى حد كبير قلة الأبحاث والدراسات عن هذه الفترة[٥].

تشكل إذن قضية المصادر الإشكال الكبير لمؤرخي فترة الولاة عند طرقهم لأي صنف من أصناف المواضيع بما في

(١) حسين مؤنس، **فتح العرب للمغرب**، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٤٧، ص ٢٦٨ـ ٢٦٩.

(٢) ابن عذاري، **البيان المغرب**، تحقيق ومراجعة كولان ـ ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ج ١، ص ٣٨.

(٣) Gautier (E.F), *le passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscures*, Paris 1937.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٠.

(٥) نذكر من بينها خاصة كتابي جوتييه وحسين مؤنس المشار إليهما أعلاه والمقالين:

- Dijait (H), «"La Wilaya d'ifriqiya au IIè/VIIè siècle"», *"Studia Islamica, 1966-1967, XXVII," pp77-121; 1968, 69, XXVIII, pp79-107.*
- Brunschving (R), «"Ibn Abd al Hakam et la conquette de l'Afrique du nord par les arabes"» *A.I.E.O, VI, 1947, pp108-155.*

ذلك تلك التي تبدو كلاسيكية بالنسبة إلى فترات أخرى كالمواضيع السياسية أو الوقائعية، فما بالنا بالمواضيع المتعلقة بالأوضاع الاجتماعية أو الاقتصادية أو بدراسة مؤسسة ما كالقضاء، خاصة في غياب وثائق الأرشيف بجميع أنواعها وافتقارنا إلى كتب تراجم القضاة المتوفرة في بعض الأمصار الإسلامية الأخرى كالأندلس أو مصر، ككتاب «الولاة والقضاة بمصر»(٦) لأبي عمر الكندي (ت. بعد ٣٣٥هـ/٩٦١م) أو «قضاة قرطبة»(٧) للخشني (ت. ٣٦٩هـ/٩٧٥م) أو «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا»(٨) لأبي الحسن النباهي (ت. ٧٩٢هـ/١٣٨٩م) في تراجم قضاة الأندلس من الفتح إلى عصر المؤلف، أو كتاب «أخبار القضاة»(٩) لابن حيان المعروف بوكيع (ت. ٣٠٦هـ/٩١٨م)(١٠).

هل يعني ذلك أن الباب موصد أمام المؤرخ وبالتالي ليس بإمكانه طرق موضوع القضاء بإفريقية في غياب هذا الصنف من المؤلفات؟ الجواب لا يمكن أن يكون إلا بالنفي، وإن بات من شبه اليقين استحالة اكتشاف مصادر جديدة. لذا فإن المؤرخ مدعو إلى استغلال ما توفر لديه من المصادر وإن كانت قليلة من كتب الطبقات وما حوته من إشارات مقتضبة عن القضاء والقضاة مع ضرورة الرجوع إلى كتب التراجم المتعلقة بقضاة الأمصار الأخرى ليقيننا بتشابه التنظيم القضائي بين مختلف الأمصار الإسلامية. كما هو مدعو أيضاً لاستغلال كتب التاريخ العام أو المحلي والتي دوّن فيها أصحابها أحداث ووقائع فترة الولاة ككتاب «فتوح إفريقية والأندلس»(١١) لابن عبد الحكم (ت. ٢٥٧هـ/٨٧١م) و«فتوح البلدان»(١٢) للبلاذري (ت. ٢٧٩هـ/٨٩٢م) و«البيان المغرب» لابن عذاري المراكشي (ت. نحو ٦٩٥هـ/١٢٩٥م) وغيرها... وإن كان ما ورد عن القضاة في هذه الكتب التاريخية جاء عرضاً وفي سياق تاريخ الأحداث والوقائع.

تعتبر كتب الطبقات مصدرنا الرئيسي وإن كانت غير خاصة بالقضاة، بل بسائر أعلام إفريقية، ثم إن كلّها متأخرة عن فترة الولاة وأقدمها كتاب «علماء إفريقية وتونس»(١٣) لأبي العرب (ت. ٣٣٣هـ/٩٤٤م) أي متأخر بقرن ونصف على الأقل وعنه نقل حرفياً كلّ من الخشني الذي أورد قائمة لقضاة القيروان(١٤) والمالكي (ت. بعد ٤٥٣هـ/١٠٦١م) في كتابه «رياض النفوس»(١٥). وعن أبي العرب والمالكي نقل الدباغ القيرواني (ت. ٦٩٩هـ/١٣٠٠م) في كتابه «معالم الإيمان»(١٦).

تلك هي جملة كتب الطبقات الإفريقية، ونحن مهما حاولنا استغلال ما ورد فيها من معلومات عن القضاء والقضاة في عهد الولاة فإن النتائج ستبقى دائماً محدودة، ذلك لأن هذا الصنف من المصادر متضمن لنقائص يمكن وصفها بالعضوية فلو حللنا ترجمة أحد هؤلاء القضاة الذين ترجم لهم أبو العرب - الذي يعتبر المصدر الرئيسي - لوجدنا أن الترجمة لا تتعدى في معظم الأحيان بعض الأسطر وتتضمن عادة الاسم والنسبة والخصال الأخلاقية للقاضي أو المثالب، وأحياناً الظروف التي تولى فيها القضاء.

(٦) طبع الكتاب عدة مرات وإحالتنا على تحقيق رفن كست في مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨م. وهو يبدأ بولاية عمرو بن العاص على مصر وينتهي بولاية أبي الفوارس أحمد بن علي بن الاخشيد ودخول الجيش الفاطمي لمصر. ولهذا الكتاب ذيول عديدة منها: «رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر العسقلاني و«النجوم الزاهرة بتلخيص أخبار قضاة مصر والقاهرة» ليوسف بن شاهين سبط ابن حجر العسقلاني.

(٧) طبع مرة أولى بعناية المستشرق الإسباني خوليان روبيرة سنة ١٩١٤ مع ترجمة إلى الإسبانية ودراسة تحت عنوان «قضاة قرطبة». وأعاد السيد عزت العطار الحسيني طبعه مع كتاب آخر للخشني وجمع بين عنواني الكتاب في قضاة قرطبة وعلماء إفريقية سنة ١٣٧٢م. احلنا في دراستنا على هذه الطبعة. وطبع مرة ثالثة من قبل الدار المصرية للتاليف والترجمة سنة ١٩٦٦ بعنوان «قضاة قرطبة». وفي طبعة العطار قائمة لأسماء قضاة القيروان في آخر كتاب علماء إفريقية.

(٨) نشره ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٤٨م. ونشر مرة أخرى من قبل المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

(٩) طبع الكتاب مرة أولى بتصحيح عبد العزيز مصطفى المراغي، في ثلاث مجلدات، ١٩٥٠. وأعيد طبعه من قبل دار عالم الكتب، بيروت في ٣ أجزاء، ونحيل على هذه الطبعة. وهو يتناول أخبار القضاة في جميع الأمصار الإسلامية من صدر الإسلام إلى وفاة المؤلف. وهو من أقدم الكتب التي وصلت إلينا.

(١٠) عن الرصيد التراثي العربي عن القضاء والقضاة، انظر خاصة بدري محمد فهد، «تراث المسلمين القضائي»، **المورد، ١٩٧٩، المجلد الثاني، ص ١١- ٥٤**.

(١١) ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية والأندلس**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٤٦.

(١٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق دي غويه، ليدن، ١٩٦٨.

(١٣) أبو العرب، **علماء إفريقية وتونس**، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٥.

(١٤) الخشني، **قضاة قرطبة وعلماء إفريقية**، ص ٣٠٢- ٣١١.

(١٥) المالكي، **رياض النفوس**، تحقيق البشير البطوش، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١- ١٩٨٣.

(١٦) ابن ناجي، **معالم الإيمان**، المطبعة العربية التونسية، ١٣٢٠هـ.

قضاة إفريقية (٨٠ ـ ١٨٤هـ/٦٩٩م ـ ٨٠٠م)

أ ـ قائمة القضاة

جاء ذكر اسم أول قاض لإفريقية سنة ٨٠هـ/٦٩٩م[١٧]، أي ربع قرن بعد تأسيس القيروان ونصف قرن من تاريخ الحملة الأولى للفتح الإسلامي، تمّ ذلك في ولاية موسى بن نصير لإفريقية، وقد وجد بلداً مستقراً نسبياً توفر فيه على الأقل عاملان أساسيان لإقامة تنظيم إداري وتعيين قاض هما: استتباب الأمن والازدياد المطرد لمعتنقي الدين الإسلامي من بين سكان إفريقية.

أما أول من استقضي بإفريقية من قبل موسى بن نصير فهو عبد الرحمان بن رافع التنوخي[١٨]. كل ما نعرفه عن هذا القاضي أنه كان من رواة الحديث، فقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص[١٩] وغيره، وروى عنه كل من ابنه إبراهيم، وعبد الرحمان بن زياد بن أنعم[٢٠]، وبكر بن سوادة[٢١] وغيرهم. وتشير المصادر أن ابن رافع كان ضمن الفقهاء العشرة الذين بعث بهم الخليفة عمر بن عبد العزيز ليفقهوا أهل إفريقية[٢٢] حوالي سنة ١٠٠هـ/٧١٨م وهذا يدفع بالقول أنه قد يكون قدم مع موسى ثم رجع إلى المشرق ولعل ذلك تزامن مع رجوع موسى بدوره إلى دمشق في أواخر خلافة الوليد بن عبد الملك أو بداية خلافة سليمان بن عبد الملك أي في حدود سنة ٩٦هـ/٧١٤م. فإن كان كذلك فلقائل أن يتساءل هل ولي آنذاك القضاء غيره ممن ذكرتهم بعض المصادر أمثال أبي علقمة مولى عبد الله بن عباس الذي لم يحدد أي مصدر تاريخ ولايته قضاء افريقية[٢٣].

وفي سنة ١٠٠هـ/٧١٨م قدم القيروان وال جديد هو سليمان بن عبيد الله (١٠٠ـ ١٠١هـ/ ٧١٨ـ ٧١٩م) ومعه كتاب من الخليفة عمر بن عبد العزيز بتولية القضاء لعبد الله بن المغيرة بن أبي بردة القرشي[٢٤]، جاء فيه: «قد قلدت القضاء فيكم عبد الله بن المغيرة لما صحّ عندنا من دينه وزهده ونفاذه في علمه ومعرفته وثقته في نفسه وشدة ورعه»[٢٥]. وهو أيضاً من التابعين ومن رواة الحديث. ولئن ذكرت المصادر أنه أقام على القضاء إلى ولاية كلثوم بن عياض، فإننا لا ندري إن كان وليه مرة واحدة أو أكثر. فإن كان مرة واحدة لمدة ٢٣ عاماً بدون انقطاع فإن ذلك يتعارض مع ما ورد في بعض المصادر المتأخرة[٢٦] في شأن خالد بن أبي عمران[٢٧] الذي ولّي القضاء ما بين (١١٦ـ ١٢٣هـ/ ٧٣٤ـ ٧٤١م)[٢٨]، فكيف غفل أبو العرب عن ذكر ذلك لو ثبت لديه أمره. أضف إلى ذلك أن رواية أخرى تذكر أن الوالي عبيد الله بن الحبحاب طلب من خالد بن أبي عمران تولي القضاء فهرب منه إلى الإسكندرية[٢٩]. ثم إن ابن أبي عمران كان سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠م على رأس الوفد الذي لحق بالمشرق لإعلام الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ـ ١٠٥هـ/ ٧١٩ـ ٧٢٤م) بمقتل والي إفريقية يزيد بن أبي مسلم (١٠١ـ ١٠٢هـ/ ٧١٩ـ ٧٢٠م)، من قبل أحد حراسه[٣٠].

وفي ولاية كلثوم بن عياض (١٢٣ـ ١٢٤هـ/ ٧٤١ـ ٧٤٢م) ورد ذكر اسم القاضي عبد الرحمان بن عقبة الغفاري[٣١] الذي لعب دوراً كبيراً في مقاومة الخوارج الصفرية الثائرين

---

(١٧) المالكي، **رياض النفوس**، ج ١، ص ١١٠، ابن ناجي، **المعالم**، ج ١، ص ١٥١.

(١٨) انظر ابن حجر، **التهذيب**، ط. أولى، حيدر آباد ١٣٢٦هـ، ج ٦، ص ١٦٨ـ ١٦٩.

(١٩) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٧٧ـ ٣٧٨.

(٢٠) انظر ترجمته في أبي العرب، **طبقات**، ص ٩٥ـ ١٠٥.

(٢١) انظر، ترجمته في ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج ١، ص ٤٨٣ـ ٤٨٤.

(٢٢) أبو العرب، **طبقات**، ص ٨٤.

(٢٣) استبعد الأستاذ هشام جعيط أن يولى مولى على القضاء في القرن الأول للهجرة (Djait, La wilaya... p.106)

(٢٤) انظر ترجمته في ابن حجر، **التهذيب**، ج ١، ص ١٢٦ـ ١٢٧.

(٢٥) المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٦.

(٢٦) ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج ٣، ص ١١٠، السيوطي، **حسن المحاضرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط أولى ١٣٨٧هـ، ج ١، ص ٢٩٩.

(٢٧) انظر ترجمته في أبي العرب، **طبقات**، ص ٢١٢ـ ٢١٥، المالكي، **رياض النفوس**، ج ١، ص ١٦٢ـ ١٦٦.

(٢٨) حسن حسني عبد الوهاب، **كتاب العمر**، منشورات بيت الحكمة، تونس ١٩٩٠، ج ١، ص ٢٩٩.

(٢٩) المالكي، **رياض النفوس**، ج ١، ص ١٦٤.

(٣٠) ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية والأندلس**، ص ٨٩.

(٣١) المصدر السابق، ص ٩٦، المالكي، **رياض النفوس**، ج ١، ص ١٢٧، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٠٦.

على الوالي. وتشير المصادر أن الوالي قد استخلف القاضي على القيروان عند خروجه لقتال البربر[32]. وخلال ثلاث سنوات على الأقل أي ما بين (١٢٤- ١٢٦هـ/ ٧٤٢- ٧٤٤م) شهدت إفريقية قلاقل واضطرابات كثيرة أحدثها الخوارج، فلا غرابة إن بقيت البلاد بدون قاض في تلك الفترة المضطربة لانشغال الوالي الجديد حنظلة بن صفوان بتنظيم جنده والتصدي للخطر الخارجي[33].

وفي أوائل خلافة مروان بن محمد الجعدي (١٢٦- ١٣٢هـ/ ٧٤٤- ٧٥٠م) آخر خليفة أموي بالمشرق- تولى قضاء إفريقية- بأمر منه عبد الرحمان بن زياد بن أنعم الذي ولي القضاء مرتين. انتهت الولاية الأولى بسقوط الأمويين. وعبد الرحمان من رواة الحديث، اشتهر بضعف روايته حتى قال عنه بعضهم، «ما ينبغي أن يروى حديث عنه»[34]. وقد ذكرت بعض المصادر نص كتاب تولية ابن أنعم: «قد ولاك أمير المؤمنين الحكومة والقضاء بين أهل إفريقية لفقهك وعدلك وخيرك ونسبك وعلمك وتجربتك...»[35]. شهدت إفريقية في تلك الأثناء صراعاً على السلطة بين الوالي حنظلة والثائر عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي حل بتونس في أواخر ١٢٧هـ/ ٧٤٥م قادماً إليها من الأندلس فقويت شوكته بانضمام الناس إليه وأرغم الوالي على مغادرة إفريقية في اتجاه المشرق على أن يأخذ من بيت المال ما يلزمه في ذلك. وتمّ فعلاً ذلك- حسب بعض المصادر- بحضور القاضي والعدول[36]، دون ذكر اسم ذلك القاضي.

وأثناء حكم الفهريين لإفريقية (١٢٧- ١٤٤هـ/ ٧٤٥- ٧٦١م) عرفت البلاد من جديد اضطرابات وثورات للبربر الخوارج الصفرية تمكنوا من التغلب على القيروان والسيطرة على الحكم لمدة قصيرة[37]. وقد لعب القاضي أبو كريب جميل بن كريب[38] دوراً هاماً في قيادة مقاومة أهالي القيروان لعاصم الورفجومي زعيم الخوارج، فقتل القاضي سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م أثناء صموده مع جماعة قليلة في محاولة لمنع الصفرية من دخول القيروان. ولما فشلت المقاومة، ودخل عاصم المدينة واستولى عليها[39]، لحق وفداً من وجوه إفريقية لحق بالمشرق لطلب النجدة من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور لتخليص البلاد من السيطرة الصفرية. قاد هذا الوفد القاضي عبد الرحمان بن زياد بن أنعم وكان ذلك حوالي ١٤٢هـ/ ٧٥٩م. ولا ندري إن كانت لفظة القاضي هنا تدل على أنه كان على خطة القضاء آنذاك أو لأنه تولى القضاء من قبل فعرف بالقاضي. والأقرب إلى الظن هو الاحتمال الثاني لأن الولاية الثانية لعبد الرحمان بن أنعم تزامنت مع قدوم الوالي الجديد محمد بن الأشعث سنة ١٤٤هـ/٧٦١م. وبالتالي قد يكون بقي منصب القضاء شاغراً في فترة الاضطرابات إلى قدوم الوالي الذي اصطحب معه أمر تولية القضاء لعبد الرحمان بن زياد بن أنعم ثانية.

ولي إذن ابن أنعم القضاء بأمر من الخليفة العباسي المنصور[40]. واستمر بمنصبه إلى فترة ولاية يزيد بن حاتم (١٥٥- ١٧١هـ/ ٧٧٢- ٧٨٧م) الذي عزله في تاريخ نجهله بسبب رفض القاضي أن يختم حكماً مرة ثانية بعد أن فض الوالي خاتمه. وتقول المصادر إنه على إثر هذه الحادثة رحل ابن أنعم عن القيروان وسكن مدينة تونس[41].

ولما عزل يزيد بن حاتم القاضي عبد الرحمان بن أنعم ولي مكانه ماتع بن عبد الرحمان الرعيني[42]. وكل ما نعرفه عنه أنه اشتهر بكونه قاضياً مرتشياً، وعلى قول أبي العرب: «لم يعلم من قضاة إفريقية الذين تقدموا ماتع أسوأ حالاً منه»[43] وبذلك عرف هذا القاضي بسلوكه اللاأخلاقي وبقلة فقهه.

(٣٢) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ١، ص ٥٤، الرقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية والمغرب**، تحقيق المنجي الكعبي، تونس ١٩٦٨، ص ١١٣.
(٣٣) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ١، ص ٥٩.
(٣٤) ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج ٦، ص ١٧٤.
(٣٥) المالكي، **رياض النفوس**، ج ١، ص ١٥٩- ١٦٠.
(٣٦) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ١، ص ٦٠.
(٣٧) عن ثورات الخوارج الصفرية، انظر محمود عبد الرازق، **الخوارج في بلاد المغرب**، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط. أولى، ١٩٧٦، ص ٦٢- ٨١.
(٣٨) انظر ترجمته في أبي العرب، **طبقات**، ص ٢١٧- ٢١٩.
(٣٩) محمود إسماعيل عبد الرازق، **الخوارج في بلاد المغرب**، ص ٧٤- ٧٥.
(٤٠) أبو العرب، **طبقات**، ص ٩٦، المالكي، **رياض النفوس**، ج ١، ص ١٦٠.
(٤١) أبو العرب، **طبقات**، ص ١٠٣.
(٤٢) المصدر السابق، ص ١٠٤- ١٠٥.
(٤٣) المصدر السابق، ص ١٠٥.

وتولى القاضي يزيد بن الطفيل[٤٤] في ولاية يزيد بن حاتم خلفاً لماتع، وعزل الوالي ابن الطفيل بسبب إيداعه لسجل الأحكام عند صباغ أمام المسجد الجامع. عرف هذا القاضي بخصاله الحميدة فقال عنه أبو العرب: «لا سمعت من يذكره إلا بخير»[٤٥]. ولئن أغفلت كل المصادر ذكر تاريخ عزله فإن منصب القضاء يبدو شاغراً في أول ولاية روح بن حاتم (١٧١- ١٧٤هـ/ ٧٨٧- ٧٨٩م) الذي سعى أن يقلده لعالم تونس وفقيهها آنذاك عليّ بن زياد[٤٦]، فتمارض هذا الأخير حسب بعض الروايات، وفي البعض الآخر أنه قدم عليه ولكنه تعاق، فأسرع بالخروج من القيروان حتى لا يوجه الأمير في طلبه[٤٧]. وأمام رفض ابن زياد طلب الأمير من الفقيه عبد الله بن فروخ[٤٨]، تولي القضاء، فامتنع بدوره، ولكن روح أرغمه على القبول، فقبله مكرهاً «وأجلس إلى الناس في الجامع، وجعل معه الحرس، فجعل الخصوم يكلمونه وهو يبكي ويقول لهم: ارحموني يرحمكم الله». فبلغ ذلك روحاً فأعفاه وخلى عنه، بعد أن أشار عليه ابن فروخ- حسب بعض الروايات- أن يولي مكانه ابن غانم[٤٩].

ولي إذن عبد الرحمان بن غانم[٥٠] سنة ١٧١هـ/٧٨٧م واستمر على القضاء إلى وفاته سنة ١٩٠هـ/٨٠٦م. وهو ممن رحل إلى المشرق وسمع من مالك وسفيان الثوري وابن يونس وسمع أيضاً من مشائخ إفريقية كعليّ بن زياد، وعبد الرحمان ابن انعم. وولي القضاء وعمره ٤٢ سنة[٥١].

هكذا تعاقب خلال فترة الولاة وعلى امتداد قرن ما لا يقل عن عشرة قضاة تفاوتت مدة ولاياتهم، وقد صعب علينا تحديد فترة ولاية البعض منهم لاضطراب المصادر وغموضها، مما دفعنا إلى التخمين والتأويل مع ما قد يعرض الباحث إلى الخلط أو الغلط. ولكن رغم تعدد هؤلاء القضاة فإنه يمكن إيجاد ملامح وخصائص مشتركة لهم.

جدول لقضاة إفريقية في عهد الولاة

القاضي	تاريخ الولاية	مصدر التولية	النسبة
عبد الرحمان بن رافع	٨٠هـ-؟	الوالي موسى بن نصر	تنوخي
أبو علقمة	٩٦- ٩٩؟	؟	مولى
عبد الله بن المغيرة	١٠٠هـ-؟	الخليفة عمر بن عبد العزيز	كتاني
خالد بن أبي عمران	١١٦- ١٢٣؟	؟	تجيبي
عبد الرحمن بن عقبة	١٢٣- ١٢٤	الوالي كلثوم بن عياض	غفاري
عبد الرحمان بن زياد	١٢٦- ١٣٢	الخليفة مروان بن محمد	معافري
أبو كريب	١٣٢- ١٣٩	الوالي عبد الرحمن بن حبيب	معافري
عبد الرحمن بن زياد	١٤٤- ١٥٥	الخليفة أبو جعفر المنصور	معافري
ماتع بن عبد الرحمان	١٥٥-؟	الوالي يزيد بن حاتم	رعيني
يزيد بن طفيل	؟- ١٧١	الوالي يزيد بن حاتم	تجيبي
عبد الله بن فروخ	١٧١- ١٧١	الوالي روح بن حاتم	مولى
عبد الله بن غانم	١٧١- ١٩٠	الوالي روح بن حاتم	رعينيّ

(٤٤) المصدر السابق، ص ١٠٥- ١٠٦.

(٤٥) المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٤٦) انظر ترجمته في المصدر السابق، ص ٢٢٠- ٢٢٣.

(٤٧) الطالبي، **تراجم أغلبية**، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٦٨، ص ٢٤- ٢٥.

(٤٨) انظر ترجمته في أبي العرب، **طبقات**، ص ١٠٧- ١١١، الطالبي، **تراجم أغلبية**، ص ٤٠- ٥١.

(٤٩) الطالبي، **تراجم أغلبية**، ص ٤٥.

(٥٠) انظر ترجمته في المصدر السابق، ص ٧- ٢١، أبو العرب، **طبقات**، ص ١١٦- ١١٧.

(٥١) أبو العرب، **طبقات**، ص ١١٦.

ب- بعض ملامح القضاة

كان ولا شك قضاة عهد الولاة بإفريقية نتاج عصرهم في تكوينهم ونمط عيشهم وأخلاقهم وأحكامهم. فإفريقية كانت لا تزال في تلك الفترة حديثة العهد بالإسلام لم تظهر بها بعد المذاهب الفقهية (أبو حنيفة ولد ٨٠هـ/٦٩٩م، ومالك حوالي ٩٥هـ/٧١٥م، والشافعي ١٥٠هـ/٧٦٧م). كان القرآن والحديث أساس تكوين هؤلاء القضاة ومرجع أحكامهم فجلّ قضاة تلك الفترة بإفريقية وبغيرها من الأمصار من رواة الحديث. هذا ولا بد أن تتوفر في القاضي خصال الورع والتقى وشرف النسب. فقد روي أن قاضي مصر عابس بن سعيد كان أمياً، فسئل: كيف تقضي؟ فقال: ما علمته قضيت به وما جهلته سالت عنه»[٥٢]. وعن قاضي إفريقية أبي كريب، قال أبو العرب مشيراً إلى قلة علمه: «إنه طلب شيء من العلم يكتبه عنه فما وجده»[٥٣]. وقال نفس الشيء عن ماتع. وعن القاضي ابن الطفيل، قال: «لم أجد له حديثاً يرويه عنه أحد من مشائخنا»[٥٤]. لم يختص قضاة إفريقية وحدهم بذلك. فقد روي أن قاضي مصر خيار بن خالد (ت. ١١٤هـ) لما عرض عليه القضاء، قال: «لا أحسنه». فأقعد معه سليمان بن زياد الحضرمي كاتباً. وكان إذا أخطأ نبهه سليمان، فيرد الخصم فيجبره بما قال الكاتب ويقضي به. فإذا عاتبه الخصم، قال: «إن كاتبي أعلم مني، ولا يستوحش من ذلك»[٥٥].

والواقع أن التكوين الفقهي لدى الأفارقة لم يبرز إلا برحلة الأوائل منهم إلى المشرق والسماع من كل من أبي حنيفة ومالك. ومن أول هؤلاء الذين تولوا القضاء آنذاك ابن فروخ لأيام معدودة وابن غانم. أما قبل ذلك فإن «توفر التقوى في القاضي كان ينظر إليه بتقدير يفوق التقدير لتوفر العلم فيه»[٥٦]. يحكى أن القاضي أبا كريب ربما يجلس في الجامع، وحده، فيقال له: «لو أنك انصرفت؟ فيقول: من لي بالملهوف إذا لم يجدني»[٥٧]. وفي رواية أخرى أن هذا القاضي ربما يتبين له الحكم في الليل فيأتي دار من ثبت حقه فيأمره أن يحضر له صالح جيرانه ليشهدهم له. فيقول: «لو تركت هذا لغد ثم مت أنا من ليلتي أليس يتلف حقه»[٥٨]. كل ذلك كان ولا شك من باب الورع. فعن قاضي الأندلس مهاجر بن نوفل القرشي قال الخشني: «لم يُرَ مثله في العبادة والورع. كان يجتمع عنده الناس للتحاكم فلا يزال يذكرهم ويخوفهم الله وما يلحق المبطل من سخط الله وعقوبته وموقفه بين يديه في القيامة... ثم يأخذ في النوح على نفسه والبكاء... حتى ينصرفوا عنه باكين خائفين، وقد تعاطوا الحقوق بينهم»[٥٩]. ومن ورع بعضهم أنه كان يرفض أخذ الأجر عن القضاء. وهو أمر لم يرد ذكره في مصادرنا عن قضاة إفريقية في فترة الولاة، وأول من ذكر هو سحنون فيما بعد»[٦٠]. ورد في ترجمة قاضي مصر عبدالله بن يزيد بن خذامر الذي ولي القضاء ما بين (١٠٠-١٠٥هـ/ ٧١٨- ٧٢٣م): «أنه لم يقبض درهماً ولا ديناراً»[٦١] وعن القاضي المصري إبراهيم بن يزيد الرعيني (١٤٤-١٥٤هـ/ ٧٦١- ٧٧١م) قال الكندي: «إذا غسل ثيابه، أو شهد جنازة، أو اشتغل بشغل، لم يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل»[٦٢]. فلئن شكك المستشرق هوبكنز في صحة الكثير من هذه الروايات ووصفها بالمبالغة في كثير من الأحيان[٦٣]، فإنها- كما قال الأستاذ محمد الطالبي: «تفيد في بعض الأحيان ما يفيده صحيح الرواية وأكثر»[٦٤].

والذي يستخلص منها هو أن الورع ظاهرة عامة في مجتمع حديث العهد بالإسلام، إيمانه وتحمسه لهذا الدين قويان وقضاته حريصون على إقامة العدل خوفاً من عذاب الآخرة، وهم الذين حفظوا- ولا شك- من الأحاديث النبوية العديدة

(٥٢) الكندي، **قضاة مصر**، ص ٣١١.
(٥٣) أبو العرب، **طبقات**، ص ٢١٩.
(٥٤) المصدر السابق، ص ١٠٥- ١٠٦.
(٥٥) ابن حجر، **رفع الإصر عن قضاة مصر**، تحقيق حامد عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٧، ج ١، ص ٢٢٥.
(٥٦) هوبكنز، **النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى**، نقله عن الإنكليزية، أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ج ١، ص ١٧٠.
(٥٧) أبو العرب، **طبقات**، ص ٢١٩؛ ابن ناجي، **المعالم**، ج ١، ص ١٧٠.
(٥٨) المصدران السابقان، نفس الصفحات.
(٥٩) الخشني، **قضاة قرطبة**، ص ٢٧.
(٦٠) الطالبي، **تراجم أغلبية**، ص ١٠٢.
(٦١) الكندي، **قضاة مصر**، ص ٣٢٩.
(٦٢) المصدر السابق، ص ٣٦٣.
(٦٣) هوبكنز، **النظم الإسلامية**، ص ٢٠٥.
(٦٤) الطالبي «البيئة التي أنشأت سحنون»، **دراسات في تاريخ إفريقية**، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨٢، ص ٩٨.

التي بقدر ما تحث على العدل وترغب فيه بقدر ما ترهب من سخط الله على القاضي الجاني أو المرتشي[٦٥] لكن ذلك لم يمنع بعض القضاة أمثال ماتع من الارتشاء رغم حرصه على العدل وعدم رضائه لتدخل أصحاب السلطة في شؤون القضاء إذ ذكر أبو العرب أنه خلف بعد موته صحيفة كتب عليها «إنّما حكمت لفلان على فلان لأن فلاناً سألني فيه». وأضاف أبو العرب: «يعني بعض السلاطين»[٦٦]. إلا أنّ ظاهرة الرشوة لم تكن خاصة ببعض قضاة إفريقية دون سائر الأمصار الأخرى. فعن القاضي المصري يحيى بن ميمون الحضرمي (١٠٥ـ ١١٤هـ/ ٧٢٤ـ ٧٣٢م) قيل انه كان له كتّاب لا يكتبون قضية إلا بالرشوة، فبلغ ذلك الخليفة هشام بن عبد الملك، فكتب إلى الوالي: «اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء وتخيّر رجلاً عفيفاً، ورعاً، نقياً من العيوب، لا تأخذه في الله لومة لائم»[٦٧].

يضاف إلى الورع خصائص أخرى ميزت جلّ القضاة كالتواضع الذي قال عنه هوبكنز انه «متكلف ويقصد به حبّ الظهور، وهو نوع من التواضع المتصنع حتى في القرنين الأولين للهجرة. وفي القرون التالية اكتسب القاضي درجة من الأبهة»[٦٨] الواقع أن البساطة لا تعدو أن تكون إلا من مميزات تلك الأزمنة الأولى من حيث الملبس والمأكل والعمارة. فلا غرابة إن كان جلّ القضاة يأتون مجلس القضاء على حمار، أي على أفضل وسيلة تنقل أهل ذلك العصر، فركوبه يمثل مظهراً من مظاهر الأبهة. فقد مرّ يوماً القاضي ابن غانم بالسوق راكباً دابته، فالتقى بالبهلول بن راشد (ت. ١٨٣هـ/ ٧٩٩م)[٦٩]، فدعاه إلى الركوب عوضاً عنه، فقال له البلهوان: إني أجلك أن تمشي راجلاً. فقال ابن غانم: اركب خلفك...»[٧٠]. وراكب يوماً نفس القاضي ابن غانم الأمير إبراهيم بن الأغلب، فزادت دابة الأمير في المشي، فحول القاضي دابته وعرج إلى داره، فعاتبه إبراهيم على ذلك، فقال له ابن غانم: «أصلح الله الأمير إنما نفوذ أحكام القاضي على قدر جاهه...»[٧١] فهي إذن بساطة مع حرص على الجاه والاحترام وشيء من الأنفة عند القاضي ابن غانم الذي لم يغفل بعض من ترجم له على ذكر تعاليه وأنفته من خلال قول أحدهم له: «بلغني أنك تجدَ بنفسك فأحببت أن أضع منك»[٧٢]، وروي عن هذا القاضي أنه لما مات قومت كسوة ظهره التي خلفها بألف دينار[٧٣]، وفي ذلك دلالة على مدى ثروة ابن غانم المتكونة من ضياع ومنزل يخرج إليها مع جماعته ويقيم بها الولائم والأطعمة الفاخرة[٧٤]. فشتان بينه وبين القاضي عبد الرحمان بن أنعم الذي أقبل عليه يوماً القاضي ماتع بمنزله «فوجد بين يديه جشيشاً يحسوه... فجعل يحسو بدوره معه»[٧٥]. والجشيش هو طعام من الحب المطحون طحناً غليظاً ويقال له أيضاً دشيشة ويلقى عليه لحم أو تمر فيطبخ[٧٦]. وكما لاحظ هوبكنز فإن «في إمكان المرء أن يملأ مجلداً بالحكايات»[٧٧]. لكننا على عكسه لا نشك في صحة الكثير منها لأن قضاة تلك الفترة أناس كسائر البشر تختلف طباعهم وسلوكهم وأحوالهم المادية، ودرجة ورعهم وتقاهم، وإن ما يبدو لنا اليوم تواضعاً مبالغاً فيه كان ـ ولا شك ـ أمراً عادياً في مدينة القيروان التي ولئن تطورت بسرعة واتسع عمرانها فإنه «ينبغي أن لا نتصورها كعاصمة عصرية»[٧٨]. فقنواتها تخرج من الدور وتسيل في الأزقة، والطين يغمر الطرق والأسواق كلما نزل المطر، حتى أن بعض المصادر تذكر أنّ القاضي أبا كريب كان

(٦٥) أحاديث عديدة في هذا الموضوع، منها: «من جعل قاضياً بين الناس ذبح بغير سكين»، «القاضي ليزل في مزلقة أبعد من عدن في جهنم»، «لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي في الحكم»...
(٦٦) أبو العرب، **طبقات**، ص ١٠٤.
(٦٧) الكندي، **قضاة مصر**، ص ٢٤٠ـ ٢٤١.
(٦٨) هوبكنز، النظم الإسلامية، ص ٢٠٥ـ ٢٠٦.
(٦٩) انظر ترجمته في أبي العرب، **طبقات**، ص ١٢٦ـ ١٢٨.
(٧٠) الطالبي، **تراجم أغلبية**، ص ١٦ـ ١٧.
(٧١) المصدر السابق، ص ١٤.
(٧٢) المصدر السابق، ص ١٦.
(٧٣) المصدر السابق، ص ٢١.
(٧٤) دوزي، **المعجم**، ط. ثانية، ١٩٢٧، ج ٢، ص ٤٩٤، (مادة كنف).
(٧٥) أبو العرب، **طبقات**، ص ١٠٥.
(٧٦) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٨، ص ١٦١ (مادة جشش).
(٧٧) هوبكنز، **النظم الإسلامية**، ص ٢٠٥.
(٧٨) الطالبي، «البيئة التي أنشأت سحنون»، ص ١٤٥.

ربما يشاهد وهو يخوض الطين إلى أنصاف ساقيه وهو في طريقه إلى الجامع[٧٩]، اي إلى مجلس حكمه. فالبساطة هي سمة تلك القرون الأولى وسمة أناسها وعمارتها. فقد مر يوماً الفقيه ابن فروخ بدار ابن غانم القاضي ورأى عليها غرفة مبنية بالطوب على البعض منها، فرفع رأسه إليها وردد النظر فيها، ثم قال: «يا ابن غانم ما ظننت أنه يبلغ بك الأمر إلى هذا كله. وأقبل يتعجب من ذلك ويستعظمه»[٨٠].

هذا ولم تكن البساطة لتعني السذاجة أو تذلل القضاة لأصحاب السلطة، بل كان من شيم جلّ هؤلاء الدفاع عن هيبة القاضي والقضاء، لذلك تعددت حالات عزل القضاة لأنفسهم لمجرد تدخل الوالي أو أحد أعوانه في شؤون القضاء دفاعاً عن مبدأ استقلالية القضاء.

ج ـ التنظيم القضائي

إن الدراسات الحديثة والاستشراقية منها خاصة عن القضاء وتنظيمه في الإسلام عديدة[٨١]، وأوسعها على الإطلاق هي دراسة «تيان» عن تاريخ تنظيم القضاء في الأقطار الإسلامية[٨٢]، إلا أن بحثه عام يهم بلاد الإسلام ولا يختص بإفريقية.

على أنه ليس بالهين على مؤرخ فترة الولاة تقديم صورة ـ ولو إجمالية ـ عن تنظيم القضاء بإفريقية الذي كان ولا شك مشابهاً لبقية الأمصار الإسلامية الأخرى التي بدورها اتخذت من نمط العاصمة الأموية ثم العباسية أنموذجاً لها مع مراعاة كل مصر لأوضاعه المحلية. لكن مهما يكن الأمر فإن مؤسسة القضاء في مختلف هذه الأمصار لم تتبلور بعد بصفة واضحة إذ لا تزال في طور النشأة والتكوين.

أ ـ المبادىء

يعدّ القضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع طبقاً للأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة. كان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم، وباشره الولاة الأوائل للأمصار المفتوحة قبل أن يولوا القضاء لغيرهم على غرار ما فعل الخليفة عمر بن الخطاب الذي هو أول من دفع القضاء إلى غيره بتعيينه قضاة على كل من المدينة والبصرة والكوفة لانشغاله بالفتوحات وقيامه بالسياسة العامة وتخفيفاً على نفسه[٨٣]، كتب عمر آنذاك رسالته المشهورة لأبي موسى الأشعري قاضي الكوفة ضمنها المبادىء التي يجب أن يراعيها القاضي في عمله والتي بقيت ـ ولا شك ـ المرجع الأساسي للقضاة المسلمين في القرون الأولى. ومما جاء في هذه الرسالة أنه على القاضي:

- أن يتروى في القضية ولا يعجل بالحكم فيها.
- أن يساوي بين الناس من شريف أو ضعيف.
- أن يجعل البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر.
- أن له الحق في التراجع عن حكم إذا ما بدا له ما هو أصوب منه.
- أن يكون عارفاً لنظائر الأمور وأشباهها ليقيس بها.
- أن يمهل المتقاضين حتى يأتوا ببيناتهم.
- أن يتثبت من أمر الشهود وأن لا يقبل من جرح منهم.
- أن يتحلى بالصبر وطول النفس[٨٤].

(٧٩) ابو العرب، **طبقات**، ص ٢١٩.
(٨٠) المالكي، **رياض النفوس**، ج ١، ص ١٨٥ ـ ١٨٦.
(٨١) عن التنظيم القضائي في الإسلام، انظر:
ـ عاصم محمد شبارو، **القضاء والقضاة في الإسلام**، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٣.
ـ هوبكنز، **النظم الإسلامية في القرون الوسطى**، تعريب أمين توفيق الطيبي.
- J. Schacht, *«An Introduction to Islamic Law»*, Oxford-Clarendon Press 1964. L'ouvrage et traduit en français et puplié sous le titre de: Introduction au droit musulman, Paris-Maison neuve et Larose 1983.
- M. Khadduri, *«The islamic conception of justice»*, Baltimore/ London 1984.
- Gaudefroy - Demonbynes, «Notes sur l'histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam *«in Revue des Etudes Islamiques», 1939, pp.109-147.*
- H. Ibrahim Hassen «Judiciary system from the rise of Islam to 567H/1171 *«in Islamic Quarterly, VII, pp.23-30.*
- M. Hamidullah, «Administration of justice under the early caliphate *«Journal of Pakistan Hist.Soc. XIX», Janvier 1971, pp.1-50.*
(٨٢) E. Tyan, *«Histoire de l'organisation judiciare en pays d'islam»*. Annales de l'Université de Lyon, 1938-1943, T.I-II.
(٨٣) ابن خلدون، **المقدمة**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٦، ص ٣٩١.
(٨٤) المصدر السابق، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١.

اتخذ الولاة من الخلفاء مثالهم الأعلى فجمعوا بين الولاية والقضاء وقلّما فرّقوا بين محتوى المؤسستين حتى اننا نرى الخليفة سليمان بن عبد الملك يوصي والي إفريقية الجديد محمد بن يزيد (٩٧ـ ٩٩هـ/ ٧١٥ـ ٧١٧م) ويقول له قبل أن يغادر المشرق: «اتق الله وحده لا شريك له وقم فيما وليتك بالحقّ والعدل...» انصرف الوالي وهو يقول: «مالي عذر عند الله إن لم أعدل»[٨٥]. فالفصل بين الولاية والقضاء لم يكن واضحاً، لذلك كثيراً ما يتدخل الوالي في شؤون القاضي فيؤدي ذلك إلى تخلي هذا الأخير عن منصبه. والواقع أنّ في تراجم القضاة العشرة لإفريقية في عهد الولاة لم نعثر إلا على حادثة واحدة جرت للقاضي عبد الرحمان بن انعم مع الوالي يزيد بن حاتم الذي فض خاتم حكم لقاضٍ كان بحوزة امرأة من حاشية الأمير وطلب من القاضي أن يختمه مرة ثانية، فرفض عبد الرحمان وأصرّ أن تعيد المرأة البينة. وأمام إلحاح الوالي عزل القاضي نفسه وقيل انه غادر القيروان للسّكن بتونس[٨٦]. اما ما جرى للقاضي أبي كريب مع الوالي عبد الرحمان بن حبيب فهو يجسم بحق ظاهرة استقلالية القضاء آنذاك. فقد وقف الوالي بين يدي القاضي في أمر خاصمه فيه أحدهم، وأنكر عبد الرحمان ما ادعاه خصمه عليه، فطلب منه أبو كريب أن يحلف ـ تطبيقاً لمبدأ البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ـ فأبى الوالي وقال: ما أحلف. فلما نكل عن اليمين ثلاث مرات حكم عليه القاضي لخصمه، فجعل عبد الرحمن بن حبيب يقول: «الحمد لله الذي لم أمت حتى جعلت فيما بيني وبين الله تبارك وتعالى من يحكم في عباده بالحق»، وقال أبو كريب: «وانا أحمد الله أن لم أمت حتى رأيت أميراً يشكر الله عزّ وجلّ بالقضاء بالحق عليه»[٨٧]. فمهما كان نصيب هاتين الروايتين من الصحة، فإن ما أحصيناه من الحالات في بعض المصادر المتعلقة بتراجم قضاة مصر والأندلس وإفريقية في القرنين الأولين للهجرة قليل جداً، وما نلاحظه هو خاصة حرص جلّ القضاة للدفاع عن استقلاليّة القضاء. وما روي عن القاضي المصري عبد الملك بن محمد الحزمي (١٧٠ـ ١٧٤هـ/ ٧٨٥ـ ٧٨٩م) وصاحب البريد يغني عن المقال. فقد روي أن صاحب البريد شفع إلى الحزمي في خصم فكتب إليه القاضي: «ما أنت والقضاء؟ عليك تدبر دوابك وبرادعها وكنس زبولها...». وفي رواية أخرى أن صاحب البريد كتب للقاضي: «إنك تبطىء بالجلوس للناس. فكتب إليه الحزمي: «إن كان أمير المؤمنين أمرك بشيء وإلا فإن في أكفك وبراذعك ودبر دوابك ما يشغلك عن أمر العامة»[٨٨]. ولا شك أن هذا الحرص على مبدأ الاستقلالية هو ما دفع بعض القضاة إلى رفض هدايا أصحاب السلطة، وقد عبر عن ذلك بوضوح في إفريقية عبد الرحمان بن أنعم بقوله: «إذا رأيت الهدية دخلت دار القاضي فاعلم أنّ الأمانة قد خرجت من كل الدار»[٨٩].

٢ـ طرق التولية وشروطها

اختلفت طرق التولية من قاض إلى آخر بين من عينهم الخلفاء مباشرة ومن عينهم الولاة. فخلال الفترة المدروسة سجلنا ثلاث حالات فقط لقضاة تولوا بأمر من الخليفة الأموي أو العباسي والبقية من طرف الولاة. فأول من استقضي وهو عبد الرحمن بن رافع ولاه موسى بن نصير. ولعل هذا الوالي أراد أن يبرهن بذلك عن استقلال إفريقية عن عامل مصر الذي كانت راجعة بالنّظر له منذ أول الفتح. وقد قرر الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦هـ/٧١٥م فصل إفريقية إدارياً عن ولاية مصر وجعلها راجعة بالنظر للخليفة دون سواه[٩٠]. أما قرارات عزل القضاة فقد صدرت في جميع الحالات عن الولاة.

أما شروط التولية فهي لا تبدو خاضعة لمعايير مضبوطة وثابتة. ولنا في بعض كتب التولية التي وصلت إلينا من اختيار الخليفة. فقد ورد في كتاب تولية القاضي عبد الله بن المغيرة من طرف الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز: «قد قلدت القضاء فيكم عبد الله بن المغيرة لما صحّ عندنا من دينه وزهده ونفاذه في علمه ومعرفته وثقته في نفسه وشدة ورعه». وكتب الخليفة مروان بن محمد إلى القاضي بن أنعم: «قد ولاك أمير المؤمنين لفقهك وعدلك وخيرك ونسبك وعلمك وتجربتك»[٩١]. يختار إذن القاضي لعلمه وخصاله الأخلاقية وشرف نسبه. فكل

(٨٥) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ١، ص ٤٧.

(٨٦) ابن ناجي، **معالم الإيمان**، ج ١، ص ١٧٥، المالكي، **رياض النفوس**، ج ١، ص ١٥٢ـ ١٥٣.

(٨٧) أبو العرب، **طبقات**، ص ٢١٨.

(٨٨) الكندي، **قضاة مصر**، ص ٣٨٤ـ ٣٨٥.

(٨٩) أبو العرب، **طبقات**، ص ٩٨، ابن ناجي، **معالم الإيمان**، ج ١، ص ١٧٣.

(٩٠) الكندي، **قضاة مصر**، ص ٨١.

(٩١) المالكي، **رياض النفوس**، ج ١، ص ١٢٦، ١٥٩.

قضاة إفريقية من أصل عربي باستثناء اثنين من الموالي وهي ظاهرة عامة في كل الأمصار الإسلامية آنذاك. وقد ترجمت عن ذلك زوجة قاضي مصر توبة بن نمر الحضرمي (ت. ١٢٠هـ) بقولها لزوجها: «والله ما حاباك ابن رفاعة بهذه الولاية، فلو وجد في قيس كلها من يسدّ مسدك لآثره عليك»(٩٢).

اختلفت ظروف التولية مع أن المصادر لم تكشف لنا عنها كلها. فاختيار عبدالله بن المغيرة جاء بعد تقصي الخليفة لأخباره. واختير ابن أنعم لنفس الأسباب تقريباً على حسب ما ورد في كتاب التولية. ولا شك أنهما لم يكشفا عن أسباب أخرى خفية لهذا الاختيار. فالقاضي الأول هو ابن القرشي والتابعي الشهير المغيرة بن أبي بردة(٩٣) ولا شك أن تأثير هذا العامل كان قوياً. أما القاضي الثاني فقد صاحب أثناء دراسته بالمشرق أبا جعفر المنصور الذي سيلي فيما بعد الخلافة، ولا نشك أن هذا العامل لعب دوراً هاماً في تولية ابن أنعم لقضاء إفريقية(٩٤).

هذا وأكدّ جلّ الدّارسين أن معظم القضاة في التّاريخ الإسلامي قد امتحنوا وتولوا خططهم تحت الضغط والإكراه. لكن مثل هذه الظاهرة لم نسجلها إلا في حالة واحدة بإفريقية في عهد الولاة، وهي حالة ابن فروخ الذي أجبره الوالي روح بن حاتم وجعل معه الحرس في المسجد الجامع ثم أعفاه بعد أيام قلائل(٩٥). والواقع أن ظاهرة امتناع الفقهاء عن تولي القضاء ورفضهم له جاءت خاصة مع ظهور المذاهب الفقهية بالمشرق وتحت تأثير كل من أبي حنيفة ومالك. والمعروف أن ابن فروخ هو ممن رحل إلى المشرق ولقي أبا حنيفة وتأثر به كثيراً. فقد روى أنه سأل شيخه: «ما منعك أن تلي القضاء؟» فأجاب: «القضاء على ثلاثة أوجه: رجل يحسن العوم ويأخذ البحر طولاً... ورجل لا يحسن العوم فعام يسيراً فغرق، ورجل لا يحسن العوم فألقى بنفسه وغرق»(٩٦). وإذا كان كذلك فقد صحّ فيه قول القاضي عياض: «كان ابن فروخ أكره الناس في القضاء اقتداء بأبي حنيفة»(٩٧). فكان إذن ابن فروخ نسخة من شيخة في مواقفه من الأمير الجائر إذ عرف بدعوته للخروج عليه وبعدم تولي القضاء لأمير غير عادل(٩٨).

٣ ـ الصلاحيات والإجراءات

إن الوظيفة الأساسية للقاضي هي قبل كل شيء الفصل بين الخصوم، لكن اتسعت تدريجياً صلاحياتهم بحسب اشتغال الولاة بالسّياسة وإدارة شؤون الولاية، ولئن لم تذكر مصادرنا صلاحيات أخرى للقاضي بإفريقية باستثناء الفصل بين الناس في الخصومات، فإننا لا نعتقد أنها انحصرت في هذا المجال، ذلك أن في أمصار أخرى كثيراً ما تشير المصادر أن هذا القاضي جمع بين القضاء والشرطة(٩٩)، وذلك بين القضاء وبيت المال(١٠٠)، وآخر بين القضاء والأحباس(١٠١). ولكن الإشارات المقتضبة جداً في بعض المصادر توحي إلينا بوجود البعض من هذه المؤسسات بإفريقية في عهد الولاة. فقد ورد ذكر الشرطة للمرة الأولى في ولاية عبد الرحمان بن حبيب (١٢٧ـ ١٣٨هـ/ ٧٤٥ـ ٧٥٥م)، وكان على شرطته عبد العزيز بن قيس(١٠٢)، وللمرة الثانية سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م عند خروج الوالي محمد بن مقاتل العكي من إفريقية إلى المشرق وقد اصطحبه صاحب شرطته وكان يدعى طرحون(١٠٣)، وفي نفس الفترة نجد إشارة في أبي العرب إلى وجود عسس بالقيروان كانوا يطوفون أزقة المدينة ليلاً ويحرسونها، وهم ولا شك من فروع الشرطة(١٠٤). ولا ندري إن كانت

(٩٢) ابن حجر، **رفع الإصر عن قضاة مصر**، ج ١، ص ١٥٩.
(٩٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت ١٩٥٧، ج ٥، ص ٢٤٠.
(٩٤) أبو العرب، **طبقات**، ص ٩٦.
(٩٥) المصدر السابق، ص ١٠٨.
(٩٦) ابن ناجي، **معالم الإيمان**، ج ١، ص ١٨١.
(٩٧) الطالبي، **تراجم أغلبية**، ص ٤٥.
(٩٨) ابن ناجي، **معالم الإيمان**، ج ١، ص ١٨٣.
(٩٩) الكندي، **قضاة مصر**، ص ٣١١ـ ٣٢٢، وكيع، **أخبار القضاة**، عالم الكتب، بيروت، ج ١، ص ١١٨، ج ٣، ص ٢٢٣.
(١٠٠) الكندي، **قضاة مصر**، ص ٣١٧ـ ٣٣٢.
(١٠١) المصدر السابق، ص ٣٤٦ـ ٣٩٤.
(١٠٢) الرقيق، **تاريخ**، ص ١٢٥.
(١٠٣) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ١، ص ٩٠.
(١٠٤) أبو العرب، **طبقات**، ص ١٤١.

صلاحيات صاحب الشرطة آنذاك تتطابق مع ما ذكره فيما بعد ابن خلدون عن هذه المؤسسة[١٠٥]. أما ذكر بيت المال[١٠٦] فورد في ابن عذاري عند الحديث عن الوالي حنظلة بن صفوان الذي أجبر على مغادرة إفريقية من طرف الثائر عبد الرحمان بن حبيب سنة ١٢٩هـ/٧٤٧م الذي فتح له بيت المال فأخذ منه ألف دينار بحضور العدول والقاضي[١٠٧].

وكثيراً ما كان الوالي يستخلف القاضي على القيروان عندما يغادرها أو يخرج لقتال الثائرين فيتولى آنذاك القاضي قيادة مقاومة الأهالي إذا ما لزم ذلك أو إذا ما هوجمت المدينة. ولنا في مثالي القاضيين عبد الرحمان بن عقبة وأبي كريب خير دليل على ذلك. فالأول استخلفه الوالي كلثوم بن عواص على القيروان لما سار لقتال الخوارج البربر الثائرين سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م[١٠٨]. أما القاضي أبو كريب فقد استخلفه الوالي حبيب بن عبد الرحمان لما خرج لقتال الخوارج الصفرية سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م. فقاد القاضي أبو كريب مقاومة أهل القيروان للخارجي عاصم الورفجومي. ورغم تفرق الأهالي من حول القاضي فإنه صمد في نحو ألف منهم حتى قتل هو وأكثر أصحابه سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م ودخلت قبائل ورفجومة القيروان[١٠٩]. هذا وإن استعمال القضاة في قيادة الجيوش أمر متعارف عليه في التاريخ الإسلامي عبر عنه ابن خلدون بقوله: «كان الخلفاء يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الصوائف»[١١٠].

ترأس القضاة كل الوفود التي توجهت من إفريقية إلى عاصمة الخلافة سواء للتهنئة أو لطلب النجدة. فلما قتل الوالي يزيد بن أبي مسلم من طرف أحد حرسه بقيت البلاد بغير وال، وقد رفض القرشي المغيرة بن أبي بردة توليها بطلب من الناس، فبعث محمد بن أوس الأنصاري - الذي قبل الولاية - بخالد بن أبي عمران إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك يعلمه بما حدث[١١١] - ولما اضطربت أحوال إفريقية وتغلب عليها الخوارج الصفرية واقتحموا القيروان سافر القاضي عبد الرحمان بن أنعم إلى الخليفة أبي جعفر المنصور مستغيثاً، فوجه إلى إفريقية المدد مع الوالي الجديد محمد بن الأشعث سنة ١٤٤هـ/٧٦١م[١١٢]. وكان قد بعث من قبل حبيب بن عبد الرحمان مع القاضي عبد الرحمان بن أنعم بطاعته إلى الخليفة[١١٣].

تلك هي إذن المجالات التي نشط فيها قضاة إفريقية في عهد الولاة، ولا شك أن صلاحياتهم كانت تتسع وتتقلص من وقت لآخر بحسب الظروف وبحسب قوة شخصية القاضي[١١٤]، فامتد نفوذ بعضهم إلى الشرطة والمظالم وقيادة الجيوش في حين اقتصر البعض الآخر على الفصل بين الخصوم.

أما أهم سمات الإجراءات القضائية فهي البساطة والبعد عن كل تعقيد. يجلس القاضي عادة في المسجد الجامع ولكن ذلك ليس بقاعدة ثابتة. فنراه يحكم بين الناس في الطريق، أو في السوق أو في داره. فقد روي أن خصمين اعترضا القاضي أبا كريب في الطريق إلى المسجد، فنزل عن حماره وقعد لهما إلى جانب حائط ونظر بينهما فيما اختصما فيه[١١٥]، ونقرأ مثل هذه الروايات في تراجم قضاة آخرين عديدة، فحادثة أبي كريب لا تختلف كثيراً عما روي عن القاضي المصري غوث بن سليمان[١١٦] الذي لقيته امرأة قادمة من الريف وهو في طريقه إلى المسجد، فشكت إليه أمرها وأخبرته بحاجتها، فنزل عن دابته في حانوت من حوانيت السراجين وكتب لها بحاجتها

(١٠٥) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣٩٢.

(١٠٦) انظر:

- Coulson (N.J.), Bayt et Mal, «*Encyclopedie de l'islam*», *I, pp.1176-1178.*

(١٠٧) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ١، ص ٦٠.

(١٠٨) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ١، ص ٥٤- ٥٥، الرقيق، **تاريخ**، ص ١١٣، ابن خلدون، **العبر**، ج ٤، ص ٤٠٦.

(١٠٩) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ١، ص ٦٩- ٧٠، ابن ناجي، **معالم الإيمان**، ج ١، ص ١٧٠.

(١١٠) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣٩٢- ٣٩٣.

(١١١) ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية**، ص ٨٩.

(١١٢) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ١، ص ٧٢.

(١١٣) ابن خلدون، **العبر**، ج ٤، ص ٤٠٩.

(١١٤) شبارو، **القضاء والقضاة في الإسلام**، ص ١١.

(١١٤) المالكي، **رياض النفوس**، ج ١، ص ١٧٠، ابن ناجي، **معالم الإيمان**، ج ١، ص ١٧٠.

(١١٦) ولي القضاء ثلاث مرات (١٣٥- ١٤٠هـ)، (١٤٠- ١٤٤هـ)، ١٦٧ - ١٦٨هـ، الكندي، **قضاة مصر**، ص ٣٥- ٣٦١- ٣٧٤.

وركب إلى المسجد[117]. وروي نفس الشيء عن إياس بن معاوية قاضي البصرة أيام عمر بن عبد العزيز أنه كان يقضي في الطريق والسوق[118]. أما جلوس القاضي للحكم في داره فشائع في تلك الأزمنة ومن بعدها، فالقاضي أبو محرز الذي ولي القضاء في العهد الأغلبي قد «جعل للنساء يوماً، ويجلس لهن عند باب داره الذي هو في زقاق ابن دينار»[119].

والواقع أنه لم تتعقد الإجراءات القضائية إلا فيما بعد. فالقاضي كان يتولى تسجيل القضية في ديوانه بنفسه. وأول من اتخذ الكتاب من قضاة إفريقية هو ابن غانم. فقد قيل انه كان له كاتب من عادته أن يتقدم إلى مقعد القاضي في الجامع فيجلس حتى يأتي ابن غانم، كما كان له أيضاً وصيف يبعث معه بديوانه المختوم، فيبقى بحاله إلى ان يأتي القاضي فيركع ركعتين، ثم يجلس، فإذا رأى طابعه بحاله فكه[120]. ويعتبر السجل الذي يدون فيه القاضي محاضر جلساته وأحكامه وثيقته الرسمية إلى جانب خاتمه الذي يختم به الأحكام. وقد روي أن القاضي ابن طفيل عزله الوالي لأنه كان يستودع سجله عند صباغ مقابل للمسجد الجامع[121]. فبساطة الإجراءات واكبت - ولا شك - فترة كانت فيها الخصومات قليلة جداً حتى قيل ان القاضي ابن طفيل كان يجلس في المسجد اليوم كله فلا يأتيه أحد فينعس في مجلسه، فإذا كان الوقت الذي ينصرف فيه إلى داره ركب دابته ورجع[122]. ولم يكن ابن طفيل وحده في تلك الوضعية، فقد روي عن القاضي المصري بكار بن قتيبة (ت. ٢٧٠هـ) أنه ربما نعس في مجلسه، واتكأ، ثم ينصرف إلى منزله ولم يتقدم إليه اثنان[123]، وذلك في منتصف القرن الثالث الهجري فما بالنا بقرن كاملٍ من قبل ذلك. وإنما تعقد القضاء بتعقد الحياة الاجتماعية والحياة الفكرية في أواخر القرن الثاني للهجرة بظهور المذاهب الفقهية وتأثر القضاء بها.

ومن ركائز القضاء نذكر خاصة تقديم البيّنة وأداء اليمين من قبل من نكل، لذلك احتل الشهود مكانة هامة عند التقاضي. وفي رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري أن على القاضي التثبت من أمانة الشهود وأن لا تقبل الشهادة ممن جلد أو شك في نسبه. ولئن يبدو أن هاته المسألة لم تشكل قضية بالنسبة لقضاة إفريقية في عهد الولاة فإننا نلاحظ أن في بلد مثل مصر حظيت مسألة الشهود بعناية القضاة الأوائل. فقد ذكرت بعض المصادر أن القاضي غوث بن سليمان الذي ولي القضاء بين ١٤٠- ١٤٤هـ/ ٧٥٧- ٧٦١م هو أول من بادر بالسؤال عن الشهود سراً. فمن عدل عنده قبله وجرّح رفضه، ولا شك أنه فعل ذلك بعد أن لاحظ تفشي ظاهرة شهادة الزور في المجتمع[124]. أما القاضي المفضل بن فضالة الذي ولي القضاء ما بين ١٦٨- ١٦٩هـ/ ٧٨٤- ٧٨٥م فقد جعل كاتباً خاصاً يسأل عن الشهود، فعمدت أقوام كثيرة إلى إرشاء الكاتب ليذكرهم بالعدالة[125]. وزاد عن ذلك القاضي عبد الرحمان بن عبد الله العمري (١٨٥- ١٩٤هـ/٨٠١ - ٨١٠م) فدوّن أسماء الشهود في سجل، وأسقط سائر الناس الآخرين، وسار القضاة من بعده على منواله[126]. وللتحري اكثر فاكثر من مسألة الشهود أمر القاضي لهيعة بن عيسى (١٩٩- ٢٠٤هـ/٨١٥ - ٨١٩م) كاتبه أن يجدد السؤال عنهم في كل ستة أشهر، فمن حدثت له جرحة أسقط اسمه من السجل[127]. كل هذه المسائل لم تتعرض لها مصادرنا الإفريقية ولا ندري إن كانت قد وجدت. أما حرص قضاة مصر فلا يمكن أن يفسر إلا بالعامل المادي ذلك أن الشهادة تجلب منفعة مادية، فالعطاءات كانت توزع على من ثبت اسمه في قائمة الشهود لشرف نسبه ونظافة عرضه، وكان أشراف العرب يقظين من أن يلحق بالنسب العربي من لم يكن منهم، لذلك نراهم يحتجون لدى الخليفة على القاضي عبد الرحمان العمري بأنه ألحق حرسه القبط بالعرب ونسبهم إلى قضاعة، فكتب الخليفة إلى القاضي: «ألاّ يمنح أحداً من غير العرب

(١١٧) المصدر السابق، ص ٣٧٤.

(١١٨) وكيع، **أخبار القضاة**، ج ١، ص ٣٢٣، ٣٣٩.

(١١٩) المالكي، **رياض النفوس**، ج ١، ص ٢٧٤.

(١٢٠) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٧.

(١٢١) ابو العرب، **طبقات**، ص ١٠٦.

(١٢٢) المصدر السابق، ص ١٠٦.

(١٢٣) ابن حجر، **رفع الإصر**، ج ١، ص ١٥٢.

(١٢٤) الكندي، **قضاة مصر**، ص ٣٦١.

(١٢٥) المصدر السابق، ص ٣٨٥.

(١٢٦) المصدر السابق، ص ٣٩٤.

(١٢٧) المصدر السابق، ص ٤٢٢.

اللحاق بالعرب»، وأمره بأن يرد حرسه إلى ما كانوا عليه من انسابهم[١٢٨]. فمثل هذه الحوادث لو جرت بإفريقية لما غفلت عن ذكرها المصادر. كما لم تشر أيضاً مصادرنا إلى قضاء أهل الذمة في حين أننا نعلم أن عدداً هاماً من السكان حافظوا على دياناتهم الأصلية كما النصرانية على أن يؤدوا الجزية. فقد ذكر ابن عبد الحكم أن حسان بن النعمان لما استقامت له البلاد «دوّن الدواوين، ووضع الخراج على عجم إفريقية وعلى من معهم من النصرانية من البربر»[١٢٩]. كما سكتت مصادرنا عن أمر أجر القضاة، في حين تعددت الإشارات لهذه المسألة بالنسبة لقضاة الشام ومصر والأندلس. ولئن ذكرت جلّ الدراسات أن القضاة كانوا يرفضون أخذ الأجر عن عملهم فإننا لاحظنا في القرنين الأولين للهجرة أن حالات القضاة الرافضين للأجر لا تمثل إلا نسبة ضئيلة جداً. ففي مصنف هام ككتاب «قضاة مصر» للكندي لم نستخرج إلا حالة واحدة للقاضي عبد الله بن يزيد خذامر (١٠٠ـ ١٠٥هـ/ ٧١٨ـ ٧٢٤م)، فقد قيل انه «لم يقبض عن القضاء درهماً ولا ديناراً» وحالة أخرى بدمشق للقاضي زرعة بن ثوب «ت. ١٢٠هـ/٧٣٨م»[١٣٠]. في حين كان رزق القاضي المصري عبد الرحمان بن حجيرة (٧٠ـ ٨٣هـ/ ٦٨٩ـ ٧٠٢م) ألف دينار في السنة لأنه جمع بين القضاء والقصص وبيت المال: فكان رزقه على كل واحد ٢٠٠ دينار وعطاؤه ٢٠٠ دينار وجائزته ٢٠٠ دينار[١٣١].

أما ظاهرة الامتناع عن تولي القضاء فقد تزامنت خاصة مع ظهور المذاهب الفقهية وتفاقمت فيما بعد. وأول من رفضه بإفريقية هو علي بن زياد[١٣٢]، فقد روي أنّ الوالي روح بن حاتم بعث في طلبه، فقدم عليه من تونس وقد سمع بقدومه البهلول بن راشد وبعض أصحابه، فمكثوا بباب الأمير ينتظرون خروج علي، فخرج يمسح العرق عن جبينه، فقالوا له: «ما فعلت؟ فقال لهم: عافى الله، وهو محمود. فقال له البهلول: وما عزمت عليه؟ فقال: الا أبيت بالقيروان فيبدو لروح، فيوجه ورائي...»[١٣٣]. ولا شك أن عزوف الفقهاء عن القضاء وأخذ الأجر عليه كان لاعتقادهم الراسخ أن الحكم نجس كموارده. لكن في القرنين الأولين للهجرة، ورغم الورع الذي تميّز به جلّ القضاة، فإن منهم من تعود عن أخذ الرزق واصبح هذا الأجر مورد عيشه الوحيد أحياناً. وما رواه الخشني عن القاضي الأندلسي معاوية بن صالح - الذي ولي قضاء قرطبة أيام عبد الرحمان الداخل بالتداول سنة بسنة مع قاض آخر - يبرز أهمية الأجر في حياة هذا القاضي الذي عندما انقضت السنة ولم يعده الأمير إلى منصبه، قال مخاطباً عبد الرحمان الداخل: «وليتني القضاء وأنا كاره فتوليته، فلما تولى رأس الشهر رزقني رزقاً واسعاً...، ثم استمر الرزق كل شهر حتى عزلتني عند رأس العام، فاستقبلت العام الثاني الذي كنت فيه معزولاً بفضول من رزق العام الأول، فانقضت تلك الفضول بانقضاء العام، ثم وليتني فعاد عليّ الرزق، فكانت هذه حالتي إلى هذا الوقت»[١٣٤]. فالأجر لم يكن إذن زهيداً، بل إن أجر عام كان يكفي لعيش سنتين. ولا شك أن ما كان بالأندلس ومصر كان أيضاً بإفريقية، وما حملته لنا المصادر من إشارات تدل أن جلّ قضاة فترة الولاة كانت لهم الضِّياع والمنازل والعبيد. فقد أخبر حاتم المعافري أنه كان عند القاضي عبد الرحمان بن أنعم إذ أتاه شاب أشقر ومعه مخلاة فيها بصل... وظن حاتم أنها هدية من أحدهم للقاضي، فامتنع عن الأكل منها فقال له القاضي: أظننت ظناً؟. فقال حاتم: نعم... فقال عبد الرحمان: ليس هو هدية يا حاتم، إنما هو مولى لي أتاني بهذا البصل من ضيعتي...، وذكر لي أن أكفأ عبيدي وأقومهم بضيعتي توفي»[١٣٥]. وأما ثراء القاضي ابن غانم فقد كان مشهوراً حتى قيل انه عندما مات خلف كسوة ظهره التي قومت بألف دينار. وعبّر عن سعة حال قضاة إفريقية في العهد الأغلبي أحد تلاميذ سحنون، وهو سعيد بن إسحاق الكلبي (ت. ٢٩٥هـ/٩٠٨م) بقوله: «كل من ولي قضاء إفريقية اكتسب إلا سحنون»[١٣٦].

وخلاصة القول:

- إن المصادر الإفريقية في مجال القضاة والقضاء قليلة جداً ومتأخرة كثيراً، لذا لا مناص من اعتماد ما كتب عن

(١٢٨) المصدر السابق، ص ٤١٣ـ ٤١٤.

(١٢٩) ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية**، ص ٦٤ـ ٦٥.

(١٣٠) الكندي، **قضاة مصر**، ص ٣٣٩، ابن طولون، **الثغر البسام**، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥٦، ص ٦.

(١٣١) المصدر السابق، ص ٣١٧.

(١٣٢) انظر ترجمته في أبي العرب، **طبقات**، ص ٢٢٠ـ ٢٢٣.

(١٣٣) المصدر السابق، ص ٢٢١.

(١٣٤) الخشني، **قضاة قرطبة**، ص ٣٨ـ ٣٩.

(١٣٥) العرب، **طبقات**، ص ٩٨.

(١٣٦) الطالبي، **تراجم أغلبية**، ص ١٠٥.

قضاة الأمصار الأخرى.

- إن صعوبات جمّة تعترض الباحث في هذا الموضوع للتعريف بهؤلاء القضاة وتحديد فترات ولاياتهم تحديداً دقيقاً.

- ان جوانب عديدة لم نجد لها أي إشارة في مصادرنا كقضاء أهل الذمة أو أجر القضاة أو مسألة الشهود.

- ان التنظيم القضائي بإفريقية كان لا يختلف اختلافاً كبيراً عما في البلدان الأخرى في مبادئه الأساسية على الأقل.

- ان ظاهرة البساطة ميزت حياة القضاة والتنظيم القضائي في القرنين الأول والثاني للهجرة، ولم تتعقد الأمور إلا بظهور المذاهب الفقهية بالمشرق وبرجوع الأفارقة الأوائل الذين رحلوا إلى المشرق لطلب العلم إلى القيروان.

بحوث التاريخ القديم والآثار

مقدمات في سبيل معجم جغرافي تاريخي واشتقاقي للأردن

(محافظة الكرك نموذجاً)

د. سلطان المعاني

رئيس قسم الآثار - كلية الآداب جامعة مؤتة - الأردن

تقديم

تتوالد مع مرور الزمن أسماء مواضع جديدة، مكونة طبقات لغوية مختلفة، تبدو غير منسجمة مع لغة الساكنين اللاحقين للمكان، وتعتبر أسماء المواقع من أكثر الأسماء بقاء، ولهذا دعت الحاجة إلى تحديد فواصل زمنية لكل طبقة لغوية، يعود إليها هذا الاسم أو ذاك[١].

لا تهتم الدراسة الاشتقاقية بالموقع الجغرافي للمكان، فالسؤالان: أين يقع المكان الفلاني سابقاً؟ وأين هو الآن؟ يخصان الجغرافية التاريخية فقط. أما الدراسة الاشتقاقية فتلزم نفسها بالتساؤلات التالية[٢]: ما معنى الاسم؟ وإلى أية طبقة يعود؟ وإلى أي نوع من الأسماء يعود؟ ثم ما هو عمره على أبعد أو أقل تقدير؟ أما الأمور الأخرى المتعلقة بالاسم فلا تهمنا إلا بمقدار ما تضفي على المعنى من فائدة وتوضيح.

ويتضح لنا مما سبق أن دراسة الاسم اشتقاقياً غير دراسته طبوغرافياً. فتشابه اسم ما في العهد القديم، مثلاً، مع اسم موقع جغرافي ما، لا تعني بالضرورة تطابقهما الطبوغرافي، وأن استمرارية الاستيطان في مكان ما لا يعني بالضرورة استمرارية الاسم، (مثل مجدو)، في حين أننا نجد في حالة أخرى استمرارية الاسم، دون أن تسعفنا الأبحاث التاريخية والآثارية بشأن استمرارية الاستيطان كدومة الجندل < أدماتو[٣].

مصادر دراسة أسماء المواقع

تشير النصوص المصرية في قوائم كل من تحتمس الثالث وامينوفس الثاني والثالث ورمسيس الثاني والثالث إلى عدد غير قليل من أسماء المواقع في بلاد الشام، وقد وضع أنطوان يركو كتاباً ضمن فيه هذه القوائم بالإضافة إلى القوائم الواردة في نصوص تل العمارنة[٤]، وتخدم هذه القوائم الجغرافية التاريخية، في سوريا وفلسطين بالمقام الأول، وخصوصاً وأن الأسماء مرتبة في قوائم منفردة. وتساهم أيضاً في تحديد الطبقة اللغوية للعديد من أسماء المدن والقرى، إلا أن ما يحرمنا فرصة التأكد من ذلك هو غياب الحركات القصيرة والطويلة في هذه الأسماء.

(١) Gert Klingenschmitt, «Die Iranischen Ortsnamen», Beitraege Zur Namenforschung, neue Folge, Beiheft 18, Erlangener Ortsnamen - Kolloquium, Heidelberg (1980), p. 19.

(٢) Stefan Wild, Libanesische Ortsnamen, Typologie Und Deutung, Wiesbaden - Beirut, (1973), p. 12.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Wild

(٣) E. Axel Knauf, «Pireathon - Farata,» Biblische Notizen 51 (1990), p. 22.
سيشار إلى المجلة عند ورودها فيما بعد هكذا: BN

(٤) Anton Jirku, Kie Aegyptischen Listen Palaestinensischer und Syrischer Ortsnamen, Aalen, (1967).
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Jirku

ومن الأسماء التي اتفق عليها في قوائم تحتمس الثالث (١٥٠١ ـ ١٤٤٧ق. م.) /ت م ش ق/ > دمشق (رقم ٣٣)، /ف ح ر/ > فحل (رقم ١٠٠)، /ن ر ب/ > نيرب قرب حلب (رقم ١٨١)، /ك ر ك م ش/ جرابس Gerabis قديماً كانت تدعى كركميش Karkemīš. ومن قائمة أمينوفس الثاني (١٤٤٧ ـ ١٤٢٠ق. م) يرد اسم قادش (رقم ١٢)، ومن قائمة أمينوفس الثالث يرد اسم /ن ه ر ن/ (رقم ٤)، ويبدو أن الاسم من الناحية الاشتقاقية هو حالة الجمع الكنعانية لكلمة نهر، ويعتقد أن الكلمة إشارة إلى مكان قرب الفرات(٥)، ومن قائمة رمسيس الثاني (١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ق. م.) نجد اسمي /ف ح ر/ > فحل (رقم ١) و/ح م ت/ > حماة (رقم ٢). أما في رسائل تل العمارنة فترد أسماء: مثل /صور ـ ري/ > صور، و /صي ـ دو ـ نا/ > صيدا(٦)، ومدينة /بي ـ رو ـ تا/ > بيروت(٧)، والاسم /اك ـ كا/ أو / اك ـ كو/ > عكا(٨). وفي بدايات الألف الثالث قبل الميلاد ورد اسم جبيل (Byblos) في الكتابات السومرية /كو ـ وب ـ لاكي/، واسم صور في الأكدية /اورو ـ صور ـ ري/(٩)، أو مع أداة النسبة /كور ـ صور ـ را ـ ا ـ ا/، ويرد اسم صيدا على نحو: /صي ـ دو ـ نا/ ثم مع أداة النسبة: /كور ـ صي ـ دو ـ نا ـ ا ـ ا/(١٠).

أما النقوش السامية الأخرى فلم تحفظ لنا سوى عدد محدود من أسماء المواقع الجغرافية في منطقة انتشارها في بلاد الشام، حيث إن كل ما وجدناه في العربية الشمالية من أسماء لا يشكل إلا عدداً قليلاً، ولا يعتبر مصدراً ثراً لهذا النوع من الدراسات.

وتورد النقوش الصفوية أسماء عدد من المواقع منها: النمارة، وقد جاء نقش صفوي من منطقة العيسوي قرب جبل الدروز في سوريا على ذكرها، ويقرأ النقش كالتالي:

(ل ق د م/ب ن/ا ن ع م/ب ن/م غ ن ي/و غ ي ض/ع ل ه/ن م ر ت/و م ن ط/ه ش ن ا ف ه ل ت/س ل م)، أما ترجمته فهي: «لقادم بن أنعم بن مغني بن مغني، وقضى الصيف قرب النمارة، وكان خائفاً من الأعداء، فيا اللات اعطه الحماية»(١١). الاسم الثاني هو بصري، وقد ورد في نقش قرب جاثون في الصحراء الأردنية الشرقية، ويقرأ النص كالتالي: (ل م ت ي/ب ن/خ ز م/و م ر د/ع ل/ر م س ن ت/ا ت ي/ه م ذ ي/ب ص ر/ف ه ل ت/س ل م)، وترجمته هي: «لماتي بن خازم وقد تمرد على الروم سنة قدوم الفرس لبصرى فيا اللات السلام»(١٢). تدمر: وجد النقش الذي يذكر بالميرا في صنايم الغرس في منطقة جبل الدروز جنوبي سوريا، ونصه: (ل ع م، ب ن، ش م ت، ب ن، غ ن م، و أ ت ي، م ت د م ر، ف هـ ل ت، س ل م)، وترجمته: «لعمّ بن شامت بن غانم بن أنعم وجاء من تدمر، فيا اللات سلاما»(١٣)، ومن النقوش الأخرى التي أشارت إلى تدمر ما كتبه شخص من قبيلة ضيف، الذي ارتحل إلى تدمر(١٤). أو ما كتبه عجل بن أويس بن صاعد خلال رحلته إلى تدمر طالباً السلام من اللات(١٥).

أما نقش الملك المؤابي ميشع فقد خلّف لنا عدداً من الأسماء هي:

ديبون < Dībōn ذيبان، مهدبا < Mhdba مادبا، بعل ميعون Baalm ^{ec}ōn، قريتين Kiriatthaim، عتروث ^{c}Atarōṯ، قريوت Keriōṯ، شرون Šarōn، نيبو < Nēbō،

---

(٥) Jirku, p. 27.

(٦) J. A. Knudtzon, Die El - Amarna - Tefeln, Leipzig (1915).

سيشار إلى الكتاب عند وروده فيما بعد هكذا: EA

(٧) EA. p. 101

(٨) EA. p. 1301

(٩) E. Michel, Die Assurtexte Salmanassara III (858 - 824 B. C.), (1954 - 59), p. 155.

(١٠) E. Weidner, «Die Feldzuege und Bauten Tiglatpilesers I» Archiv Fuer Orientforschung 185 (1957 - 58), 344 m 22.

سيشار إلى المجلة عند ورودها فيما بعد هكذا: AFO

(١١) Enno Littmann, Safaitic Inscriptions, Leyden (1943), nr. 330.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: SAI

(١٢) SAI, nr. 78.

(١٣) SAI, nr. 717.

(١٤) Corpus Iscriptionum Semiticarum, parts IV and V.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: CIS

(١٥) CIS, nr. 663.

يـهـز Yahaz، عـراعـر ᶜArōᶜēr <، بـيـث دبـلاثـيـم Bēṯ Diblaṯiam، وحـورونـين Ḥoronain (اكتـفـي بـذكـر الأسـمـاء العربية المعروفة).

ومن مصادر الدراسة الأخرى العهد القديم، ويعتبر مصدراً هاماً لدراسة الأسماء الكنعانية التي ترد بكثرة في أسفاره، ولكنّ ما يبعث على العجب والاستنكار أن يعتبر التوراتيون هذه الأسماء عبرية الأصل، فهذا تحجيم وجهل مقصودان للغة الكنعانية ولهجاتها المتعددة. ولعل ما دفع بهؤلاء التوراتيين إلى رؤيتهم هذه، غياب المهتمين في هذه الدراسات من أبناء العربية، الذين كان بمقدورهم مدافعة ودحض أباطيلهم بالحجة الوافية، والبحث العلمي الرصين.

لقد بدأ الاهتمام بدراسة أسماء المواقع طبوغرافياً ولغوياً في بلاد الشام مع بدايات توجه المستشرقين لدرس الأسماء الجغرافية الواردة في التوراة، وقد عاب هذه الدراسات عدم فصلها بين الدراسات الاشتقاقية والجغرافية التاريخية، فدارس اسم المكان لا يهمه أين يقع هذا المكان أو ذاك لأن ذلك من خصوصيات الجغرافية التاريخية.

وأهم عملين انطلقا مما يدعى المنهج التوراتي في درس أسماء المدن والقرى هما ما كتبه بوريه Borée (عام ١٩٣٠)، ومن قبله كامبف مير Kampffmeyer (عام ١٨٩٢). وقد أشار بوريه صراحة إلى اعتماده العبرية كواحدة من اللهجات الكنعانية، فاسم بيروت الكنعاني Bēr < bērōṯ، «بئر» مثلاً، يرد في العبرية كالتالي: bĕ̄r جمع bērōt[١٦]، وتساعدنا العبرية هنا (في هذا الاسم مثلاً) على معرفة الصيغة الأم للاسم ولا يشكل ذلك، بأية حال من الأحوال، دليلاً على عبرانية الاسم، وإنما هو التشابه والتجاور بين مجموع اللغات السامية.

تعتبر خريطة مادبا الفسيفسائية التي تعود إلى عهد جوستنيان (Justinian)، من مصادر الدراسة المهمة الأخرى، إذ تحتوي على عدد من أسماء المواقع من محافظة الكرك، وهي: Charachmōba < الكرك، ᶜAī < عي، Tharias < ترعين: وهي عند قرية عراق، والاسم أرامي /ترعين/ < (ترع Tarᶜ + īn -) وحرفا (ـ ين) هما النهاية اللغوية المكانية في الأسماء الكنعانية.

بالإضافة إلى كتب الرحالة والإخباريين الأجانب تعتبر كتب المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب من مصادر البحث الأساسية، فقد احتفظت لنا هذه الكتب بعدد وافر من أسماء المواقع، وخصوصاً المعاجم التي كتبت ما بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلاديين.

ويأتي معجم البلدان لياقوت (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) في طليعة هذه المصادر لما يحتويه من كم وافر من الأسماء ودقة في تحديد مواقع أغلبها مفردات معجمة، ويعتبر كتاب «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لصفي الدين بن عبد الحق، و «معجم ما استعجم» للبكري (ت ٤٨٧هـ) من المعاجم الجغرافية التي يستند إليها الدارسون في مثل هذا النوع من الدراسات.

ولا يخفى أن كتب الرحالة أمثال ابن بطوطة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، والدمشقي «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر»، وكتب المؤرخين مثل الطبري في «تاريخ الرسل والملوك» وغيرها، قد ساهمت في إسعاف الدارسين للجغرافية التاريخية للأمكنة والبقاع، في حين لم تشف هذه المصادر غليل الدارسين لهذه المواقع من الناحية الاشتقاقية وحتى الطبوغرافية، وذلك لقلة عدد الأسماء مقارنة بواقع العدد الحالي، ومن مشاكل الدراسة اللغوية أن معظم الأسماء الواردة في هذه المصادر تكتب بشكل عربي فصيح، مما يوحي بعربيتها، في حين أن عدداً غير قليل منها يعود إلى أصول سامية أو غير سامية.

أما مصدرنا الأهم في القرن السادس عشر الميلادي، فهو الدفاتر والسجلات العثمانية، والتي استخدمت لتقدير الضرائب على المحاصيل، ودفاتر قيود الأراضي والطابو والاقطاعات العسكرية (التيمار). وتعود أهمية هذا المصدر علاوة على ما ذكر إلى اعتباره مصدراً لدراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأردن في ذلك القرن[١٧]. وقد احتفظت السجلات العثمانية بعدد وافر من الأسماء الجغرافية من مدن وقرى ومزارع وغيرها، دون أن يحدث عليها تغير يذكر مثل: أم الفحم، مار الياس، أسعره، ابدر وغيرها[١٨]، ولكن على دارس هذه الأسماء من خلال الدفاتر العثمانية أن يتنبه إلى أن عدداً من

(١٦) Wild, p. 122.

(١٧) محمد عدنان البخيت، **اللجون**، عمان (١٩٩٠) ص ٩٠.

(١٨) **اللجون**، ص ١٢ و١٥ و٣٥.

محمد عدنان البخيت، ناحية بني كنانة في القرن العاشر الهجري، عمان (١٩٨٩)، ص ٢٢.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: البخيت، بني كنانة.

الأسماء قد كتب بصورة مغايرة للاسم الحالي مثل الخارجة = خرجا، في حين تبدو أهمية هذه الدفاتر في إبراز بعض الأسماء الكاملة التي اعتورها النقص أو طالها الاختصار مثل: كفرانجي = كفرنجة[١٩]، وعين جنة الفقيه[٢٠]، وطيبة الاسم = الطيبة، وزحر العقبة = زحر[٢١].

وعلى الرغم من ذلك فقد بدا أن عدداً من الأسماء قد كتب بصورة خاطئة، مثل بلوقص = أبو اللوقس، على عكس ذلك نجد احتفاظ الدفاتر العثمانية ببعض الأسماء الصحيحة التي اعتورها التحريف مثل مكيس = أم قيس[٢٢].

الطبقات اللغوية للأسماء

(انظر الخريطة المرفقة)

قبل الدخول في تحديد طبقات الأسماء اللغوية، يجب التنبه إلى أن تعايش لغتين أو أكثر مكانياً وزمانياً قد يولد ثلاث حالات تلقي بظلالها على الأسماء:

١ ـ قد يترجم الاسم من لغته الأم إلى لغة السكان الجدد، كما هو الحال في الاسم الآرامي /بيت راس/ الذي ترجم إلى Capitolias في الفترة الهيلينية.

٢ ـ قد يطلق اسم جديد على المكان، كما هو الحال في / عمون أو/ ربة بني عمون/ > عمان، الذي أصبح فيلادلفيا في اليونانية.

٣ ـ قد يبقى الاسم كما هو، إلا أنه يصاغ ويلفظ بما يتلاءم ولغة المتكلم، مثل الاسم السامي /فحل/ الذي استخدم في الفترة الهيلينية باسم بيلا Pella[٢٣].

أما أهم الصعوبات والتساؤلات التي تواجه الباحث عند تحديد الطبقات اللغوية للمواقع فهي:

أ ـ هناك عدد من الأسماء الكنعانية اصطبغت بالارامية، وعدد آخر من الأسماء الآرامية عربت، مما يؤدي إلى صعوبة تحديد الفواصل الزمنية بين الأسماء بشكلٍ دقيق.

ب ـ يصعب على الباحث تحديد أصل الاسم ومصدره تحديداً دقيقاً، وخصوصاً تلك التي تلتقي من حيث المعنى والصيغة في كل من الارامية والعربية.

ج ـ لعل عدداً من الأسماء الكنعانية التي ذكرها العهد القديم تعود إلى أصول غير كنعانية.

ودارس الأسماء في بلاد الشام يتحدث عن فترة زمنية، تعود قرابة خمسة آلاف سنة إلى الوراء، ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى حقب أو طبقات عامة، هي:

ما قبل السامية، والكنعانية، والارامية، واليونانية، واللاتينية، والعربية بمختلف مراحلها؛ ما قبل الكلاسيكية، والكلاسيكية، ما بعد الكلاسيكية، ثم العثمانية، والانجليزية والفرنسية[٢٤].

وقد جمع الالماني شتيفان فيلد هذه الطبقات في ثلاث مجموعات: القديمة؛ وتضم ما قبل الكنعانية والكنعانية، الوسطى؛ وتضم الارامية واليونانية/ واللاتينية، الحديثة؛ وتضم العربية والتركية والفرنسية[٢٥].

أولاً: الأسماء الكنعانية

تضم الكنعانية لهجات عديدة، تطور بعضها حتى أصبح يشكل لغة مستقلة، وأهم هذه اللهجات الأوغريتية، والفينيقية،

(١٩) W. Huetteroth, Palaestina und Transjordaien in 16 Jahrhundert, Wiesbaden (1978), p. 76.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: *Huetteroth*

(٢٠) Huetteroth, p. 76.

(٢١) البخيت، **بني كنانة**، ص ٢٣.

(٢٢) البخيت، **بني كنانة**، ص ٢٣.

(٢٣) Ladislaus Szczepanski, Geographia Historica Palaestinae Antiquae, (1926), p. 265.
Eusebius, Das Onomastikon der biblischen Ortsnamen, Hildesheim (1966), 24, 1,16.

(٢٤) Sultan Al-maᶜani, Nordjordanische Ortsnamen, eine etymologische und semantische Untersuchung, Hildesheim (1992), p. 5.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Maᶜani
Abdullah al-Hilou, Topographische Namen des syro-palaestinischen Raumes nach arabischen Geographen (Diss, Berlin), 1986, p. 6, 7.
سيشار إليه فيما بعد هكذا: Hilou
Enno Littmann, «Zur Topographie der Antiochene und Apamene», Zeitschrift fuer Semitistik und verwandte Gebiete 1 (1992), p. 165.
سيشار إلى المجلة عند ورودها فيما بعد هكذا: ZS

(٢٥) Wild, p. 8.

والبونية، والعبرية القديمة، والمؤابية، والعمونية والأدومية، وقد تركزت هذه الأفرع ـ عدا البونية ـ في بلاد الشام.

لعل ورود عدد من الأسماء الكنعانية في العهد القديم، قد ساعد على تقريب الأصل الكنعاني للاسم، ولا يشكل هذا الورود دليلاً على عبرانية الاسم البتة.

وفيما يلي تندرج الأسماء الكنعانية وفق سوابقها ولواحقها اللغوية:

١ ـ اللواحق Suffexe

١ ـ تنتهي بعض الأسماء **بالألف**، وهي علامة المفرد المؤنث في الكنعانية:

أريحا: تقع إلى الجنوب من وادي الموجب، ذكرها من الرحالة كل من سيتزن[٢٦]، وبيركهاردت[٢٧]، وتراسترام[٢٨]، وبرونوف ودوماسوفسكي[٢٩]، وموزيل[٣٠].

يعتبر الاسم من أكثر أسماء المواقع شيوعاً في بلاد الشام، فبالإضافة إلى مدينة أريحا التاريخية (Jericho) توجد منطقتان في شمالي الأردن تحملان نفس الاسم تقريباً، هما: خربة يريحا الشمالية، وخربة يريحا الجنوبية[٣١].

اشتقاقياً يعود الاسم إلى الكنعانية /يريحو/ Yariho (n) «القمر، إله القمر»، من الجذر السامي المشترك /و ر خ/ «أرّخ»[٣٢]. أما عن القلب الذي حدث لحرفي الياء إلى الألف في أول الكلمة، والواو إلى الألف في آخرها، فظاهرة معروفة في اللغات السامية، مثل: يردين في الكنعانية > أردن في العربية، وعمون في العمونية > عمان في العربية[٣٣].

جدعا: قرية تقع قرب شيحان، ذكرها موزيل على أنها شمالي خربة البالوع[٣٤].

اشتقاقياً اسم /جدعا/ مؤابي يعني «الحطّاب»، ويرد مثل هذا الاسم مع العلامة المكانية للأسماء الكنعانية، الواو والنون، في مثل /جدعون/ من الجذر /ج د ع/ «حطّب».

خوخا: جاء موزيل على ذكر المكان مرتين، مرة باسم خوخا وأخرى باسم سيل خوخا[٣٥]. وقد يعود الاسم من البعد اللغوي إلى الكنعانية /خوخا/ بمعنى «شوك» أو «مكان الأسر» وتأتي الكلمة في اسم المكان بمعنى «شق صخري»

---

(٢٦) U. J. Seetzen, Reisen durch Syrien, Palaestine, Phoenicien, die Transjordan - Laender, Arabia Petraea und Unter Aegypten, 3 vols, Berlin (1854 - 55), p. 410.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Seetzen

(٢٧) J. L. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, ed. William M. Leake, London (1822), p. 376.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Burckhardt

(٢٨) H. B. Tristram, The Land of Moab: Travels and Discoveries on the East Side of the Dead Sea and the Jordan, New York (1873), p. 135.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Tristram

(٢٩) R. E. Bruennow and Von Domaszewski, Die Provincia Arabia, 3 Vols, Strassburg (1904 - 9), 1: 45.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Bruennow and Domaszewski

(٣٠) Alios Musil, Arabia Petraea, Kaiserlische Akadimie der Wissenschaften, 2 vols. Wien (1907 - 8), O. 376.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Musil

(٣١) Maᶜani, p. 118.

(٣٢) Richards Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician and Punic Language, Montana (1978), p. 129.
W. Boree, Die alten Ortsnamen Palaestinas, 2nd ed. Hildesheim (1968), p. 65.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Boree
W. Gesenius, Hebraeisches und aramaeisches Handwoerterbuch ueber das alte Testament, 17. auf. Berlin (1962), p. 319.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Gesenius

(٣٣) G. Kampffmeyer, «Alte Namen im heutigen Palaestina und Syrien», Zeitschrift des Deutschen Palaestina - vereins 15, 16 (1892 - 3), Pp. 1 - 33, 1 - 71
سيشار إلى المجلة عند ورودها فيما بعد هكذا: ZDPV

(٣٤) Musil, 1: 376.
E. Axel Knauf, «Toponymy of the Kerak Plataue», Archaeological Survey of the Kerak Plataue, ed. Maxwell Miller, USA (1991), p. 286.

(٣٥) Musil, 1:16, 359.

وللمقابلة قارن الأكادية /خاخ/ «شائك». والآرامية ܥܠܩܐ «عليق»[٣٦].

الربة: تشير الأبحاث الأثرية إلى أن القرية قد استوطنت منذ العصر البرونزي المبكر، واستمر الاستيطان فيها دون انقطاع إلى الوقت الحاضر[٣٧]. وقد ذكرها من الجغرافيين ياقوت[٣٨] وأبو الفداء[٣٩]، ومن الرحالة والأثاريين الأجانب سيتزن[٤٠]، وبيركهاردت[٤١] وكلاين[٤٢] وترسترام[٤٣]، وداوتي[٤٤]، وبرونوف ودوماسوفسكي[٤٥]، وموزيل[٤٦]، وجلوك[٤٧].

أما صيغة الاسم العربية فترد إلى المؤابية، ربة مؤاب רבת מואב ربة Rabbat ثم مع أل التعريف العربية / الربة/، وهي بمعنى «عاصمة، مدينة رئيسية»، وقد ورد الاسم في الآرامية ܪܒܬ وفي اليونانية Ραββα[٤٨].

صرفا: ذكر اسم المكان كل من ياقوت[٤٩]، وابن عبد الحق في كتابه المراصد[٥٠]، ومن الرحالة والباحثين الأجانب ذكرها سيتزن[٥١]، وبركهاردت[٥٢]، وبالمير[٥٣] وموزيل[٥٤]، وفي المصادر العثمانية يرد اسم صرفا كقرية في ناحية الكرك[٥٥].

اشتقاقياً يعود الاسم إلى الكنعانية /ص ر ف ت > ص ر ف ه > مؤنث صرفتا/، من الجذر السامي /ص ر ف/ «أذاب، كرر، صفّى»، ويقابله في الآرامية (...).

عزرا: تقع إلى الجنوب الغربي من الكرك، وقد ذكرها من الرحالة، كل من تراسترام[٥٦]، وموزيل[٥٧].

اشتقاقياً قد يكون الاسم أرامياً أو كنعانياً؛ /عزرا >

---

(٣٦) Gesenius, p. 217.
Carl Brocklmann, Lexicon Syriacum, Halle (1928), p. 219.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: LS

(٣٧) Maxwell Miller, Archaeological Suvery of the Kerak Plateau, Atlanta (1991), p. 65.

(٣٨) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٨ أجزاء، دار بيروت، بيروت (١٩٥٧) ج ٢: ٧٥٣.

(٣٩) عماد الدين إسماعيل بن علي أبو الفداء، **تقويم البلدان**، بغداد، ص ٢٤٦.

(٤٠) Seetzen, p. 16, 411.

(٤١) Burckhardt, p. 377.

(٤٢) A. Klein, «Missionary Tour into a Portion of Transjordanic Countries», The Church Missionary Intelligencer, (1869), s. 60 - 64, 92 - 96, 123 - 128, p. 153.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Klein

(٤٣) Tristram, Pp. 123 - 130.

(٤٤) C. M. Doughty, Travels in Arabia Deserta, 2 Vols. Cambridge (1888), Pp. 21 - 22.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Doughty

(٤٥) Bruennow and Domaszewski, 1: pp. 54 - 59.

(٤٦) Musil, p. 20, 21, 112, 370.

(٤٧) N. Glueck, «Excavations in Eastern Palestine» The Annual of the American Schools of Oriental Research (1934) 14: 1 - 113, p. 62, 66.

سيشار إلى المجلة عند ورودها فيما بعد هكذا: AASOR

(٤٨) Eusebius, 124, 17.

(٤٩) ياقوت الحموي، ج ٣: ٣٨٣.

(٥٠) صفي الدين بن عبد الحق، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، لايدن (١٩٦٤)، ص ١٥٤.

(٥١) Seetzen, p. 416.

(٥٢) Burckhardt, p. 387.

(٥٣) E. H. Palmer, The Desert of the Exodus, Cambridge (1871), p. 482.

(٥٤) Musil, II: 88, 374.

(٥٥) محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود، **دفتر مفصل لواء عجلون**، طابو دفتر رقم ١٨٥، أنقرة سنة هجري ١٠٠٥ موافق ميلادي ١٥٩٦، عمان (١٩٩١)، ص ٢٩٤.

(٥٦) Tristram, p. 116.

(٥٧) Musil, p. 362.

عزرون/، من الجذر /ع ز ر/ بمعنى «ساعد»، فيكون المعنى المحتمل للاسم «مكان المعونة أو المساعدة»(٥٨).

عمقا: تقع إلى الجنوب الشرقي من المزار الجنوبي، وردت التسمية عند كل من برونوف ودوماسوفسكي(٥٩)، وموزيل(٦٠).

أما اشتقاقياً فيعود الاسم إلى الكنعانية /عَمقا أو عِمقا/ من الجذر /ع م ق/، الذي يرد في أكثر من لغة سامية، مثل: الأكادية والعبرية والعربية والآرامية والأثيوبية بمعنى «حفر عمّق».

مجرا: تقع إلى الجنوب من المزار الجنوبي، ذكرها من الرحالة كل من موزيل(٦١) وجلوك(٦٢).

اشتقاقياً يعود الاسم إلى المؤابية، وهو تحريف لكلمة / مجرون > مجرا/(٦٣)، من الجذر /م ج ر/ بمعنى «سقط، يرمي إلى أسفل»(٦٤).

محنا: تقع إلى الجنوب من الكرك، ذكرها كل من سيتزن(٦٥)، وكلاين(٦٦)، وتراسترام(٦٧)، وداوتي(٦٨)، وبرونوف ودوماسوفسكي(٦٩)، وموزيل(٧٠)، وجلوك(٧١).

يعود الاسم من الناحية الاشتقاقية إلى الكنعانية > maḥ'né بمعنى «مخيم»(٧٢). ونلاحظ مما سبق أن عدداً من هذه الأسماء التي تنتهي باللاحقة ألف تنتهي أصلاً باللاحقة/ واو ونون/، العلامة المكانية في الكنعانية، والتي ترد في عدد وافر من الأسماء في بلاد الشام مختصرة إلى الألف، وذلك بحذف حرف النون في نهاية الاسم، وقلب الواو إلى الألف(٧٣).

٢ ـ تنتهي بعض أسماء المواقع في فلسطين والأردن بالواو والنون كعلامة المكانية لها، مثل راسون < ريشون «المكان العالي»، وعجلون < عجلون، إلا أن النسبة الأكبر من هذه الأسماء قد تحولت فيها النهاية المكانية (الواو والنون) بتأثير من الآرامية إلى الألف والنون /ـ ان/، ومنها /حسبان < حشبون، عمان < عمون/ وقد وسمت هذه النهاية بعض الأسماء القديمة التي وردت في الأكدية مثل: MA - GAT - A - Nī DI - IH - A -(٧٤).

أما أهم المواقع في محافظة الكرك، والتي تندرج تحت هذا البند، فهي:

شيحان: ذكر الإخباريون العرب الاسم على أنه منطقة الشراة، ومن هؤلاء ياقوت(٧٥)، وابن عبد الحق(٧٦)، وأبو

(٥٨) Gesenius, p. 578.
(٥٩) Bruennow and Domaszewski, 1:106.
(٦٠) Musil, p. 20, 361.
(٦١) Musil, p. 36.
(٦٢) N. Glueck, «Excavation in Eastern Palestine II» AASOR 18 - 19 (1939), p. 80 - 81.
(٦٣) See Knauf, 1991.
(٦٤) Gesenius, p. 397.
(٦٥) Seetzen, p. 416.
(٦٦) Klein, p. 255.
(٦٧) Tristram, p. 117.
(٦٨) Doughty, p. 22.
(٦٩) Bruennow and Domaszewski, 1:103.
(٧٠) Musil, p. 19, 77, 152.
(٧١) Glueck, 1939, p. 99.
(٧٢) Borée, p. 54.
Zelling Harris, A Grammar of the Phoenician Language, New Haven (1936), p. 106.
(٧٣) E. Axel Knauf, «The West Arabian Place Names Province: its Origin and Signifcance», Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 18 (1988), p. 40.
سيشار إلى المجلة عند ورودها فيما بعد هكذا: PSAS
B. J. Isserlin, The place Names Provinces in the Semitic - Speaking Ancient «Near East», Proceedings of Leeds of Philosophical and Literary Society, partii: 83-110, p. 95.
(٧٤) Ibid.
(٧٥) ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٣٤٦.
(٧٦) ابن عبد الحق، ج ٢: ١٣٨.

الفداء[٧٧]، ومن الرحالة الأجانب الذين نبهوا إلى الموقع سيتزن[٧٨]، وبيركهاردت[٧٩]، وموزيل[٨٠]، وقد ورد المكان بعدة أسماء منها: عير سيحون، وقرية سيحون، وبيت سيحون، ومن هذه التراكيب يتبادر إلى الذهن أن الاسم يعود أصلاً إلى اسم شخص أو عائلة[٨١]. إذا جردنا الاسم من النهاية المكانية /ان < و ن/ نلاحظ بوضوح أنه يشير إلى نبتة الشيح المعروفة، وهي في العبرية Šiaḥ والآرامية Šyḥ نبتة الشيح الصحراوية، والاكادية Šiaḥum «ينمو إلى أعلى»[٨٢] والبونية Šḥ والسريانية Šiḥ[٨٣]. أما عن كلمتي /عير وقريت/ اللتين تتصلان بالاسم فتشيران إلى دلالة استيطانية، فعير مأخوذة من الجذر /عرر/ بمعنى «مكان محصن، قلعة»[٨٤]، وتعني أيضاً «المدينة». وهناك آراء تشير إلى أصول الاسم العربية الجنوبية، فالجذر /عر/ جمع /عرر/، ربما وصل إلى شمالي الجزيرة حوالي الألف الثالث قبل الميلاد[٨٥]. أما كلمة /قريت/ فمتأخرة عن /عير/، وقد جاءت بمعنى «قرية أو مدينة» ولم تسعفنا مصادر الإخباريين العرب بأي ذكر للاسم مركباً مع /عير/ أو /قريت/، غير أن ياقوت ذكره بالشين وبالسين معاً[٨٦].

يقترح الألماني أرنست كناوف التطور الصوتي التالي للاسم[٨٧]:

المؤابيون	
سِيحون/سَيحون	
العربية القديمة	العمونيون
سيحان/سيحان	سِيحون/سَيحون
ما بعد الكلاسيكية	الارامية
شَيْحان	سِيحون/سَيحون
في اللهجة المتأخرة	العبرية
شِيْحان	شِيحون

أما الاسم الكنعاني الوحيد، الذي حافظ على النهاية /ـ ون/ فهو الاسم عينون: وتقع عينون إلى الجنوب الغربي من الكرك، وردت عند الرحالة والإخباريين العرب، أمثال ياقوت[٨٨]، وابن عبد الحق[٨٩]، والبكري[٩٠]، والمقدسي[٩١]، وقد أدرك ياقوت أن الاسم غير عربي، بيد أنه قد أخطأ في رده إلى العربية دون الكنعانية أو الارامية[٩٢].

اشتقاقياً قد يعود الاسم إلى الكنعانية عينون «العين، الينبوع»، وإما إلى الآرامية باعتبار النهاية علامة التصغير بمعنى «الينبوع الصغير».

٣ ـ علامة الجمع المذكر في الكنعانية /ـ يم/، والتي تقلب غالباً إلى /ـ ين/، في مثل: ججين < ججيم «السقوف»، وحطين < حطيم «حنطة»، ودبين < دبيم «دببة»[٩٣].

وفي محافظة الكرك تظهر الأسماء التالية، كمثال لهذا النوع من الأسماء:

مجدولين: تقع إلى الشمال الغربي من القصر، وردت عند الرحالة الأجانب، الذين زاروا المنطقة، ومنهم سيتزن[٩٤]،

(٧٧) أبو الفداء، ص ٢٤٧.

(٧٨) Seetzen, p. 114.

(٧٩) Burchardt, p. 100.

(٨٠) Musil, p. 376, 382.

(٨١) M. Wuest, Untersuchungen zu den Siedlungsgeographien Texten des Alten Testament 1. Ostjordanland, Wiesbaden (1975), p. 243-45.

(٨٢) Von Soden, Akkadisches Handwoerterbuch, 3 vols, Wiesbaden (1951 - 1981), p. 1224.

(٨٣) Ma^{c}ani, p. 165.

(٨٤) Knauf, 1988, Pp. 42 - 48.

(٨٥) Ibid.

(٨٦) ياقوت الحموي، ج ١: ٣٧٩ و ج ٣: ٣٩٢.

(٨٧) E. Axel Knauf, «Hesbon, Sihon Stadt», ZDPV 106 (1990).

(٨٨) ياقوت الحموي، ج ٤: ١٨٠.

(٨٩) ابن عبد الحق: ج ٢: ٢٩٨.

(٩٠) أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، جزءان، القاهرة (١٩٤٩) ج ١: ٢٦٦.

(٩١) شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، لايدن ص ٢٩، ٢٥٤.

(٩٢) ياقوت الحموي، ج ٣: ٧٥٨.

(٩٣) Ma^{c}ani, Pp. 154 - 156.

(٩٤) Seetzen, p. 416.

وبيركهاردت[٩٥]، وبالمير[٩٦]، وتراسترام[٩٧]، وموزيل[٩٨]، وجلوك[٩٩]، وهي فوق ذلك من المواقع التي ذكرتها السجلات العثمانية على اعتبارها خربة[١٠٠].

اشتقاقياً يحمل الاسم النهاية / - ين/المقلوبة عن علامة الجمع المذكر في الكنعانية، في حين أن مجدل في العربية معربة عن الكنعانية /الآرامية مجدلا «قلعة» من الجذر السامي الشمالي /ج د ل/ بمعنى/ «علا وكبر»[١٠١].

مدّين: تقع إلى الشمال الشرقي من مؤتة، ذكرها من الرحالة سيتزن[١٠٢]، وبيركهاردت[١٠٣]، وترسترام[١٠٤]، وداوتي[١٠٥]، وموزيل[١٠٦]. وقد جاء ذكر المكان في العهد القديم على أنه مدينة كنعانية، ولكن ليس من السهل الاهتداء إلى معنى الاسم، غير أنه يحتوي فيما يبدو الجذر /م دد/ «مدّ وقاس»، ولعل الاسم يحمل دلالة «مركز العدالة والقانون»[١٠٧].

II السوابق Prefixe

١ - من السوابق المرتبطة بالأسماء الكنعانية الميم، وذلك في أسماء المواقع التالية:

مجدلين: راجع مجدولين.

مرود: تقع إلى الشمال الشرقي من مؤتة، ذكرها كل من داوتي[١٠٨]، وموزيل[١٠٩]. يبدأ الاسم بالسابقة ميم مع / رود/، وهو الاسم الذي يذكرنا بالجزيرة الفينيقية قبالة ساحل طرطوس السوري أرواد[١١٠].

ترد الكلمة أرود في الأكادية على شكلين هما: /أرود/ و / رامد/[١١١]، والسيريانية /أرود/[١١٢]، أما جذر الاسم / ورد/ فيعني «ساح، تجول، طاف».

مسعر: ورد اسم المكان عند كل من سيتزن[١١٣]، وبرونوف ودوماسوفسكي[١١٤]، وموزيل[١١٥]، وجلوك[١١٦].

أما من الناحية الاشتقاقية فإن الاسم مسعر مع الزيادة ميم يعود إلى الجذر سعر، بمعنى «التيار»[١١٧].

(٩٥) Burckhardt, p. 389.
(٩٦) Palmer, p. 491.
(٩٧) Tristram, p. 136.
(٩٨) Musil, p. 136.
(٩٩) Glueck, 1934, p. 62.
(١٠٠) البخيت والحمود، ص ٣٠٤.
(١٠١) Syrne Gordon, Ugaritic Mannual, Rom (1955), p. 250.
Joseph Aistleitner, Woerterbuch der ugaritischen Sprache, ed. Otto Eissfeldt, Berlin (1961), p. 64.
(١٠٢) Seetzen, p. 416.
(١٠٣) Burckhardt, p. 389.
(١٠٤) Tristram, p. 119 - 120.
(١٠٥) Doutghy, p. 22.
(١٠٦) Musil, p 15, 17, 43 - 44.
(١٠٧) Edward Koenig, Hebraeisches und aramaeisches Woerterbuch zum Alten Testament, Leipzig (1910), p. 208.
(١٠٨) Doughty, p. 22.
(١٠٩) Musil, p. 44, 336.
(١١٠) ياقوت الحموي، ج ١: ٢٢٤.
(١١١) Gesenius, p. 64.
(١١٢) Smith Payne, Thesaurus Syriacus, 2 Vols. Oxford (1879 - 1901) p. 371.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: PSm
(١١٣) Seetzen, p. 416.
(١١٤) Bruennow and Domaszewski, 1:45.
(١١٥) Musil, p. 138.
(١١٦) Glueck, p. 58.
(١١٧) Maᶜani, p. 119, Gesenius, p. 548.

٢ ـ ومن السوابق التي ترد في الأسماء الكنعانية في الكرك الياء وتبرز في الاسم التالي:

ياروت: تقع إلى الشمال الغربي من الربة، وقد ذكرها كل من سيتزن[١١٨]. وبركهاردت وكلاين[١١٩]، وتراسترام[١٢٠]، وموزيل[١٢١].

تصاغ في الساميات صيغة المضارع المفرد الغائب بإضافة السابقة ياء، وهناك أمثلة لأسماء مواقع كنعانية تبدأ بهذه السابقة[١٢٢] مثل: الياروقية، ويازور، وياسوف[١٢٣]، ولعل هذه الصيغة مع أسماء الأماكن تشير إلى طبيعة المكان مثل يذبل «المحلة» في نجد، ويثرب «كثير الغبار»، ويغمور ويانوح[١٢٤]. أما الاسم ياروت فهو من صيغة يقتول مع مد حركة التاء للصيغة يقتل مثل يبروح ويحمور، غير أننا لم نهتد إلى جذر الاسم ومعناه، ولربما كان الجذر /روت/ - كمرادف لرعوت ـ بمعنى «مكان الصداقة والرفقة»[١٢٥].

III ـ **أسماء المواقع الكنعانية غير المزيدة في محافظة الكرك هي:**

أدر: تقع إلى الشمال الشرقي من الكرك، ذكرت في السجلات العثمانية التي تعود إلى القرن السادس عشر، على أنها مزرعة تابعة لناحية الكرك[١٢٦]، وقد كانت سنة ١٣٧٥م من أوقاف مدرسة السلطان الأشرف شعبان في القاهرة[١٢٧]. وقد ذكرها من الرحالة الأجانب بيركهاردت[١٢٨]، وبرونوف ودوماسوفسكي[١٢٩]، وموزيل[١٣٠] على أنها خربة مهجورة. لقد كانت أدر المركز الرئيسي السياسي في المناطق المؤابية بين المرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي المبكر حوالي ٣١٠٠ ـ ٢٣٠٠ق. م، وإن بقاء الاسم حتى الوقت الحاضر يعطي دلالة قوية على أن الأسماء تدوم زمناً أطول من المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الاثنية[١٣١].

اشتقاقياً يعود الاسم إلى الكنعانية بمعنى «المجد، التألق» أو «المجيد، المتألق»[١٣٢].

أمرع: ورد الاسم عند كل من الرحالة والباحثين الأجانب الذين زاروا المنطقة ومنهم: بيركهاردت[١٣٣]، وموزيل[١٣٤].

لعل الاسم يعود من الناحية الاشتقاقية إلى الكنعانية أو الارامية، وهو بمعنى «عشب، كلأ».

البالوع: ذُكِرَ الاسم بأكثر من صيغة في كتابات الرحالة الأجانب، فذكره سيتزن باسم بالوعة[١٣٥]، وبيركهاردت باسم جدول البالوع، أو منبع البالوع، وتوجد بجانب النبع قلعة تسمى قلعة البالوع[١٣٦]، وموزيل باسم خربة بالوعة[١٣٧].

يعود الاسم كما يشير العهد القديم إلى المؤابية من بلع للوزن قتل، غير أنه وبتأثير من الارامية وبعدها العربية اتخذ

(١١٨) Seetzen, p. 377.
(١١٩) Klein, p. 153.
(١٢٠) Tristram, p. 120.
(١٢١) Musil, Pp. 16 - 17.
(١٢٢) Wild, p. 267.
(١٢٣) ياقوت الحموي، ج ٤: ١٠٠٢.
(١٢٤) Wild, p. 269.
(١٢٥) Koenig, p. 439.
(١٢٦) البخيت والحمود، ص ٣٠٦.
(١٢٧) يوسف درويش الغوانمة، **التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي**، دار الفكر، عمان (١٩٨٢) ص ١٣٢.
(١٢٨) Burckhardt, p. 389.
(١٢٩) Bruennow and Domaszewski, p. 41.
(١٣٠) Musil, p. 1: 143.
(١٣١) Knauf, 1988, p. 39.
(١٣٢) Koenig, p. 5.
(١٣٣) Burckhardt, p. 389.
(١٣٤) Musil, p. 88, 374.
(١٣٥) Seetzen, p. 416.
(١٣٦) Burckhardt, p. 99.
(١٣٧) Musil, p. 138.

الاسم شكله الحالي، إذ تصاغ في الارامية من وزن فاعول صيغة اسم الفاعل(١٣٨)، والبالوع في العربية يعني «البئر في وسط الدار يضيّق رأسها، يجري بها المطر»(١٣٩).

بتير: يعود أقدم ذكر للمكان إلى القرن الثالث عشر ق. م، حيث ذكرها قدماء المصريين باسم بوتوت(١٤٠)، وكان ذكرها كل من سيتزن(١٤١). وتراسترام(١٤٢)، وموزيل(١٤٣) من الرحالة الأجانب كقرية تقع إلى الغرب من الربة.

اشتقاقياً يعني الاسم بتير betēr «الشقوق الصخرية» من الجذر /ب ت ر/ «قطع، فصل»(١٤٤).

خربة الحنو: تقع إلى الجنوب الغربي من حمود، وربما يعود الجزء الثاني من الاسم إلى الكنعانية حِنّو بمعنى «رحمة»(١٤٥).

عي: ذكر هذا الموقع كل من سيتزن(١٤٦) وموزيل(١٤٧)، والاسم كنعاني يعني «خربة أو انقاض».

فقوع: ذكر هذا الموقع كل من سيتزن(١٤٨) وموزيل(١٤٩) والبرايت(١٥٠)، وجلوك(١٥١). اشتقاقياً فإن صيغة اسم الفاعل في الآرامية والكنعانية (قتول) أو بمد حركة فتح القاف قاتول من الجذر ب/ف ق ع «فقأ، فقع» وكوصف لطبيعة المكان يعني «المكان المنخفض، والوادي الفسيح»، وفي صيغة المؤنث ترد الكلمة في الكنعانية Paqᶜāṯā «وديان» وفي السريانية Paqaᶜtā «وادي»(١٥٢).

مؤاب: يقع إلى الجنوب الشرقي من المزار، ورد الاسم في المصادر العربية باسم موآب أو ماب عند كل من ياقوت(١٥٣)، وابن عبد الحق(١٥٤)، وابن خرداذبه(١٥٥)، والمقدسي(١٥٦)، وابن الفقيه(١٥٧)، واليعقوبي(١٥٨)، والإدريسي(١٥٩)، وقد وصفوها بأنها تابعة لكورة دمشق.

وقد سبقت المصادر القديمة إلى ذكر الاسم، في كل من المصادر المصرية القديمة(١٦٠)، والآشورية(١٦١)، واليونانية(١٦٢)، أما في العهد القديم فقد وردت الكلمة اسماً لمنطقة مؤاب مرة، واسماً لشعب مرة أخرى(١٦٣).

مؤتة: تشير المصادر التاريخية إلى أن مؤتة تتبع الشراة

(١٣٨) Wild, 272, Maᶜani, p. 23.

(١٣٩) أبو الفضل جمال الدين محمد مكرم، **لسان العرب**، ١٥ جزءاً، دار صادر، بيروت (١٩٥٥)، مادة بلع.

(١٤٠) Knauf, 1991, Pp. 19 - 20.

(١٤١) Seetzen, p. 416.

(١٤٢) Tristram, p. 120.

(١٤٣) Musil, p. 21.

(١٤٤) Knauf, 1991, p. 286.

(١٤٥) Gesenius, p. 256.

(١٤٦) Seetzen, p. 414.

(١٤٧) Musil, p. 73, 253.

(١٤٨) Seetzen, p. 416.

(١٤٩) Musil, p. 19.

(١٥٠) W. F. Albright, «The Archaeological Results of an Expedition to Moab and Dead Sea» BASOR 14 (1924), p. 9.

(١٥١) Glueck, p. 60.

(١٥٢) Koenig, p. 46.

(١٥٣) ياقوت الحموي، ج ٤: ٣٧٧.

(١٥٤) ابن عبد الحق، ج ٣: ٢٥.

(١٥٥) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، **المسالك والممالك**، لايدن (١٨٨٩)، ص ٧٧.

(١٥٦) المقدسي، ص ١٥٥ و ١٧٨.

(١٥٧) أبو بكر أحمد بن محمد ابن الفقيه الهمداني، **مختصر كتاب البلدان**، لايدن (١٨٨٥)، ص ١٠٥.

(١٥٨) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي بن جعفر بن وهب، **تاريخ اليعقوبي**، جزءان، النجف (١٩٥٧)، ص ٣٢٦.

(١٥٩) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، روما (١٩٧٠ ـ ١٩٧٧)، ص ٣٥٥.

(١٦٠) Gesenius, p. 403.

(١٦١) R. Bondon, Liste des Noms (1929).

(١٦٢) Eusebius, 124. 15.

إلى الجنوب من الكرك، كما يظهر ذلك عند المقدسي[١٦٤]، واليعقوبي[١٦٥]، والبكري[١٦٦]، والإدريسي[١٦٧]، والدمشقي[١٦٨]، وأبي الفداء[١٦٩]، وياقوت[١٧٠] وابن عبد الحق[١٧١] في المصادر العربية، وعند كل من سيتزن[١٧٢]، وبيركهاردت[١٧٣]، وكلاين[١٧٤]، وترسترام[١٧٥]، وبرونوف ودوماسوفسكي[١٧٦]، وموزيل[١٧٧]، وجلوك[١٧٨] من الرحالة والآثاريين الأجانب.

اشتقاقياً يذكر الاسم بالمكان الآرامي الموجود في المنطقة حوران وهو /متان/[١٧٩] موتان > موتان[١٨٠] بحذف حرف النون موتا. ويعني الاسم مؤتة «مكان الشروع بعمل ما» أو «مكان الموت»[١٨١].

ثانياً: الأسماء الآرامية

لم تكن إشارة ياقوت الحموي التي نبه فيها إلى أن دير سابان يعود إلى الآرامية، الإشارة الأولى إلى أن بعض أسماء المواقع تعود إلى أصول غير عربية، إذ لم تخل كتابات الاخباريين العرب من التنويهات والإشارات إلى ذلك[١٨٢].

إذا كانت الأسماء الكنعانية تنتشر في فلسطين والأردن أكثر من سوريا مثلاً، فإن الأسماء ذات الأصول الارامية تزداد في الأردن عنها في فسلطين، وفي سوريا ولبنان عنها في الأردن. ويمكن تقسيم الأسماء الارامية حسب اللواحق والسوابق التالية:

I ـ اللواحق

١ ـ تنتهي بعض الأسماء بالألف، وهي علامة المفرد المذكر المؤكد، أو علامة المفرد المؤنث المطلق، ولذلك يصعب تحديد جنس بعض الأسماء، ويمكن درج هذه الأسماء في محافظة الكرك كما يلي: ـ

بردى: كتب اسم هذا الموقع في السجلات العثمانية بالألف المقصورة، وهو يحاكي اسم نهر بردى المشهور، في حين أن هنالك مناطق أخرى قرب حلب تعرف بهذا الاسم[١٨٣].

أما من البعد الاشتقاقي فيعود الاسم أغلب الأمر إلى الآرامية /بردا/ بمعنى «أدكن، مبرقش، أو البارد»[١٨٤].

خربة جوبا: تقع شمال شرق محنا، ذكرها كل من

(١٦٣) فان زيل، **المؤابيون**، ت: خير ياسين، الجامعة الأردنية (١٩٩٠)، ص ٨٤.
(١٦٤) المقدسي، ص ١٧٨.
(١٦٥) اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٥، ٧٢.
(١٦٦) البكري، ج ٢: ٥٠٠.
(١٦٧) الإدريسي، ص ٣٥٧.
(١٦٨) الدمشقي، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، بغداد (١٩٢٣)، ص ٢١٣.
(١٦٩) أبو الفداء، ص ٢٤٧.
(١٧٠) ياقوت الحموي، ج ٤: ٦٧٧.
(١٧١) ابن عبد الحق، ج ٣: ١٧٠.
(١٧٢) Seetzen, p. 412.
(١٧٣) Burckhardt, p. 389.
(١٧٤) Klein, p. 255.
(١٧٥) Tristram, p. 118.
(١٧٦) Bruennow and Domaszewski, 1:60, 68.
(١٧٧) Musil, p. 14, 22.
(١٧٨) Glueck, 1939, 970.
(١٧٩) E. Robinson, Biblical Researches in Palestine and The Adjacent Regions, 3 Vols, Jerusalem (1970) III: 914.
(١٨٠) Th. Noeldeke, «Zur Topographie und Geschichte des Damaszenischen Gebietes un der Hauran Gegend» Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft 29 (1876), Pp. 414 - 444.
(١٨١) Knauf, 1991, p. 284.
(١٨٢) ياقوت الحموي، ج ٢: ٦٦٦.
(١٨٣) ياقوت الحموي، ج ٣: ٥٥٨، ابن عبد الحق، ج ١: ١٤٢.
(١٨٤) S. J. Costaz, Syriac - English Dictionary Beyrouth (1986), p. 37.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Costaz

تراسترام[١٨٥]، وبرونوف ودوماسوفسكي[١٨٦] وموزيل[١٨٧] وجلوك[١٨٨].

أما اشتقاقياً فإن صيغة الاسم ارامية < جوبا > بمعنى «رافد، بئر». أما النهاية ألف فهي علامة المفرد المذكر، ومؤنث الاسم جوبتا [١٨٩].

عين دارا: الجزء الثاني من الاسم < دارا > > أرامي بمعنى «معركة، حرب»[١٩٠].

خربة زبدا: تقع إلى الغرب من مؤتة، وقد ذكرها كل من موزيل[١٩١] وجلوك[١٩٢].

وكثيراً ما يرد الاسم زبدا اسم علم أو اسم مكان[١٩٣]، وهو آرامي أصله /زبدا/ من الجذر السامي المشترك /ز ب د/ «أهدى» مرتبطاً أحياناً بدلالة دينية، بمعنى «هدية الله، الرب»، وللمقابلة قارن بيت زبدين[١٩٤].

الزرّاعة: تقع جنوبي شرق الربة. ذكرها كل من سيتزن[١٩٥]، وموزيل[١٩٦]. الصيغة تحاكي صيغة اسم الفاعل في الارامية فعّال = زرّاعا، بمعنى «صانع، منتج» من الجذر السامي المشترك /زرع/[١٩٧]، أما النهاية فهي تحريف لعلامة المذكر المفرد الارامية زرّاعا.

زيتا: خربة تقع غرب الكرك، وهناك عدد آخر من الأماكن يحمل نفس الاسم مثل طور زيتا[١٩٨]، وكفرزيتا، بزيتا[١٩٩]، ويعود الاسم إلى الارامية زيتا «زيتون زيت».

سكّا: ذكرها موزيل باسم عين سكا[٢٠٠]، وهناك مكان آخر قرب دمشق يحمل نفس الاسم، غير أن ياقوت ذكره منتهياً بالهمزة (سكّاء)، اعتقاداً منه أنه مشتق من أسك «أصمّ»[٢٠١]، غير أن الاسم يعود اشتقاقياً إلى الارامية سْكا «رقَب وانتظر»[٢٠٢]، وصيغة اسم الفاعل منه سكّايا، وكاسم مكان فإن المعنى المقترح للاسم هو «مطَلٌّ، المكان المشرف، مكان المراقبة».

العينا: الاسم عينا ارامي مذكر، مؤنثه عيناتا «عينون، ينابيع»[٢٠٣]، وترد أسماء كثيرة مركبة أو مفردة لها علاقة بمثل هذا الاسم مثل وادي العيون، باعنياتا وعيناتا في لبنان[٢٠٤] وعينون وعنجرا شمالي الأردن[٢٠٥].

كمنا: تقع إلى الجنوب الغربي من الكرك، ومن الناحية الاشتقاقية يبدو الاسم غير واضح إلا أنه أقرب إلى الارامية كميانا بمعنى «مكائد، مخابىء»[٢٠٦].

٢ ـ ومن النهايات التي تسم الأسماء الآرامية علامة الجمع المذكر المطلق وهي الياء والنون (ين)، والتي تتناوب مع علامة

(١٨٥) Tristram, p. 117.
(١٨٦) Bruennow and Domaszewski, 1: 11, 193.
(١٨٧) Musil, p. 362.
(١٨٨) Glueck, 1939, p. 100.
(١٨٩) Costaz, p. 44.
(١٩٠) LS, p. 147, Costaz, p. 69.
(١٩١) Musil, p. 256.
(١٩٢) Glueck, p. 112.
(١٩٣) Maᶜani, p. 164.
(١٩٤) Jacop Levy, Woerterbuch ueber die Talmudim und Midraschim, 4 Vols. Berlin (1924) 1: 226.
(١٩٥) Seetzen, p. 416.
(١٩٦) Musil, p. 86, 92.
(١٩٧) Maᶜani, p. 127.
(١٩٨) المقدسي، ص ١٨٨ وياقوت الحموي، ج ٣: ٥٥٨.
(١٩٩) Wild, p. 160.
(٢٠٠) Musil, p. 65.
(٢٠١) ياقوت الحموي، ج ٣: ١٠٣.
(٢٠٢) LS, p. 473.
(٢٠٣) Gesenius, p. 582.
(٢٠٤) أنيس فريحة، **اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها**: دراسة لغوية، بيروت (١٩٧٢)، ص ١٩٦.
(٢٠٥) Maᶜani, p. 90.
(٢٠٦) Costaz, p. 251, LS, p. 522.

الجمع المذكر المؤكد في الآرامية /ايا/[٢٠٧]، والتي تقابلها النهاية /ة/ في الارامية الشرقية[٢٠٨].

راكين: تقع شمالي الكرك، ذكرها كل من سيتزن[٢٠٩]، وتراسترام[٢١٠]، وموزيل[٢١١]. اشتقاقياً يعود الاسم إلى الارامية راكين بمعنى «المنحدر» أو من الجذر راك «ضج»، روكا «ضوضاء»[٢١٢].

II ـ السوابق

١ ـ من السوابق التي تسبق الأسماء الارامية العين، مختصرة عن عينا «عين ماء»، وتظهر على أشكال إما كاملة أو مختصرة إلى عا أو عان، وربما يندرج تحت ذلك في محافظة الكرك اسم عسال: وقد يكون هذا الاسم مركباً من عين ساليا «النبع الهادىء، العين الساكنة»[٢١٣].

٢ ـ ومن السوابق أيضاً حرف الباء مختصراً عن كلمة / بيتا/ «بيت»[٢١٤]، وقد يكون اسم بذان الواقع شرقي وادي الكرك، ضمن الأسماء المندرجة تحت هذا البند أي: /بيت دانا > بادان > بذان > بذان/ «بيت آنية الخمر»، و/دان < دانا/ تعني «آنية الخمر» في الارامية.

III ـ أما أسماء المواقع الآرامية غير المزيدة في محافظة الكرك فهي:

خربة الجلول: تقع شمالي غرب محنا، ذكرها كل من بيركهاردت[٢١٥]، وتراسترام[٢١٦]، وداوتي[٢١٧]، وبرونوف ودوماسوفسكي[٢١٨]، وموزيل[٢١٩]، وجلوك[٢٢٠]. ونلاحظ أنهم جميعاً قد أوردوا المكان باسم جلجول. أما القسم الثاني من الاسم فيحاكي الآرامية /جولا/ مع حذف علامة المفرد المذكر المؤكد بمعنى «طريد»، أما لفظة جلجول مع مد حركة الضم الثانية فهو إما عربي بمعنى «الحظ» أو ارامي /جلجل/ بمعنى «مرتفع شديد الانحدار»[٢٢١].

شابك: ورد الاسم عند كل من ياقوت[٢٢٢]، وابن عبد الحق[٢٢٣]، وشابك صيغة اسم الفاعل من الجذر /ش ب ك/، ولعله تحوير عن الارامية شباك «متشابك، معقد».

خربة الطور: تقع شمالي شرق المزار، ذكرها كل من سيتزن[٢٢٤]، وبرونوف ودوماسوفسكي[٢٢٥]، وموزيل[٢٢٦].

اشتقاقياً فإن الكلمة ذات أصل آرامي هو [illegible] طوراً بمعنى «الجبل»[٢٢٧].

(٢٠٧) Maᶜani, p. 157, Pp. 178 - 180.
(٢٠٨) Wild, p. 102, 107.
(٢٠٩) Seetzen, p. 416.
(٢١٠) Tristram, p. 120, 124.
(٢١١) Musil, p. 19, 154.
(٢١٢) Costaz, p. 341.
(٢١٣) Maᶜani, p. 186.
(٢١٤) Maᶜani, p. 234.
(٢١٥) Burckhardt, p. 389.
(٢١٦) Tristram, p. 118.
(٢١٧) Doughty, p. 22.
(٢١٨) Bruennow and Domaszewski, 1: 103.
(٢١٩) Musil, Pp. 364 - 365.
(٢٢٠) Glueck, 1939, p. 100.
(٢٢١) LS, p. 117.
(٢٢٢) ياقوت الحموي، ج ٣: ٢٢٦.
(٢٢٣) ابن عبد الحق، ج ٢: ٨٣.
(٢٢٤) Seetzen, p. 416.
(٢٢٥) Bruennow and Domaszewski, 1: 10.
(٢٢٦) Musil, p. 6, 21, 78.
(٢٢٧) Wild, p. 50.

كثربا: ورد الاسم في السجلات العثمانية باسم كفر ربا[٢٢٨]، وقد ذكرها في بدايات القرن التاسع عشر كل من سيتزن[٢٢٩]، وبيركهاردت[٢٣٠]، وموزيل[٢٣١]، وجلوك[٢٣٢]. الاسم كثربّا محرف عن الآرامية، وهو اسم مركب من كلمتين هما: /كفرا > كفر وربّا/ من الجذر ربا «نما وكبر»، ولذلك فإن الاسم /كفر ربّا/ يعني «المدينة الكبيرة» أو «المدينة الرئيسة».

الكرك: ذكرت في كتب الإخباريين العرب أمثال ياقوت[٢٣٣]، وأبي الفداء[٢٣٤]، والدمشقي[٢٣٥] مرات عديدة.

أما عند الرحالة الأجانب فقد ذكرها كل من سيتزن[٢٣٦] وبيركهاردت[٢٣٧] وكلاين[٢٣٨] وتراسترام[٢٣٩]، وداوتي[٢٤٠]. سميت الكرك بأكثر من اسم هي قير حارسة، وقير حارس، وقير حرس، ثم قير مؤاب[٢٤١]، وقد بقي معنى كلمة حارسة محل خلاف إلى أن اكتشف نقش ميشع الذي دلل على أنها تعني «تل يعلوه بناء» في حين أن كلمة قير تعني الحصن أو القلعة، فجاء المعنى الكنعاني متوافقاً مع اسم الكرك الحالي.

وذكرت المصادر القديمة مثل قائمة مجدّو رقم ١٠١ المكان باسم harkur، وورد أيضاً في خريطة مادبا الفسيفسائية باسم [Char] achmoba، وفي اليونانية Charachmouba، في حين ذكرتها المصادر البيزنطية بالأشكال التالية Charachmouba, Charakmoba, Charagmouba[٢٤٢].

أما اشتقاقياً فإن الاسم ارامي لصيغة التوكيد كركا بمعنى «المدينة المسورة»، ورغم أن المدينة المؤابية موجودة منذ ٨٦٠ق. م، إلا أن تسميتها بالاسم الحالي تعود إلى حوالى القرن الرابع /الخامس ق. م[٢٤٣].

نصيب: تقع بين القصر والجدعا، ذكرها كل من تراسترام[٢٤٤]، وبرونوف ودوماسوفسكي[٢٤٥]، وموزيل[٢٤٦]، وجلوك[٢٤٧].

من الناحية الاشتقاقية قد يكون الاسم آرامياً على صيغة اسم المفعول Nᵉṣēb نصيب من الجذر نصب «يغرس، نصب» أما الاحتمال الثاني في أصل الاسم، فقد يكون عربياً بمعنى «الحظ، والقسمة».

ثالثاً: الأسماء العربية

تنتشر الأسماء العربية في بلاد الشام بنسبة أكبر بكثير من غير العربية، وتشكل نسبة الأسماء العربية في شمالي الأردن على سبيل المثال ما نسبته ٧٣ ٪ من مجموع الأسماء البالغة حوالي ١١٢٠[٢٤٨].

إن معظم الأسماء العربية مستمد من المصادر التاريخية،

(٢٢٨) البخيت، ص ٢٩٨.
(٢٢٩) Seetzen, p. 416.
(٢٣٠) Burckhardt, p. 389.
(٢٣١) Musil, p. 22, 68.
(٢٣٢) Glueck, 1939, p. 89.
(٢٣٣) ياقوت الحموي، ج ٤: ٢٦١.
(٢٣٤) أبو الفداء، ص ٦٤٦.
(٢٣٥) الدمشقي، ص ٢١٣.
(٢٣٦) Seetzen, Pp. 412 - 426.
(٢٣٧) Burckhardt, p. 377.
(٢٣٨) Klein, p. 153.
(٢٣٩) Tristram, p. 232.
(٢٤٠) Doutghy, Pp. 45 - 62.
(٢٤١) Musil, Pp. 45 - 62.
(٢٤٢) فان زيل، ص ١١٠ ـ ١١١.
(٢٤٣) Miller, p. 89.
(٢٤٤) Knauf, 1991, p. 285.
(٢٤٥) Tristram, p. 120.
(٢٤٦) Bruennow and Domaszewski, 1: 46.
(٢٤٧) Musil, p. 140.
(٢٤٨) Glueck, 1934, p. 56.

والجغرافية والمعاجم الجغرافية التي كتبت بعد القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين، وتعود هذه الأسماء بمجملها إلى العربية الكلاسيكية وما بعدها.

ويبدو أثر العامل الديني جلياً في هذه الأسماء، فقد ظهرت أسماء مواقع جديدة تحمل دلالات دينية وأسماء قوّادٍ مسلمين، وأسماء معارك إسلاميّة، في حين استبدلت بعض الأسماء ذات المعاني والدلالات السلبية مثل: عفرا وعفرون وفارة إلى أسماء تحمل معاني ودلالات حسنة كالطيبة أو طيّبة الاسم.

لقد أثّرت اللغة العربية أيضاً على الأسماء غير العربية، ويبدو ذلك من خلال تغيُّر بعض تراكيب الأسماء مع بقاء المعاني الأصلية لها، مثل بالعة < أصلها بلعوم، وعاقر أصلها عِقرون.

تنقسم الأسماء العربية بدورها إلى فترات وحقب أثرت بمجملها على صيغ ودلالات الأسماء.

وأسماء المدن والقرى التي تعود إلى فترة الأردن الحديث يمكن تلمُّسُها من خلال الدوافع الاجتماعية والسياسية وراء التسمية، حيث تبرز أسماء عائلات وأشخاص لها أهمية سياسية واجتماعية، أو أسماء لها علاقة بالهاشميين، مثل الهاشمية، ويتسم عدد آخر بارتباطه بحدث ما، كما هو الحال في الكرامة والنزهة أو جسر الملك حسين في شمالي الأردن[٢٤٩]، أما أسماء المواقع في محافظة الكرك، التي تعود إلى هذه الفترة فهي مسميات جديدة لأسماء مواقع قديمة، وقد كان الدافع وراء هذا التغيير، غموض هذه الأسماء أو عدم استحسان بعضها، غير أن ذلك يذهب بالقيمة اللغوية والتاريخية والدينية والاجتماعية لها، ومن الأسماء التي تنتمي إلى هذه الفترة: الخالدية (أم زباير قديماً)، والشهابية (إفرنج قديماً)، والمعمورة (الخنزيرة قديماً)، والعدنانية (محنا قديماً)، والمأمونية (أبو الشيح قديماً)، والصالحيّة (خربة الزط قديماً)، والهاشمية (الجوير ومجرا قديماً)، والحسينية (رجم الصخري قديماً)، والعمريّة (دليقة قديماً).

ونلاحظ بالرجوع إلى هذه الأسماء أن اسمين منها له علاقة بالعائلة الهاشميّة، وخمسة أو ستة أسماء تعود إلى أسماء عائلات أو أشخاص، وقد شذَّ عن صيغة ودلالة هذه الأسماء، اسم المعمورة الذي يمكن تصنيفه ضمن أسماء المواقع التي تعود إلى العربية الكلاسيكية.

أما الفترة التالية التي تنقسم إليها الأسماء العربية فهي التي تعود إلى ما بين القرنين التاسع والتاسع عشر الميلاديين، وتسمى ما بعد العربيّة الكلاسيكية، وتتسم هذه الأسماء بعدد من السمات أهمها: أن بعض الأسماء تأتي مركبة مع أب وأم وهي بدورها تنقسم إلى قسمين هما: أبو أو أم مع اسم شخص، والثاني أبو أو أم مع وصف جغرافي أو طبوغرافي[٢٥٠]، ومن هذه الأسماء، أم سدرة، وأم زبائر، وأم حماط، وأم دمِس، وأم العدول، وأم قليب، وأم الينابيع، وأم الغزلان وأم ترابة وغيرها.

ومما يسمُ أسماء هذه المجموعة ورود عدد غير قليل منها بصيغة التصغير، مع إدغام حركتي فُعيل (ai) لتصبح فعيْل (ē)[٢٥١]. ومن هذه الأسماء: البطيمة، رجم قنيطرة، المغير، المشيرفات، مُجيدل، بُليدة، الشُرفية، بثينة، شقيرا، الغوير وغيرها.

هنالك عددٌ من الأسماء، والتي تعود إلى هذه الطبقة مركبة من أسماء اعلام عامة مثل، جورة وجرن وخلة وما شابهها، ومن هذه الأسماء في محافظة الكرك جبل أبو الهشيم، ورجم الحمض، وعين الشجر، ووادي الدية، وضربة الطور، وسيل الكرك وغيرها.

ومن سمات هذه الفئة بورود اسم الحيوان، والنبات مفرداً أو مركباً، ويظهر ذلك في محافظة الكرك من خلال الأسماء التالية: الشجرة، والبطمة، وقصر التمرة، ووادي الزيت، ورجم التيس، وجوزة، وأم الخنازير، وأم الغزلان.

وتتسم أسماء هذه الفئة بورود أسماء أشخاص أو عائلات مع ياء النسبة وتاء التأنيث ملفوظة بحال الوقف[٢٥٢]، مثل العزيزية والفيصلية والعبدلية.

أما الفئة الثالثة من الأسماء العربية، فتلك التي نحتاج فيها إلى معاجم اللغة لتوضيح معانيها، وتتسم بسلامة لفظها وصيغتها، ومنها في محافظة الكرك، دمنة، والمريفة، وسواقة، والثنية، والعراق، والبحر، والطيبة، والقصر، والأبيض، وباير،

(٢٤٩) Maᶜani, p. 285.

(٢٥٠) Maᶜani, p. 5.

(٢٥١) Wild, p. 317.

(٢٥٢) Maᶜani, p. 22.

والمزار الجنوبي ومومياء، وفيفا وغيرها.

عُرفت أسماء المواقع التي تعود إلى العربية الكلاسيكية سمة التركيب مع (ذو وذات) وقد استبدلا في فترة ما بعد العربية الكلاسيكية بأبي وأمّ إلا أننا نلاحظ في درسنا لأسماء المواقع أن (ذو وذات) تردان في أمثلة تسبق العربية الكلاسيكية مثل (ذو غيلان، وذو أفاعي، وذو بيحان، وذو غيل ثم ذات غيلام)[٢٥٣]، أمّا في محافظة الكرك فيرد اسم ذات رأس، كمثال على فترة ما قبل العربية الكلاسيكية، فالقسم الثاني رأس يخلو من أل التعريف، كما هو الحال في اسم بيت رأس الارامي[٢٥٤]، وتل حيرا[٢٥٥].

رابعاً: الأسماء اليونانيّة واللاتينيّة

تدون: تقع إلى الشمال الغربي من القصر، ذكرها كل من موزيل[٢٥٦] وجلوك[٢٥٧]، ويرجع الاسم إلى اليونانية St. Theodoros بمعنى القديس ديودوروس، الذي تطور عبر تدور أو تذور[٢٥٨] إلى تدون.

قريفلة: تقع إلى الجنوب الشرقي من راكين، ذكرها كل من سيتزن [٢٥٩] وبيركهاردت (٢٦٠)، وتراسترام[٢٦١]، وبرونوف ودوماسوفسكي [٢٦٢]، وموزيل[٢٦٣]. المعنى والاشتقاق غامضان ولعله يعود إلى اللاتينية[٢٦٤].

اللجون: ورد ذكره على أنه مكان في جنوبي الأردن عند كل من ابن خرداذبه[٢٦٥]، والمقدسي[٢٦٦]، وابن الفقيه[٢٦٧]، والإدريسي[٢٦٨]، وأبي الفداء[٢٦٩]، وذكره الدمشقي[٢٧٠] على أنه موقع شرقي مؤاب. وهو اسم لاتيني Legio Legion عنى «فرقة جيش أو فيلق» وقد أطلق ساكنو المكان إبّان الحكم الروماني هذا الاسم للتدليل على قيمة المكان العسكرية فالاسم مأخوذ من اللاتينية Castra Legionis وهي الوحدة الأساسية في الجيش الروماني[٢٧١].

خامساً: الأسماء التركيّة

لم يكن الأثر التركي على أسماء المواقع في منطقة الكرك كبيراً شأنه شأن شمالي الأردن[٢٧٢]، إذ لا نجد أمثلة لهذه الطبقة إلا اسم كركون < تركي كركول «مخفر شرطة».

لعل الفترة الاستيطانية الطويلة التي مرت بها منطقة الكرك، والتي تعود إلى الألف الرابع أو السادس قبل الميلاد يجعل تحديد الطبقة اللغوية أمراً صعباً في أغلب الأحيان،

(٢٥٣) Musil, p. 284.
(٢٥٤) B. J. Isserlin, «Arabian Place Name Types» BSAS, 16 (1986), p. 47.
H. Von Wissmann and M. Hoefner, Beitraege Zur Historischen Geographie des Vorislamischen Suedarabian, Wiesbaden (1952), p. 48.
(٢٥٥) Ma^cani, p. 6.
(٢٥٦) Knauf, 1984, p. 21.
(٢٥٧) Musil, p. 16, 19.
(٢٥٨) Glueck, 1934, p. 62.
(٢٥٩) Knauf, p. 1991, p. 280.
(٢٦٠) Seetzen, p. 416.
(٢٦١) Burckhardt, p. 377.
(٢٦٢) Tristram, p. 120.
(٢٦٣) Bruennow and Domaszewski, 1: 59.
(٢٦٤) Musil, p. 19.
(٢٦٥) ابن خرداذبه، ص ٧٨.
(٢٦٦) المقدسي، ص ١٥٤.
(٢٦٧) ابن الفقيه، ص ١١٦.
(٢٦٨) الإدريسي، ٣٧٧.
(٢٦٩) أبو الفداء، ص ٢٢٧.
(٢٧٠) الدمشقي، ص ١٣.
(٢٧١) Knauf, 1991, p. 285.
(٢٧٢) Ma^cani, p. 6.

وتقدر الفترة التي تغطي العربية قبل الكلاسيكية بخمسة آلاف سنة، ولذا فإن اسماً مثل سول قد يندرج تحت هذه الطبقة، دون أن تسعفنا المصادر والدراسات بإمكانية تحليله.

دلالات أسماء المواقع وأهميتها

تتضمن أسماء الأماكن معاني ومدلولات متعددة وتعتبر ذات قيمة تاريخية هامّة، فهي أقدم عهداً من أسماء الأشخاص، وتعتبر أحياناً المصدر الوحيد الذي يؤرخ لفترة ما، فكثير من الأسماء يعود إلى فترات مبكرة كالأكادية والبابلية والكنعانية وغيرها، وتعكس أسماء القرى والمدن النواحي الدينية والسياسية والثقافية والاقتصادية «فالكلمة متحجر اجتماعي قديم وصل إلينا منذ آلاف وآلاف السنين، وكل كلمة تتضمن فكرة، صورة ذهنية، تعكس لنا ناحية من نواحي التفكير الإنساني»(٢٧٣).

إن بعض الأسماء ترتبط ارتباطاً وثيقاً بثقافة الناس، فعلى الرغم من أن أصحاب الثقافة يذهبون فإن الاسم يبقى أطول من كل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإثنية وحتى اللغوية، فأدر المركز المؤابي المهم وصل إلينا من العصر البرونزي المبكر (٣١٠٠ - ٢٤٠٠ق. م) في حين غابت كل الظروف المتعلقة بساكني المنطقة. واللجون التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد عادت واستوطنت من قبل الرومان حاملة نفس الاسم.

وتحمل أسماء القرى والمدن والمناطق الجغرافية عدداً من الدلالات المادية والمجردة، وتدل هذه المناطق في المقام الأول على وصف جغرافي وطبوغرافي في المنطقة فيصف الاسم: طبيعة المكان، أهم العلامات المميزة له، وصف مظاهره الأخرى، وفيما يلي سنتعرض لأسماء المواقع في الكرك ضمن دلالة الوصف الجغرافي:

تحظى الممرات الضيقة باهتمام السكان لما تتركه من مشقة وتعب، ولما تشكله من عائق طبيعي في تحركاتهم، لذلك نجدهم يُسمّون بعض المناطق هذه الممرات ومنها: الثنية «الطريق الضيق».

ومن الدلالات التي تظهر في كثير من الأمكنة العلو والارتفاع ويبرز ذلك في الأسماء التالية: سكا «المكان المشرف المطل» خربة الطور، الظاهرية، عالية، المشيرفة، السماكية، الذراع، ذات رأس، ومنها دلالة الاتساع والانبساط مثل: مومية «المغارة الواسعة من الأرض»، فيفة، سهل شرما، **فج العسيكر**، بقيع.

وكثير من أسماء المواقع يدل على الغور **والانخفاض ومنها** في محافظة الكرك: عمقا «الوادي»، مجرا «**مسقط**»، **فقوع** «المنخفض، الوادي الفسيح»، راكين «المنحدر»، **الغوير، العراق**، حجرا، غور.

وتدل أسماء المواقع فيما تحمله من دلالات على نوع الاستيطان وهيئة المكان ومن هذه الدلالات حسب ما تظهره أسماء المواقع في محافظة الكرك: محنا «المخيم»، **الربة «المدينة** الرئيسة، العاصمة»، مجدلين، «القلعة»، مرود «**المطاف، مكان** التجوال»، مؤتة «مكان الموت»، عي «الخربة، **عين دارا» «مكان** الحرب» كمنّا «مكائد، مخابىء» كثربّا، الكرك، **المعمورة، المنشية**، مجيدل، بليدة مُحي، القصر، والأسماء المركبة مع **بيت، خربة** رجم «قبر» منشية.

ومن الأسماء ما يدل على ظاهرة جيولوجية، **وهذه الأسماء** في محافظة الكرك هي: خوخا «الشقوق الصخرية»، بتير «الشقوق الصخرية»، البحر «الشق، الفجوة في الأرض»، **بقيع**، غور.

ومما تحمله أسماء المواقع من دلالات الإشارات إلى نوع التربة أو إلى الخصب والجدب، وهذا النوع من الدلالات تظهره الأسماء التالية في محافظة الكرك: إمرع «مكان الكلأ والعشب»، الزراعة، الروضة المزرعة، المريغة «أرض صحراوية».

ومن الدلالات المحتملة في أسماء المواقع الجغرافية اللون، وهي في محافظة الكرك كالتالي: بردا «ربما تعني أدكن»، الشهابية ربما يكون الاسم منسوباً إلى لون التربة، الزهراء «المنطقة ذات الحجارة البازلتية اللمّاعة»، شقيرا الشرقية، شقيرا الغربية، سمرا، الأبيض، جبل البيضاء، جبل الحُمّر.

ومن الأسماء ما يدل على مصدر مائي أو ما له علاقة بذلك، وهذه الأسماء في محافظة الكرك: أم الينابيع، بقيع إصرارة «الأماكن المرتفعة لا يعلوها الماء» أو ما رُكب مع سد وسيل وعين وهي: سد السلطان، سيل الكرك، عين ارسيس، عين البالوع، عين العجمي، عين علا، عين فالح، عينون، البالوع، العينا، خربة جوبا، الحوية، سبخة، النميرة.

وتحمل أسماء المواقع دلالات دينية، وخصوصاً تلك الأسماء المركبة مع أسماء آلهة أو أية إشارات دينية أخرى، وهذه الأسماء في محافظة الكرك تبرز في الأسماء التالية:

(٢٧٣) فريحة، ص XXXII

أريحا، خربة زبدا، الدير، المزار الجنوبي، مزار سيدنا سليمان، مقام النبي يوشع.

وتنسب أسماء المدن والقرى إلى أشخاص وحوادث معينة، وكثيراً ما تنسب هذه الأسماء إلى عائلات وجماعات معينة، وتظهر هذه الدلالات في الأسماء مثل: الخالدية، العدنانية، المأمونية، الهاشمية، الحسينية، العمرية.

وهناك أسماء مواقع تنتسب إلى حيوان، منها: أم الغزلان، أم الخنازير، أما تلك الأسماء التي تنتسب إلى نبات أو شجر في محافظة الكرك فعديدة: شيحان، امرع وزيتا.

وتحمل أسماء المواقع دلالات مجردة غير تلك التي ذكرت سابقاً تنطوي على فكرة دينية أو عاطفية أو ثقافية، وقد تكون التسمية بدافع الاستحسان أو التحقير من قبل أناس آخرين كالجيران مثلاً، وفيما يلي نورد أسماء المواقع في محافظة الكرك التي تحمل هذه المضامين والدلالات: الربة «المدينة الرئيسة، عزرا «(مكان) المعونة، المساعدة»، مدين «مكان أو مركز العدالة والقانون»، مسعر «النار الملتهبة»، ياروت «مكان الرفقة أو الصداقة» خربة الحنو «خربة الرحمة والحظوة»، أدر «المتزلقة، الماجدة» مؤتة «مكان الموت»، مؤاب (ربما من آب)، خربة زبدا «هدية الرب»، بردى «(المكان) البارد»، المعمورة الحديثة، الطيبة، غور الصافي، وجبل الهادي.

خلاصة

ينوف عدد أسماء المواقع الجغرافية قيد الدرس، والممتدة ما بين وادي الموجب ووادي الحسا في جنوب الأردن (انظر الخريطة المرفقة)، على مئة وعشرة أسماء، تراوحت بين أسماء أماكن مستوطنة كالقرى والمدن، وأسماء الخرب، وأسماء العيون والبرك، وأسماء الأودية والجبال والتلال وأسماء الأحواض.

وقد درست الأسماء وفق منهج تحليلي دلالي واشتقاقي، فقسمت حسب فئاتها اللغوية إلى الطبقات التالية:

١ - الأسماء ذات الأصول الكنعانية، وتربو على أربعة وعشرين اسماً، وتُمثل ما نسبته ٢١,٨ ٪ من المجموع العام للأسماء المدروسة وقد تميزت هذه الأسماء بالسمات اللغوية التالية:

أ - تتصل ببعض الأسماء اللاحقة ألف، وهي علامة المفرد المؤنث.

ب - تتصل اللاحقة الواو والنون ببعض الأسماء، وهي النهاية اللغوية المكانية في الأسماء الكنعانية.

ج - تتصل الألف والنون، وهي نفس العلامة السابقة بالأسماء ذات الأصول الكنعانية، غير أنها قد أصبحت بتأثير من العربية ألفاً ونوناً في عدد وافر من أسماء المواقع الكنعانية المعربة.

د - تتصل اللاحقة الياء والميم، وهي علامة الجمع المذكر، ببعض الأسماء، غير أنها تنقلب بتأثير من الارامية والعربية إلى الياء والنون.

هـ - ومن السوابق التي تتصل بالأسماء كنعانية الأصل الميم وتفيد المصدرية، والياء وتفيد المضارعة.

و - هنالك أسماء مواقع كنعانية عديدة عاطلة عن الإشغال بالسوابق واللواحق، أُعيدت معجمياً إلى الكنعانية.

٢ - الأسماء ذات الأصول الارامية تَعُدُّ حوالي تسعة عشر اسماً، وتُمثل ما نسبته ١٧,٣ ٪ من المجموع العام للأسماء المدروسة، وأهم ما وسمت به هذه الأسماء:

أ - اللاحقة ألف، وهي علامة المفرد المذكر المؤكد، أو علامة المفرد المؤنث في حالة الإطلاق، وهذه حالات يصعب فيها تحديد جنس اسم المكان.

ب - اللاحقة الياء والنون، وهي علامة الجمع المذكر المطلق وتتناوب مع علامة الجمع المذكر المؤكد في الآرامية، وهي / أيا/.

ج - ومن السوابق التي تسم الأسماء كنعانية الأصل، وخصوصاً في الجزء الأول من الأسماء المركبة، حرف العين مختصراً عن كلمة عين، وحرف الباء مختصراً عن كلمة بيت.

د - هنالك أسماء مواقع ذات جذور ارامية غير مزيدة، اكتُفي بتحديد اراميتها معجمياً.

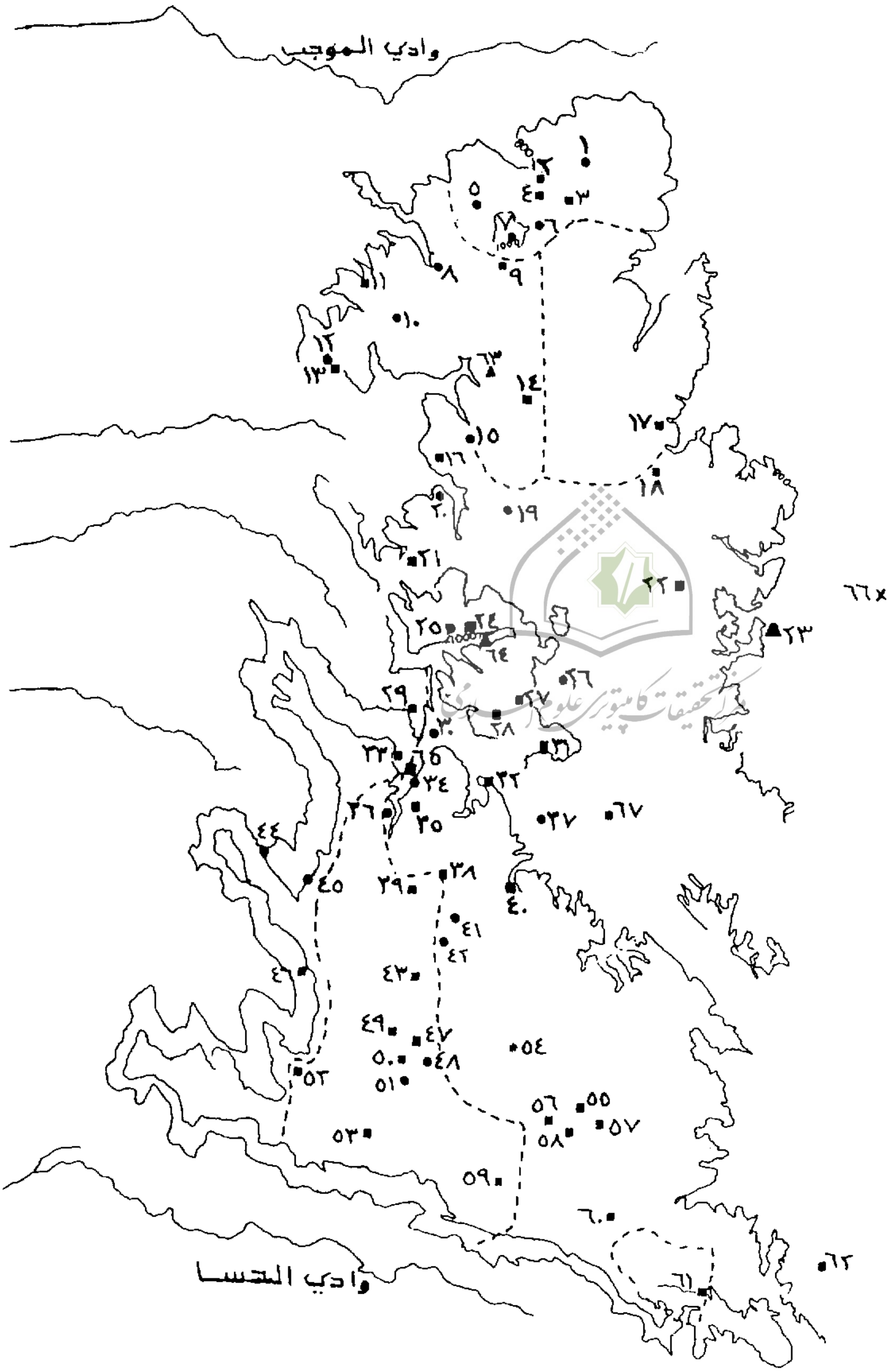
٣ - الأسماء العربية وعددها يربو على الستين وتُمثل ما نسبته ٥٤,٥ ٪ من المجموع العام للأسماء المدروسة.

٤ - الأسماء اليونانية والرومانية الأُصول، وعددها ثلاثة وتُمثل ما نسبته ٢,٧ ٪ من المجموع العام للأسماء المدروسة.

٥ - هنالك اسم عثماني وحيد يندرج ضمن هذه الطبقات، وهو كركول وتُمثل ما نسبته ٠,٩١ ٪ من المجموع العام للأسماء المدروسة.

أما من ناحية المضامين والدلالات فلا تشذ أسماء المواقع في محافظة الكرك عنها في باقي مناطق الشرق الأدنى القديم عموماً، وبلاد الشام خصوصاً، ويمكن درج هذه الأسماء ضمن المضامين والدلالات التالية: أسماء الأعلام، سواء أكانت أسماء أشخاص أم عائلات، وأسماء ذات مضامين دينية، وأسماء تحمل دلالة اللون، وأسماء ذات مضامين سياسية واجتماعية. أما العدد الأوفر من هذه الأسماء فيشير إلى طبوغرافية المكان وجغرافيته.

خريطة تبين أهم المواقع المدروسة ضمن فئاتها اللغوية



١- اريحا	٤٠- الأمونية
٢- عالية	٤١- مدين
٣- ابو تراية	٤٢- مرود
٤- الغير	٤٣- موتة
٥- مسعر	٤٤- كثربّا
٦- جدعا	٤٥- عي
٧- شيحان	٤٦- العراق
٨- فقوع	٤٧- الزار
٩- المنصور	٤٨- عمقا
١٠- امرع	٤٩- جورة
١١- مجدلس	٥٠- المنشية
١٢- صرفا	٥١- حجرا
١٣- الزهراء	٥٢- الطيبة
١٤- القصر	٥٣- الهاشمية
١٥- الباروت	٥٤- سول
١٦- دمنة	٥٥- الفيصلية
١٧- السماكية	٥٦- العمرية
١٨- حمود	٥٧- ام حماط
١٩- الربة	٥٨- الخالدية
٢٠- بتير	٥٩- الحسينية
٢١- ام رمانة	٦٠- ذات راس
٢٢- جديدة	٦١- شقيرا
٢٣- اللجون	٦٢- محى
٢٤- الوسية	٦٣- تدون
٢٥- راكين	٦٤- قريفلة
٢٦- ادر	٦٥- كمنا
٢٧- الرشادية	٦٦- كركون
٢٨- المنشية	٦٧- المريغة
٢٩- الصالحية	
٣٠- الكرك	
٣١- زحوم	
٣٢- الثنية	
٣٣- الشهابية	
٣٤- عزرا	
٣٥- حوية	
٣٦- عينون	
٣٧- الغوير	
٣٨- المشيرفة	
٣٩- العدنانية	

● اسماء سامية
▲ يوناني ولاتيني
■ اسماء عربية
x عثماني
* غير واضح

البحث التاريخي والأثري في محافظة ظفار ـ سلطنة عمان ١٩٩٢ ـ ١٩٩٤

البروفسور يوريس زارينز
جامعة ولاية ساوثوست ميسوري
الولايات المتحدة الأمريكية.

المقدمة

نستطيع القول بأن البحث العلمي الأثري والتاريخي في محافظة ظفار قد بدأ قبل عشرين عاماً فقط وما دون ذلك كان حفريات وأعمال مسح لفترة محدودة عام ١٩٥٣. وهناك ملاحظات وأوصاف سجلها الرحالة عن المنطقة منذ القرن الأول قبل الميلاد حتى رحلات ثيسجر في عام ١٩٤٨.

وبدأت الأبحاث الحالية بمبادرة من حكومة السلطنة عام ١٩٨٩، وتعود المبادرة الأساسية لجلالة السلطان قابوس بن سعيد الذي أولى اهتمامه ورعايته الخاصة لهذا المشروع العلمي الهام... فكانت الأعمال الأولية التي قامت بها بعثة ترانس أريبيا خلال موسم ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ ـ ١٩٩٢.

ومنذ عام ١٩٩٣، قضى الأمر السامي لجلالة السلطان المعظم بتشكيل اللجنة الوطنية للإشراف على مسح الآثار في السلطنة برئاسة معالي عبد العزيز بن محمد الرواس وزير الاعلام. وكان ذلك إيذاناً ببداية العمل العلمي المنظم حيث ظلت اللجنة الوزارية الجهة الرسمية المسؤولة عن العمل... وتركزت الأبحاث في منطقة شصر وفي عين حمران في سهل صلالة وتحت المياه في منطقة مرباط.

بيئة ظفار

تتميز بيئة وجغرافية محافظة ظفار بأنها جزء من الدائرة الأوسع للمحيط الهندي ولشرق افريقيا ولشبه الجزيرة العربية... ومن هذه البيئة الواسعة نجد المناخ والبيئة المتنوعة في المحافظة. هناك ساحل ظفار الذي يبلغ طوله نحو ٥٠ كيلومتراً وعرضه عشرة كيلومترات... وهناك بيئة الأودية والخيران. وسيركز البحث الأثري على مزيد من الدراسة لبيئة المنطقة وتضاريسها وتوزيع اليابسة والمياه على سطحها (الجيومورفولوجيا). وهناك المناطق الجبلية التي تشكل سلسلة أخرى، فالمنطقة الواقعة في أقصى الشرق تسمى جبل سمحان، والوسط جبل قرى، والغرب جبل القمر، ويبلغ عرض الجبال نحو ٢٣ كيلومتراً وأقصى ارتفاع لها نحو ٢,٥٠٠ متر. وتتميز عن بقية مناطق الجزيرة العربية بهبوب الرياح الموسمية مما يسبب هطول الأمطار وانتشار المراعي، وتنمو على بعض أجزائها أشجار اللبان وتتفجر من الجبال عيون المياه على مدار العام.

وهناك منطقة نجد التي تمتد من شمال منخفضات الجبال حتى صحراء الربع الخالي وهي أكبر مناطق محافظة ظفار. وكانت الوديان الكبيرة مثل دوكة وربخوت ودهبون وغادون في الزمان البعيد أنهراً على حافة الربع الخالي. وأخيراً هناك البيئة الرملية التي تعرف باسم الربع الخالي وتمتد نحو عشرين كيلومتراً من شمالي شصر حتى أواسط شبه الجزيرة العربية.

وتتميز منطقة محافظة ظفار عن بقية مناطق السلطنة والجزيرة العربية بشكل عام بهبوب الرياح الموسمية الآتية إليها من الجنوب الغربي في الفترة من يونيو إلى سبتمبر مما يسبب هطول الأمطار وانتشار المراعي... ولسوف نعود مرة أخرى لبيئة المنطقة المتنوعة لما لها من علاقة مباشرة بآثار المنطقة وحضارتها.

خلفية ظفار التاريخية

كان لوجود أشجار اللبان في أجزاء من محافظة ظفار أثره البالغ على تطور تاريخ المنطقة وعلى المنطقة الأوسع في الشرق الأوسط... وقد أثار وجود اللبان والصمغ في المنطقة حفيظة المؤرخين الأوائل منذ عام ٤٠٠ قبل الميلاد بدءاً من المؤرخ الأول (أبو التاريخ) هيرودوت ثم بيليني وبطليموس وديودورس وسترابو وغيرهم... كلهم تركوا لنا إشارات وانطباعات عن تلك السلعة النادرة في العالم القديم والتي كانت سبباً في ازدهار المنطقة التي تحتكر إنتاج اللبان وكان الطلب التجاري عليه من أمم العالم القديم لا يضاهيه الطلب على أية سلعة أخرى.

وكانت السلعة تُنقل بالبر والبحر للمراكز التجارية في العالم القديم. وكان ميناء سمهرم (خور روري) أو رأس فرتاك (جبل القمر) الميناء القديم الذي يجمع فيه المحصول للتصدير للهند عن طريق ميناء عدن على البحر الأحمر. أما الطريق البري فكان يبدأ من ظفار غرباً عن طريق نجد إلى جنوبي مدن الجزيرة العربية مثل شبوه وتمنا ومعرب ثم شمالاً إلى نجران حتى غزة. ومن الطرق القديمة التي ورد ذكرها من المؤرخين والجغرافيين الأوائل الطريق الذي يربط بين ظفار وشرق بلاد العرب حتى بلاد سومر في العراق القديم. ويذكر لنا المؤرخ سترابو أن الرحلة البرية للقوافل التي تحمل الصمغ والبخور من جيرهة حتى حضرموت تستغرق نحو الأربعين يوماً أي تسلك طريقاً مباشراً عبر منطقة الربع الخالي. ونعلم من الإفادات أن مدينة جيرهة أسسها البابليون على شواطيء الخليج قبالة البحرين. ورغم الأبحاث التي تمت خلال السبعينات فلا يزال مكان مدينة جيرهة محل جدل، وأعمال المسح التي جرت في مناطق عين جاوان والظهران وواحة الحسا تشير إلى طريق بري يربط بين ظفار وجنوبي المناطق الشرقية في الجزيرة العربية.

وكان الجغرافي بطليموس أول من رسم خريطة للمنطقة جنوبي الربع الخالي أي في منطقة ظفار. وللأسف ليس لدينا الخريطة الأصلية ولكن ظهرت منها نسخ في القرن الثاني عشر الميلادي من مصادر عربية وأوروبية تعكس رؤية بطليموس لجغرافية المنطقة في القرن الثاني الميلادي حيث وضع منطقة اللبان في سهل صلالة (خور روري)، وقد اكتشف البرايت من خلال حفرياته عام ١٩٥٣ منطقة خور روري (سمهرم) التي أطلق عليها الاغريق اسم (موشا) ويطلق عليها بطليموس في خريطته (موشا بورتوس) وهو اسم صحيح... أما المقبرة التي أطلق عليها اسم (سافرا) فيمكن وبكل اطمئنان تعريفها بمنطقة عين حمران الحالية.

ويطلق بطليموس على المنطقة الواقعة في شمال الجبال (أيوباريتي المعروفة باسم (أوباريتس)... ولم نجد اسم مدينة (أوبار) في خريطة بطليموس ولو أن الكثيرين يعتقدون أنها الاسم نفسه. وهناك مناطق تمت الإشارة إليها كمناطق قبلية مثل أيولا وماريماتا وإلى الجنوب تابانا... ويهمنا اسم (ماريماتا) الذي يمكن ترجمته (مكان المهرة) وهي قبيلة معروفة حتى يومنا هذا في محافظة ظفار.

وهناك الاسم (عمان)، نلاحظ في خريطة بطليموس أنه يشير إلى منطقة (عمانيوم/أمبوريون) وتعني (السوق العماني) تقع شمال شرق ظفار، وإذا استخدمنا تكنيك بطليموس الجغرافي نجد أنه يضع عمانيوم في صحراء نجد مباشرة شمال منطقة أشجار اللبان. وفي وصف بيريبلوس نجده يشير إلى خليج شالاتيس بمعنى أنه (خليج عمان). إذن من هم العمانيون؟

المصادر التاريخية تجعل أصول العمانيين الأوائل من قبيلة الأزد التي ظلت تهاجر وتستقر في القرن الثاني الميلادي. ويقول المؤرخون العرب ان الأزد كانوا ملوك الجبال والصحاري. وقد وضع بطليموس سوق العمانيين في منطقة ظفار... وهناك شظية أسادور جاراكس يرجع تاريخها إلى القرن الأول الميلادي وفيها سطر يقول (جوايسوس كان ملكاً للعمانيين في بلاد البخور). ويشير كل من بليني وبيريبلوس إلى أن العمانيين يسيطرون على المناطق الرئيسية في جنوبي ساحل بحر العرب.

وظل المؤرخون الإسلاميون يشيرون إلى المنطقة شمالي جبال ظفار باسم (أوبار)... وفي القرن الحادي عشر الميلادي يشير نشوان بن سعيد الحميري إلى أن أوبار كانت الاسم الذي يطلق على الأرض التي تملكها قبيلة عاد في المناطق الشرقية من اليمن، ولكنها الآن جفت بسبب فقدان المياه وأن بها مبانيَ عالية وكبيرة غطتها الرمال بفعل الرياح. ويشير المؤرخ العربي الطبري الذي عاش في القرن الحادث عشر الميلادي إلى أن أوبار منطقة ضربها الجفاف، وأشار إلى أحد الداعين الذي قال عنه انه ذهب من أوبار إلى جبال المهرة يقول (أنزل الغيث على عاد كما كنت تنعم بها عليهم من قبل).

ويشير الطلابي إلى أن أرض أوبار تقع ما بين اليمامة والشيهر. أما ياقوت فيقول أوبار تقع بين الشيهر وبني سعد والمهرة. ويقول الحمداني بصراحة ان أصل المهرة في أوبار. أما الكسائي فيذكر أن الريح العاتية دمرت أوبار.

وعلى كل، وبدون الغوص في التفاصيل الدقيقة فإن أكثر من مصدر أشار إلى أن أهل عاد كانوا يسكنون في منطقة أوبار أو وبار والإشارة بالتحديد تحت اسم (الأحقاف). ويسجل القرآن الكريم أن أهل عاد قد دمروا وفنوا بدون ذكر اسم أوبار أو وبار أو إلى المنطقة الجغرافية التي كانوا فيها.

وفي قرون تالية، يعطينا ياقوت وصفاً جغرافياً دقيقاً عن المنطقة إذ يقول إن وبار أرض واسعة يبلغ عرضها نحو ٣٠٠ فرسخ (٤٠ ميلاً). وهي أرض خصبة للغاية وغنية بثروتها المائية، وبأشجارها الكثيفة بما في ذلك أشجار الفاكهة. وقد تعاظم ثراء الناس بسبب الخصوبة العالية للأرض.

من هذا يتضح أن (وبار) لم تكن مدينة، بل أرضاً واسعة، بل ان الإشارة إليها كمدينة نجدها في قصص ألف ليلة وليلة فقط. أما الإشارة في القرآن الكريم إلى ﴿إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ وتحديد ذلك في موقع معين في ظفار فتظل محل جدل لم يحسم بعد.

المستكشفون

تظل ظفار في نظر الغرب مكاناً غامضاً وساحراً ذلك لأنهم كانوا جاهلين بالتاريخ العربي، ونعلم أن التجارة العربية ومنذ أقدم العصور ظلت تنقل وبصورة منتظمة عبر منافذ في منطقة الربع الخالي. ويذكر المؤرخ ابن المجاور (٦٢٢هـ/١٢٢١م) أن هناك طريقاً تسلكه القوافل التجارية يربط بين ريسوت وبغداد وأن السلع الهندية والأقمشة كانت تنقل عبر ذلك الطريق من الهند إلى بغداد، وتنقل إلى الهند تجارة تلك المنطقة، ويشير أيضاً إلى وجود طريق تجاري بين مرباط وطاقة القديمة مارا بالكوفة وله جانب متفرع يصل إلى واحات الحسا والطائف. وعبر هذا الطريق كان العرب يجلبون الجياد مرتين في العام ويقايضونها بالعطور والسلع الفاخرة.

ويذكر ياقوت أن العرب العقيليين كانوا يعبرون الربع الخالي بصورة دائمة من منطقة وادي الدواسر في المنطقة الشمالية في رحلة تمتد نحو الشهر ونصف الشهر حتى يصلوا إلى حدود منطقة المهرة التي يصلونها من ناحية الجنوب. وهناك إشارات إلى أنه من الضروري السيطرة على صحراء ظفار وواحة جبرين في شرقي الجزيرة العربية لضمان السفر الآمن عبر الربع الخالي.

وظل العرب حتى عقد الثلاثينات من القرن الجاري يذكرون الطرق السالكة عبر الربع الخالي... الطريق من ريسوت إلى بغداد. والسؤال... هل هناك طريق من الربع الخالي إلى ظفار ثم إلى منطقة اللبان؟

يذكر الرحالة توماس الذي سافر عام ١٩٢٩ في شمال ظفار أنه عندما وصل إلى طريق على وادي ميتان، أخبره المرشدون أنه (الطريق إلى وبار)... ويضيف توماس أن الطريق الذي يتحدث عنه المرشدون قد غطته الرمال وهو فرع يؤدي إلى الربع الخالي... ويعتقد توماس أن مدينة وبار تقع على مسافة يومين شمالي رمال الربع الخالي.

ويقول فيليبي في رحلته عبر الربع الخالي من الشمال في عام ١٩٣٢ أن الطريق الذي أشار إليه توماس (طريق قوافل). وعندما وصل فيليبي إلى منطقة جبرين سمع هناك قصصاً تشير إلى أن المنطقة قد أغار عليها قوم عاد.

وقد لاحظ فيليبي في منطقة تقع في جنوب جبرين بئراً عميقة وقال إن سكان تلك المنطقة لا يمكنهم حفر بئر عميقة كهذه... كما لاحظ طريقاً قديماً كانت تسلكه القوافل التجارية... وظن أنه كان يبحث عن مدينة وبار. أما المستكشف ويندل فيليبس فقد زار منطقة وادي ميتان في عام ١٩٥٢ وأكد أن هناك شواهد لطريق قوافل قديم يؤدي إلى الربع الخالي... وقد مشى فيه لمسافة ثلاثين ميلاً.

مرة أخرى، فإن كل تلك الملاحظات لم تأت بشيء ملموس يقودنا بالتحديد إلى أي من تلك المواقع... وبقي الحل الأكيد بوسائل التكنولوجيا الحديثة وأقصد بها صور الأقمار الصناعية... وكان ذلك ما حدث خلال عقد الثمانينات حيث ان صور الأقمار الصناعية تعطينا تفاصيل دقيقة ومضبوطة حتى قادنا البحث مع ما لدينا من إفادات من المصادر المتعددة إلى أوبار أو وبار.

الربع الخالي وأصول وبار

يقودنا البحث في موضوع الأصول إلى الأزمان البعيدة في تاريخ المنطقة وإلى الظروف التي أوجدت تجارة اللبان ثم توسع تلك التجارة خاصة في منطقة ظفار، وشرقي الربع الخالي وفي عمان بشكل عام وفي شرقي الجزيرة العربية.

ولا بد من التسليم بأن سكان ظفار ومنذ أقدم العصور كانوا يعرفون شجرة اللبان ولكن الظروف التي جعلت هذه الثمرة تستخدم في التجارة وبشكل واسع لم تبدأ إلا في عهد العصر الحجري الحديث أي قبل نحو ٨٠٠٠ عام... فقد سلكت التجارة في هذه السلعة خلال العصر الإسلامي نفس الطرق التي كانت تستخدم منذ العصر الحجري الحديث إذ الطرق المعبدة التي أنشأها العرب والرومان على نفس الطرق القديمة. والنمط نفسه نجده على طريق النجف - سينا... طرق يعود تاريخها إلى عهود قديمة ثم تصلح وتستخدم في أزمان تالية.

والحديث عن العلاقات التجارية الواسعة لا يتضح إلا إذا عدنا إلى ظهور النشاط التجاري القديم في بلاد سومر حين نشأ ما أصبح يعرف باسم حضارة الأوبيد في حوالي عام ٥٥٠٠ قبل الميلاد التي اشتهرت بأواني السرميك المتميز في صناعته وزخرفته.

ومنذ عام ١٩٦٩، أثبتت الاكتشافات الأثرية عن وجود أواني السرميك من حضارة سومر في الكويت وعلى طول الساحل الشرقي للجزيرة العربية، ووجدت في البحرين وفي قطر وفي دولة الإمارات العربية المتحدة. ورغم أن نماذج من ذلك السرميك المنتمي إلى حضارة أور (سومر) لم يعثر عليه بعد في مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية أو على سواحل بحر العرب إلا أنه من المؤكد أن يكون قد مر على تلك المناطق عبر التجارة البرية... فقد وجدت نماذج منه في مناطق الحسا وعلى طول المنطقة التي ارتبطت فيما بعد بالتجارة البرية بين الخليج والمناطق الداخلية في شبه الجزيرة العربية وفي مناطق الربع الخالي... كذلك الأواني المصنوعة من الزجاج البركاني الأسود التي وجدت في قطر قد جاءت عبر التجارة من مناطق في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية... ووجدت هذه الأواني الزجاجية في وادي غدون في متفه مما يؤكد الارتباط التجاري بين شرقي وغربي الجزيرة العربية عبر الربع الخالي.

والسؤال: ما الدلائل التي لدينا التي تربط بين ظفار والمنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية عبر الربع الخالي خلال العصر الحجري الحديث؟

كانت بيئة المنطقة في تلك الأزمان البعيدة مختلفة تماماً عما هي عليه اليوم من مناخ، حيث كانت المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية غنية بالأنهار والبحيرات. وكانت مناطق المياه آهلة بالسكان وكانت بها معابر الطرق خاصة في منطقة الربع الخالي بدليل أن الأواني والمعدات التي تنتمي إلى العصر الحجري الحديث قد وجدت على طول المنطقة وفي كل بقعة من شبه الجزيرة العربية. وأقام هؤلاء علاقات تجارية مع حضارة سومر. ووجدت بقايا تلك الحضارة في مناطق الربع الخالي وفي المناطق الداخلية من اليمن وفي شمال عمان وفي منطقة عسير. وعثر على نماذج من فنون الرسم من تلك الحقبة على جدران الصخور في غربي شبه الجزيرة العربية وفي اليمن وتشير تلك الرسومات الكهفية إلى أن الأهالي كانوا يربون الماشية.

ما دور البخور في تلك التجارة؟

أعقب عهد العصر الحجري الحديث ما يسمى بالعصر البرونزي الذي يؤكد روابط شرق شبه الجزيرة العربية مع غربها ومع عمان ومع بلاد سومر في جنوب العراق. ويعود تاريخ أول النقوش الكتابية في حضارة سومر إلى نحو عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد وهي الفترة المعاصرة إلى العهد الأخير من العصر الحجري الحديث في منطقتي ظفار والربع الخالي... وقد عثر على عدد من الألواح السومرية (الكتابة القديمة) مكتوب عليها كلمة (بخور) وفي سجلات أخرى نجد معنى أدق وهو تعبير (البخور المستخرج من أشجار اللبان). وهناك تعبيرات أخرى معناها البخور المطلوب للحكام وللقساوسة.

وفي الكتابات اللاحقة نحو عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد نجد التعابير أوضح حيث تشير إلى أن البخور قد جلب من البحرين أو من شرقي شبه الجزيرة العربية. وتنبئنا الكتابات الأولية أن هذا البخور كان يقاس عن طريق الوزن. وكان يخلط معه الزيت أو الشحوم وكان يستخدم لأغراض في الطقوس الدينية، وكعلاج وكبخور (عطر). أما كلمة (الصمغ) فلم تظهر لنا إلا في الكتابات الآشورية اللاحقة حوالي عام ١٨٠٠ قبل الميلاد.

وكان اللبان من واقع النقوش الكتابية يصدر إلى بلاد سومر ومناطق العراق القديم عن طريق البحر قادماً من موانىء في البحرين وفي شرقي الجزيرة العربية. كما وان الاكتشافات الأثرية قد أثبتت قيام هذه التجارة عبر الطرق البرية.

والخلاصة، نجد منذ حوالي عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد حتى حوالي عام ١٨٠٠ قبل الميلاد كانت طلبات بلاد العراق القديم تتزايد نحو العطور القادمة من شرقي شبه الجزيرة العربية ومناطق الربع الخالي وظفار. ومما لا شك فيه أن ظفار عرفت البخور والتجارة منذ العصر الحجري الحديث.

وشهدت الفترة منذ عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد تغييراً في مناخ شبه الجزيرة العربية حيث أخذت البيئة تتجه نحو التصحر والجفاف... وفي تلك الظروف بدأ استئناس الجمال لاستخدامها في القوافل التجارية البرية، وأول دليل كتابي عن وجود الجمال في جنوب شرقي الجزيرة العربية يعود إلى عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد. وعليه فإن الطرق التجارية التي كانت تربط مناطق شبه الجزيرة العربية منذ عهد العصر الحجري الحديث قد تم تعبيدها خلال العصر البرونزي وصارت أكثر ثباتاً مع استخدام الجمال عليها ومع ظهور الكيانات السياسية في المنطقة.

وقد أثبتت الاكتشافات الأثرية في الجزيرة العربية وفي مصر وفي المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية أن التجارة البرية صارت حقيقة ثابتة بحلول عام ١٥٠٠ قبل الميلاد. وقد كشفت الحفريات الأثرية في منطقة غزة عن وجود هياكل عظمية للجمال وذلك منذ بداية القرن الرابع عشر قبل

الميلاد. والمعروف أن منطقة غزة كانت نقطة النهاية للتجارة البرية الغربية.

بعثة ترانس أريبيا

بدأت هذه البعثة أعمالها في يوليو من عام ١٩٩٠. وبعد أعمال مسح متعددة في إقليم ظفار، تقرر منذ ٢٦ ديسمبر ١٩٩٢ أن يكون مقر الحفريات في شصر. ولم نكن في بادئ الأمر ندرك أن منطقة شصر سيكون لها شأن كبير في أعمالنا... وقد ذكرها الرحالة الأول خلال هذا القرن نذكر منهم توماس في عام ١٩٢٩ وثيسجر في عام ١٩٤٨ ومايك مورتون في عام ١٩٤٨. وفي عام ١٩٧٣، زار شصر بعثة من جامعة هارفارد تحت قيادة جي. بولار وبي جلوب. أما البعثة الهولندية فقد زارتها عام ١٩٥٢. ولم تفعل تلك البعثات أكثر من أخذ عينات من حضارات العصر الحجري. ويبدو أن الزلزال قد ضرب الموقع في وقت بعيد كما أشار بذلك جيولوجيون فرنسيون من واقع العينات التي بحثوها.

المعمار

أثبت المسح الذي تم عام ١٩٩٠ عن وجود ما لا يقل عن ثلاثة أنواع من الفخار، كما اكتشفنا بعد بداية الحفريات عن وجود جدار عريض (٩٠ سنتيمتراً في عرضه) وبطول ٥٠ سنتيمتراً في البداية ثم اكتشفنا بداية البرج... ثم أعقبها اكتشاف برج ثان في الزاوية الشمالية الشرقية مكونة جزءاً من بناية هائلة ثم اكتشفنا بقايا طوب سقط من السقف... ثم اكتشفنا برجاً ثالثاً في شكل مربع... كما وجدنا عدداً من الغرف يبدو أنها بنيت في أزمان لاحقة واستطعنا تنظيف صحن القلعة وبقايا باب المدخل الرئيسي... ثم اكتشفنا برجاً آخر على شكل حدوة حصان... ثم برجين آخرين. والمباني الرئيسية محاطة بسور كبير وهي عبارة عن عدد كبير من الغرف.

ومنذ عام ١٩٩٤ تركز البحث في دراسة هذا المبنى الضخم المحاط بأبراج مراقبة... تاريخ البناء والهدف منه. ويبدو الآن أن هذه الغرف ظلت مستعملة منذ العصر الحديدي وحتى عصر حديث... وقد أفاد عدد من البدو أنهم عندما كانوا أطفالاً يذكرون أن آباءهم كانوا يسكنون في تلك الغرف... وقد أثبتت الحفريات صحة هذه المعلومات حيث وجدنا عدداً من الغرف التي بنيت حديثاً.

واستطعنا تحديد العصور التاريخية للمبنى من واقع الأدوات والأواني الفخارية والزجاج وأواني البخور وتتراوح تواريخها من نحو عام ١٠٠ قبل الميلاد حتى العصر الإسلامي ٩٠٠ ـ ١٤٠٠ ميلادية. ويبدو أن زلزالاً خفيفاً ضرب المدينة والمبنى أدى إلى تدميرهما.

الاكتشافات

لقد استخدمنا طريقة كاربون ـ ١٤ وطبقات التشييد لتحديد التواريخ وقمنا بتسجيل وترقيم نحو ٢,٥٠٠ من الأدوات والأواني التي عثرنا عليها خلال موسمين من العمل وأدخلنا المعلومات في الحاسوب وسوف تخضع لمزيد من الدراسة والتحليل، وهي أدوات تتراوح بين أواني السرميك وأدوات مصنوعة من الحجر، وعظام حيوانات وأصداف معدنية. ووجدنا نماذج أدوات من العصر الحجري الحديث كالفؤوس الحجرية والأمواس والسكاكين والمرايات المصنوعة من الحجارة ومن المعادن وأحجار للطحن. ومن هذه الشواهد يتضح أن الموقع كان مأهولاً منذ العصر الحجري عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد وظل يستخدم في العهد الحجري الحديث اللاحق وحتى نحو عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وبالمقارنة مع الأواني المصنوعة من السرميك والتي عثر عليها في اليمن يعود تاريخها إلى ٢٤٠٠ قبل الميلاد.

ويبدو أن أول بناء رئيسي بدأ في وقت ما بعد عام ١٥٠٠ قبل الميلاد. وعندما جاء العصر الحديدي (بداية عام ٥٠٠ قبل الميلاد) كان الموقع مأهولاً بدليل وجود أواني السرميك وهي أوانٍ مصقولة باللون الأحمر وكلها في شكل طاسات ومنها الشكل المزخرف بالنقاط وهو النوع المتواجد في عمان منذ العهد البرونزي واستمر في الاستعمال في منطقة ظفار خلال العصر الحديدي. وقد اكتشفنا مع أواني السرميك نوعاً آخر من الأواني المعاصرة مثل اللمبات المصنوعة من الحجر الرملي، والمباخر، والأواني المصنوعة من الحجارة وأواني أخرى كلها تشير إلى ارتباط وثيق مع حضارة حضرموت. ومعظم المواد والأواني الجميلة يعود تاريخها من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرون الأولى الميلادية.

أما الأواني المصقولة باللون الأصفر البرتقالي والتي وجدت في موقع شصر/وبار فقد وجدت نماذج لها في المنطقة الواقعة اليوم شرقي المملكة العربية السعودية مما يشير إلى التأثير الهليني وقد أثبت تحليل العمر التاريخي بواسطة معادلة كاربون ١٤ أن منطقة شصر كانت معاصرة للعصر الإغريقي والعصر الروماني حتى القرن الخامس الميلادي.

ويعزى انهيار تجارة البخور إلى عوامل تاريخية في العالم الروماني مما انعكس سلباً على الحضارة العربية في جنوبي شبه الجزيرة العربية وشصر وظفار. ويبدو أن موقع شصر شهد التأثر بالفترة العباسية بدليل الأواني الزرقاء التي عثر عليها ولعبة الشطرنج.

وكانت آخر فترة تاريخية في شصر تعود إلى القرن الثالث عشر حتى السادس عشر الميلادي بدليل وجود الأواني الصينية الأصل والزجاج الملون باللون الأخضر دلالة على ازدهار التجارة... وقد تم تدمير المركز بواسطة البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

والخلاصة، أن موقع شصر يمثل المركز الرئيسي لمنطقة نجد/ظفار للتجارة البرية المتجهة نحو الشمال والتي بدأت منذ عهد العصر الحجري الحديث والتي كانت مرتبطة بكل التأكيد بالنشاط التجاري بين ظفار ومنطقة شمالي الجزيرة العربية حتى حضارة سومر في جنوبي العراق القديم.

وقد كانت التجارة في عهدها الأول تشتمل على تجارة العطور وخاصة اللبان... وارتباط النشاط التجاري بين ظفار وسومر يعني بكل التأكيد امتداد تلك التجارة ومنذ فجر عهدها مع التجارة المتجهة نحو الغرب حتى غزة ومصر القديمة.

وبحلول العصر البرونزي والعصر الحديدي استمر الازدهار في منطقة شصر وتم في هذا العهد المبكر إقامة أول مبنى في منطقة شصر التي كانت مأهولة بالسكان بحكم ازدهارها ونشاطها التجاري. وفي القرون الوسطى أشار المؤرخون الأوائل وكذلك أشارت المصادر الإسلامية إلى أصل عاد ونشاطهم في تجارة البخور (العطور). واستمر الموقع خلال العصر الإسلامي في ازدهاره مع التركيز على تجارة البخور وتجارة الخيول... وظلت منطقة شصر مرتبطة مع منطقة الربع الخالي ومع ساحل ظفار. وانتهى الموقع وهجر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

وقد تم البحث في عدد من المواقع الأخرى في منطقة شصر، فقد اكتشفنا موقعاً يبعد ٢٥ كيلومتراً إلى الشرق من شصر يعود تاريخه إلى العصر الحجري الحديث حوالي ٥٠٠٠ - ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وقد قمنا بتسجيل كل المواقع وفهرستها. ولاحظنا في أعمال المسح أن الأهالي قد استخدموا البولدوزر في الموقع بحثاً عن المياه.

وقد قمنا بجمع عينات من التربة لفحصها لمعرفة الظروف المناخية في ظفار في تلك الفترة البعيدة ومدى التأثير على النباتات. وعثرنا على أدوات حجرية تعود إلى عصور موغلة في التاريخ مما يشير إلى أن الإنسان العماني كان متواجداً فوق ترابه منذ ما بين ٥٠,٠٠٠ - ٣٠,٠٠٠ عاماً خلت.

وقمنا أيضاً بعمل مسح لمنطقة وادي غدون وهو النهر الذي كان ممتداً من العيون إلى مقشن في عهد العصر الحجري الأول ما بين عام ٥٠٠٠ - ٢٥٠٠ قبل الميلاد... واكتشفنا أدوات حجرية وقرى كانت مأهولة بالسكان لهم بيوت أساساتها من الحجارة كما وجدنا مقابرهم.

سهل صلالة الساحلي

بدأ عمل المسح الأثري في سهل صلالة الساحلي مع التركيز على البحث في العلاقة بين هذا الساحل ومجمع شصر وقد بدأنا في أعمال المسح في موقع عين حمران منذ منتصف عام ١٩٩٣ وهو موقع هام ولما قد يكون له من علاقة بين مستوطنات ساحل ظفار وجبال ظفار وكذلك منطقة نجد... وفي عين حمران على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً شرقي صلالة تحت سفوح جبال ظفار وعلى الجنوب من عين الماء، كشف المسح الأوّلي أن خطة طوبغرافية القلعة مشابهة لحد كبير لطوبغرافية مجمع المباني في شصر... وقد كشف المسح الأوّلي بأن موقع عين حمران أكبر مساحة من موقع شصر... ولسوف تستمر أعمال البحث في الموقع من حيث السمات المعمارية للمبنى والأغراض التي بُني من أجلها.

وهناك المجمع البنائي الكبير في موقع البليد بحي المنصورة بمدينة صلالة حيث كان الموقع مركزاً تجارياً مزدهراً على الساحل تنشط فيه تجارة الصادر والوارد وينعم أهله بحياة معيشية عالية وكانت المدينة مأهولة بالسكان. وعثرنا في مسحنا الأولي على مجموعة من العملات الإسلامية والصينية وأوانٍ مختلفة وأوانٍ مصنوعة محلياً من السرميك يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر الميلادي، ووجود أسورة الأيدي المصنوعة من الزجاج، وقد عثرنا على نماذج مماثلة لها في موقع شصر مما يدل على وجود ارتباط ونشاط تجاري مع المنطقة الداخلية في محافظة ظفار ومع منطقة الساحل حتى القرن الخامس عشر. وسوف نعمل على استكشاف الطرق القديمة عبر جبال صلالة في المستقبل القريب.

الاستكشافات تحت المياه

قمنا خلال أشهر مارس وابريل بعمل استكشاف في رقعة صغيرة على ساحل ظفار تحت المياه... وقد وجد الفريق عدداً من المواقع بين مدينتي مرباط وسدح الحديثتين، ونعلم من المصادر التاريخية أن الساحل العماني كان مأهولاً منذ القرن الثامن قبل الميلاد. وقد وصفه البحارة اليونانيون. ونعلم من المصادر العربية أن نشاطاً تجارياً كبيراً كان يجري على ساحل عمان مع بلاد الهند والصين وشرق افريقيا.

ونأمل أن يسفر بحثنا تحت المياه عن تحديد نوع السفن من البقايا التي قد نعثر عليها... كما نأمل في العثور على المزيد من المعلومات من أعمال المسح والاستكشافات المستقبلية.

عروض الكتب
والرسائل الجامعية

د. محمد باقر الحسيني

رئيس دائرة الآثار الإسلامية في اتحاد المؤرخين
العرب ومعاون عميد معهد التاريخ العربي والتراث
العلمي للدراسات العليا

«عمارة الألف السادس قبل الميلاد في تل الصوان»

تأليف: الأستاذ دوني جورج

يقع تل الصوان إلى الجنوب من مدينة سامراء بمسافة ١١كم. نقبت في الموقع دائرة الآثار والتراث لثمانية مواسم تنقيبية ابتداء من عام [١٩٦٤م ولغاية ١٩٧٢م]، هذا بالإضافة إلى التحريات المحدودة التي أجريناها في تشرين الأول من عام ١٩٨٥م.

وقد كشفت التنقيبات عن خمس طبقات سكنية إضافة إلى إشارة واضحة لمستوطن قبل الطبقة الأولى [السفلى]. وهي عبارة عن بقايا بعض الجدران المبنية من الطوف تمثل البقايا السكنية في تل الصوان لمعظم الفترة الزمنية للألف السادس قبل الميلاد، أي من حضارة حسونة المتمثلة بأنواع فخار حسونة منها السمح والمحزز والمحزز الملون مروراً إلى فترة حضارة سامراء، والمتمثلة أيضاً في جميع أنواع فخاريات هذا العصر، وإلى مؤشرات واضحة فخار وبقايا معمارية لفترة حلف أي إلى نهاية الألف السادس قبل الميلاد.

والفخار الذي اكتشف في تل الصوان يمثل تدرجاً حضارياً فريداً من نوعه بين فخار حضارة حسونة وإلى حسونة مروراً بجميع مراحل تطور فخار سامراء، مما يؤكد على كون تل الصوان أثراً مهماً في صناعة ونشر فخار سامراء وخاصة بعد اكتشاف بعض أفران (كور) الكبيرة والخاصة بشيّ الفخار في الموقع نفسه.

أما البقايا السكنية والعناصر المعمارية في تل الصوان فهي في الواقع تمثل أرقى ما توصل إليه الفكر المعماري في العراق القديم في فترة الألف السادس قبل الميلاد. وبالاستناد إلى هذه العناصر ومقارنتها مع الأبنية الأثرية الأخرى من هذه الفترة نفسها من مواقع أخرى في وادي الرافدين، فإن الأدلة الأثرية تؤكد أن أبنية تل الصوان ابتداء من الطبقة الأولى وإلى الطبقة الثالثة لم تكن مجرد أبنية بنيت بصورة عشوائية بإضافة جدران إلى جدران كلما تطلب الأمر إنجاز وحدة بنائية قابلة للتمدد في أي وقت، بل إنها كانت أبنية خطط لها أن تكون بهذا الشكل ووضع لها التخطيط الكامل، وبنيت بذاتها ومن النادر أن نجد بناية أضيفت لها غرف أو جدران في فترة الطبقة الواحدة، كما أن المعمار في تل الصوان استفاد من المساحة في المنطقة وبنى الأبنية المنفردة وجعل بينها مسافات معقولة استخدمت ممرات وأزقة للتنقل بين هذه الأبنية.

هذا بالإضافة إلى معرفة ممتازة في تسهيل مهمة التنقل في هذه الأروقة، وذلك برصفها بالحجارة كما هو الحال في بعض أزقة الطبقة الثالثة. أما التكوين المعماري للوحدات البنائية فقد امتازت أبنية تل الصوان بمميزات عالية التقنية جداً في الشكل وفي التفاصيل المعمارية الدقيقة من الشكل العام المربع أو المستطيل ذي الأجزاء الثلاثة ذات التقسيمات الدقيقة والتي سادت في الطبقتين الأولى والثانية إلى الشكل المعماري ذي التكوين العام الشبيه بالحرف اللاتيني T والفريد من نوعه في جميع مواقع وادي الرافدين. أما التفاصيل المعمارية الدقيقة فإن ما وصل إلينا منها من تل الصوان يعد بحق أسبقيات حضارية ومعمارية شاخصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار الفارق الزمني بين طبقات تل الصوان والطبقات المعمارية الموازية لها حضارياً من مواقع أثرية أخرى في وادي الرافدين.

إن التفاصيل المعمارية التي يمكن حصرها في هذا المجال تتمثل في الدرجة الأساس في استخدام مواد البناء الأولية الممتازة، على الرغم من قدمها في التاريخ. هذا بالإضافة إلى تفاصيل معمارية دقيقة ذات فوائد عالية منها مثلاً استخدام اللبن في البناء بالطريقة الفريدة في أسلوب تقوية هذه اللبنات بالقش أو اللبن، واستخدام مواد رابطة بين اللبنات وكذلك استخدم الطين في ملاطة هذه الجدران من الداخل والخارج لتسويتها وإعطائها شكلاً جمالياً، إضافة إلى إكساء أرضيات الغرف والجدران الداخلية للأبنية بمادة الجص. هذه المادة التي تؤشر تطوراً تقنياً عالياً في استخدام المواد الأولية وكذلك استخدام مادة القير العازلة في الأماكن التي تطلب عزلها من الرطوبة والمياه.

كما أن تنظيم وضع الأبنية بزاوية خاصة بحيث تشير زواياها إلى الجهات الأربع يؤشر دراية ممتازة في الأمور المناخية والاستفادة منها في إنشاء هذه الأبنية فنجد أنّ اتجاه زوايا الابنية إلى الجهات الأربع يعرض الجوانب الأربعة إلى الشمس مباشرة، ولأن إحدى زوايا البناء متجهة نحو الشرق وهذا يعني أن الشمس تصل مباشرة إلى الجدارين الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي لغاية منتصف النهار، بينما تتحول الشمس بعد منتصف النهار إلى الجدارين الشمالي الغربي والجنوبي الغربي. وهذا يعني أن جميع الجدران تصلها الشمس في فترة النهار الواحد.

إن وضع الأبنية بهذا الشكل أي باتجاه زواياها إلى الجهات الأربع له فائدة أخرى خاصة إذا علمنا أن الرياح في منطقة تل الصوان ووسط العراق عموماً هي رياح شمالية أو شمالية غربية أو رياح شرقية مطيرة في الشتاء. وهذه الرياح عندما تصطدم بالجدار فإنها تنشطر لأن أول مكان تصطدم به بالجدار هي زوايا البناء القوية بحكم تكوينها من جدارين وشكلها الحاد وهذا يجعل من الرياح تنزلق مع الجدران ولا تصطدم بها بزاوية قائمة، مما يوفر لها تجفيفاً هادئاً أثناء الإنشاء وحماية ممتازة بعد الإنشاء، كما أن ميزة بناء دعامات في الجدران الخارجية في أركانها وفي نقاط اتصال الجدران والقواطع الداخلية بالجدران الخارجية توفر حماية إضافية وتحلية معمارية تُوورِثت في أبنية وادي الرافدين في الفترات التاريخية.

إن جميع هذه التفاصيل المعمارية نجدها في الطبقات البنائية في تل الصوان اعتباراً من الطبقة الأولى وإلى الطبقة السادسة وبدون انقطاع، أي إن الأساليب المعمارية متوارثة في تل الصوان على الرغم من اختلاف الشكل العام للأبنية وخاصة بين الطبقتين الأولى والثانية من جهة والطبقة الثالثة من الجهة الثانية. في الواقع أن هذا البحث يقود الباحث إلى التأمل في هذا الاختلاف في الشكل العام للأبنية في الطبقتين الأولى والثانية وفي الشكل المستطيل أو المربع ذي الأجزاء الثلاثة إلى الشكل العام الذي يشبه الحرف T الفريد من نوعه في الطبقة الثالثة. وعلى الرغم من أن العناصر المعمارية الدقيقة لم تختلف في جميع هذه الطبقات هنا.

فإذا تأملنا (كما يقول الباحث) أبنية الطبقة الثالثة ذات الشكل العام الذي يشبه الحرف T لرأينا بأنها تتكون من قسمين رئيسيين متعامدين. هنا نجد أن كلاً من هذين القسمين المتعامدين هو على شكل مربع أو مستطيل ومتكون من ثلاثة أجزاء. وقد تم إزالة بعض الغرف من القسم المتعامد على القسم المستعرض لغرض فسح المجال أمام ما يمكن أن يكون ساحة وسط الوحدة البنائية لأغراض الإنارة والتهوية. أما كيف جاء هذا الشكل العام وهذا التعامد فنحن نعتقد بأن هذا الشكل كان موجوداً قبل تاريخ الطبقة الثالثة أي ضمن تصميم أبنية الطبقة الأولى والثانية وهي تعامد سلسلة من الغرف على سلسلة مستعرضة من الغرف الأخرى ضمن الوحدة البنائية نفسها. وما التفرد الحاصل في الطبقة الثالثة في الأبنية المنفردة على شكل حرف (T) إلا زيادة في التخصص المعماري، ودقة في التنفيذ مع التطور الحاصل في التجربة المعمارية في تل الصوان.

لقد أورد الباحث في رسالته دراسات واستنتاجات جديدة في قراءتها ولم تكن هذه النتائج واضحة إلا بعد أن قسم الرسالة إلى أربعة فصول شمل **الفصل الأول**: معلومات عن بيئة منطقة تل الصوان فيما يخص جغرافية المنطقة وموقع تل الصوان والمناخ والحيوانات البرية والنبات الطبيعي مع ملاحظات تؤمن بأهميتها الكبرى عن علاقة سكان تل الصوان بنهر دجلة المحاذي له والزراعة والري الاصطناعي هناك.

أما الفصل الثاني فيتضمن معلومات شاملة ودقيقة عن واقع العمارة في تل الصوان مقسمة إلى أربعة مباحث: المبحث الأول في التعاقب البنائي في تل الصوان، تحدث فيه الباحث بالتفصيل عن جميع الأبنية المكتشفة في تل الصوان اعتباراً من الطبقة الأولى وإلى الطبقة الخامسة حيث اتبع الباحث أسلوب أبنية كل طبقة بنائية بالكامل، ثم الانتقال إلى الطبقة التي تليها. أما المبحث الثاني في هذا الفصل فقد كانت مادته الرئيسية المتشابهة المتمثلة بالمستوطن قبل الطبقة الأولى والمتمثل ببقايا جدران من الطوف عثر عليها في خندقين أجراهما في الموقع. وفي المبحث الثالث حاول الباحث رصد جميع المعلومات المتوفرة عن السور والخندقين الدفاعيين اللذين يحيطان بالمستوطن بالإضافة إلى المعلومات الجديدة والدقيقة التي استطاع التوصل إليها أثناء تحرياته في الموقع. وفي المبحث الرابع استطاع الباحث رصد معلومات مهمة عن مقبرة تل الصوان وعلاقتها بالطبقة الأولى مع اكتشاف قبور جديدة حديثة في تلك المقبرة نفسها.

وفي الفصل الثالث: استطاع الباحث جمع معلوماته عن مواد البناء الأولية التي استخدمت في إنشاء أبنية تل الصوان، بالإضافة إلى اقتراح الطريقة التي من المحتمل أنه قد استخدمها بنّاؤو تل الصوان في عمل اللبن من القياسات الكبيرة والذي كان مادة البناء الرئيسية في الطبقات الخمس. هذا بالإضافة إلى دراسة المواد الأخرى المستخدمة من طين

وجص وخشب وقير وحصى وقش إضافة إلى التكتلات الحصوية المتحولة.

وفي الفصل الرابع، درس الباحث علاقة عمارة تل الصوان بعمارة مواقع أثرية أخرى ببوادي الرافدين ظهرت فيها ثقافتا حسونة وسامراء مشابهتين لتلك التي ظهرت في تل الصوان. هذه المواقع هي يارم ثية وتلول الثلاثات وشمشارة وأم الدباغية وغيرها بالإضافة إلى المواقع حسونة وصنكر. وقد حاول الباحث أن يعطي في بحثه الأهمية البالغة للعناصر المعمارية التي ظهرت في تل الصوان، وذلك لأنها تستحق أهمية لتفردها وأسبقيتها في الحلقات الحضارية التي مرت في تاريخ العراق القديم. كما حاول الباحث كذلك أن يرصد التحركات السكانية في فترة الألف السادس قبل الميلاد بالاستناد إلى الشواهد الأثرية المتوافرة في مواقع أثرية مختلفة، ويضاف إلى ذلك الأسبقية الزمنية لتلك المواقع ومنها تل الصوان أيضاً. وحاول الباحث الاستناد، إلى شواهد وأدلة أثرية حقيقة امتزاج وجود نوع في الأبنية المتخصصة بنوع من العبادة أو نوع من العقائد الدينية الخاصة، وهي التي سماها بالأبنية العقائدية في الألف السادس قبل الميلاد.

أشور بانيبال ٦٦٩ ـ ٦٢٧ق.م

سيرته ومنجزاته

تاليف: د. رياض عبد الرحمن ثابت الدوري

إن تاريخ العراق القديم حافل بالشخصيات البارزة التي لعبت دوراً تاريخياً عظيماً في تطور وازدهار الحضارة، وقدمت للبشرية منجزات لا تزال آثارها حسية حتى اليوم. ومن هؤلاء الملك الآشوري العظيم آشور بانيبال الذي جمع في شخصيته صفتين مهمتين هما السيف/والقلم، حيث كان قائداً عسكرياً من الطراز الأول استطاع بدرايته وكفاءته العسكرية أن يحافظ على كيان الامبراطورية الآشورية ويثبت أركانها وأن يقودها إلى قمة المجد. وفي ميدان الحضارة حقق إنجازات في العمارة والنحت حيث أصبحت في أوج تطورها وقمة ازدهارها، ويمكننا أن نسمي عهده بالعصر الذهبي الذي كان علامة مضيئة في تاريخ العراق الحضاري.

إن الدور المتميز الذي لعبه هذا الملك في تحقيق وحدة العراق القديم والدفاع عنه ضد الأعداء إضافة إلى منجزاته العسكرية والسياسية والاقتصادية كان أحد الأسباب التي دفعتني إلى اختياره موضوعاً لرسالتي من أجل إبراز شخصيته من خلال ربط الأحداث في عهده بشكل منطقي وطبيعي. ولقد استنتج الباحث في رسالته أن الملك الآشوري آشور بانيبال قائد عسكري استطاع أن يقود الامبراطورية الآشورية في مرحلة عصيبة من تاريخها إلى ناحية المجد والشموخ وأن يثبت أركانها باقتدار عال ميّز حنكته السياسية والعسكرية في وقت تكالبت عليها كلُ القوى المعادية الساعية إلى إسقاطها. وبهذا يمكننا أن نطلق عليه بحق لقب الملك المحارب المثقف. كما وصلت الامبراطورية الآشورية في عهده إلى أوسع حدودها الجغرافية حيث امتدت من بحيرة وان في الشمال إلى سواحل الخليج العربي في الجنوب. ومن بلاد إيران في الشرق إلى مصر والنوبة في الغرب ضارباً بذلك مثلاً رائعاً في الجمع بين القيادة العسكرية والإدارية للبلدان المهزومة.

وقع آشور بانيبال في الخطأ الذي ارتكبه أبوه بغزو مصر الذي كان أحد الأسباب المهمة في ضعف الدولة الآشورية حيث أثر في سقوطها عام ٦١٢ق.م فاتّساع الرقعة الجغرافية أولاً وعدم توفر العدد الكافي من الجيوش لتغطية ميادين النزاع في الجهات المختلفة اضطره إلى الاعتماد على المرتزقة من البلدان الأخرى لسدّ النقص في التشكيلات العسكرية للقوات الآشورية، ولدفعه إلى الاستمرار في نشاطاته الحربية. إن الأوضاع السياسية والعسكرية القلقة التي أحاطت بالامبراطورية تطلبت وجود قائد عسكري وسياسي بارع لمعالجة تلك الأوضاع المضطربة فكان آشور بانيبال القائد الذي لاءم تلك الظروف المعقدة وقاد الآشوريين خلالها من نصر إلى نصر، معتمداً في ذلك على استخدام سياسة اللين والشدة في إخضاع الأقاليم المتمردة، إضافة إلى اتباعه سياسة التهجير للشعوب المهزومة وهي جزء من خطة لوضع حد لحركات التمرد والعصيان المتتالية.

لقد اتصف آشور بانيبال بصفات إنسانية نبيلة حتى مع أعدائه المتمردين ضده. هذا إلى جانب سياسة الشدة وكان يعطف عليهم ويعيدهم إلى مراكزهم السابقة أحياناً. كما كان هذا الملك مثقفاً فقد نجح في إحياء ثقافات ومعارف العصور التي سبقته من خلال جمعه للرقم الطينية من كل مدن العراق القديم ولا سيما بلاد بابل. كما نجح في أن يكون في قصره بنينوى أضخم مكتبة منظمة عرفها الشرق القديم، وتمكن أيضاً من معرفة اللغة المسمارية قراءة وكتابة، ولا سيما القديمة منها.

إن نشاط آشور بانيبال في مجال العمارة ومجالات الفن الأخرى لم يقلّ اهمية عن نشاطاته الأخرى إذ وجّه هذا الملك عنايته إلى بناء وترميم معظم المعابد القديمة في بابل ونفر والوركاء إضافة إلى بلاد آشور وديالى وحران. لقد كانت الأيام الأخيرة من حكمه أياماً عصيبة، حيث عانى من القلق النفسي بسبب حدوث منازعات بين أفراد العائلة المالكة، وكذلك عانى

من الشرخ الكبير الذي أحدثه أخوه شمش رشوم ـ أوكن، إضافة إلى قلقه على مستقبل الدولة الآشورية في وقت رآها بأم عينيه وهي تسير نحو نهايتها المحتومة في ظل خلفاء ضعاف.

جاءت هذه الاستنتاجات بعد أن قسم الباحث رسالته إلى أربعة فصول: تناول في **الفصل الأول** مجمل الأحداث السياسية والعسكرية التي جرت إبان العصر الآشوري المتأخر (الإمبراطورية الثانية)، ولا سيما المدة السرجونية مبتدئاً بعهد تجلات بيلاسر الثالث حتى نهاية عهد آسر حدون، لكي يعطي فكرة واضحة عن أوضاع هذه المدة التاريخية المزدهرة من حكم الآشوريين بعد أن سبقتها مرحلة ضعف وانحطاط، وحيث برز الدور الآشوري في هذا العصر بشكل ملفت للنظر، بسبب تعاقب ملوك أقوياء على حكم البلاد واتباعهم سياسة حازمة ضد كل من تسول له نفسه التمرد على الامبراطورية الآشورية الناهضة.

أما الفصل الثاني فكان مخصصاً لتوضيح اسم هذا الملك العظيم (آشور بانيبال) ومعناه إضافة إلى توضيحه لطبيعة حياته، وما كان يقوم به في شبابه من تعلم القراءة والكتابة وممارسة الرياضة وخاصة الفروسية، واستخدام السيف والرمي بالسهام والرماح التي كان لها الأثر البارز في صقل شخصيته وإعداده بشكل كامل لتسلم مهامه القيادية في إدارة دفة الحكم. كما تحدث الباحث في هذا الفصل عن ممارسته للسلطة خلال ولايته للعهد وعن الظروف التي دفعت والده إلى تعيينه ولي عهد مرشحاً على بلاد آشور وتعيين أخيه شمش رشوم ـ أوكن على بلاد بابل وما أحاط بهذه القضية من ملابسات وأحداث وخصص جزءاً من هذا الفصل للحديث عن اسمه في المصادر الكلاسيكية وأحواله الاجتماعية، وكذلك مسألة الملك البديل ومفهومها في نظر سكان العراق القدماء.

في الفصل الثالث، قسم البحث إلى قسمين، الأول خصص للحديث عن كتابات هذا الملك بصورة عامة، والقسم الآخر وهو الأوسع كان يخص الحملات العسكرية التي قادها آشور بانيبال بنفسه أو أوعز إلى قادته في قيادتها. ويلاحظ في نصوص هذه الحملات أن لواء النصر كان معقوداً للقوات الآشورية. ويعود الفضل في ذلك إلى الملك آشور بانيبال الذي كان يشرف بشكل مباشر على ميادين الصراع في مختلف جبهات القتال، وكان لقدراته العسكرية الأثر البارز في قيادته الامبراطورية الآشورية لتصل في عهده إلى أوسع حدودها الجغرافية.

أما الفصل الرابع فقد قسم إلى ثلاثة أقسام كان الأول منها مخصصاً للمنجزات العمرانية التي تحققت في عهد هذا الملك وللاهتمامات التي قام بها في ترميم وإعادة بناء معظم المعابد القديمة. ولم تقتصر اهتماماته على بلاد آشور فقط، بل شملت أيضاً بلاد بابل والقسم الجنوبي في العراق مثل نفر والوركاء وامتد هذا النشاط إلى منطقة أعالي الفرات فشمل مدينة حران وكذلك امتد إلى منطقة ديالى لا سيما موقع تل حداد. أما القسم الثاني فقد تناول فيه الباحث موضع الفن الذي بلغ قمة ازدهاره ولا سيما النحت البارز الذي جسد بشكل حقيقي أحداث ذلك العصر من خلال تصويره الواقعي لمعارك الآشوريين ضد العيلاميين.

ومن خلال تصويره لمشاهد صيد الأسود والحيوانات البرية حيث أبدع الفنان الآشوري في إعطاء الحركة والحيوية لهذه المنحوتات ووظف بشكل مبدع إمكاناته الفنية في إبراز تفاصيل الجسم المختلفة. كما أنه عرف التطور من خلال تجسيده لمنظر حديقة ملكية على إحدى المنحوتات. ولم يكتف هذا الفنان بهذه المواضيع، بل عرج على تسجيل نشاط هذا الملك العمراني على إحدى المنحوتات من خلال تصويره الملك حاملاً سلم البناء على رأسه. والقسم الأخير في الفصل الرابع خصص لموضوع المكتبة الملكية في نينوى. وأوضح الدور البارز الذي لعبه الملك آشور بانيبال في اهتمامه بثقافات ومعارف العصور التي سبقته وجمعه كل الرقم الطينية التي كانت محفوظة في معابد العراق القديم ولا سيما معابد بابل والقسم الجنوبي من العراق بحيث تمكن أن يؤسس في نينوى أضخم مكتبة عرفها الشرق القديم. وكان له الفضل في الحفاظ على التراث الحضاري والتاريخي لبلاد وادي الرافدين، ولولاه لما وصلت إلينا كل هذه المعلومات عن تاريخ وحضارة العراق القديم.

لقد اعتمد الباحث في تغطية هذه الرسالة على النصوص المسمارية التي كتبت في عهده ولا سيما حولياته المنشورة في الكتب الأجنبية إضافة إلى الكتب والمجلات العربية المختلفة.

المكتشفات المعمارية في ضوء التنقيبات الأثرية

في بسماية

تأليف: الأستاذ علي هاشم خيري النعيمي

يمتاز موقع بسماية بأهمية من الناحيتين السوقية والحضارية فهو بالإضافة إلى وقوعه ضمن منطقة ديالى التي كانت مركزاً مهماً لمملكة أشنونا خلال الألف الثاني قبل الميلاد، فقد كان إحدى المدن التي ضمها الملك البابلي حمورابي عندما وحّد البلاد، وأنهى حكم الدويلات خلال السنوات الأولى من حكمه الذي امتد في السنوات ما بين (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠)ق.م، والتي كان آخرها السيطرة على دويلة المدينة في لارسا عام (١٧٦٣ق.م) وتعيننا على معرفة سيطرة حمورابي على الموقع إلى بقايا آثار التدمير بالنار المنتشرة على جدران وأرضيات مرافق أبنية الطبقة الثانية التي عثر على ما يشبهها في العديد من المدن المعاصرة التي كانت تابعة لحكم مملكة أشنونا مثل «تل محمد» تل حرمل (شادويم القديمة) وتل الضباعي وتلول خطاب.

كما أن تعرض المنطقة إلى الفيضانات ومن ضمنها موقع بسماية نتيجة لارتفاع مناسيب المياه في نهر دجلة بين حين وآخر استناداً إلى الدلائل المستقاة من نتائج الفحوصات المختبرية التي أجريت لنماذج في تربة طبقات الموقع، والتي أكدت وجود نسبة عالية من الرمل ضمن الطبقة الثانية تفوق ما عثر عليه في الطبقات الأخرى، وخاصة في الجزء الجنوبي من الموقع الذي يضم مرافق أبنية الحارة الأولى، حيث ينخفض مستوى الأرض الطبيعية فيها نسبة إلى مستوى الأفق العام لأرضية الطبقة الثانية.

وقد كشفت نتائج التنقيبات فيها أنها ترتفع تدريجياً كلما اتجهنا نحو الشمال بنسبة متر واحد لكل مائة متر بحيث نجد أن سمك المصطبة التي تغطي الطبقة الثانية في هذا الجزء أكثر منه في بقية المناطق، إضافة إلى وجود طبقات خفيفة من الرمل والحصى الناعم وطبقات طينية غرينية استناداً إلى دراسة مقطع عمودي لركام هذه الطبقة.

ويبدو ان الفيضانات سببت هجرة السكان خلال فترة العصر البابلي القديم وهجر الموقع بعد أن أعيد استيطانه في العصور المتأخرة.

وتشير نتائج التنقيبات في الطبقة الثانية إلى أنه كان يزهو بكثافة سكانية وإلى وجود مرافق بنائية ذات أسلوب معماري واحد على الرغم من تباين في تخطيطها. أما عن تاريخ الاستيطان في الموقع فقد تم الكشف ومن خلال بعض الخنادق الاختبارية عن وجود طبقات سكنى أقدم من الفترة البابلية القديمة تعود العليا منها الى فترة سلالة أور التالية بدليل العثور على بعض الصولجانات المصنوعة من حجر الديورانت الأسود والحجر الأبيض الشمعي وخاصة الصولجان الذي نقش بأربعة أسطر من الكتابة السومرية التي تذكر اسم الملك أور نمو ملك أور خلال تلك الفترة الزمنية وترجمتها كالآتي، الملك أور نمو ـ الرجل القوي ـ ملك أور ـ ملك سومر واكد، ولكننا لم نتمكن من معرفة مدى الاستيطان السكاني والعمراني في هذه الطبقة على وجه الدقة، نظراً لارتفاع مستوى المياه الجوفية التي حالت دون الاستمرار في التنقيب. ولكن الاستيطان كان واضحاً في الطبقة الثانية التي تمثل بثلاث حارات سكنية تميزت الحارة الأولى منها باحتوائها على مجموعة من دور السكن تفصلها عن بعضها أزقّة منتظمة وضيقة وقد شاع هذا الأسلوب في التخطيط ضمن هذه الفترة لأسباب تعبوية ومناخية واجتماعية حيث ان الأزقة الضيقة تسهم في توفير الحماية اللازمة للسكان في حالة تعرض الموقع لهجوم طارىء من قبل الأعداء وفي الوقت نفسه توفر الظل الكافي من أشعة الشمس على طول واجهات بيوت السكن المتصلة مع بعضها، إضافة إلى الفوائد الاجتماعية التي تجعل بيوت السكن معزولة عن العالم الخارجي المحيط بها كوحدة سكنية مغلقة على نفسها.

إن النمط المعماري لهذه الحارة يشير إلى وجود تخطيط سابق كما أن نمط البناء يتوقف على مساحة قطعة الأرض المتوفرة مع الإمكانيات المادية للشخص وعدد أفراد العائلة وتميزت الحارة الثانية بتخطيطها المختلف بعض الشيء عن الأولى حيث تشير الدلائل الأثرية إلى أنها مرافق جديدة حيث عثر على العديد من التنانير والأفران والأحواض، إضافة إلى أن مرافقها البنائية متصلة وذات مساحات كبيرة وساحات متعددة تفتقر إلى التخطيط المنتظم.

أما الحارة الثالثة فكانت مقسمة إلى وحدات بنائية مرتبطة مع بعضها خصصت لأغراض السكن وتخلو من الأزقة، إضافة إلى وجود مساحات خالية تفصل بينها. ويوحي هذا التقسيم بأنها تتميز بأسلوب عفوي في التخطيط. وقد أقيمت لتفي ببعض الاحتياجات الوقتية، مما يدل على وجود كثافة سكانية بدليل الاستفادة من كافة المساحات بين الوحدات البنائية في الدور الثاني والاستفادة منها في الدور الأول لكي يتم تلافي ازدياد السكان، كان هذا المستوطن محصناً بسور شبه دائري مبني باللبن اتخذ أساساً لبناء السور الخارجي في الفترات اللاحقة. والذي تميز بأن له باباً رئيسياً في جهته الجنوبية واستعاد الموقع أهميته ثانية في العصور المتأخرة بعد أن هجر خلال العصر البابلي القديم فأصبح مستوطناً كبيراً محاطاً بسور مدعماً بأبراج وأبواب أقيم فوق مصطبة مبنية باللبن يتراوح سمكها بين ٢,٥م إلى ٣م، وذلك من خلال التوسع السكاني والعمراني الذي طرأ على إقليم ديالى في هذه الفترة، وشمل مناطق عديدة اتسمت بالزخم السكاني والاهتمام بطرق المواصلات والطرق التجارية مما أدى إلى إقامة عدة مستوطنات أو حاميات عسكرية لحماية شبكات طرق المواصلات والطرق التجارية.

ومما عزز من أهمية موقع بسماية قربه من العاصمة طيسفون (المدائن) ويقع على الطريق الرئيسي الذي يربط العاصمة بديالى شمالاً وخانقين شرقاً وباحتوائه على حامية عسكرية. ومن خلال ذلك اكتسبت منطقة ديالى أهمية زراعية وتجارية بدلالة الاهتمام بمشاريع الري وإنشاء قنوات جانبية لنقل المياه إلى المناطق الزراعية.

ومن خلال هذا التوسع كان لا بد من إيجاد مناطق حراسة ريفية تأخذ على عاتقها تجميع المحاصيل الزراعية والمحافظة على انسيابية نقلها. ومن هنا تتجلى أهمية موقع بسماية باعتباره واحداً من هذه المواقع التي أخذت على عاتقها تأمين جزء من المستلزمات الضرورية. وليس من المستبعد أن يكون موقع بسماية أحد المدن السبع المسماة (المدائن) والتي ذكرها المؤرخون ضمن ضواحي العاصمة طيسفون استناداً إلى الشواخص المعمارية التي تتصف بها هذه المدن من سور وأبراج وأبواب. وتشير المرافق البنائية في هذه الطبقة إلى كونها ذات طابع عسكري وتخطيط معماري متميز أنشئت على مصطبة صلدة من اللبن، ومن خلال وجود هذه المصطبة التي بنيت بسبب تعرض الموقع إلى الفيضانات خلال فترة العصر البابلي القديم يدرك المرء مدى أهمية المرافق البنائية المنشأة فوقها والعائدة للطبقة الأولى، حيث استعملت أساساً لها أولاً ومن ثم الارتقاء بمستوى السور والأبراج والأبواب.

إن الطراز المعماري للوحدتين البنائيتين المتشابهتين الذي تميزت به هذه الطبقة في المساحة، ونمط البناء يثير الاهتمام إلى وظيفة هذه الأبنية والغرض من إنشائها. واستناداً إلى مجمل الأسباب التي ذكرناها سابقاً فلا بد أن تكون ثكنة أو حامية عسكرية أو مركز لقيادة عسكرية مهمة تضم أعداداً كبيرة من الجنود لها وسائلها الدفاعية التي أنشئت في القسم الجنوبي من الموقع الذي يقابل العاصمة طيسفون وهذا يعني أن المستوطن يشكل أحد فرق الحماية ليس فقط لما ذكرناه سابقاً وإنما قد يكون معسكراً دائمياً لحماية طيسفون والمساهمة في صد أي هجوم عليها.

لقد تم تحديد الفترة الزمنية للطبقة الثانية بأنها تعود إلى العصر البابلي القديم استناداً إلى نمط وتخطيط المرافق البنائية، ونمط المخلفات الأثرية المكتشفة فيها من أوانٍ وجرار وكؤوس ومسارج إضافة إلى مجموعة كبيرة من الدمى الفخارية الآدمية التي تميزت بصناعتها الشعبية والمحلية، وهي تحمل السمة البابلية القديمة. كما تم العثور على مجموعة من القبور المكتشفة في داخل بيوت السكن وهي ذات نمط متباين يعتمد أساساً على الحالة المادية لعائلة الشخص المتوفى ومنزلته الاجتماعية.

ومن خلال ذلك يمكن الإشارة إلى أن المجتمع الذي سكن هذا المستوطن هو مجتمع مدني يختلف عن المجتمع الريفي أو القروي من خلال تنوع الأشياء الأثرية المكتشفة ذات الطراز الشعبي والمحلي. وقد تمت مقارنة عمارة الطبقة الثانية واللقى الأثرية المكتشفة فيهما بالمواقع المعاصرة والشبيهة في بعض مواقع حوض ديالى مثل تل محمد وتل الضباعي. وفي حوض حمرين يوجد عشرات المواقع الأخرى منها تل سليمة وتل الزاوية ومواقع وسط وجنوب العراق في سبار وبابل وأور. أما بخصوص الطبقة الأولى فتم تحديد فترتها الزمنية وهي منتصف القرن الثاني الميلادي واستمرت إلى فترة قبيل الإسلام، وذلك استناداً إلى تخطيط ونمط البناء واللقى الأثرية المكتشفة المتمثلة بالأواني والجرار الفخارية والمسارج والأواني

الزجاجية ومجموعة من المسكوكات الفضية والنحاسية ومقارنة ذلك مع المواقع المعاصرة لها في منطقة ديالى ومواقع حوض سد حمرين.

قسم الباحث الرسالة إلى ثلاثة فصول: **تناول الفصل الأول:** دراسة موقع بسماية وأهميته باعتباره أحد مواقع منطقة ديالى، وأبعاد تسميته متمثلاً بالمعاني العديدة لكلمة بسماية وعلاقتها بالموقع. كما تناول الباحث دراسة مستفيضة عن البيئة الطبيعية والجغرافية لمنطقة ديالى وحوض حمرين وتطرق إلى علاقة موقع بسماية بمواقع منطقة ديالى باعتباره أحد هذه المواقع ضمن فترة العصر البابلي القديم وعلاقته في الفترات التاريخية المتأخرة. وقد استعان في هذه الدراسة على تحليل تربة الطبقات للموقع وكانت نتائجها دليلاً على استنتاجات التنقيبات الأثرية في الطبقة الثانية والمتعلقة بالفيضانات. **أمّا الفصل الثاني** فتناول الخصائص المعمارية المكتشفة في الطبقة الأولى والتي تعود إلى فترات تاريخية متأخرة من ناحية التخطيط والبناء والتطرف في التحصينات الدفاعية في من سور وأبراج وأبواب، ومقارنة ذلك مع بقية المواقع المعاصرة له مع إبراز أهمية الجانب المعماري فيه وتقنيات العمارة العراقية القديمة من خلال إلقاء الضوء على طبيعة هذه الأبنية والطراز الفريد الذي اتصف به وعلاقة ذلك بالمنطقة الجغرافية وبالموقع نفسه من خلال وجود المصطبة التي بنيت عليها.

كما تناول الباحث عملية البناء والتسقيف والمواد الأولية المستخدمة فيه وتطرق إلى المرافق البنائية المستخدمة للأغراض الدينية. وإبراز أهم اللُّقى الأثرية التي تشير إلى هذه الفترة.

وفي الفصل الثالث تناول الباحث الجوانب المعمارية في الطبقة الثانية والتي تعود إلى العصر البابلي القديم حيث بحث فيه أسلوب التخطيط والبناء لمرافق أبنية هذه الطبقة ومقارنة ذلك مع المواقع المعاصرة له والاستنتاجات التي ظهرت من خلال تنقيبات هذه الطبقة. كما تناول عملية البناء والتسقيف والمواد الأولية المستخدمة فيه والذي يعتبر ضمن الطراز الشائع المستخدم في العصر البابلي القديم.

وفي البحث أسلوب بناء القبور وأشكالها وأهم اللُّقى الأثرية التي تحدد تاريخ هذه الطبقة وخاصة الدمى الفخارية التي أصبحت السمة المميزة لفترة العصر البابلي القديم. وتضم الرسالة (٢٠٦) صفحات منها (٤٨) صفحة للمخططات والصور وقد أُرِّخَت في شوال (١٤٠٧م)/حزيران (١٩٨٧هـ)، وتضم الرسالة ملفاً باللغة الإنكليزية.

السيرة العلمية لمؤرخين عرب

الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامي والآثار والفنون الإسلامية
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية ومدير معهد دراسات البحر المتوسط

- عمل مستشاراً ثقافياً بسفارة مصر في إسبانيا ومديراً للمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧٨ - ١٩٨٠.

- منح وسام الملك الفونسو العاشر العالم ووشاح الصليب الأعظم من وزارة التعليم الإسبانية تقديراً لجهوده في خدمة الفن الإسلامي بإسبانيا ١٩٨١.

- عضو شرف في مجلس إدارة المعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد.

- منح ميدالية مانويل دي فايا من كنسرفاتوار مدينة قادس في سنة ١٩٧٩.

- منح ميداليتين في مهرجان السينما الذي عقد بمدينة قرطاجنة بشرق اسبانيا في نفس السنة بمناسبة تمثيل مصر ببعض الأفلام المصرية التي حازت تقدير الحكام. واختارته الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة سانتا إيزابيل بإشبيلية عضواً أكاديمياً في سنة ١٩٨٠.

- حصل في سنة ١٩٧٥ على جائزة الدولة التشجيعية في التاريخ والآثار ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عن كتابه «قرطبة حاضرة الخلافة الأموية بالأندلس».

- حصل على جائزة التقدير العلمي لجامعة الإسكندرية لعام ١٩٨٧.

- اختير عضواً للجنة الدائمة للآثار والفنون الإسلامية وعضواً في شعبة التراث الحضاري والأثري بالمجلس القومي للثقافة والفنون والآداب والإعلام.

- عضواً في مجلس إدارة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

- عضواً في مجلس إدارة متحف المجوهرات الملكية بالإسكندرية.

- مقرراً للجنة الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين في الآثار والفنون الإسلامية.

- عضوية مجلس إدارة جمعية الآثار بالإسكندرية.

- ناقش عدداً كبيراً من الرسائل العلمية للماجستير والدكتوراه في الفنون والآثار الإسلامية والخط العربي بكلية الآثار، جامعة القاهرة.

- أستاذ زائر بجامعات إسبانيا: جامعة غرناطة وجامعة إشبيلية.

- مثّل جامعة الإسكندرية في كثير من المؤتمرات العلمية بمدريد وطليطلة وبطليوس وبرشلونة في إسبانيا ويابرة بالبرتغال ومرسيليا بفرنسا وعديد من عواصم العالم العربي كالقاهرة وبغداد والدوحة والرياض وإربد بالأردن والرباط بالمغرب.

- أصدر عدداً كبيراً من البحوث العلمية في الفنون الإسلامية والعمارة الإسلامية وفنون النقش والتصوير والزخرفة في كثير من المجلات العلمية بإسبانيا وفرنسا ومصر والكويت والعراق والمملكة العربية السعودية.

- ترجم إلى العربية كتاباً في الفن الإسلامي بإسبانيا من اللغة الاسبانية وكتاباً في الحضارة الإسلامية في الأندلس باللغة الفرنسية.

- كذلك ألف سلسلة من المصنفات في تاريخ المدن الإسلامية منها: كتاب عن طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي حصل به على جائزة خاصة من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وآخر عن قرطبة حصل به على جائزة الدولة التشجيعية وآخر عن الإسكندرية الإسلامية ورابع عن صيدا وآثارها الإسلامية،

وخامس عن المرية اهتم فيها بإبراز الجوانب الفنية والأثرية، كما ألف كتاباً عن المساجد والقصور بالأندلس، وآخر في المآذن المصرية وتطورها، هذا بالإضافة إلى بحوث عديدة باللغة الإسبانية عن القيم الجمالية في الفن الإسلامي أو عن التبادل الفني بين مصر والأندلس في العصر الإسلامي أو عن آثار إسلامية متعددة نشرت في مجلات الأندلسAl - Andalus والأرشيف الإشبيليArchivo Hispaliense ودفاتر قصر الحمراء Cuadernos de la Alhambra ولقاءات في عالم البحر المتوسطRencontres Mediterraneennes ومجلة المغرب الإسلامي والبحر المتوسط Revue de L'occident musulman et de la Mediterranee، وكثير من المجلات العربية مثل عالم الفكر والمنهل والمجلة وصحيفة المعهد المصري بمدريد ومجلة الجيش بمصر ومجلة أوراق جديدة بمدريد وبعض الحوليات الجامعية بمصر. ولم يخل كتاب من مؤلفاته التي بلغ عددها عشرين كتاباً من دراسات أثرية وفنية. كذلك شارك سيادته في تأسيس المتحف البحري بالإسكندرية (قلعة قايتباي) وفي الإشراف على المجسات الأثرية بكوم الناضورة بالإسكندرية وإعداد تقرير عما أسفرت عنه، ونادى بقيام تآخ بين مدينتي الإسكندرية ومرسية، وحصل على موافقة مجلس بلدية هذه المدينة (مرسية) وعرض نتائج ذلك على السيد محافظ الإسكندرية الأسبق (الفريق محمد سعيد الماحي). كما وضع لائحة تأسيس شعبة الآثار الإسلامية بقسم التاريخ والآثار بجامعة الإسكندرية، وشارك في وضع لائحة معهد دراسات البحر المتوسط بجامعة الإسكندرية. هذا وقد دعته الحكومة الجزائرية أخيراً للاشتراك في إجراء حفريات أثرية قومية بالجزائر للعام الحالي، وكان قد سبق له أن شارك في البحوث الفنية والأثرية بدير سانت كاترين بسيناء في سنة ١٩٥٩ بالاشتراك مع جامعتي برنستون وكولومبيا.

واختير عضواً ممثلاً لمصر في اللجنة الدولية للحفاظ على التراث الحضاري الإسلامي في سبتمبر ١٩٩٠، وما زال يمارس هذه العضوية.

حياته العلمية

الاسم بالكامل: دكتور/السيد محمود عبد العزيز سالم

تاريخ الميلاد: ٢٢ ديسمبر ١٩٢٨.

محل الميلاد: طنطا (محافظة الغربية) جمهورية مصر العربية.

المؤهلات العلمية

١ - ليسانس الآداب قسم الآثار الإسلامية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية - مايو ١٩٥٠ بتقدير ممتاز.

٢ - دبلوم الدراسات الاسبانية من جامعة مدريد بإسبانيا في أغسطس ١٩٥٢ بتقدير ممتاز.

٣ - دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة باريس (السوربون) في يناير ١٩٥٧ بمرتبة الشرف الأولى.

التدرج الوظيفي

١ - معيد بقسم الآثار الإسلامية جامعة الإسكندرية منذ تخرجه.

٢ - مفتش الآثار العربية بالقاهرة (١٩٥٧ - ١٩٥٨).

٣ - مدرس التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس (١٩٥٨ - ١٩٥٩).

٤ - مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة بجامعة الإسكندرية ١٩٥٩ - ١٩٦٥.

٥ - أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي والحضارة بجامعة الإسكندرية ١٩٦٥ - ١٩٧٢.

٦ - أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة بجامعة الإسكندرية ١٩٧٢ حتى الآن.

٧ - رئيس قسم التاريخ والآثار بجامعة الإسكندرية منذ سبتمبر ١٩٨١ وحتى سبتمبر ١٩٨٨ بالإضافة إلى الإشراف على قسم الوثائق والمكتبات بنفس الجامعة.

٨ - مدير معهد دراسات البحر المتوسط منذ عام ١٩٨٨.

الانتدابات والإعارات

١ - أعير للتدريس بجامعة بيروت العربية من ١٩٦١ إلى ١٩٦٥. وأعير إلى جامعة بيروت العربية مرة ثانية من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٣.

٢ - انتدب مستشاراً ثقافياً بسفارة مصر في اسبانيا ومديراً لمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد ما بين ١٩٧٨ - ١٩٨٠.

النشاطات الثقافية

أولاً - الدعوات التي تلقاها من الجامعات الأجنبية أستاذاً زائراً:

١ - دعوة من جامعة برنستون (نيوجيرسي - الولايات

المتحدة) لمدة عام، سنة ١٩٥٩ ولم يلب سيادته الدعوة.

٢ - دعوة من جامعة الجزائر أستاذاً زائراً لمدة شهر، مايو ١٩٦٩.

٣ - دعوة من جامعة اشبيلية بإسبانيا خلال شهر أبريل ١٩٧٤.

٤ - دعوة من جامعة محمد بن سعود الإسلامية بالرياض خلال شهر مارس ١٩٧٦.

٥ - دعوة من جامعة قسنطينة بالجزائر خلال شهر مارس ١٩٧٧.

٦ - دعوة من جامعة بيروت العربية خلال شهر أبريل ١٩٧٧.

٧ - دعوة من جامعة برشلونة بإسبانيا خلال شهر مارس ١٩٧٩.

٨ - دعوة من جامعة غرناطة بإسبانيا خلال شهر فبراير ١٩٨٠.

٩ - دعوة من جامعة اشبيلية بإسبانيا لمدة أسبوع، مارس ١٩٨٠.

١٠ - دعوة من المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد لإلقاء محاضرات في مدريد وجامعة غرناطة سنة ١٩٨٥.

١١ - دعوة من جامعة اليرموك لإلقاء محاضرة عامة عن الفن الإسلامي بالأندلس في الجامعة سنة ١٩٨٥.

١٢ - دعوة من جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية بقسنطينة للتدريس أستاذاً زائراً سنة ١٩٩١.

ثانياً - المؤتمرات الدولية التي دعي إليها وشارك فيها:

١ - حلقة الدراسات الأثرية بالقاهرة ١٩٥٨.

٢ - المؤتمر الدولي الأول للتاريخ في بغداد ١٩٧٣.

٣ - ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى المغفور له الدكتور أحمد فكري - الإسكندرية - ١٩٧٦.

٤ - اليوبيل الذهبي لإنشاء الدراسات الأثرية بجامعة القاهرة - فبراير ١٩٧٦.

٥ - مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية بالدوحة مارس ١٩٧٧.

٦ - ألفية ابن زيدون القرطبي بالرباط ١٩٧٧.

٧ - لقاء حضارات البحر المتوسط الذي عقد بالمرية في اسبانيا سبتمبر ١٩٧٨.

٨ - **مائدة مستديرة حول المخطوطات العربية** بالإسكوريال نظمها **المعهد الاسباني العربي للثقافة** بمدريد في ١٩٧٨.

٩ - **المؤتمر الدولي السادس للدراسات حول إقليم استرامادورا بإسبانيا** المنعقد في بطليوس في مايو ١٩٧٩.

١٠ - **المؤتمر الدولي لتدريب المعوقين** ببرشلونة - أبريل ١٩٧٩.

١١ - **اللقاء الأول لدراسة تاريخ مدينة مرسية** بإسبانيا، مارس ١٩٧٩.

١٢ - **مؤتمر السلام والعالم العربي** - قرطبة ١٩٨٠.

١٣ - **مهرجان الحضارة المصرية الإسلامية** بمعهد الدراسات **الإسلامية** بمدريد - فبراير ١٩٨٠.

١٤ - **المؤتمر الدولي الثاني** لخزف البحر المتوسط الغربي في العصور الوسطى، **طليطلة** - نوفمبر ١٩٨١.

١٥ - مؤتمر **اللغة العربية في الجامعات**: واقعها ووسائل الارتقاء بها - الإسكندرية - ديسمبر ١٩٨١.

١٦ - **الندوة الثقافية** عن تاريخ سيناء، نظمتها وزارة الدفاع بمدينة **الإسكندرية في أبريل ١٩٨٢.**

١٧ - **الندوة العالمية الثالثة** لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، جامعة الرياض ١٩٨٢.

١٨ - المؤتمر الدولي لاتحاد المستشرقين حول حضارة الأندلس، يابرة بالبرتغال - سبتمبر ١٩٨٢.

١٩ - ندوة إعادة كتابة التاريخ المنعقدة في بغداد في ديسمبر ١٩٨٧.

٢٠ - مؤتمر الثقافات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلامية بطليطلة المنعقد في طليطلة من ١١ إلى ١٤ يناير ١٩٨٨.

٢١ - مؤتمر «بروفانس والشرق» الذي انعقد في مرسيليا في ديسمبر ١٩٨٤.

٢٢ - مؤتمر «ذكرى طه حسين» في مدريد ١٩٨٩/١٩٩٠.

٢٣ - المؤتمر الخاص بمجتمعات البحر المتوسط القديمة في لشبونة ١٩٩١.

٢٤ - مؤتمر للحضارة الأندلسية المنعقد في المحمدية بالمغرب في أبريل ١٩٩٢.

٢٥ ـ مؤتمر العلاقات المصرية الهندية المنعقد في القاهرة في سبتمبر ١٩٩١.

٢٦ ـ مؤتمر العلاقات اليمنية المصرية المنعقد في القاهرة عام ١٩٩٠.

٢٧ ـ مؤتمر العلاقات المغربية المصرية المنعقد في القاهرة في ١٩٨٩.

ثالثاً ـ الجوائز والأوسمة التي حصل عليها:

١ ـ جائزة الدولة التشجيعية في التاريخ والآثار عن كتابه: «قرطبة حاضرة الخلافة الأموية بالأندلس» في جزأين، ١٩٧٤.

٢ ـ وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، منحته له الحكومة المصرية في سنة ١٩٧٥.

٣ ـ وسام ووشاح الملك ألفونسو العاشر العالم، منحته له وزارة التعليم الإسبانية تقديراً له في خدمة التراث الإسلامي الأندلسي في ١٩٨١.

٤ ـ نوط مانويل دي فايا أهداه له كونسرفاتوار قادس بإسبانيا تقديراً له لجهوده في خدمة التراث الحضاري الأندلسي ١٩٧٩.

٥ ـ جائزة التقدير العلمي لجامعة الإسكندرية في ١٩٨٧.

رابعاً ـ العضويات العلمية:

١ ـ عضو الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة بإشبيلية (إسبانيا).

٢ ـ عضو مجلس إدارة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

٣ ـ عضو «شرفي بكل استحقاق» بمجلس إدارة المعهد الأسباني العربي للثقافة التابع لوزارة الخارجية الإسبانية.

٤ ـ عضو مجلس إدارة مركز دراسات البردي بجامعة عين شمس القاهرة.

٥ ـ عضو مجلس إدارة جمعية الآثار بالإسكندرية.

٦ ـ عضو مجلس إدارة مدينة ماريا الأثرية.

٧ ـ عضو بلجنة العلوم الاجتماعية المنبثقة من مجلس الثقافة بمحافظة الإسكندرية.

٨ ـ عضو بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة.

٩ ـ عضو باتحاد المؤرخين العرب ببغداد.

١٠ ـ عضو بالمجلس الأعلى للثقافة (لجنة التاريخ).

١١ ـ عضو في لجنة التحكيم لجائزة الكتاب العربي في لبنان عام ١٩٦٣.

١٢ ـ عضو في لجنة التحكيم لجائزة أفضل البحوث التاريخية المقدمة من أساتذة قسم التاريخ بجامعة عين شمس ١٩٧٥/١٩٧٦.

١٣ ـ عضو مجلس إدارة معهد اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

١٤ ـ عضو في لجان التحكيم لجوائز الدولة التشجيعية في التاريخ وفي الآثار عن عامي ١٩٨١/١٩٨٣.

١٥ ـ عضو اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة في التاريخ وفي الآثار بجامعات مصر (المجلس الأعلى للجامعات).

١٦ ـ مقرر اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين في الجامعات المصرية في الآثار الإسلامية منذ عام ١٩٨٢ حتى اليوم ومقرر اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة في الآثار الإسلامية منذ سنة ١٩٨٦.

١٧ ـ عضو ممثل لمصر في اللجنة الدولية للحفاظ على التراث الحضاري الإسلامي في سبتمبر ١٩٩٠.

١٨ ـ مقرر اللجنة العلمية المشتركة لوضع وتصحيح امتحانات الليسانس على مستوى جامعات مصر (١٩٨٢ - ١٩٨٨).

خامساً ـ إسهامات ثقافية أخرى:

١ ـ تمثيل جامعة الإسكندرية في الأبحاث الأثرية بدير سانت كاترين بسيناء التي أجرتها جامعات برنستون وكولومبيا وجورج تاون سنة ١٩٥٩.

٢ ـ الاشتراك في عضوية لجان فحص الإنتاج العلمي لعديد من البحوث المقدمة للترقية في جامعات بغداد والكويت وأم درمان الإسلامية وأم القرى بمكة المكرمة.

٣ ـ الاشتراك في مناقشة رسائل علمية للدكتوراه في جامعتي مدريد وقرطبة.

٤ ـ اختياره مشرفاً علمياً من الخارج على رسالة للدكتوراة بالأكاديمية البحرية بالإسكندرية بالاشتراك مع جامعة كمبردج.

٥ ـ الاشتراك في تقييم ما أسفرت عنه أعمال الحفر والتنقيب في منطقة كوم الناضورة بالإسكندرية بتكليف من هيئة الآثار المصرية والسيد محافظ الإسكندرية.

الأبحاث والكتب

أولاً - الكتب المؤلفة:

١ - المساجد والقصور في الأندلس، دار المعارف بمصر ١٩٥٨.

٢ - المآذن المصرية: أصلها وتطورها حتى الفتح العثماني، مصلحة الآثار المصرية - القاهرة ١٩٥٩.

٣ - بيوت الله مساجد ومعاهد - دار الشعب ١٩٥٩.

٤ - تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، دار المعارف بالإسكندرية طبعة أولى ١٩٦٠، طبعة ثانية ١٩٦٧، وطبعة ثالثة ١٩٨٢.

٥ - المغرب الإسلامي (في جزأين) مطبوعات مكتب الشعب ١٩٦٠.

٦ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار معارف لبنان ١٩٦٢.

٧ - تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي، بيروت ١٩٦٤.

٨ - المغرب الإسلامي، الجزء الثاني من موسوعة المغرب الكبير، الإسكندرية ١٩٦٦.

٩ - التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية ١٩٦٧.

١٠ - تاريخ العرب قبل الإسلام، الإسكندرية ١٩٦٧، وطبعتان أخريان.

١١ - تاريخ الدولة العربية، بيروت ١٩٦٩ وطبعتان أخريان.

١٢ - طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الدار القومية بالإسكندرية ١٩٦٧.

١٣ - تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، بيروت ١٩٦٩.

١٤ - قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس، بيروت ١٩٧١/٦٩.

١٥ - دراسة حول تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، من منشورات جامعة بيروت العربية، بيروت ١٩٧٢.

١٦ - تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، منشورات جامعة بيروت العربية، بيروت ١٩٧٢ (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي).

١٧ - تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت ١٩٦٩ (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي).

١٨ - تاريخ الدولة العباسية (العصر العباسي الأول) الإسكندرية ١٩٨٠.

١٩ - دراسات في التاريخ والحضارة الإسلامية (تحت الطبع).

٢٠ - في تاريخ وحضارة الأندلس، الإسكندرية ١٩٨٤.

٢١ - البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي (تحت الطبع).

٢٢ - التحف العاجية الأندلسية (تحت الطبع).

ثانياً - الكتب المترجمة:

١ - كتاب «الإسلام في المغرب والأندلس» تأليف ليفي بروفنسال وترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم بالاشتراك مع الأستاذ محمد صلاح الدين حلمي القاهرة ١٩٥٨ (من الفرنسية).

٢ - كتاب «الفن الإسلامي في إسبانيا منذ الفتح الإسلامي حتى عصر المرابطين تأليف جومث مورينو وترجمة د. السيد عبد العزيز سالم والدكتور لطفي عبد البديع، القاهرة ١٩٥٩ (من الاسبانية).

ثالثاً - البحوث المنشورة باللغتين الاسبانية والفرنسية:

1 - Cronologia de la mezquita Nayor de Cordoba levantada por Abd Al - Rahman I, Revista Al - Andalus, 1954. (الاسبانية)

2 - Restos de un bano arabe en Sevilla, Revista Archivo Hispaliense, Sevilla, 1954. (الاسبانية)

3 - La Puerta del Perdon en la gran mezquita almohade de Sevilla, Al - Andalus, 1978. (الاسبانية)

4 - Obras almohades en las murallas amoravides de Sevilla, Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islomicos de Madrid, No. XX, 178 - 1979. (الاسبانية)

5 - Algunos aspectos del florecimiento economico de Almeria en el siglo XII, Revista I.E.E.I., Madrid 1978 - 1980. (الاسبانية)

6 - Sevilla almohade, publicationes de la Officina de Informaciones en la Embajada de Egipto en Madrid, 1979. (الاسبانية)

7 - De nuevo sobre la Influencia de Al - Andalus en el arte musulman de Egipto, en Cuadernos de la Alhambra, Vol, 15 - 17m Granada, 1979 - 1981. (الاسبانية)

8 - Centros industriales de la ceramica andalusi en el periodo musulman, Revista Awraq, Madrid, 1986. (الاسبانية)

9 - Des Grecs aux ottomas: Grandeur et Misere d'un Mythe, dans le Miroir Egyptien, Marseille, 1984. (بالفرنسية)

10 - The influences of the lighthouse of Alexandria on the mianarets of North Africa and Spain.

11 - D'Alexandrie a Almeria: Une Famille Alexandrie au moyen age, les Banu Khulayf, dans Alexandrie entre deux mondes Ex-en- Provence, 1987. (بالفرنسية)

(بالإنجليزية تحت الطبع).

رابعاً ـ بعض الأبحاث المنشورة باللغة العربية:

١ ـ مئات المقالات في التاريخ الإسلامي في الأندلس وفي التراث الإسلامي بدائرة معارف الشعب تحت عنوان «الأندلس» أعداد ٦١، ٦٤، ٦٧ وتشتمل هذه الدراسات على:

(أ) ـ قواعد الأندلس العظمى وأهم مدنها تاريخياً وأثرياً.

(ب) ـ العمارة الإسلامية في الأندلس وتأثيراتها على العمارة المسيحية في إسبانيا وفرنسا وعلى العمارة الإسلامية في المغرب والجزائر وتونس ومصر.

(ج) ـ الفنون الصناعية في الأندلس.

(د) ـ نظم الحكم والإدارة في الأندلس.

(هـ) ـ شخصيات أندلسية: طارق بن زياد ـ موسى بن نصير ـ عبد الرحمن الداخل ـ هشام الرضا ـ الحكم الربضي ـ عبد الرحمن الناصر.

٢ ـ عشرات المقالات بمجلة «المجلة» من سنة ١٩٥٧ إلى ١٩٦١.

٣ ـ مسجد المسلمين بطليطلة، بحث منشور بمجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، الإسكندرية ١٩٥٨.

٤ ـ بعض المصطلحات العربية للعمارة الأندلسية، بحث منشور بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٥٧.

٥ ـ الفكرة العسكرية في قلعة صلاح الدين، مجلة الجيش ١٩٥٨.

٦ ـ القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية منشورات جامعة بيروت العربية ١٩٦٢.

٧ ـ طرابلس: تاريخها وآثارها الإسلامية، الموسم الثقافي لجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية بطرابلس ـ لبنان ١٩٦٣/ ١٩٦٤.

٨ ـ واقعة الأرك: خاتمة الانتصارات الإسلامية في إسبانيا، مجلة العلوم بيروت، يوليو ١٩٦٤.

٩ ـ الآثار الإسلامية في دير سانت كاترين بطور سيناء، مجلة العلوم، بيروت ١٩٦٥.

١٠ ـ الاسكندرية منذ الفتح الفاطمي حتى الفتح العثماني في كتاب **الإسكندرية عبر العصور**، أصدرته محافظة الإسكندرية ١٩٦٣.

١١ ـ البحرية المصرية في عصر الدولة الفاطمية، الإسكندرية ١٩٦٧.

١٢ ـ تاريخ مرسية موطن الشيخ أبي العباس المرسي، مجلة جمعية الآثار بالإسكندرية، ١٩٦٩.

١٣ ـ التاثيرات العراقية في البناء الحضاري الأندلسي، مقال في كتاب المؤتمر الدولي الأول للتاريخ في بغداد ١٩٧٣.

١٤ ـ أضواء جديدة حول مشكلة تاريخ جامع قرطبة، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧٤.

١٥ ـ ما لا يعرفه المسلمون عن حواضر الأندلس: طليطلة، مجلة **الفكر الإسلامي** السنة الأولى، العدد الخامس، بيروت ١٩٧٠.

١٦ ـ سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس، مجلة **المؤرخ العربي** بغداد، العدد الثاني ١٩٧٥.

١٧ ـ بعض مظاهر الأصالة في بنيان المسجد الجامع بقرطبة، بحث مقدم في ندوة الحضارة الإسلامية، الإسكندرية ١٩٧٦.

١٨ ـ تطور العمارة في الأندلس، مجلة **عالم الفكر**، الكويت ١٩٧٤.

١٩ ـ التجارة البحرية في الخليج في صدر الإسلام، بحث مقدم لمؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية، الدوحة، ١٩٧٧.

٢٠ ـ أضواء حول مشكلة تاريخ اشبيلية في العصر الإسلامي، مجلة **معهد الدراسات الإسلامية** بمدريد ١٩٧٧.

٢١ ـ صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال علب العاج، مجلة **معهد الدراسات الإسلامية**، بمدريد ١٩٧٨.

٢٢ ـ قصور بني عباد بإشبيلية الواردة في شعر ابن زيدون، مجلة **أوراق**، العدد الأول، مدريد ١٩٧٩.

٢٣ ـ أسرات بحرية أندلسية، بحث منشور في الكتاب

التذكاري الذي يصدره المجلس الأعلى للثقافة بمناسبة مرور ١٤ قرناً على التاريخ الهجري.

٢٤ ـ العمران السكندري في عصر شمس الدين السخاوي، بحث مقدم في ندوة السخاوي بالقاهرة ١٩٨٠.

٢٥ ـ معالم قرطبية في شعر ابن زيدون، تحت الطبع بمجلة **معهد الدراسات الإسلامية**، بمدريد. وأبحاث أخرى..

خامساً ـ محاضرات وندوات باللغة الاسبانية حول الإسلام:

عندما كان يتولى منصبه في مدريد مديراً لمعهد الدراسات الإسلامية اختارته الجالية العربية والإسلامية رئيساً لجمعية الصداقة الإسلامية المسيحية ممثلاً عنها، وقد أبدى سيادته ضروباً عديدة من النشاط في التعريف بالإسلام في مجلة الجمعية، وألقى سلسلة من المحاضرات باللغة الاسبانية عن الإسلام بتكليف من قسم الإنسانيات بجامعة مدريد، كما ألقى عدداً من المحاضرات عن الإسلام ومبادئه وقيمه الإنسانية في جامعة برشلونة، وشارك في ندوات تليفزيونية عن الإسلام وعن العالم الإسلامي منها ندوة اشترك فيها مع السيد/ جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية الأميريكية الأسبق والسنيور فرنشكو أوتراي ساردا مدير المعهد الاسباني العربي للثقافة، والسنيور بدرو مرتينث منتابث مدير جامعة مدريد المتخصص في الدراسات العربية وغيرهم من كبار المتخصصين في الشؤون العربية والإسلامية. كما راجع الترجمة الاسبانية للقرآن الكريم التي قام بها السيد/الفارو متشوردوم رئيس الجماعة الاسبانية المسلمة الذي اعتنق الإسلام منذ سنوات وأسس مسجداً بمدريد وكان يسعى بالاتفاق مع الدكتور عبد العزيز سالم إلى عقد مؤتمر إسلامي واسع النطاق بمدريد.

كذلك مثل الدكتور عبد العزيز سالم الدول العربية في اللجنة المشكلة للإعداد لمهرجان الأندلس الإسلامية في سنة ١٩٧٩.

وأسهم سيادته في إعداد مواقيت الصلاة بمطبعة المعهد المصري للدراسات الإسلامية على نحو منظم وتوزيعها على الجالية الإسلامية وذلك أثناء توليه إدارة هذا المعهد. وكان يحتفل دائماً بالأعياد والمناسبات الإسلامية بمقر المعهد المصري للدراسات الإسلامية فيلقي المحاضرات العلمية في كل مناسبة منها.

ويضاف إلى ما سبق من أعمال أن الدكتور السيد عبد العزيز سالم: وفق في إقناع بعض الاسبان المسيحيين إلى اعتناق الإسلام بفضل محاضراته التي كان يلقيها عن الإسلام وبفضل مناقشاته التليفزيونية بمدريد كما كان يقدم المساعدات العلمية للطلاب العرب والمسلمين من سائر الأقطار وعلى الأخص من جامعتي الملك عبد العزيز بجدة (الآنسة ليلى النجار) والإمام محمد بن سعود الإسلامية (عبد الرحمن السيد العجلان) كما هو موضح بالمرفقات.

كذلك كان يقدم كثيراً من التسهيلات العلمية إلى الباحثين المسلمين والعلماء العرب عند زياراتهم لاسبانيا. هذا وقد اختاره السنيور أرنستو جاريدو في شهر أبريل سنة ١٩٨٠ عضواً في اللجنة التشريفية لمرافقة سمو الأمير طلال بن عبد العزيز عند زيارة سموه لمدينة طليطلة وشرح معالم هذه المدينة في العصر الإسلامي.

وقد رشحته جامعة الإسكندرية وجامعة المنصورة لجائزة الملك فيصل العالمية في مجال تاريخ المدن الإسلامية للعام ٨٨/ ١٩٨٩.

نجدة فتحي صفوة

ممثل اتحاد المؤرخين العرب خارج الوطن العربي، لندن.

دبلوماسي ومؤرخ عراقي. ولد في بغداد سنة ١٩٢٣.

الدراسة: كلية الحقوق العراقية - بغداد معهد الدراسات الشرقية والافريقية - جامعة لندن.

اللغات: الإنكليزية والفرنسية والتركية. مع إلمام باللغة الروسية. يحمل «وسام الاستقلال» الأردني من الدرجة الثالثة (١٩٥٠).

عني بالأدب العربي في حداثته، ونشر له كتابان وهو لا يزال طالباً في بغداد، وهما: «**مذاهب الأدب الغربي**» (١٩٤٣) و «**إيليا أبو ماضي والحركة الأدبية في المهجر**» (١٩٤٥)، ومارس تدريس اللغة العربية والأدب العربي في «كلية بغداد» لمدة سنتين قبل التحاقه بوزارة الخارجية في سنة ١٩٤٥.

قضى في السلك الخارجي العراقي نحو ٢٥ عاماً عمل خلالها في سفارات العراق في لندن وعمّان والقاهرة وجدة وباريس وأنقرة وواشنطن وموسكو على التوالي. وعين وكيلاً مساعداً لوزارة الخارجية (١٩٥٨ - ١٩٥٩)، ومديراً عاماً للدائرة السياسية فيها (١٩٦٦ - ١٩٦٧). وفي سنة ١٩٦٧ عيّن سفيراً في الصين، ولكنه استقال من الوظيفة وتفرّغ للبحث والتأليف وحاضر في الدبلوماسية والتاريخ في عدة معاهد عالية في العراق، قبل انتقاله للإقامة في لندن في سنة ١٩٧٩.

حاضر في عدة جامعات أوربية (لندن - أوكسفورد - اكستر - توبينغن - هامبورغ) واشترك في كثير من المؤتمرات العلمية في البلاد العربية وأوربا.

كان أول مؤرخ عراقي يهتم بدراسة الوثائق البريطانية ونشر مجموعة دراسات عنها، وله تحت الطبع مجموع بعنوان «**الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية**» في اثني عشر جزءاً تنشرها «دار الساقي» (لندن - بيروت).

كتب زاوية «**هذا اليوم في التاريخ**» في جريدة «الشرق الأوسط» يومياً لمدة خمس سنوات.

متزوج من السيدة «نرمين قيردار» وله ابنتان وابن.

مؤلفاته

(١) **مذاهب الأدب الغربي**، مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٤٣.

(٢) **إيليا أبو ماضي والحركة الأدبية في المهجر**، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٤٥.

(٣) **اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى**، (منشورات وزارة الخارجية العراقية)، بغداد، ١٩٦٧.

(٤) **العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب**، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٩، (الطبعة الأولى)، بغداد، ١٩٨٤ (الطبعة الثانية).

(٥) **حكايات دبلوماسية**، دار النهار، بيروت، ١٩٧٠ (الطبعة الأولى)، بغداد، ١٩٨٤ (الطبعة الثانية).

(٦) **بيروبيجان: التجربة السوفيتية لإنشاء وطن قومي يهودي**، (منشورات مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد) بغداد، ١٩٧٣.

(٧) **الماسونية في الوطن العربي**، (منشورات مركز الدراسات العربية في لندن - باللغتين العربية والإنكليزية) لندن، ١٩٨٠.

(٨) **جهاز الدبلوماسية الإسرائيلية وكيف يعمل**، (منشورات مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد) بغداد، ١٩٨٣.

(٩) **العراق في الوثائق البريطانية - ١٩٣٦**، (منشورات مركز دراسات الخليج بجامعة البصرة) البصرة، ١٩٨٤.

(١٠) **خواطر وأحاديث في التاريخ**، مطبعة إشبيلية، بغداد، ١٩٨٤.

(١١) **العرب في الاتحاد السوفيتي ودراسات أخرى**، (منشورات مكتبة آفاق عربية)، بغداد، ١٩٨٤.

(١٢) **من نافذة السفارة: القضايا العربية في الوثائق البريطانية**، (دار رياض الريس - لندن) ١٩٩٣.

كتب حققها وكتب مقدماتها:

(١٣) **وجوه عراقية**، تأليف توفيق السويدي (دار رياض الريس للكتب والنشر)، لندن، ١٩٨٧.

(١٤) **مرآة الشام**، تأليف عبد العزيز العظمة، (دار رياض الريس للكتب والنشر)، لندن، ١٩٨٧.

(١٥) **مذكرات رستم حيدر**، (الدار العربية للموسوعات، بيروت ١٩٨٩).

(١٦) **خواطر وأفكار**، تأليف معروف الرصافي (دار رياض الريس للكتب والنشر)، لندن، ١٩٨٩.

له أكثر من ٥٠٠ بحث ومقالة في مختلف المجلات والجرائد العراقية والعربية إضافة إلى ١٨٠٠ حلقة من سلسلة «هذا اليوم في التاريخ» نشرت في جريدة «الشرق الأوسط» يومياً لمدة خمس سنوات.

الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله(*)

- ولد في ١٨ ربيع الآخر ١٣٤٢ هجرية الموافق ٢٨ نوفمبر عام ١٩٢٣ ميلادية.

- أحرز البكالوريا عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٣ ميلادية) من جامعة الجزائر ودرس العلوم الإسلامية على ثلة من كبار العلماء بالمغرب.

- شارك في الصحافة الوطنية ابان الحماية (العلم والاستقلال).

- تولى الإدارة العامة للمحافظة العقارية ومصالح الهندسة عام ١٣٧٧ هجرية (١٩٥٧ميلادية) ثم إدارة التعليم العالي والبحث العلمي من (١٣٧٨ هجرية ١٩٥٨ ميلادية) إلى ١٣٨١ هجرية (١٩٦١ ميلادية) ثم إدارة المكتب الدائم للتعريب التابع لجامعة الدول العربية منذ ١٣٨٢ هجرية (١٩٦٢ ميلادية).

وهو أستاذ الحضارة والفن والفلسفة والعلوم الإسلامية بكلية الآداب (جامعة محمد الخامس)، وأستاذ بجامعة القرويين و (دار الحديث الحسنية).

I مؤلفات مطبوعة باللغة العربية

أ ـ علوم ـ حضارة:

١ ـ الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية (أربعة أجزاء من حرف أ) مطبعة فضالة: ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م/ ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

٢ ـ **معلمة المدن والقبائل**، مطبعة فضالة: ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٣ ـ **معلمة الصحراء**، مطبعة فضالة: ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٤ ـ **تاريخ المغرب** (في مجلدين). مطبعة الجامعة: ١٦ شارع دانطون ـ الدار البيضاء: ١٩٦٠.

٥ ـ **تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث**.

(سلسلة محاضرات في معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ـ الطبعة الأولى القاهرة: ١٩٧٩ (مطبعة الرسالة) ـ الطبعة الثانية ـ دار لسان العرب ـ بيروت ١٣٠٤هـ/١٩٨٣م.

٦ ـ **مستقبل اللغة العربية**.

سلسلة محاضرات في معهد البحوث والدراسات بالقاهرة. ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة: ١٩٦١.

٧ ـ **معلمة الفقه المالكي** (٣٥٠ ص).

طبعة دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٨ ـ **الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب**.

جائزة معهد الحسن الثاني ـ الطبعة الأولى ـ تطوان ١٩٥٠ ـ الطبعة الثانية ـ دار الغرب الإسلامي ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٩ ـ مظاهر الحضارة المغربية ـ الطبعة الأولى ١٩٦٠ ثم الطبعة الثانية تحت اسم **معطيات الحضارة المغربية** (في مجلدين) دار الكتب العربية ـ الرباط: ١٩٦٣.

١٠ ـ **الطب والأطباء بالمغرب**.

(١٠٨ ص) ـ مطبعة الرسالة ـ الرباط ـ ١٩٦٠م.

١١ ـ **تاريخ الحضارة المغربية**.

طبعة مختصرة لكتاب مظاهر الحضارة المغربية لتلاميذ الأقسام الثانوية ـ مجلدان ـ (٢٦٠ ص) ـ دار السلمي ١٩٦٢م.

١٢ ـ **شقراء الريف**.

خمس روايات تاريخية حول معارك زلاقة والأرك بالأندلس ووادي المخازن وتحرير طنجة وحرب الريف. (طبعة دار النجاح ـ بيروت ١٩٧٣م.

١٣ ـ **جغرافية المغرب**.

الطبعة الأولى ـ مطبعة المأمونية بالرباط ١٩٥٠.

الطبعة الثانية ـ لاسكي إخوان ـ الدار البيضاء ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

(*) المغرب

١٤ ـ **نحو تفصيح العامية في الوطن العربي.**

+ أزيد من ٣٥٠ مقالاً وبحثاً في مختلف مجلات ودوريات العالم بثلاث لغات (العربية، الفرنسية، الإنجليزية).

+ مجلة (**اللسان العربي**).

مؤسسها ومديرها ورئيس تحريرها منذ عشرين سنة، وقد صدر منها لحد الآن ٢٠ مجلداً.

ب ـ معاجم:

١ ـ **معجم الفنون الجميلة والإذاعة والتلفزيون.**

٢ ـ **المعجم الطبي المبسط مع شوارد طبية.**

٣ ـ **معجم العظام.**

٤ ـ **معجم الدم.**

٥ ـ **معجم الأحجار والفلزات والمعادن.**

٦ ـ **معجم الحرف والمهن.**

٧ ـ **معجم المرأة وملحقه.**

٨ ـ **معجم الملابس وملحقه.**

٩ ـ **المعجم الصوفي.**

١٠ ـ **معجم الحيوانات والحشرات والحيات والأحناش.**

١١ ـ **معجم السماكة والأسماك.**

١٢ ـ **معجم النبات ومعجم الزهور.**

١٣ ـ **معجم الفيزياء.**

١٤ ـ **معجم الكيمياء.**

١٥ ـ **معجم العلوم الحراجية التصنيف العشري لأكسفورد.**

١٦ ـ **معجم الأطعمة.**

١٧ ـ **معجم الآلات والأدوات والأجهزة ومعجم أسماء العلوم والفنون والمذاهب والنظم.**

١٨ ـ **المعجم المنزلي.**

١٩ ـ **معجم البناء.**

٢٠ ـ **معجم السكر والبنجر** (الشمندر).

٢١ ـ **معجم الرياضة واللعب (ومعجم الألعاب العربية القديمة).**

٢٢ ـ **معجم الألوان.**

٢٣ ـ **معجم السيارة.**

٢٤ ـ **معجم الفقه والقانون مجلدات من حرف A إلى G.**

٢٥ ـ **معجم الإدارة العامة والمرافق المختصة.**

٢٦ ـ **معجم القطارات.**

٢٧ ـ **معجم الطيران.**

٢٨ ـ **معجم السفانة والسفن.**

٢٩ ـ **معجم الفقه المالكي.**

٣٠ ـ **معجم الأصول العربية في اللغة الفرنسية.**

٣١ ـ **معجم المحدّثين والمفسرين والقراء بالمغرب الأقصى.**

٣٢ ـ **المعجم التاريخي.**

II مؤلفات تحت الطبع (باللغتين العربية والفرنسية).

١ ـ معلمة القرآن والحديث (٣٠٠ ص).

(تشرف على نشرها الآن الجامعة الإسلامية في المملكة العربية السعودية).

٢ ـ **الأعلام الطبية الحضارية والبشرية (مع معجم تاريخي طبي) (٢٥٠ ص).**

٣ ـ **تطور الاقتصاد المغربي خلال ألف عام.**

(نظرة مدققة عن مختلفة مظاهر الاقتصاد المالي والصناعي والتجاري) (٣٥٠ ص).

٤ ـ **البلاط المغربي خلال اثني عشر قرناً.**

(الملوك والأمراء ـ الوزراء والوزارات ـ العمالات والقيادات ـ الحشم والخدم ـ سلطانيات). (٤٠٠ ص).

٥ ـ **المسار الحضاري في المغرب.**

(كتاب في عشرة أبواب) (٣٠٠ ص) ـ موضوع أطروحة الدكتوراه.

٦ ـ المسار الإسلامي في معاملة اليهود.

(من خلال حياتهم في المغرب الأقصى منذ الفتح الإسلامي). (٢٠٠ ص).

٧ ـ **معجم المتواردات.**

(٢٠٠ ص ـ أربع مجلدات) ـ ٢٠٠ مدخل باللغتين العربية والفرنسية، يشمل جميع المجالات والتفريعات المعرفية، أول معجم من نوعه في اللغة العربية (نشرت منه نماذج في مجلة **اللسان العربي**) (أعداد ١٧ ـ ١٨ ـ ٢٠).

٨ ـ **الجيش والأسطول ودورهما الحضاري بالمغرب** (باللغة الفرنسية) (مع مسردين) (٣٠٠ ص).

٩ ـ **أقطاب الفكر العلمي بالمغرب.**

(مسرد الأطباء والصيادلة والرياضيين والفلكيين الخ...).

(مع بحث حول منهجية علماء المغرب في دراستهم العلمية طوال ألف عام) (٢٥٠ ص).

١٠ ـ **الجيش والأسطول عبر العصور** (باللغة العربية).

دراسة مسهبة مع مسردين القبائيين حول النظام الفكري والملاحي بالمغرب منذ عهد المرابطين ٤٠٠ ص).

١١ ـ **اعرف بلادك.**

ثلاثة مجلدات (تتضمن نماذج من المظاهر الحضارية المتميزة عن المغرب ودوره في العالم الإسلامي ١٥٠٠ ص).

١٢ ـ **الشعر والشعراء بالمغرب.**

ثلاثة مجلدات تضم مسرداً للشعراء المغاربة مرتباً حسب الحروف الألفبائية خلال ألف عام، مع مجلد رابع لنماذج أشعارهم ١٨٠٠ ص).

١٣ ـ **المسجد والهندسة المعمارية الإسلامية.**

دراسة معززة بلائحة عن المساجد والجوامع المغربية ودورها الثقافي والديني منذ الفتح الإسلامي ٢٥٠ ص).

١٤ ـ **حاضرة الرباط ودورها الحضاري خلال ثمانية قرون** ٢٥٠ ص).

١٥ ـ **حواضر المغرب عبر التاريخ.**

دراسات أصيلة دقيقة مدعمة بالمستندات عن مختلف المجالات الحضارية (٣٠٠ ص).

١٦ ـ **الفن المغربي عبر العصور من العهد الروماني إلى العصر الحاضر.**

(نشر بالعربية في مجلة **اللسان العربي**) (٢٠٠ ص).

١٧ ـ **السفارات والسفراء.**

(١٥٠ ص) ـ دراسة عن السلكين الدبلوماسي والقنصلي المغربي في الخارج والأجنبي في المغرب، مع معلومات ومعطيات دقيقة في مجال السياسة الخارجية المغربية خلال ألف عام.

١٨ ـ **وحدة اللغات.**

بحث يدعم بالحجج اللسانية والتاريخية الفكرة القائلة بأن العربية أصل اللغات ٣٠٠ ص).

II مؤلفات مطبوعة باللغة الفرنسية.

١ ـ **أضواء على الإسلام أو الإسلام في ينابيعه.**

(الإسلام من خلال القرآن والحديث).

(الطبعة الثانية تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب الأقصى ـ ١٩٧٥).

٢ ـ **الفكر الإسلامي والعالم المعاصر.**

طبعة سونير(Sonir) بالدار البيضاء ١٩٨٠.

يجد طبعها الآن في المملكة العربية السعودية من طرف اتحاد إدارات الإفتاء بالرياض.

٣ ـ **الحقيقة حول الصحراء.**

طبعة هورفات (Horvath) بفرنسا ١٩٧٧.

٤ ـ **الفن المغربي.**

طبعة جامعة محمد الخامس ١٩٥٨.

٥ ـ **التيارات الكبرى للحضارة المغربية.**

مطبعة ميدي (Midi) بالدار البيضاء ١٩٥٧.

٦ ـ **مجلة (القدس).**

الإشراف على تحرير دوريته باللغة الفرنسية حول الفكر الإسلامي وتحديات العصر.

بعض المؤتمرات التي شارك فيها:

١ ـ مؤتمر التعريب الأول (الرباط ١٩٦١).

٢ ـ مؤتمر التعريب الثاني (الجزائر ١٩٧٣).

٣ ـ مؤتمر التعريب الثالث (طرابلس ـ ليبيا ١٩٧٧).

٤ ـ مؤتمر التعريب الرابع (طنجة ١٩٨١).

٥ ـ المؤتمر الإسلامي المسيحي بقرطبة (الدورتان الأولى والثانية) ١٣٩٥ ـ ١٣٩٨هـ) (١٩٧٥ ـ ١٩٧٧م).

٦ ـ المؤتمر الإسلامي المسيحي بتونس ١٣٩٧ هجرية (١٩٧٦ ميلادية).

٧ ـ المؤتمر الدولي للبحر الأبيض المتوسط (فلورانسة: ١٣٩٤ هجرية الموافق ١٩٧٤ ميلادية).

٨ ـ المؤتمر الإسلامي اليهودي المسيحي (ديرسونانك بفرنسا): تسعة علماء من العالم منهم ثلاثة علماء مسلمون.

٩ ـ مؤتمر التعليم العالي ببغداد ١٣٩٩ هجرية (١٩٧٨ ميلادية).

١٠ ـ المؤتمر الإسلامي بنواكشوط ١٣٩٨ هجرية ١٩٧٧ ميلادية).

١١ ـ مؤتمر المسجد بجدة ١٣٩٧ هجرية (١٩٧٦ ميلادية).

١٢ ـ لقاء إسلامي بالجزائر١٣٩٤ هجرية (١٩٧٤ ميلادية).

١٣ ـ مؤتمر إسلامي بداكار١٣٩٥ هجرية (١٩٧٦ ميلادية).

١٤ ـ مؤتمر علماء الاجتماع (هامبورغ عام ١٣٨٠ هجرية ١٩٦٠ ميلادية). (ممثلاً عن العالم الإسلامي بإشراف اليونسكو).

١٥ ـ لقاء إسلامي مسيحي بفاس عام ١٤٠٠ هجرية (١٩٧٩ ميلادية).

١٦ ـ مؤتمر بنوك الكلمة في كندا ونيويورك وموسكو ١٤٠٠ هجرية (١٩٧٩م).

١٧ ـ مؤتمر السيرة النبوية في قطر عام ١٤٠٠ هجرية (١٩٧٩ ميلادية).

١٨ ـ مؤتمر اتحاد الجامعات العربية بالرياض ١٤٠٠ هجرية (١٩٧٩م).

١٩ ـ مؤتمر عالمي في بانكوك بإشراف اليونسكو (الإسلام وحقوق الإنسان) كممثل عن الإسلام في افريقيا والغرب الإسلامي ١٤٠٠ هجرية (١٩٧٩ ميلادية).

٢٠ ـ عضو في الوفد المغربي في هيئة الأمم عام١٣٨٠ هجرية (١٩٦٠م). وفي اليونسكو ١٣٩٢ هجرية (١٩٧٢ ميلادية).

٢١ ـ أربعة مؤتمرات وزراء التربية في الوطن العربي أعوام ١٣٩٢ هجرية (١٩٧٢ ميلادية) ١٣٩٤ هجرية (١٩٧٤ ميلادية) ١٣٩٦ هجرية (١٩٧٦ ميلادية) ١٣٩٩ هجرية (١٩٧٨ ميلادية).

٢٢ ـ مؤتمر تعريب العلوم في (مانشستر) (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).

٢٣ ـ مؤتمرات المجلس التنفيذي والمؤتمرات العامة السنوية للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

بعض الجامعات التي حاضر فيها عن الإسلام ولغة القرآن

١ ـ أكاديمية العلوم بموسكو ١٣٩٢ هجرية (١٩٧٢ ميلادية) حول (مستقبل لغة القرآن) وحول (العدالة الاجتماعية في ظل الإسلام).

٢ ـ جامعة هالي بألمانيا الشرقية ١٣٩٢ هجرية (١٩٧٢ ميلادية). (مستقبل اللغة العربية).

٣ ـ معهد الدراسات العربية بالقاهرة عام ١٣٩٥ ـ ١٤٠٠ هجرية الموافق (١٩٧٥ ـ ١٩٧٩ ميلادية).

٤ ـ جامعة كراتشي والمعاهد الإسلامية في لاهور ١٣٩٠ هجرية (١٩٧٠ ميلادية).

٥ ـ كلية الشريعة في عمان ١٣٩٩ هجرية (١٩٧٨ ميلادية).

٦ ـ كلية الشريعة بتونس١٣٩٩ هجرية (١٩٧٨ ميلادية).

٧ ـ المعهد الإسلامي ببيروت ١٣٩٥ هجرية (١٩٧٥ ميلادية).

٨ ـ كلية التربية بطرابلس١٣٩٨ هجرية (١٩٧٧ ميلادية).

٩ ـ جامعة الكويت ١٣٩٥ هجرية (١٩٧٥ ميلادية).

١٠ ـ الديوان الأميري «أبو ظبي» ١٣٩٦ هجرية (١٩٧٦ ميلادية ـ محاضرة عامة ـ.

١١ ـ كلية الآداب بالخرطوم ١٣٩٩ هجرية (١٩٧٨ ميلادية).

١٢ ـ معهد (إيفان) بداكار عام ١٣٩٨ هجرية (١٩٧٧ ميلادية) محاضرات حول الفكر الإسلامي وتحديات العصر.

١٣ ـ جامعة القرويين ـ فاس (ندوة الإمام مالك) ١٤٠٠ هجرية (١٩٨٠ ميلادية).

١٤ ـ جامعة (باث) (إنجلترا).

عضوية الموسوعات ودوائر المعارف والدوريات العربية والأجنبية

١ ـ عضو في الموسوعة العربية (القاهرة).

٢ ـ عضو في الموسوعة العربية (لبنان).

٣ ـ عضو لجنة الإشراف على الموسوعة العربية الكبرى بدمشق (برئاسة نائب رئيس الجمهورية).

٤ ـ أمين مجلة **(القدس)**.

٥ ـ مدير مجلة **(اللسان العربي)** لسان جامعة الدول العربية حول التعريب منذ ١٩٨٢ هجرية (١٩٦٢ ميلادية).

٦ ـ عضو عامل في معظم المجلات والدوريات في الوطن العربي وبعض المجلات الأجنبية بأوربا وأمريكا والصين (منها مجلة باليونسكو).

عضوية الجمعيات العالمية والمجامع اللغوية.

١ ـ مستشار منظمة المؤتمر الإسلامي ـ جدة.

٢ ـ عضو الأكاديمية الملكية المغربية ـ الرباط.

٣ ـ عضو المجمع العلمي العراقي ـ بغداد.

٤ ـ عضو مجمع اللغة العربية الأردني ـ عمان.

٥ ـ عضو المجمع العلمي بدمشق.

٦ ـ عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٧ ـ عضو المجمع العلمي الهندي.

٨ ـ عضو مؤسس لجمعية الإسلام والغرب الدولية - جنيف.

٩ ـ عضو منظمة حقوق الإنسان العالمية ـ واشنطن.

١٠ ـ عضو المجلس التنفيذي لاتحاد المترجمين الدولي - وارسو.

١١ ـ نائب رئيس البنك العالمي للكلمات (التابع لليونسكو).

الدكتورة ليلى أنور بدر

Dr. Leila A. Badre

- دكتوراة في علم الآثار

- تعمل في الجامعة الأميركية في بيروت - المتحف.

CURRICULUM VITAE

LEILA BADER

EMPLOYMENT:

1968 - 73	Research Assistant at the AUB Museum. In the meanwhile, attended the IX International Congress of Classical Archaeology in Damascus, 1969. In April 1971, received the «Fondazione Lerici Scholarship» to attend the VIII Corso Internazionale de Prospezioni Archeologiche, in Rome.
1973 - 75	Senior Research Assistant.
October 1, 1975	Appointed Instructor in the Department of History and Archaeology and Acting Curator of the AUB Archaeological Museum. The Curatorship line was cut in 1977 because of financial situation at Aub.
1977 - 79	Appointed as «Pensionnaire Scientifique» à L'Institut Français d'Archéologie de Beyrouth.
1978 - 88	Part - time teaching of Archaeology at the Lebanese University, Beirut.
October 1979 - 91	Appointed Research Associate Curator at the Archaeological Museum, AUB. Kept on teaching one course at the Lebanese University.
1989	Maître de conférence invité à l'Université de Bourgogne - Dijon (three months leave of AUB).
1991	Professeur invité at the Ecole Normale Supérieure de Paris (one month).
1992	Consultant for establishing the department of History and Archaeology at Balamand University.

ARCHAEOLOGICAL EXCAVATIONS:

Tell el - Ghassil (LEBANON) 1968 - 69	With Dr. D. C. Baramki. (Excavation of the American University of Beirut.)
1972 - 74	Co - director of Tell el - Ghassil excavations.
Sarafand (LEBANON) 1969 - 74	With Prof. J. B. Pritchard. (Excavation of the University of Pennsylvania).
Dubai (TRUCIAL STATES) 1969 - 70	Three campaigns with Dr. D. C. Baramki.
Ugarit (SYRIA) 1973	With Cte. H. de Contenson (French Expedition).
Ibn - Hani (SYRIA) 1977 - 79	With Dr. A. Bounni and J. Lagarce. (Joint Franco - Syrian Expedition.)
Arqa (LEBANON) 1978	With J. P. Thalmann. (Excavation of the French Institute of Archaeology, Beirut.)
Hadramout (YEMEN) 1979 - 83	With J. - F. Breton. (French Institute of Archaeology in Beirut.)
Tell Kazel (SYRIA) 1985 - 90	As Director of The American University of Beirut Museum Expedition.

PUBLICATIONS:

Badre L., Bordreuil P., Ajjan L., Mudaress J., Vitale R. — «Notes Ougaritiques I. KERET», in **SYRIA**, LII Paris, **P. Geuthner**, 1976.

Bounni A., Lagarce J. - E., Salibi N., Badre L. — «Rapport préliminiaire sur la troisième compagne de fouilles (1977) à Ibn Hani (Syrie)» **SYRIA** LVI, Paris, P. Geuthner, 1976.

Badre L. — Les Figurines anthropomorphes en terre cuite à l'Age du Bronze en Syrie. B.A.H., LXXXV, Paris, P. Geuthner, 1980.

Badre L. — «Etude de la cèramique», **Le Wadi Hadramawt: Prospections.** Centre culturel et de recherches archéologiques, Aden, 1980.

Badre L., Audouin R., Breton J. - F., Seigne J. — «Le royaume de Hadramawt», **Archaéologia** No. 160/November, Paris, 1981.

Badre L. — «Les figurines anthropomorphes en terre cuite à l'Age du Bronze en Syrie». **Le Monde de la Bible - la Syrie Antique** No. 20, Paris, 1981.

Badre L. — «Tell el - Ghassil: Tomb 1» in **Archéologie au Levant**. Recueil **R**. Saidah. Collection de la Maison de l'Orient Méditerranéen No. 12, Série archéologique, 9, Lyon, 1982.

Badre L. — «Le nom de Liban écrit sur les pierres, l'argile et le papyrus». **Le Livre et le Liban**, Edit. UNESCO, Paris 1982.

Badre L. — «Les figurines en terre cuite de Méskéné Emar» **MESKENE - EMAR. Dix ans de travaux, 1972 - 82**. Paris, Ed. Recherche sur les civilisations, 1982.

Badre L. — «Les peuples de la mer à Ibn Hani, problème de destruction et de ré - occupation». **Atti del I Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici**. Vol. I, Roma 1983.

Badre L. — «The Histoire Fabric of Beirut», **Beirut of Tomorrow**, editor F. Ragette, American University of Beirut, Beirut 1983.

Bounni A., Lagarce J. - E., Salibi N., Badre L. — «Rapport préliminaire sur la quatrième campagne de fouilles (1978) à Ibn Hani. **(SYRIE)»** LVIII, Paris, P. Geuthner, 1981.

Badre L., Khalifeh I. — «Saida Throughout History», Hariri Foundation, Beirut 1986. (Catalogue of Exhibition in Arabic).

Badre L., et. al. — **«Les phéniciens et le monde méditerranéen»**, Brussesls 1986. (Catalogue of Exhibition).

Badre L. — Contribution to **«The Phoenicians»** Bompiani, Milano 1988. (Catalogue of the Exhibition on the Phoenicians in Venice).

Badre L. — Contribution to the **«Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique»**. Article on the following Phoenician items: Loadicée, Tell Kazel, Litani, Banyas, Carne, Paltos, Nahr el - Kelb, Oronte and Ras el - Ayin. Turnhout, 1992.

Badre L., et. al. — «Preliminary Report on the Three archaeological Compaigns 1985 - 87 at Tell Kazel - Syria», **BERYTUS**, vol. XXXVIII, Beirut, 1990.

Badre L. — «Le périmètre archéologique de Tyr», Tyr et la formation des civilisations méditerranéennes, Paris 1992.

Badre L. — «Recent Phoenician Discoveries at Tell Kazel in **Atti del II Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici Vol. II**. Roma 1991.

Badre L. — «Tell Kazel - (Simyrra?): Port maritime ou port fluvial?» Tunis, in press.

Badre L. — «Canaanite Tyre» in **The Heritage of Tyre**, ed. Martha Joukowsky. Smithonian Institution - Washington, 1991.

Badre L. — Final publication of The Figurines of Emar. (French Expedition into Syria) Paris, in press.

Badre L. — Museums in Lebanon, UNESCO Publication, Beirut, 1992.

ليلى بدر — «المتاحف وطرق تغذيتها» في حماية الآثار في لبنان. وقائع الحلقة الدراسية التي نظمتها اللجنة الوطنية للتربية والعلم والثقافة. الألكسو. بيروت، ١٩٩٢.

Badre L. — «Sondage stratigraphique à Shabwa - Hadramout 1976 - 81», LXVIII, **SYRIA**, Pairs, 1991.

Badre L. — Ancient History of Lebanon, In Arabic. In press.

Badre L.	«Techniques of Manufacture of anthropomorphic Terra Cotta Figurines of the Bronze and Iron Ages» in «Art and Technology in Jordan throughout the - Ages». Amman, April 12 - 17, 1992, in press.
Badre L.	«Techniques de construction à Tell Kazel» in Les Maisons dans la Syrie Antique du IIIème millénaire aux débuts de L'Islam. Colloque International, Damas 27 - 30 Juin 1992, in press.

CONFERNCES:

1979	Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici, Roma, November 5 - 10. Paper: «Sea Peoples at Ibn Hani».
1981	XXVIII Rencontre Assyriologique - Vienna, July 6 - 10.
1981	Symposium: «Babylon, Ashur & Haditha» Bagdad, November 14 - 19.
1982	The First International Symposium on the Antiquities of Palestine - Aleppo, Septmber 19 - 24.
1982	The Arabian Persian Gulf from the 5th century B.C. To the 7th century A.D. Lyon, June 28 - July 3rd.
1983	XIII General Confernce of ICOM: «Des musées pour un monde en développement», July 24 - August 2nd, London.
1984	Seminar for Arabian Studies - Cambridge, July 17 - 19th.
1984	Colloque on phoenician Religion - Namur, December 14 - 15th.
1985	Géographie historique au Proche - Orient - Valbonne, September 15 - 21.
1986	XIV General Confernce of ICOM, «Museums and the Future of our Heritage» - Buenos Aires, October 26 - November 4th.
1986	Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici. Roma, November 9 - 15. Paper «Recent Phoenician Discoveries at Tell Kazel».
1988	Symposium on The Heritage of Tyre - at Smithonian Institution, Washington D.C., January 29, 1986. Paper delivered by L. Badre on «Pre - Phoenician and Phoenician Tyre».
1989	«Syria - Palestine during the Persian Period.» Paris, March 20th 23 rd.
1989	«Perception de la médeterranée à travers les cartes et le récits des voyageurs». Paper delivered by L. Badre: «Tell Kazel - (Simyrra?): Port maritime ou port fluvial?» Tunis, October 24th - 29th.
1990	ICMAH (International Council for Museums of Archaeology and History) Confernce: «The Changes of the Cultural Lanscape» - Aarhus - Denmark, October 7th - 12th.
1990	Tyr et la formation des civilisations méditerranéennes, Paris, November 6th. Paper delivered by L. Badre «Le périmètre archéologique de Tyr».

SOCIETIES & COMMITTEES:

1980	Founder of the Society of the Friends of the American University of Beirut Museum.
1980 - 92	Advisor to the Museum Society and to its publication «The Newsletter».
1980 - 92	Member of International Council of Museums (ICOM).
1983 - 92	Member of International Council of Museums of Archaeology and History (CMAH).
1991 - 92	Appointed member of the National Committee for Preservation of Lebanese Heritage.

EXHIBITIONS:

1980	«Shells, the Murex Shell and the Phoenician Purple Dye» with the collaboration of Mr. Joseph Doumet. AUB Museum, May 12 - June 6th.
1981	«Six Years of Near Eastern Excavations in Lebanon, Syria, Jordan and South Yemen, by the French Institute of Archaeology in the Near East» in collaboration with the French Institute of Archaeology in the Near East. AUB Museum, January 23.

1982 «Islamic Coins & The Islamic Architecture of Lebanon» in collaboration with the AUB Arab Heritage Club and The Islamic Foundation for Culture and Higher Education. AUB Museum, May 21 - June 19th.

1983 «Beirut & Lebanon Photographs from the Last Century» in collaboration with the Harvard Semitic Museum. AUB Museum, May 23 - 30th.

1985 «The Birth of Writing» in collaboration with the Louvre Museum. AUB Museum, May 28 - June 15th.

1984 Contribution to the Exhibition:
«Lebanon: Land & People». Toronto, October 18 - 28th.

1986 Contribution to the Exhibition:
«Les Phéniciens et le monde méditerranéen». Brussels, March 6 - May 6th.
Luxembourg, May 21 - July 6th.

1988 Contribution to the Exhibition:
«I Fenice». Palazzo Grassi. Venice, March 6 - November 6th.

1991 «Demarcating Lines» by the Department of Architecture MIT in collaboration with the Department of Architecture at AUB and the AUB Museum.

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS



Office of the General Secretary
Iraq - Baghdad - P.O. Box 4085
Cable: MOARKHEEN Baghdad